

مكتبة الجاهل  
أبي عثمان عمرو بن بحر الجاهل  
٢٥٥ - ١٥٠

بمختار  
عبد السلام محمد هارون

# رسائل الجاهل

## المجلد الأول

- 
- |                             |                                  |
|-----------------------------|----------------------------------|
| ١ - مناقب الترك             | ٦ - في نفى التشبيه               |
| ٢ - المعاش والمعاد          | ٧ - في كتاب الفتيا               |
| ٣ - كتمان السر وحفظ اللسان  | ٨ - إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب |
| ٤ - نحر السودان على البيضان | ٩ - فصل ما بين العداوة والحسد    |
| ٥ - في الجدل والهزل         | ١٠ - صناعات القواد               |

الناشر  
مكتبة الخزانة بالقاهرة



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تقديم

كتبتَ إلىَّ - حفظك الله - أن أسعى سعيًا حثيثًا في إظهار ما بقي من آثار شيخنا الجاحظ ، وزعمتَ أنَّى شغلت عنه بغيره . وكدت أن تلومنى لما فرطت في جنب أبي عثمان فيما رأيت .

وإخالك عرفتَ بعض الحقِّ ولم تَظهر عليه كلُّه ؛ فإن الحقَّ يبدو أحيانًا في بعض الأمر أبلغ وانحًا ، وفي بعض الأمر يخفى وجهه حينًا فما تكاد تتبينه إلا بعد التعرف والتصفح . فإننى لم أفارق آثار أبي عثمان منذ شذوت ، ولا تزال تلك من همى ووكدى ، ما بين قراءةٍ فيها وتنقيح ، وتجليه وتصحيح ، حتى أذيع منها بين الناس ما يستطيعه الجهد ، ويسمح به الزمان .

وقد بعثتُ له من قبل كتبًا ثلاثة ضخامًا ، بذلت فيها عصارة النفس وماء الشباب ، وكان ذلك لنفسي صنيعةً أعتزُّ به وتشملنى به الغبطة ، لما علمت أن المنصفين من الأدباء قد تلقَّوه بترحيب صادق ، وتقدير كريم .

وما كان بى - أيدك الله - إلا أن أعدَّ أصول ما بقي من آثار الجاحظ وأروزها ، وأنظر للصورة التى ينبغى أن تبدو فيها . فوجدتُنى بين خليط من المخطوطات والمطبوعات ، ووجدت فيما وجدت مجموعة رسائل الجاحظ المحفوظة بمكتبة «دأماذ إبراهيم» ، غنية بآثار الجاحظ ، بعضها لم تظهر بعد عليه عيون جمهرة الأدباء .

فرأيت أن أقوم بنشر هذه المجموعة كاملة في مجلدين مستقلين لهما فهارسهما الفنية الخاصة ، ريثما تتاح لي الفرصة أن أكمل جمع سائر الرسائل المفرقة التي لم تحوها هذه المجموعة ، ومنها مختارات عبيد الله بن حسان ، التي كان لها فضل في تحقيق كثير من نصوص مجموعة داماد ، ومنها رسائل مضمنة بطون الكتب ، كما في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، وطراز المجالس للشهاب الخفاجي ، وجمع الجواهر للحصري ، وغير ذلك من كبير الكتب وصغيرها .

### مجموعة داماد وهي نسخة الأصل

كان من المهام الجليلة التي اضطلع بها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية أن أتاح الفرصة للباحثين في الحصول على مصورات المخطوطات المتناثرة في المكتبات العامة ، ومنها مكتبات تركيا ، التي حوت مقداراً ضخماً من أنفس الكتب العربية .

وكان مما أسعدني أن أعثر على هذه المجموعة الجليلة القدر التي صورها معهد المخطوطات بعناية الأخ رشاد عبد المطلب من مكتبة ( داماد إبراهيم <sup>(١)</sup> ) بتركيا . ورقمها في مكتبة داماد هو ٩٤٩ ، وفي معهد المخطوطات ف ٩٤٣ من ١٨٥ .

ويحمل صدر هذه النسخة رسم خاتمين :

الخاتم الأعلى كبير ، وقراءته :

---

(١) الداماد في اللغة التركية : زوج البنت ، كما يقال لزوج الأخت « أنشته » .

« هذا مما وقفه . . . . . صاحب الخير والحسنة ، الصدر الأعظم والصهر الأنعم إبراهيم باشا يسّر الله له بالخير ما يشاء وزيراً لحضرت السلطان الغازى أحمد خان خلعت خلافته إلى انقراض الدورات » .

والخاتم الأسفل صغير ، وقراءته :

« بونسخة وقفندر داماد إبراهيم باشانك » .

وتفسيره : هذه النسخة من وقف داماد إبراهيم باشا .

وليس لهذه النسخة تاريخ ، وإن كان المرجح أن خطها من خطوط القرن السادس ، كتبت بالخط النسخى المشرب ببعض قواعد الخط الفارسى ، كما يتضح ذلك فى رسم بعض صنوف الهاء ، وصنوف السين ، وصنوف اللام ، مع إغفال بعض النقط ، ومع ضبط قليل ذاهب فى الغدرة .

وهى فى ٢٣٩ ورقة، منها ١٩ ورقة مفقودة فى أولها . وبالصفحة ٢٢ سطراً ، فى كل سطر نحو ١١ كلمة .

ويتبدى ترقيم أوراقها بالورقة ٢٠ . وهذا يفسّر ما صنعت من بدء ترقيم نسختي هذه برقم ( ٢٠ ظ ) الذى أثبتته فى ص ٥ من هذا المجلد تعبيراً عن أرقام الأصل التى حرصت على إثباتها فى جنبات هذه النشرة . وقد أشرت إلى ذلك فى مقدمة الرسالة الأولى فى ص ٣ .

وربما كانت الرسالة المفقودة التى كانت فى صدر المجموعة هى « كتاب حكاية عثمان الخياط فى اللصوص ووصاياهم » التى يعزّ وجود أصل لها . وذلك أن داود الجلبى فى كتابه ( مخطوطات الموصل ص ٢٦٤ ) ذكر مجموعة من رسائل للجاحظ كانت محفوظة فى مكتبة أمين بن أيوب الجلبى تطابق

في عنوانات رسائلها مجموعة داماد وتزيد عليها في أولها « حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياهم ». ومن المؤسف أن مجموعة أمين الجليلي قد فقدت بعد وفاته ، كما ورد في مقدمة مجموع رسائل الجاحظ لسكراوس والهاجرى ص (و) . ويبدو كذلك أنه قد تجهل قديماً هذا النقص ، وابتدأ المجلد برسالة فضائل الأتراك ، وترقيمها في النسخة ( ٢٠ و ) أى وجه الورقة ٢٠ ، وجعل عنوانها وجهاً للمجلد ، وسردت تحت هذا العنوان محتويات المجلد بخط مخالف على الوضع التالى . وقد أثبتنا هنا بلفظها ، والترقيم لى :

- ١ — كتاب فضائل الأتراك<sup>(١)</sup> لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .
- ٢ — رسالة كتبها إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق الحمودة .
- ٣ — كتاب كتان السر وحفظ اللسان .
- ٤ — رسالة المعاش والمعاد في الأدب .
- ٥ — كتاب نحر السودان على البيضان .
- ٦ — رسالة في الجد والمزى .
- ٧ — رسالة في نفي التشبيه .
- ٨ — رسالة في معنى كتابه في الفتيا .
- ٩ — رسالة إلى أبى الفرج بن نجاح الكاتب تصنيف أبى عثمان .
- ١٠ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد .
- ١١ — رسالة في ذم القواد .

---

(١) ذكر بروكلمان في كتابه ٣ : ١١٥ من الترجمة العربية أنها ترجمت إلى التركية .

١٢ — رسالة في النابتة إلى أبي الوليد .

١٣ — كتاب الحجاب .

١٤ — كتاب مفاخرة الجوارى والعلمان .

١٥ — كتاب القيان .

١٦ — كتاب ذم أخلاق الكتّاب .

١٧ — كتاب البغال

١٨ — كتاب الحنين إلى الأوطان .

وظاهر هذا الفهرست أن بالمجموعة ١٨ رسالة وكتاباً . ولكن عند التحقيق ظهر لى أن عددها ١٧ لا ١٨ ؛ لأن الرسالة الثانية ، وهى رسالة « الأخلاق الحمودة والمذمومة » هى بعينها الرسالة الرابعة « رسالة المعاد والمعاش فى الأدب » أو بعبارة أدق : نسخة أخرى منها . وقد رجّحت لها التسمية الأخيرة الواردة فى النسخة الثانية ، أى « رسالة المعاد والمعاش » وبيّنت ذلك فى مقدمتها ص ٩٠ .

وعلى ذلك صارت الرسالة الخامسة فى هذا الفهرست تحمل رقم ٤ والسادسة فيه تحمل رقم ٥ ، ويتناقض الترقيم حتى يصير آخر الرسائل برقم ١٧ . وقد قدّمت لكل رسالة أو كتاب من هذه المجموعة بمقدمة أوضحت فيها تاريخ نشرها إن كانت قد نشرت من قبل ، أو نبّهت على أنها تنشر للمرة الأولى .

وستظهر هذه المجموعة ، فى جزأين ، يلحق بالثانى منهما ( الفهارس الفنية ) لهما معاً . إن شاء الله تعالى .

## المجموعات التي نشرت من قبل

واستكمالاً لدراسة تاريخ نشر رسائل الجاحظ أشير هنا إلى مجموعات من رسائل نشرت من قبل ، وبعضها يتضمن شيئاً مما في هذه المجموعة ، أعنى مجموعة داماد .

### أولاً :

مجموعة فان فلوتن . وعنوانها ( ثلاث رسائل لأبي عثمان بن بحر الجاحظ البصرى ) . طبعت بمطبعة بريل بمدينة ليدن بهولاندا سنة ١٩٠٣ م . وتشمل :

١ — رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة

ص ١ — ٥٦

٢ — كتاب فخر السودان على البيضان

٣ — كتاب الترييع والتدوير

وقد قام بإكمال العمل في هذه المجموعة وتنقيحها ونشرها المستشرق

دى جويه : M. J. de Goeje

### ثانياً :

مجموعة الفصول المختارة ، اختيار عبيد الله بن حسان . طبعت على هامش كامل المبرد سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٤ في جزأين :

١ — من كتابه في الحاسد والمحسود

٢ — من كتابه في المعلمين

٣ — من رسالته إلى الحسن بن وهب في مدح النبيذ وأصحابه

٤ — من كتابه في طبقات المغنين

٥ — من كتابه في النساء



- ٦ — من رسالته إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك ١٦٦ : ١
  - ٧ — من كتابه في حجج النبوة ٢٧٥ : ١ إلى ١١٧ : ٢
  - ٨ — من كتابه في خلق القرآن ١١٧ : ٢
  - ٩ — من كتابه في الرد على النصارى ١٤٨ : ٢
  - ١٠ — من رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة ١٩٩ : ٢
  - ١١ — من كتابه في استحقاق الإمامة <sup>(١)</sup> ٢١٢ : ٢
  - ١٢ — من رسالته في استنجاز الوعد ٢٢٠ : ٢
  - ١٣ — من رسالته في تفضيل النطق على الصمت ٢٢٧ : ٢
  - ١٤ — من كتابه في صناعة الكلام ٢٣٨ : ٢
  - ١٥ — من رسالته في مدح التجارة وذم عمل السلطان ٢٤٦ : ٢
  - ١٦ — صفات الشارب والمشروب ٢٥١ : ٢
  - ١٧ — من رسالته في استحقاق الإمامة ٢٦٩ : ٢
  - ١٨ — من مقالة الزيدية والرافضة ٢٩١ : ٢
- وهذه النسخة ينقصها كثير مما في النسخة التيمورية ، ونسخة المتحف البريطاني ، فهي مجموعة من الاختيار مبتورة .

### ثالثاً :

مجموعة محمد ساسى ، وعنوانها ( مجموعة رسائل لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الأستاذ أبي عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ ) .  
 طبعت بمطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٥ .  
 وقد أعاد فيها ما طبع في مجموعة فان قلو تن ، وضم إليها ثمانى رسائل  
 أخرى فصارت كلها على الوضع التالى :

---

(١) كذا . ويبدو أنه كتاب آخر .

- ١ — رسالة في الحاسد والمحسود ص ٢ — ١٣<sup>(١)</sup>
- ٢ — رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ص ٢ — ٥٣
- ٣ — كتاب نحر السودان على البيضان ص ٥٤ — ٨١
- ٤ — كتاب التربيع والتدوير ص ٨٢ — ١٤٧
- ٥ — في تفضيل النطق على الصمت ص ١٤٨ — ١٥٤
- ٦ — في مدح التجار وذم عمل السلطان ص ١٥٥ — ١٦٠
- ٧ — في العشق والنساء ص ١٦١ — ١٦٩
- ٩ — في استنجاز الوعد ص ١٧٣ — ١٧٧
- ١٠ — في بيان مذهب الشيعة ص ١٧٨ — ١٨٥
- ١١ — في طبقات المغنين ص ١٨٦ — ١٨٩

#### رابعاً :

مجموعة يُوشع فينكل : J Fiukel

وعنوانها : ( ثلاث رسائل لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ )  
وهو موافق لعنوان مجموعة فان فلوتن . طبعت في المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ هـ  
وقد جعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء ، التي كان يصدرها الأستاذ  
محب الدين الخطيب ، إلى قرائها في سنتها الثانية . وتشمل هذه المجموعة ثلاث  
رسائل :

- ١ — المختار من كتاب الرد على النصارى<sup>(٢)</sup> من ص ٩ — ٣٨
- ٢ — ذم أخلاق الكتاب من ص ٣٩ — ١٥
- ٣ — رسالة القيان من ص ٥٢ — ٧٥

(١) هكذا بأرقام صفحات مستقلة .

(٢) وهي من اختيارات عبيد الله بن حسان .

والرسالتان الأخيرتان منشورتان عن أصل بمكتبة نور الدين مصطفى  
برقم ١٠٠ وهو أصل يعد الآن مفقوداً .

خاصاً :

مجموعة ريشر : Rescher نشرت في مدينة شتوتجارت سنة ١٩٣١  
وهي مقتطفات وترجمات من آثار الجاحظ إلى جانب نصوص أصيلة أخرى له  
لم تنشر من قبل ، كما ذكر بروكلمان ٣ : ١١٠ من الترجمة العربية .  
ولم يتيسر لي الوقوف عليها لأنني لم أعر عليها في المكتبات العامة بمصر ،  
وقد أمكنني أن أتقرب ترتيبها وجمعها من مواضع متفرقة متشعبة من كتاب  
بروكلمان على الوضع التالي :

- |                                    |             |
|------------------------------------|-------------|
| ١ — دراسة لمحتويات البيان والتبيين | ص ٢٢ — ٤٠   |
| ٢ — الرد على النصارى               | ص ٤٠ — ٦٧   |
| ٣ — ذم أخلاق الكتاب                | ص ٦٧ — ٧٨   |
| ٤ — رسالة القيان                   | ص ٧٨ — ١٠٠  |
| ٥ — رسالة في المعلمين              | ص ١٠١ — ١٠٨ |
| ٦ — في ذم اللواط                   | ص ١٠٨       |
| ٧ — في مدح النبيذ وصفة أصحابه      | ص ١١١       |
| ٨ — حجج النبوة                     | ص ١١٢ — ١٥٩ |
| ٩ — صناعة الكلام                   | ص ١٥٩ — ١٦٣ |
| ١٠ — الشارب والمشروب               | ص ١٦٣ — ١٦٨ |
| ١١ — استحقاق الإمامة               | ص ١٦٨ — ١٧٩ |
| ١٢ — الحاسد والمحسود               | ص ١٨٠ — ١٨٢ |
| ١٣ — تفضيل النطق على الصمت         | ص ١٨٢ — ١٨٦ |

ص ١٨٦ — ١٨٨	١٤ — مدح التجارة وذم عمل السلطان
ص ١٨٨ — ١٩٤	١٥ — العشق والنساء
ص ١٩٤ — ١٩٥	١٦ — الوكلاء
ص ١٩٥ — ١٩٦	١٧ — في استنجاز الوعد
ص ١٩٧ — ٢٠٤	١٨ — مذاهب الشيعة
ص ٢٠٤ — ٢٠٦	١٩ — طبقات المغنين
ص ٢٠٧ — ٢١٠	٢٠ — فضائل الأتراك ( محتوياته )
ص ٢١٠ — ٢١٢	٢١ — نجر السودان
ص ٢١٢ — ٢٥٥	٢٢ — التربيع والتدوير
ص ٢٥٧	٢٣ — تهذيب الأخلاق
ص ٢٦٧ — ٤٨٤	٢٤ — قطعة من البخلاء
ص ٤٨٨	٢٥ — الحنين إلى الأوطان
ص ٥٢٧	٢٦ — في ذم القواد
ص ٥٣٣ — ٥٥٠	٢٧ — الحجاب وذمه
ص ٥٥٠	٢٨ — في وصف العوام
ص ٥٥٢ وما بعدها	٣٩ — الأخبار

ساراً :

مجموعة حسن السندوبي بعنوان ( رسائل الجاحظ ) طبع الرحمانية سنة ١٣٥٢ هـ : ١٩٣٣ م . ذكر في مقدمتها أنها « منتقاة من كتب الجاحظ ومن كتب أخرى أكثرها في متناول الأيدي . وهذه الرسائل في التاريخ والأدب

والاجتماع والجدل . وقد ألحقنا بها طائفة صالحة من رسائله الخاصة التي يسميها العرف الإخوانيات .

ولم يشر الأستاذ السندوبي إلى أصل ما مما نشر عنه هذه المجموعة ، وتشتمل مجموعته على :

- ١ — خلاصة كتاب العثمانية ص ١ - ١٢ . وقد أتبعها بملخصة نقض العثمانية لأبي جعفر الإسكافي ص ١٣-٦٦ . وقد كتبت عنها في مقدمة العثمانية .
- ٢ — من كتاب فضل هاشم على عبد شمس ٦٧ - ١١٦
- ٣ — » » حجج النبوة ١١٧ - ١٥٤
- ٤ — » » الحجاب ١٥٥ - ١٨٦
- ٥ — » » الترييع والتدوير ١٨٧ - ٢٤٠
- ٦ — » » استحقاق الإمامة ٢٤١ - ٢٥٩
- ٧ — » رسالته في صناعة القواد ٢٦٠ - ٢٦٥
- ٨ — » كتابه في النساء ٢٦٦ - ٢٧٥
- ٩ — » رسالته في الشارب والمشروب ٢٧٦ - ٢٨٤
- ١٠ — » » في مدح النبيذ ٢٨٥ - ٢٩١
- ١١ — » » في بنى أمية ٢٩٢ - ٣٠٠
- ١٢ — » كتابه في العباسية ٣٠٠ - ٣١٦
- ١٣ — » رسائله الخاصة ٣٠٣ - ٣١٥

وهذه الرسائل الخاصة الأخيرة ست رسائل :

رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة ، وأخرى في ذم الزمان ،  
ورسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، وأخرى إلى أحمد بن أبي ذؤاد ، وغيرها  
لإبراهيم بن المدبر ، ورسالة أخيرة كتب بها معاتباً .

سابعاً :

مجموعة ياول كراوس وطه الحاجري ، وعنوانها ( مجموع رسائل الجاحظ )  
طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٣ . وهي نشرة علمية جيدة ، وبها :

١ — رسالة المعاد والمعاش ص ١ — ٣٦

٢ — كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ٣٧ — ٦٠

٣ — رسالة في الجد والهزل ٦١ — ٩٨

٤ — رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ٩٩ — ١٢٤

وإني لأزجي الشكر صادقاً إلى الأخ السيد ( محمد نجيب أمين الخانجي )  
لتيسيره نشر سلسلة هذه الرسائل وغيرها من نفائس التراث العربي ، مقتدياً  
في ذلك بوالده المغفور له السيد ( أمين الخانجي ) ، الذي يحفظ له التاريخ سبقاً  
مبكراً بارعاً إلى إحياء كثير من المخطوطات العربية التي أولاها عنايته وإخلاصه .

\* \* \*

وأما بعد ، فإني أرجو أن أوفق - بعون الله - حينما أفرغ من نشر هذه  
المجموعة ( مجموعة داماد ) محققة على النهج الذي جريت عليه في نشر الحيوان  
والبيان والعثمانية - أن أتم نشر ما بقي من رسائل الجاحظ في أجزاء لاحقة .  
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

مصر الجديدة { ٢٣ من جمادى الأولى ١٣٨٤  
٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦٤ } عبد السلام محمد هارون





صورة الصفحة الأولى من مجموعة دالاد



الصفحة الأخيرة من مجموعة دالاد



# ١ مَنَاقِبُ التُّرْكِ

رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه هي الرسالة الأولى من مجموعة رسائل الجاحظ نسخة مكتبة داماد ، وعنوانها في المجموعة « فضائل الأتراك » . وقد اخترت لها العنوان الذي في سائر المراجع الرموز لها بالرموز التالية :

م = مختارات فصول الجاحظ لعبيد الله بن حسان ، نسخة للتحف البريطاني للأخوذ منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ .

ف = الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، المطبوعة بهامش كامل البريد طبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٤ . وتختلف عن النسخة السابقة .

ن = ثلاث رسائل للجاحظ نشر فان فلوثن . طبع ليدن ١٩٠٣ .

س = مجموعة رسائل للجاحظ نشر الساسي .

كما جعلت الرمز « ب » لبقية النسخ إذا انفردت نسخة من النسخ السابقة بصورة من النص يخالف أخواتها .

وهذه الرسالة تستغرق من الأصل مابين الورقة ٢٠ والورقة ٤٩ . وقد أثبت أرقام هذه الأوراق على جنبات الكتاب تيسيراً للرجوع إلى الأصل .

وأكرر التنبيه هنا أن هذا الترقيم هو الترقيم الذي ورد في النسخة ، وأنه ترقيم مسلسل مع كتاب آخر غير مجموعة داماد سابق عليها .

والفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسي ، وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الدكاء ، وكانت له خزانة كتب حافلة ، وله مؤلفات منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجراح ، وكتاب الروضة والزهر . وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ . وهو غير الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان صاحب قلائد العقيان .

انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ - ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ - ١٥٤ .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠ ظ

وَقَفَّكَ اللَّهُ لِرُشْدِكَ ، وَأَعَانَ عَلَى شُكْرِكَ ، وَأَصْلَحَكَ وَأَصْلَحَ عَلَى يَدَيْكَ ،  
وَجَعَلْنَا وَإِيَّاكَ مَنْ يَقُولُ بِالْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ ، وَيُؤْثِرُهُ وَيَحْتَمِلُ مَا فِيهِ [عَمَّا قَدْ يَصُدُّهُ  
عَنْهُ<sup>(١)</sup>] ، وَلَا يَكُونُ حُظَّهُ مِنْهُ<sup>(٢)</sup> الْوَصْفَ لَهُ وَالْمَعْرِفَةَ بِهِ ، دُونَ الْحَثِّ عَلَيْهِ  
وَالْإِقْطَاعِ إِلَيْهِ ، وَكُشِفَ الْقِنَاعُ فِيهِ ، [وَأِيصَالُهُ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَحَافِظَةِ  
فِي الْأَيَّامِ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَالتَّثَبُّتُ فِي تَحْقِيقِهِ لَدَيْهِمْ<sup>(٣)</sup>] ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْلَمْ  
النَّاسَ لِيَكُونُوا عَامِلِينَ دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ ، بَلْ عَلَّمَهُمْ لِيَعْمَلُوا ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ  
لِيَتَّقُوا التَّوَرُّطَ فِي وَسْطِ الْخَوْفِ ، وَالْوُقُوعَ فِي الْمَضَارِّ<sup>(٤)</sup> ، وَالتَّوَسُّطَ فِي الْمَهَالِكِ .

[فَلِذَلِكَ<sup>(٥)</sup>] طَلَبَ النَّاسُ التَّبَيُّنَ ، وَلَحَبَّ السَّلَامَةَ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَالرَّغْبَةَ  
فِي الْمُنْفَعَةِ ، احْتَمَلُوا ثِقَلَ الْعِلْمِ ، وَتَعَجَّلُوا مَكْرُوهُ الْمَعَانَاةِ . وَلَقَلَّةِ الْعَامِلِينَ وَكَثْرَةِ  
الْوَاصِفِينَ [قَالَ الْأَوَّلُونَ : الْعَارِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاصِفِينَ ، وَالْوَاصِفُونَ أَكْثَرُ  
مِنَ الْعَامِلِينَ . وَإِنَّمَا<sup>(٦)</sup>] كَثُرَتِ الصِّفَاتُ وَقَلَّتِ الْمَوْصُوفَاتُ ، لِأَنَّ ثَوَابَ  
الْعَمَلِ مُؤَجَّلٌ ، وَاحْتِمَالُ مَا فِيهِ مُعَجَّلٌ .

(١) ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) في الأصل « فيه » ، وأثبتت ما في ف ، ن ، س .

(٣) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

(٤) في الأصل و س : « ليتقوا ولخوف الوقوع في المضار » .

(٥) التكملة من م ، ف .

(٦) التكملة من م ، ف ، ن ، س .

وقد أعجبنى ما رأيتُ من شَغَفِكَ بطاعة إمامك ، والحماة لتدبير خليفتك ، وإشفاقك من كل خلل وخلّة دخل على مُلكك وإن دق<sup>(١)</sup> ، ونال سُلطانَه وإن صغر ، ومن كل أمر خالفه وإن خفي مكانه ، وجانب رضاه وإن قل ضرره ؛ ومن تحوُّفك أن يجد المتأوِّلُ إليه طريقاً<sup>(٢)</sup> والعدوُّ عليه متعلّقاً ؛ فإنَّ السُلطانَ لا يخلو من متأوِّلٍ ناظم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زارٍ<sup>(٣)</sup> ، ومن متعطِّل متصفّح ، ومن مُعجَب برأيه ذى خطا في بيانه ، مولع بتهجين الصواب ، وبالاغتراض على التدبير ، حتّى كأنّه رائدٌ لجميع الأُمّة ، ووكيلٌ لسكان جميع المملكة ؛ يَضَع نفسه في موضع الثّقباء ، وفي موضع التصفّح على الخلفاء والوزراء ؛ لا يعذّر وإن كان تجاز العذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشكّ محتملاً ، ولا يُصدّق بأنّ الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنّه لا يعرف مصادر<sup>(٤)</sup> الرأى من لم يشهد موارده ، ومُستدبره من لم يعرف مُستقبله . ومن محروم قد أضغنه الحرمان<sup>(٥)</sup> ، ومن لثيم قد أفسده الإحسان . ومن مستبطئ قد أخذ أضعاف حقّه ، وهو لجهله بقدره ، ولضيّق ذُرعه وقلة شكره ، يظنُّ أن الذى بَقِيَ له أكثر ، وأنَّ حقّه أوجب . ومن مستزيد

٢١ و

(١) م ، ف : « من كل خلل يدخله وإن دق » ن : « من كل خلل دخل على ملكه وإن دق » .

(٢) المراد بالتأوِّل المتعلل الذى يتلصص علة وتأويلا لقيامه على السُلطان .

(٣) فى الأصل : « عن الحكمة » ، وأثبت ما فى ب . والزارى ، من قولهم : زرى عليه زرى زريا وزراية : عابه وعاتبه .

(٤) فى الأصل : « مصداق » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) أضغنه : حمّله على الضعن والحمد . وفى الأصل : « أضغنه » ، صوابه فى سائر النسخ .

لو ارتجع السلطان<sup>(١)</sup> سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه ، لكان لذلك أهلاً ، وله مستحقاً . قد غرّه الإملاء<sup>(٢)</sup> ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ . ومن<sup>(٣)</sup> صاحب فتنة خامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نفاق في الهرج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صفوه ثفاف الأدب<sup>(٤)</sup> ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيط لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشنى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأمانى ، ولا يأنس إلا بكلل مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وخارص لا خير فيه<sup>(٥)</sup> ، وخالف لا غناء عنده ، يريد أن يسوى بالكفاة ، ويرفع فوق الحماة ؛ لأمر [ ما ] سلف له ، ولإحسان كان من غيره ، وليس ممن يرب قديماً بحديث<sup>(٦)</sup> ، ولا يحفل بدروس شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازلها .

(١) في الأصل : « لو ارتجع للسلطان » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) في الأصل وف : « الأصل » .

(٣) كلمة « من » ساقطة من الأصل ون و س .

(٤) الصغور . الميل في الأصل : « صغره » م ، ف : « صغره » ، وأثبت ما في س ، ن .

(٥) الخارص : الكاذب ، يقال خرس وخرص وخرص وخرص . ورجل خراص : كذاب . وفي التزليل العزيز : « قتل الخراصون » س ، ن « حارص » بالمهمله ، تحريف .

(٦) ربه به : أصلحه وطيبه .

ثم أعلمتني بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناقب أنصار خليفتك ، وإيّاها حُطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونعم العون أنت إن شاء الله على ملازمة الطّاعة ، والموازرة على الخير ، والمكافئة لأهل الحق<sup>(١)</sup> .

وقد استدلت بالذي أرى من شدّة عنايتك ، وفرط اكتراثك ، وتفقّدك لأخاير الأعداء<sup>(٢)</sup> وبجثك عن مناقب الأولياء ، على أن ما ظهر من نصحك أمم<sup>(٣)</sup> ، في جنب ما بطن من إخلاصك .

فأتمتع الله بك خليفته ، ومنحنا وإياك محبته<sup>(٤)</sup> ، وأعاذنا وإياك من قول الزور<sup>(٥)</sup> ، والتقرّب بالباطل ، إنه حميد مجيد ، فقال لما يريد .

وذكرت أبقاك الله أنك جالست أخلاطاً من جُند الخلافة ، وجماعة من أبناء الدّعوة ، وشيوخاً من جلة الشيعة ، وكهولاً من أبناء رجال الدّولة ، والمنسويين إلى الطّاعة والمناصحة ، [ والحجّة<sup>(٦)</sup> ] الدّينية ، دون محبة الرّغبة والرّهبة ، وأن رجلاً من عرض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجملة<sup>(٧)</sup> ارتجل

٢٩ ظ

(١) المكافئة : المعاونة .

(٢) م ، ف فقط : « لأجناس الأعداء » .

(٣) الأمم : الشيء اليسير .

(٤) في الأصل : « نخبة » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في الأصل و ن : « قبول الزور » .

(٦) التكملة من ف ، م ، س .

(٧) م : « وأن رجلاً من عرض تلك الجملة » .



الكلام ارتجال مستبد<sup>(١)</sup>، وتفرد به تفرّد مُعْجَب<sup>(٢)</sup>، وأنّه لم يستأمر زعماءهم، ولم يراقب خطباءهم، وأنّه تعسّف المعاني وتهجّم على الألفاظ، وزعم أن جُند الخلافة اليوم على خمسة أقسام: خراساني، وتركّي، وموّلّي، وعربي، وبنوي. وأنّه أكثر من حُمد الله وشكره على إحسانه ومِنّته، وعلى جميع أياديه وسابغ نعمه، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه، حين ألّف على الطاعة هذه القلوب المختلفة، والأجناس المتباينة، والأهواء المتفرّقة. وأنك اعترضت على<sup>(٣)</sup> هذا المتكلم المستبد، وعلى هذا القائل المتكلف، الذي قسّم هذه الأقسام، وخالف [بين<sup>(٤)</sup>] هذه الأركان، وفصل بين أنسابهم<sup>(٥)</sup>، وقرّق بين أجناسهم، وباعد بين أسابهم<sup>(٦)</sup>. وأنك أنكرت ذلك عليه أشدّ الإنكار، وقذعته أشدّ القذع<sup>(٧)</sup>، وزعمت أنّهم لم يخرجوا من الاتفاق أو من شيء يقرب من الاتفاق. وأنك أنكرت التّباعّد في النسب، والتّباين في السّبب. وقلت: بل أزعّم أن الخراساني والتركي أخوان، وأن الحيز واحد، وأن [حكم ذلك الشرّ، والقضيّة على<sup>(٧)</sup>] ذلك الضّعف متفق غير مختلف، ومتقارب غير متفاوت. وأنّ الأعراق في الأصل إن لا تكن [كانت<sup>(٧)</sup>] راسخة فقد كانت متشابهة، وحدود البلاد المشتمة عليهم إن

(١) الكلام بعده إلى « خطباءهم » ساقط من ف .

(٢) في الأصل : « أعرضت عن » ، صوابه في سائر النسخ .

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

(٤) ن ، س : « وباعد بين أنسابهم » . وما بعده إلى « أنسابهم » التالية ساقط

من ف ، م .

(٥) في الأصول : « أنسابهم » ، والوجه ما أثبت .

(٦) قذعه قذعا : رماه بالفحش وسوء القول .

(٧) ما بين العقفين ثابت في جميع النسخ ساقط من الأصل .

لا تكن متساوية فإنها متناسبة ؛ وكلُّهم خراسانيٌّ في الجملة وإن تميَّزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوجوه .

وزعمت أنَّ اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرومي والصقلبي ، والزنجي والحبشي ، فضلاً عما هو أبعدُ جوهرًا وأشدُّ خلافاً . بل كاختلاف ما بين المكِّي والمدني ، والبدوي والحضري ، والشَّهلي والجلبي ، وكاختلاف ما بين الطائي الجبلي والطائي الشَّهلي ، وكما يقال : أنَّ هذيلًا أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين من نزل البُطون وبين من نزل الحُزُون ، وبين من نزل النُّجود وبين من نزل الأغوار .

وزعمت أنَّ هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللُّغة ، وفارق بعضهم بعضاً في بعض الصُّور ، فقد تخالفت علياً تميم ، وسُفلى قيس ، وعَجَز هوازن وفُصحاء الحجاز ، في اللُّغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير ، وشُكَّان تخاليف اليمين ، وكذلك في الصُّورة والشَّمال والأخلاق<sup>(١)</sup> . وكلُّهم مع ذلك عربيٌّ خالص ، غير مَشُوب ولا مُعلَّج<sup>(٢)</sup> ولا مَذَرَّع<sup>(٣)</sup> ولا مَزَلَّج<sup>(٤)</sup> . ولم يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قَبْل<sup>(٥)</sup> ما طبع الله

٢٢ و

(١) ج ، ف : « وكذلك الصورة والصورة ، والشَّمال والشَّمال ، والأخلاق والأخلاق ، .

(٢) المُلَّحج : المهجين ، وهو العربي ولد من أمة

(٣) المذرع : الذي أمه عربية وأبوه غير عربي . وأنشد :

إذا باهلي عنده حنظلية لها ولد منه فذاك المذرع

ف ، ج : « مربوع » تحريف .

(٤) المزج : الدعى ، والمزق بالقوم وليس منهم .

(٥) في الأصل : « بأمر قبل » ، صوابه في سائر النسخ .

عليه تلك البرية من خصائص الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كل جزيرة<sup>(١)</sup> من الشكل والصورة<sup>(٢)</sup> ومن الأخلاق واللغة .

فإن قلت : فكيف كان أولادها جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوة .

قلنا : إن العرب<sup>(٣)</sup> لما كانت واحدة فاستووا في التربة وفي اللغة ، والشماثل والممة ، وفي الأنف والحمية<sup>(٤)</sup> ، وفي الأخلاق والسجية ، فسبكوا سبكاً واحداً ، وأفرغوا إفراغاً واحداً ، وكان القالب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط ، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأعم والأخص وفي باب الوفاق والمباينة<sup>(٥)</sup> من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى حتى تناكحوا عليها ، وتظاهروا من أجلها ، وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بنى إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبنى قحطان - وهو ابن عابر<sup>(٦)</sup> - في إجماع<sup>(٧)</sup> الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ونفعهما من ذلك جميع الأمم : كسرى فمن دونه ، دليل على أن النسب عندهم متفق ، وأن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة .

(١) الجزيرة ، بالكسر : الناحية ، كما في القاموس . ف ، ج : « جزيرة » تحريف .

(٢) في الأصل : « الصور » مع سقوط الواو بعدها ، ووجه من سائر النسخ .

(٣) م ، ف : « الجزيرة » .

(٤) الأنف ، بالتحريك : الأنفة . ف فقط : « الأنفة » .

(٥) م ، ف : « وفي البنية » . وفي الأصل : « الشية » ، وأثبت ما في سائر النسخ .

(٦) في الأصحاح ١١ : ١٢ من التكوين أنه قحطان بن عابر بن شالح بن أرفكشاد .

(٧) في الأصل : « اختلاف » ، صوابه من سائر النسخ .

وزعمت أنه أراد الفرقة والتَّحْزِيبُ<sup>(١)</sup> ، وأَنَّكَ أردت الألفة والتَّقْرِيبَ .  
 وزعمت أيضاً أَنَّ الْبَنَوِيَّ خُرَاسَانِي ، وَأَنَّ نَسَبَ الْأَبْنَاءِ نَسَبُ آبَائِهِمْ ،  
 وَأَنَّ حُسْنَ صَنِيعِ الْآبَاءِ ، وَقَدِيمَ فَعَالِ الْأَجْدَادِ ، هُوَ حَسَبُ الْأَبْنَاءِ . وَأَنَّ  
 الْمَوَالِيَ بِالْعَرَبِ أَشْبَهَ ، وَإِلَيْهِمْ أَقْرَبَ ، وَبِهِمْ أَمْسُ ؛ لِأَنَّ السَّنَةَ جَعَلْتَهُمْ مِنْهُمْ .  
 فَقُلْتُ : إِنَّ الْمَوَالِيَ أَقْرَبَ إِلَى الْعَرَبِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَعَانِي ؛ لِأَنَّهُمْ عَرَبٌ  
 فِي الْمَدْعَى<sup>(٢)</sup> ، وَفِي الْعَاقِلَةِ<sup>(٣)</sup> ، وَفِي الْوَرَاثَةِ<sup>(٤)</sup> . وَهَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِهِ « مَوْلَى  
 الْقَوْمِ مِنْهُمْ » وَ « مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ »<sup>(٥)</sup> ، وَ « الْوَلَاءُ لِحُمَةِ كُلِّ حُمَةٍ  
 النَّسَبِ »<sup>(٦)</sup> . وَعَلَى شَبِيهِ ذَلِكَ صَارَ حَلِيفُ الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، وَحَكَمَهُ حَكَمُهُمْ ، فَصَارَ  
 الْأَخْنَسُ بْنُ شُرَيْقٍ<sup>(٧)</sup> وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ ، وَكَذَلِكَ يَعْلَى بْنُ مُنِيَّةٍ<sup>(٨)</sup>  
 وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَلْعَدَوِيَّةٍ ، وَكَذَلِكَ خَالِدُ بْنُ عُرْفُطَةَ<sup>(٩)</sup> وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ عُذْرَةَ

٢٢ ظ

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزاباً وفرقاً . في الأصل : « التخويف » صوابه في سائر النسخ .

(٢) في الأصل فقط : « النسب » .

(٣) العاقلة : العصبة التي تعقل عن القاتل دية .

(٤) م ، ف : الراية » .

(٥) أخرجه البخاري عن أنس . الجامع الصغير ٩١٢٤ .

(٦) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن أبي أوفى ، والحاكم والبيهقي عن ابن

عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٧) ترجم له في الإصابة ٦١ وذكر أنه ممن اختلف في إسلامه .

(٨) في الأصل : « منه » ، صوابه في سائر النسخ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ ،

٢٢٩ . قال ابن حزم : « وهى أمه ، وهى بنت غزوان ، أخت عتبة بن غزوان .

اسم أبيه أمية بن عبدة » .

(٩) الاشتقاق ٥٤٧ .

من قريش . وبذلك النَّسَب حَرُمَتِ الصَّدَقَةُ عَلَى مَوَالِي بَنِي هَاشِمٍ ؛ فَإِنَّ  
النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْرَاهُمْ فِي بَابِ التَّنْزِيهِ وَالتَّطْهِيرِ تَجَرَّى مَوَالِيهِمْ .  
وبذلك السَّبَبُ قَدَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلَبِ عَلَى بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ،  
وَقَرَّابَتُهُمْ سِوَا « وَنَسَبُهُمْ وَاحِدٌ ، لِلْعَقْدِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَلِلْأَيْدِي الْمُتَّفِقَةِ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مِنَّا خَيْرُ فَارِسٍ فِي الْعَرَبِ : عُكَّاشَةُ  
ابْنِ مَخْصَنٍ <sup>(١)</sup> » ، فَقَالَ ضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَارِ الْأَسَدِيُّ : ذَاكَ رَجُلٌ مِنَّا يَا رَسُولَ  
اللَّهِ . قَالَ : « بَلْ هُوَ مِنَّا بِالْحِلْفِ » . فَجَعَلَ حَلِيفَ الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، كَمَا جَعَلَ  
ابْنَ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ .

ثُمَّ زَعَمْتَ أَنَّ الْأَتْرَافَ قَدْ شَارَكُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فِي هَذَا النَّسَبِ ، وَصَارُوا  
مِنَ الْعَرَبِ بِهَذَا السَّبَبِ ، مَعَ الَّذِي بَانُوا بِهِ مِنَ الْخِلَالِ ، وَحُبُّوهُ بِهِ مِنْ  
شَرَفِ الْخِلَاصِ .

عَلَى أَنَّ وِلَاءَ الْأَتْرَافِ لِلْبَابِ قُرَيْشٍ ، وَلِإِمَّاكِصِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَ[ هُمْ ]  
فِي سِرِّ بَنِي هَاشِمٍ ، [ وَهَاشِمٌ <sup>(٢)</sup> ] مَوْضِعُ الْعِذَارِ مِنْ خَدِّ الْفَرَسِ ، وَالْعِقْدِ  
مِنَ كَبَّةِ الْكَاعِبِ ، وَالْجَوْهَرِ الْمَكْنُونِ ، وَالذَّهَبِ الْمَصْقِيِّ ، وَمَوْضِعُ الْمُحَّةِ  
مِنَ الْبَيْضَةِ ، وَالْعَيْنِ فِي الرَّأْسِ ، وَالرُّوْحِ مِنَ الْبَدَنِ ؛ وَهُمْ الْأَنْفُ الْمُقَدَّمُ ،  
وَالسَّنَامُ الْأَكْبَرُ <sup>(٣)</sup> ، وَالدَّرَّةُ الزَّهْرَاءُ ، وَالرَّوْضَةُ الْخَضْرَاءُ ، وَالذَّهَبُ  
الْأَحْمَرُ . فَقَدْ شَارَكُوا الْعَرَبَ فِي أَنْسَابِهِمْ ، وَالْمَوَالِيَ فِي أَسْبَابِهِمْ ، وَفَضَّلُوهُمْ

(١) الإصابة ٥٦٢٦ . وعكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها ، وفيه الحديث :  
« سبقك بها عكاشة » .

(٢) ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

(٣) في سائر النسخ : « الأكوم » .

بهذا الفضل الذى لا يبلغه فضل وإن برع ، بل لا يعشره شرف وإن عظم ، ولا مجد وإن قُدم .

فرعمت أن أنساب الجميع متقاربة غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المؤازرة والمكاتفة ، والطاعة والناحمة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أنه ذكر جُحلاً من مفاخرة الأجناس ، وجمهرة من مناقب هذه الأصناف ، وأنه جمع ذلك وفصله<sup>(١)</sup> وفسره ، وأنه ألغى ذكر الأتراك فلم يعرض لهم ، وأضرب عنهم صفحا ، يُخبر عنهم كما أخبر عن حُجة كل جيل ، وعن بُرهان كل صنف ؛ وذكر أن الخراساني يقول : نحن الثقباء وأبناء الثقباء ، ونحن الثجباء وأبناء الثجباء ، ومنا الدعاة ، قبل أن تظهر نقابة<sup>(٢)</sup> ، أو تُعرف نجابة ، وقبل المغالبة وال مباراة ، وقبل كشف القناع وزوال التقيّة وزوال ملك أعدائنا عن مستقرّه ، وثبات ملك أوليانا في نصابه . وبين ذلك ما قُتلنا وشرّدنا ، ونهكنا ضرباً<sup>(٣)</sup> وبُضعنا بالسُيوف الحداد<sup>(٤)</sup> ، وعدّنا بألوان العذاب .

وبنا شفى الله الصدور ، وأدرك الثار . ومنا الاثنا عشر الثقباء ، والسبعون النجباء . ونحن الخندقية<sup>(٥)</sup> ، ونحن الكتفية وأبناء الكتفية<sup>(٦)</sup> ،

(١) بعده في معظم النسخ : « وأجمله » .

(٢) النقابة ، بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم . والتقيب : العريف على القوم المقدم عليهم الذى يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم .

(٣) م ، ف : « وطلباً » .

(٤) الحداد : المرفة ، جمع حديد . والبضع : القمع والشق .

(٥) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتى .

(٦) م ، ف : « الكتفية وأبناء الكتفية » .

وَمَنَا الْمُسْتَجِيبَةُ وَمَنْ يَهْرَجُ النِّيْمَةَ<sup>(١)</sup> وَمَنَا نِيْمَ خَزَانِ<sup>(٢)</sup> وَأَصْحَابُ الْجُورِيِّينَ<sup>(٣)</sup>  
وَمَنَا الرِّغْدِيَّةُ<sup>(٤)</sup> وَالْآزَادْمَرْدِيَّةُ<sup>(٥)</sup> .

وَنَحْنُ فَتَحْنَا الْبِلَادَ وَقَتَلْنَا الْعِبَادَ ، وَأَبَدْنَا الْعَدُوَّ بِكُلِّ وَادٍ . وَنَحْنُ أَهْلُ هَذِهِ  
الدَّوْلَةِ ، وَأَصْحَابُ هَذِهِ الدَّعْوَةِ ، وَمَنْبَتُ هَذِهِ الشَّجَرَةِ . وَمَنْ عِنْدَنَا هَبَّتْ  
هَذِهِ الرِّيحُ .

وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارَانِ : الْأَوْسُ وَالْخَزَرَجُ نَصَرُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ  
فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ ، وَأَهْلُ خِرَاسَانَ نَصَرُوا وَرَثَتَهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ . غَدَانَا بِذَلِكَ  
أَبَاؤُنَا وَغَدَوْنَا بِهِ أَبْنَاءُنَا ، وَصَارَ لَنَا نَسَبًا لَا نَعْرِفُ إِلَّا بِهِ ، وَدِينًا لَا نُوَالِي  
إِلَّا عَلَيْهِ .

ثُمَّ نَحْنُ عَلَى وَتِيرَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَمِنْهَا جُغَيْرٌ مُشْتَرِكٌ ؛ نَعْرِفُ بِالشَّيْعَةِ ،  
وَنَدِينُ بِالطَّاعَةِ ، وَنُقَتِّلُ فِيهَا وَنَمُوتُ عَلَيْهَا . سَيَانَا مَوْصُوفٌ ، وَلِبَاسُنَا مَعْرُوفٌ .  
وَنَحْنُ أَصْحَابُ الرَّآيَاتِ السُّودِ ، وَالرَّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ الْمَأْثُورَةِ ،  
وَالَّذِينَ يَهْدِمُونَ مَدَنَ الْجَبَابِرَةِ ، وَيَنْزِعُونَ الْمُلْكَ مِنْ أَيْدِي الظَّالِمَةِ . وَفِينَا

(١) ن ، س : « يهرج » . م : « النيمية » .

(٢) ف : « تيم » بدل « نيم » .

(٣) الجوريين مهلة في الأصل وإعجامها من س ، ن . وفي ف : « الحوزتين »  
و م : « الجوزتين » .

(٤) زغند ، في الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشي . في الأصل : « الدعديّة »  
وأثبت ما في سائر النسخ . وسيأتي قوله : « ولنا الأصوات التي تسقط منها الجبالي » :

(٥) الآزاد مردية ، اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال  
الدكتور كراوس في مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ .

تَقَدَّمَ الْخَبَرُ ، وَصَحَّ الْأَثَرُ . وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ صِفَةُ الَّذِينَ يَفْتَحُونَ عَمُورِيَّةً<sup>(١)</sup> وَيُظْهِرُونَ عَلَيْهَا ، وَيَقْتُلُونَ مُقَاتِلِيهَا وَيَسْبُونَ ذُرَارِيهَا ، حَيْثُ قَالُوا فِي نَعْتِهِمْ : « شُعُومُ شُعُورِ النِّسَاءِ ، وَثِيَابُهُمْ ثِيَابُ الرِّهْبَانِ » . فَصَدَّقَ الْفَعْلُ الْقَوْلَ ، وَحَقَّقَ الْخَبَرُ الْعِيَانَ .

وَنَحْنُ الَّذِينَ ذَكَرْنَا وَذَكَرَ بِلَاءُنَا أُمَامُ الْأُمَّةِ ، وَأَبُو الْخِلَائِقِ الْعَشْرَةِ : مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ<sup>(٢)</sup> ، حِينَ أَرَادَ تَوْجِيهَ الدُّعَاةَ إِلَى الْآفَاقِ ، وَتَفْرِيقَ شِيعَتِهِ فِي الْبِلَادِ ، أَنْ قَالَ :

أَمَّا الْبَصْرَةُ وَسَوَادُهَا فَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا عَثَانُ وَصَنَائِعُ عَثَانَ ، فَلَيْسَ بِهَا مِنْ شِيعَتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُ . وَأَمَّا الشَّامُ فَشِيعَةُ بَنِي مَرْوَانَ وَآلِ أَبِي سُفْيَانَ . وَأَمَّا الْجَزِيرَةُ فَحُرُورِيَّةٌ شَارِيَّةٌ<sup>(٣)</sup> ، وَخَارِجَةٌ مَارِقَةٌ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الشَّرِّقِ ؛ فَإِنَّ هُنَاكَ صَدُورًا سَلِيمَةً وَقُلُوبًا بَاسِلَةً ، لَمْ تُفْسِدْهَا الْأَهْوَاءُ ، وَلَمْ تَخَامِرْهَا الْأَدْوَاءُ ، وَلَمْ تَعْتَقِبْهَا الْبِدْعُ ، وَهُمْ مَغِيظُونَ مَوْتُورُونَ . وَهُنَاكَ الْقَدَدُ [ وَالْعُدَّةُ<sup>(٤)</sup> ] ، وَالْعِتَادُ وَالنَّجْدَةُ .

ظ ٢٣

(١) عمورية : بلد في بلاد الروم ، فتحها المعتمد العباسي سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة في كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٢) محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، والد السفاح والنصور ، أول من نطق بالدعوة العباسية . توفي سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) الشارية : جمع شار ، وهم الذين شروا أنفسهم أي باعوها في سبيل الله ، وهم الخوارج .

(٤) ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .



ثم قال : [وأنا أنفأ<sup>(١)</sup>] إلى حيث يطلع منه النهار<sup>(٢)</sup> . فكنا خير جُندٍ  
ليخبر إمام ؛ فصدقنا ظنه ، وثبتنا رأيه ، وصوبنا فراسته .

وقال مرة أخرى :

أمرنا هذا شرقاً لا غرباً ، ومُقبل لا مدبر<sup>(٣)</sup> ، يطلع كطلوع الشمس ،  
ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النهار ، حتَّى يبلغ حيث تباغخه الأخفاف<sup>(٤)</sup> ، وتناله  
الحوافر .

قالوا : ونحن قتلنا الصَّحَّصَحِيَّة<sup>(٥)</sup> ، والدَّالِقِيَّة ، والدَّكُوَانِيَّة ، والراشدية<sup>(٦)</sup> .  
ونحن أيضاً أصحاب الخنادق أَيْامَ نصر بن سيار ، وابن جُدْنَعِ الكرمانى<sup>(٧)</sup> ،  
وشيبان بن سلمة الخارجي . ونحن أصحاب نُباتة بن حنظلة<sup>(٨)</sup> ، وعامر بن  
ضُبارة<sup>(٩)</sup> ، وأصحاب ابن هبيرة . قلنا قديمُ هذا الأمر وحديثه ، وأوله وآخره

(١) موضعها يياض في الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) م ، ف : « إلى حيث ما تطلع » فقط . ن ، س : « إلى حيث يطلع النهار » .

(٣) م ، ف : « غير مدبر » .

(٤) م ، ف : « حيثما تبلغه الأخفاف » .

(٥) في الأصل ، م ، ف : « الصحيحة » صوابه في ن ، س .

(٦) الصحصحية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد المتكلمين . انظر الحيوان  
٣ : ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبرى ٩ : ١٣١ في حوادث سنة ١٣٢ . والدالقية ، بدلها في  
الطبرى : « الدوكانية » . والراشدية ذكرهم الطبرى في الموضع الذى أشرت إليه .

(٧) هو على بن جديع الكرمانى . الطبرى ٩ : ٩١ ، ٩٧ ، والاشتقاق ٢٩٥  
ونوادر المخطوطات ٣ ، ١٨٦ ، ١٩١ وجمهرة ابن حزم ٣١٧

(٨) جمهرة أنساب العرب ٢٨٣ . وهو من بنى كلاب بن ربيعة .

(٩) الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ والجمهرة ٢٥٤ ، وكان من قواد ابن هبيرة .

ومَنَّا قاتِلُ مروان<sup>(١)</sup> .

ونحنُ قومٌ لَنَا أجسامٌ وأجرامٌ ، وشُعورٌ وهامٌ ، ومناكبٌ عظامٌ ،  
وجِباهٌ عِراضٌ ، وقَصَرٌ غِلاظٌ<sup>(٢)</sup> ، وسواعدٌ طوالٌ .

ونحنُ أولادُ لَدُّ كورةٍ ، وأنسلُ بُعولةٍ ، وأقلُّ ضَوْوَى وضُؤولةٍ ، وأقلُّ  
إِنامًا وأتقُ أرحاما<sup>(٣)</sup> ، وأشدُّ عَصبا وأتمُّ عظاما ، وأبداننا أَجَمَلُ للسلاحِ ،  
وَنَجِيفُنا<sup>(٤)</sup> أَمَلًا للعيونِ .

ونحنُ أَكثَرُ مادَّةً ، وأكثَرُ عَددا وعُدَّةً .

ولو أنْ يَأْجُوجُ ومَأْجُوجٌ كَانُوا مِن وراءِ النَّهْرِ مَنَّا لظَهروا عليهم بالتَّدَدِ .  
فَأَمَّا الأَيْدِ وشِدَّةُ الأَسْرِ ، فليس لأَحَدٍ بَعْدَ عادٍ وثمودَ والعَمَاقَةِ والكَنَعَانِيِّينَ  
مِثْلُ أَيْدِنَا وأَسْرِنَا .

(١) في الطبري ٩ : ١٣٦ أن قاتل مروان بن محمد سنة ١٣٣ رجل من أهل  
البصرة يقال له « المغود » . في الأصل : « وبنا قاتل من ولى » ، صوابه في سائر النسخ .  
(٢) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهى أصل العنق ، وبه فسر ابن عباس  
قوله تعالى : « إنها ترمى بشرر كالقصر » في قراءته بفتح الصاد . في الأصل : « فصص »  
وفي ن ، س : « قصص » صوابه في م ، ف .

(٣) هذا ما في م ، ف . والإِنَامُ : أن تلد اثنين في بطن . وأتقُ أرحاما :  
أكثر ولادة . وفي الأصل : « وأجل أحسابا وأوثق أبدانا » وفي ن ، س :  
« وأقل أيامي وأتقُ أرحاما » ، لكن بعض أصول ن توافق الأصل .

(٤) التجفاف : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح في الحرب .  
وفي الأصل : « وخفافنا » وفي سائر الأصول : « وأخفافنا » ، والوجه ما أثبت .  
وفي البيان ٣ : ١٨ في قول الشعوية : « ولا تعرفون الأقيية ولا السراويلات ،  
ولا تعليق السيوف ، ولا الطبول ولا البنود ولا التجافيف » وانظر ص ١٩ س ١٢ .

ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف جمعوا في حلبة واحدة ،  
لكننا أكثر في العيون ، وأهول في الصدور .

ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا ، وبُنودنا التي لا يحملها غيرنا ، علمت  
أننا لم نخلق إلا لقلب الدول ، وطاعة الخلفاء ، وتأيد السلطان .

و ٢٤

ولو أن أهل الثبت ورجال الزابج<sup>(١)</sup> ، وفرسان الهند ، وحلبة الروم ، هجم  
عليهم هاشم بن أشتاخنج<sup>(٢)</sup> لما امتنعوا من طرح السلاح والهرب في البلاد .

ونحن أصحاب اللحي وأرباب النهي ، وأهل الحلم والحجاء ، وأهل  
الثجانة<sup>(٣)</sup> في الرأي ، والبعد من الطيش . ولسنا كجند الشام المتعرضين للحرم ،  
والمتهكين لكل محرم .

ونحن ناس لنا أمانة وفينا عفة . ونحن نجتمع بين النزاهة والقناعة والصبر  
على الخدمة ، والتجدير عند الشقة<sup>(٤)</sup> . ولنا الطبول المهولة العظام والبُود ،  
ونحن أصحاب التجافيف والأجراس ، والبازيكند<sup>(٥)</sup> واللُبود الطوال ، والأغناد

(١) الزابج بفتح الباء وكسر ها : جزيرة في أقصى بلاد الهند في حدود الصين .  
وفي الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » . م :  
« الزنج » ، تحريف .

(٢) كلمة « بن » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ والطبری  
٩ : ٢٨٣ . وقتل هاشم هذا سنة ١٥٢ .

(٣) في الأصل : « النجابة » ، وفي م ، س : « الثجانة » ، وأثبت  
ما في سائر النسخ . والمراد قوة الرأي وجزالته .

(٤) تجدير الجيش : إبقاؤه في ثغر العدو .

(٥) البازيكند ، يبدو أنه كساء يلقي على الكتف . و « باز » في الفارسية =

المعققة<sup>(١)</sup> والشوارب المعقربة ، والقلائس الشاشية ، والخيول الشهرية<sup>(٢)</sup> ،  
والكافر كوبات<sup>(٣)</sup> والطبرزينات<sup>(٤)</sup> [ في الأكف ] ، والخناجر في الأوساط .  
ولنا حُسْنُ الجلسة على ظهور الخيل . ولنا الأصواتُ التي تُسقطُ منها الحبالى .

وليس في الأرض صناعةٌ غريبةٌ من أدبٍ وحكمة ، وحسابٍ وهندسة ،  
وإيقاعٍ وصنعة<sup>(٥)</sup> ، وفقهٍ ورواية ، نظرتُ فيها الخراسانية إلّا فرّعت فيها  
الرؤساء<sup>(٦)</sup> ، وبرّت فيها العلماء .

ولنا صنعة السّلاح من لُبْدٍ وركابٍ ودِرْع . ولنا مما جعلناه رياضةً  
وتمرينًا ، وإرهاصًا للحرب ، وتنقيفًا ودُرْبَةً للمجاوله والمُشاولة ، [ و ] للكرّ

---

= بمعنى الكنف . انظر البيان ١ : ٩٥ / ٣ : ١١٥ . في الأصل : « الباركند »  
وفي سائر النسخ : « الباز فكند » .

(١) المعققة : المعوجة ، وذلك لاعوجاج السيوف التي تجعل فيها . ف :  
« والأعمدة والحقفة » ج : « والأعمدة والمعققة » .

(٢) في اللسان : « والشهرية : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والقرف  
من الخيل » .

(٣) الكافر كوبات : جمع كافر كوب ، وهي القرعة . انظر حواشى البيان  
١ : ١٤٢ . في الأصل : « الكافر كورات » ، صوابه في سائر النسخ .

(٤) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل في القتال عند الفرس ،  
مركبٌ من « تبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، لعله سُمي بذلك لالتزام  
وضعه بجانب السرج . استينجاس ٢٧٠ . والعرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية ١١١ .  
وكلمة « في الأكف » بعدها من سائر النسخ .

(٥) م ، ف : « وارتفاع بناء وصنعة » .

(٦) فرّعه : علاه وطاله .

بعد الكَرّ : مثل الدَّبوق<sup>(١)</sup> ، والنَزْو على الخيل صفارًا ، ومثل الطَّبْطاب<sup>(٢)</sup> والصَّوَالِجَةُ الكبار ، ثم رمى المجْثمة<sup>(٣)</sup> ، والبرجاس<sup>(٤)</sup> والطائر الخَطَاف .  
فنحن أحقُّ بالأثمة<sup>(٥)</sup> ، وأولى بشرف المنزلة .

ثم قلت : وزعم أنَّ القرية<sup>(٦)</sup> تُسَمَّحُ بالأسباب الثابتة ، وبالأرحام الشابكة ، وبالقدمة ، والطاعة للآباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمديح الكافي<sup>(٧)</sup> بالشعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، ويلوح مالاخ نجم ، ويُشَدُّ ما أهلٌ بالحج ، وما هبَّت الصَّبا ، وما كان للزَّيت عاصر ؛ وبالكلام المنثور والقول المأثور . أو بصفة مخرج الدولة والاحتجاج للدعوة ، وتقيد المآثر ، إذ لم يكن [ ذلك من<sup>(٨)</sup> ] عادة العجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفًا لسوى العرب . ونحن نرتبطها بالشعر المَقْفَى ، ونصلها بحفظ الأُمِّيِّين<sup>(٩)</sup> . [ الذين

٢٤ ظ

(١) فى اللسان : « الدبوق : لعبة يلعب بها الصبيان ، معروفة » .

(٢) الطبطاب : مضرب الكرة .

(٣) المجثمة : مانصب من الحيوان للرمى والقتل ،

(٤) البرجاس : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه . الألفاظ الفارسية

١٨ . فى الأصل م : « البرجاسب » وفى ف : « البرحاسبار » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « بالإمرة » . وانظر ٢٥ س ٩ و ٢٨ س ١٤

(٦) القرية : القرابة . م : « إن تكن القرية » ف « إن تكن القرى » :

(٧) م ، ف : « والمدلج الباقي » ولعلها : « والمدلج الباقي » .

(٨) التكملة من سائر النسخ .

(٩) فى الأصل : « الأثر » ، صوابه من سائر النسخ . وقد سقط بعده سقط كبير

ينتهى فى ص ٢٥ أثبتته من سائر النسخ بين معقفين .

لا يتكلمون على الكتب المدونة ، والخطوط المطرسة . ونحن أصحاب التفاخر والتنافر ، والتنازع في الشرف ، والتحاكم إلى كل حكم مُقنع وكاهنٍ سَجَّاع . ولنا التعاير بالمثالب ، والتفاخر بالنقاب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييدها أيضاً بالمشور المرسل ، بعد الموزون المعدل ، بلسان أمضى من السنان ، وأرهف من السيف الحسام ، حتى نذكّرهم ما قد درس رسمه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرغبة فرق ، وليس المُعْرِق في الحفاظ كمن هذا فيه حادث . وهذا بابٌ يتقدّم فيه التالذ القديم الطارف الحديث .

وطُلاب الطوائل رجلان : سَجَّستانى وأعرابى . وهل أكثر النقباء إلا من صميم العرب ، ومن صليبة هذا النسب ، كأبى عبد الحميد قَحْطَبَة ابن شَيْب الطائى ، وأبى محمد سليمان بن كثير الخزاعى ، وأبى نصر مالك ابن الهيثم الخزاعى ، وأبى داود خالد بن إبراهيم الدُهْلَى ، وكأبى عمرو لاهز ابن قريظ المَرْزَى<sup>(١)</sup> ، وأبى عتيبة موسى بن كعب المَرْزَى<sup>(٢)</sup> ، وأبى سهل القاسم ابن مجاشع المَرْزَى<sup>(٣)</sup> ، ومن كان يجرى مجرى النقباء ولم يدخل فيهم ، مثل مالك ابن الطواف المَرْزَى .

وبعد فمن هذا الذى باشر قتل مروان<sup>(٤)</sup> ، ومن هزَمَ ابن هبيرة ، ومن

(١) نسبة إلى امرئ القيس . فهو لاهز بن قريظ بن سري بن الكاهن بن زيد بن عصىة بن امرئ القيس . جمهرة أنساب العرب ٢١٤ . قال : « كان من وجوه أهل دعوة بنى العباس » وفي الأصول : « للزنى » ،

(٢) إن صح كان نسبة إلى مران بن جعفى بن سعد العشيرة . انظر جمهرة ابن حزم ٤٠٩ . والمعارف ٤٨ .

(٣) انظر ماسبق فى ص ١٨ . ويبدو أن قتل مروان بن محمد كان موضع مفاخرة بين العرب وغيرهم .

قتل ابن ضبارة ، ومن قتل نباتة بن حنظلة ، إلا عَرَبُ الدَّعْوَةِ ، والصَّيِّمُ من أهل الدولة ؟! ومن فتح السُّنْدَ إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقية إلا محمد ابن الأشعث ؟!

وقلت : وقال : وتقول الموالى : لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدة . وعللُ المولى <sup>(١)</sup> من تحت موجبة لمحبة المولى من فوق ، لأنَّ شرف مولاه راجعٌ إليه ، وكرمه زائدٌ في كرمه ، وخوله مُسْقَطٌ لقدره . وبودّه أن خصال الكرام كلّها اجتمعت فيه ؛ لأنّه كلّما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرف وأنبّل . ومولاك أسلم لك صدرًا ، وأردُّ ضميرًا ، وأقلُّ حسدًا .

وبعدُ فالولاء لمحبة كلحمة النسب <sup>(٢)</sup> ، فقد صار لنا النسب الذى يصوبه العربى ، ولنا الأصل الذى يفتخر به المعجمى .

قال : والصبر ضرور ، فأكرمها كلها الصبر على إفشاء السر . وللمولى فى هذه المكربة ما ليس لأحد .

ونحن أخصُّ مدخلًا ، وألطف فى الخدمة مسلکًا . ولنا مع الطاعة والخدمة والإخلاص وحسن النية ، خدمةُ الأبناء للآباء ، والآباء للأجداد ، وهم بمواليهم آنس ، وبناحياتهم أوثق ، وبكفائتهم أسر .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن على ، وعلى بن عبد الله ، يَخْصُون مواليتهم بالمواكلة والبسط والإيناس ، لا يُهْرَجُونَ الأُسُودَ لسواده <sup>(٣)</sup> ، ولا الدميم

(١) م : « الموتى » ، وكذا بعض أصول ن .

(٢) انظر ما سبق فى ١٢ س ٧ .

(٣) بهرج الشيء : أبطله وأهدره . والمراد أنهم لا يضعون من قدره .

لدمامته ، ولا الصناعة الدنيئة لدنائتها . ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم ،  
ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاة على جنازتهم ، وذلك بحضرة من المومة  
وبني الأعمام والأخوة .

ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة  
مولاه ، حين عقده يوم مؤتة على جلة بنى هاشم ، وجعله أمير كل بلدة  
يطؤها<sup>(١)</sup> .

ويتذاكرون حبه لأسامة بن زيد ، وهو الحب بن الحب<sup>(٢)</sup> . وعقده  
على عطاء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليه ، كابن أنسة<sup>(٣)</sup> ، وشقران<sup>(٤)</sup> ،  
وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رءوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم  
عيسى بن أعين مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل

(١) أى يدخلها ويفتحها .

(٢) العثمانى للجاحظ ١٤٧ ، وقد وقع هناك تحريف في الطبع .

(٣) اختلف في اسمه فقيل أنسة أيضا كما في الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشيا كما في  
جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومات  
في خلافة أبي بكر .

(٤) شقران يقال كان اسمه صالح بن عدى ، وكان حبشيا أهداه عبد الرحمن بن  
عوف لرسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من دلى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
في قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام في السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب  
الماء عليه في غسله .



أبى مُعَيْط . فلنا مناقب الخُراسانية ، ولنا مناقب الموالى فى هذه الدعوة ، ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم ولا ينكره مؤمن ، خدمناهم كباراً وحملاًهم على عواتقنا صغاراً . هذا مع حقِّ الرِّضاع والخوالة ، والنسوة فى الكتَّاب ، والتقلُّب فى تلك العِراض التى لم يبلغها إلاَّ كلُّ سعيدِ الجَدِّ ، وجيِّهِ فى الملوك . فقد شاركنا العربىَّ فى نَحْرِهِ ، والخِراسانىَّ فى مجده ، والبنوىَّ فى فضله ، ثم تفرَّدنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبقونا إليه . قالوا : ونحن أشكل بالرعيَّة ، وأقرب إلى طِباع الدَّهَاء ؛ وهم بنا آنس وإلينا أسكن ، وإلى لقائنا أحنُّ ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم أشبه . فمنَّ أحقُّ بالأثرة ، وأولىُّ بحُسنِ المنزلة ممَّن هذه الخِصالُ له ، وهذه الخِلالُ فيه .

وقلت وذكر أن البنوىَّ قال :

أنا أصلى خراسان ، وهى تخرج الدَّولة ومطلع الدَّعوة ؛ ومنها نَجَمَ هذا القرن ، وصبأ هذا الناب<sup>(١)</sup> ، وتفجَّر هذا الينبوع ، واستفاض هذا البحر ، حتَّى ضَرَبَ الحقُّ بِجِراحه<sup>(٢)</sup> ، وطَبَّقَ الآفاقَ بضِيائه ، فأبرأ من السُّقم القديم ، وشفى من الداء العُضال ، وأغنى مِنَ العيلة<sup>(٣)</sup> ، وبَصَّرَ مِنَ العمى<sup>(٤)</sup> .

(١) صبأ الناب : طلع حده وخرج .

(٢) ضرب بِجِراحه : استقر وثبت . وأصل الجِراح باطن عنق البعير ، فإذا برك البعير واستقر قيل : ألقى جِراحه . وفى حديث عائشة أيضاً : « حتَّى ضرب الحقُّ بِجِراحه » .

(٣) أى بعد العيلة وهى الفقر .

(٤) هنا ينتهى السقط الذى بدأ فى ص ٢١ ، وأثبتته من سائر النسخ .

قال : وفرعى بغداد ، وهى مستقرُ الخلافة ، والقرار بعد الحولة<sup>(١)</sup> ، وفيها بقيّة رجال الدعوة ، وأبناء الشيعة ، وهى خراسانُ العراق ، وبيت الخلافة ، وموضع المادّة .

قال : وأنا أعرقُ فى هذا الأمر من أبى ، وأكثرتُ تردداً فيه من جدّى<sup>(٢)</sup> ، وأحقُّ فى هذا الفضل<sup>(٣)</sup> من المؤلى والعربى . ولنا بعدُ فى أنفسنا ما لا يُنكر من الصبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال<sup>(٤)</sup> . [ولنا معانقة الأبطال عند تحطُّم القنا واقطاع الصفائح<sup>(٥)</sup> . ولنا المواجهة بالسكاكين ، وتلقّى الخناجر بالعيون ، ونحن حُماة المستلحَم ، وأبناء المضايق . ونحن أهل الثبات عند الجولة ، والمعرفة عند الحيرة<sup>(٦)</sup> ، وأصحاب المشهّرات ، وزينة العساكر وحلّى الجيوش ، ومن يمشى فى الرّمح ، ويختال بين الصّفين . ونحن أصحاب الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ التسلُّق ، ونقّب المدُن ، والتقمُّ على ظُبات السيوف وأطراف الرّماح ، ورضخ الجنادل ، وهشمُ العُمد ، والصبرُ على الجراح وعلى جرّ السّلاح<sup>(٧)</sup> إذا طار قلبُ الأعرابيّ ، وساء ظنُّ الخُراسانيّ . ثم الصبرُ تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المساءلة ، واجتماع العقل ، وصحة

(١) الحولة ، بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والتنقل .

(٢) فى الأصل ون ، س : « وأكثرتُ تردداً من جدّى » ، وأثبت ما فى م ، ف .

(٣) ج ، ف : « وأحقُّ بهذا الفضل »

(٤) بعده سقط فى الأصل ، تمامه فى ص ٢٨ س ٩ .

(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .

(٦) ج وبعض أصول ن : « الحيرة » ، وفى سائر النسخ : « الحيرة » ،

والوجه ما أثبت .

(٧) يقال أجرة الرمح ، إذا طعنه به فثنى وهو يجره .

الطرف ، وثبات القدمين ، وقلة التكنف بجبل العقابين<sup>(١)</sup> ، والبعد من الإقرار<sup>(٢)</sup> ، وقلة الخضوع للدهر والخضوع عند جفوة الزوار<sup>(٣)</sup> وجفاء الأقارب والإخوان .

ولنا القتال عند أبواب الخنادق ، ورؤوس القناطر . ونحن الموت الأحمر عند أبواب الثقب . ولنا المواجهة في الأزقة ، والصبر على قتال السجون . فسل عن ذلك الخلدية<sup>(٤)</sup> ، والكتفية ، والبلاية ، والحريية<sup>(٥)</sup> . ونحن أصحاب المكابدات<sup>(٦)</sup> وأرباب البيات ، وقتل الناس جهاراً في الأسواق والطرقات .

ونحن نجمع بين السلة والمزاحفة<sup>(٧)</sup> . ونحن أصحاب القنا الطوال ما كنا رجالة ، والمطارد القصار ما كنا فرسانا<sup>(٨)</sup> . فإن صرنا كمننا<sup>(٩)</sup> فالحثف

(١) التكنف : التميل والتقلب . والعقaban : خشبتان يشبع بينهما الرجل فيجلد . اللسان ( عقب ) وجنى الجنتين ٨٠ .

(٢) ف فقط : « من الفرار » . والمراد الإقرار بالذال .

(٣) في معظم الأصول : « حفوة » . بالحاء المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٤) طائفة منسوبون إلى خلد ، وجاء في البخلاء ٤٢ - ٤٣ : « سل عنى الكتفية والخلدية والحريية والبلاية » . ويبدو أنهم طوائف من أهل الشغب والفوضى .

(٥) الحريية : نسبة إلى الحرية ، بالتصغير ، وهى موضع بالبصرة ، يبدو أنه كان مأوى للشطار .

(٦) هذا ما فى ف . وفى سائر الأصول : « المكابدات » .

(٧) السلة : الدفعة فى السباق إحضاراً .

(٨) المطارد ، جمع مطرد بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(٩) جمع كمين ، وهم الذين يكتنون ويختفون فى الحرب .

القاضي ، والسَّمُّ الذُّعَاف . وإنْ كُنَّا طلائِعَ فكلُّنا يقوم مقامَ أمير الجيش .  
نقاتل بالليل كما نقاتل بالنهار ، ونقاتل في الماء كما نقاتل على الأرض ، ونقاتل  
في القرية كما نقاتل في الحِلَّة .

ونحن أفتك وأخشب<sup>(١)</sup> ، ونحن أقطع للطريق وأذكر في الشُّعُور ،  
مع حُسن القدود وجودة الخِطوط ومقادير اللِّحَى ، وحُسن العِمَّة ، والنفس المُرَّة .  
وأصحابُ الباطل والفتوة<sup>(٢)</sup> ، ثم الخطّ والكتابة ، والفقه والرِّواية .

ولنا بغدادُ بأسرها ، تسكن ماسكننا ، وتنحرك ما تحرَّكنا . والدُّنيا  
كلُّها معلقةٌ بها ، وصائرة إلى معناها . فإذا كان هذا أمرها وقدرها فجميع  
الدُّنيا تبعُ لها<sup>(٣)</sup> . وكذلك أهلُها لأهلها ، وفُتَّاكها لفتَّاكها ، وخُلَّاعها  
لخُلَّاعها<sup>(٤)</sup> ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحاها .

ونحن بعدُ تربيةُ الخلفاء ، وجيران الوُزراء ، ولِدِنا في أفنية مُلوكننا ،  
ونحن أجنحةُ خلفائنا ، فأخذنا بآثارهم ، واحتدَّينا على مثالمهم ، فلسنا نعرف  
سواهم ، ولا نعرف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحدٌ قطُّ من خطَّاب مُلكهم ،  
ومن يترشَّح للاعتراض عليهم . فمنَّ أحقُّ بالأثرة ، وأولىُّ بالقُرب في المنزلة  
رَمَنَ هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخلالُ له .

(١) أى أشد خشونة وغلاظة .

(٢) كلمة « الباطل » ساقطة من ف .

(٣) هنا ينتهي سقط الأصل الذي بدأ في ص ٢٦ س ٦ وإنباته من سائر النسخ .

(٤) كذا في جميع النسخ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنْ ذَهَبْنَا حَفْظُكَ اللَّهُ بِعَقَبِ هَذِهِ الْاِخْتِجَاجَاتِ ، وَعِنْدَ مَقْطَعِ هَذِهِ  
الِاسْتِدْلالاتِ ، نَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الْمَعَارِضَةَ<sup>(١)</sup> بِمَنَاقِبِ الْأَتْرَاكِ ، وَالْمُوازَنَةِ بَيْنَ  
خِصَالِهِمْ وَخِصَالِ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ ، سَلَكْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ  
سَبِيلَ أَصْحَابِ الْخُصُومَاتِ فِي كُتُبِهِمْ ، وَطَرِيقَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ فِي الْاِخْتِلَافِ  
الَّذِي بَيْنَهُمْ .

وَكِتَابُنَا هَذَا إِنَّمَا تَكَلَّفْنَاهُ لِنُؤَلِّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ الَّتِي كَانَتْ مُخْتَلِفَةً ، وَلِنُزِيدَ  
الْأَلْفَةَ إِنْ كَانَتْ مُؤْتَلِفَةً ، وَلِنُخْرِجَ عَنْ اتِّفَاقِ أَسْبَابِهِمْ لِنُجْتَمِعَ كُلُّهُمْ ، وَلِنُسَلِّمَ  
صُدُورَهُمْ ، وَلِنَعْرِفَ مَنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ مِنْهُمْ مَوْضِعَ التَّفَاوُتِ فِي النِّسَبِ ،  
وَكَمْ مَقْدَارُ الْاِخْتِلَافِ فِي الْحِسْبِ<sup>(٢)</sup> ، فَلَا يُغَيِّرُ بَعْضُهُمْ مَعْيَرَ ، وَلَا يَفْسِدُهُ عَدُوٌّ  
بِأَبَاطِيلِ مُمَوَّهَةٍ وَشُبُهَاتِ مَرْوَرَةٍ ؛ فَإِنَّ الْمَنَافِقَ الْعَلِيمَ ، وَالْعَدُوَّ ذَا الْكَيْدِ الْعَظِيمَ ،  
قَدْ يَصُورُ لَهُمُ الْبَاطِلُ فِي صُورَةِ الْحَقِّ ، وَيُلبِسُ الْإِضَاعَةَ ثِيَابَ الْحَزْمِ .  
إِلَّا أَنَّا عَلَى حَالِ سِنْدِ كَرُجُمَلٍّ مِنْ أَحَادِيثِ رَوَيْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَأُمُورٍ رَأَيْنَاهَا  
وَشَاهَدْنَاهَا ، وَفَضَائِلَ تَلَقَّيْنَاهَا<sup>(٣)</sup> مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ وَسَمِعْنَاهَا .

٢٥ و

وَسِنْدِ كَرُجُمَلٍّ فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ<sup>(٤)</sup> مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، ثُمَّ نَنْظُرُ  
أَيُّهُمْ لَهَا أَشَدُّ اسْتِعْمَالًا ، وَبِهَا أَشَدُّ اسْتِقْلَالًا ، وَمَنْ أَثَقَبُ كَيْسًا وَأَفْتَحَ عَيْنًا

(١) مَا عَدَا الْأَصْلَ وَبَعْضَ أَصُولِ ن : « الْمَفَاوِضَةُ » ، وَالْوَجْهَ مَا أُثْبِتَ .

(٢) م ، ف : « كَمْ مَقْدَارُ » بَدُونِ وَاو .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « تَلَقَّيْنَاهَا » ، وَأُثْبِتَ مَا فِي سَائِرِ النُّسخِ .

(٤) فِي سَائِرِ النُّسخِ : « مَا حَفِظَ لِجَمِيعِ الْأَصْنَافِ » .

وأذكى يقيناً ، وأبعدُ غوراً وأجمعُ أمراً ، وأعمُّ خواطرَ وأكثرُ غرائبَ ،  
وأبدعُ طريقاً ، وأدومُ نفعاً في الحروب ، وأضرى وأدربُ دربةً ، وأغضُ  
مكيدةً<sup>(١)</sup> ، وأشدُّ احتراساً وأطفُ احتيلاً ؛ حتَّى يكون الخيار في يد الناظر  
للتصفّح لمعانيه ، والمقلبُ لوجوهه ، والمفكرُ في أبوابه ، والمقابلُ بين أوله  
وآخره ، فلا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلدنا تفضيلَ بعضٍ  
على بعضٍ ، بل [ لعلنا أن لا<sup>(٢)</sup> ] نُخبرَ عن خاصّة ما عندنا بحرف واحدٍ .

فإذا دبرنا كتابنا هذا التدبيرَ ، وكان موضوعه على هذه الصّفة ، كان  
أبعدَ له من مذاهبِ الجدالِ والمراء ، واستعمالِ الهوى .

وقد ظنَّ ناسٌ أن أسماءَ أصنافِ الأجناس كما اختلفت في الصّورة  
والخطِّ والمجاء ، أن حقائقها<sup>(٣)</sup> ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمرُ  
على حسب ما توهمه ؛ ألا ترى أن اسمَ الشّاكرية<sup>(٤)</sup> وإن خالف في الصّورة  
والهجاء اسمَ الجنّد ، فإنَّ المعنى فيهما ليس يبعدُ ؛ لأنهم يرجعون إلى معنَى  
واحدٍ وعمل واحدٍ . والذي إليه يرجعون طاعةُ الخلفاء ، وتأييدُ السلطان .

وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب في أكثر المعاني ، ومجموعاً لأنهم في عامّة

(١) بعده في الأصل : « وأبدع طريقاً وأدوم نفعاً في الحروب » ، وهو تكرار .

(٢) التكملة من سائر النسخ .

(٣) ج ، ف : « كانت حقائقها » .

(٤) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفي القاموس : « الشاكرى : الأجير

المستخدم ، مغرب چاكر » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

الأسباب ، لم يكن ذلك بأعجب ممّن جعل الخال والدّا ، والحليف من الصّميم ، وابن الأخت من القوم .

وقد جعل ابن الملائعة<sup>(١)</sup> المولودُ على فراشِ البعل منسوبًا إلى أمّه .

وقد جعلوا إسماعيلَ وهو ابن عجميّين عربيّا ؛ لأنّ الله تعالى فتق لهاتِهِ بالعربيّة الميّنة على غير التلقين والترتيب ، ثمّ فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوِّ والتّقدير<sup>(٢)</sup> ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء ، [وركبه اختراعاً<sup>(٣)</sup>] على ذلك التركيب ، وسوّاه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصّيّغة<sup>(٤)</sup> ، ثمّ حباه من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبّعه من كرمهم وأنفثهم وهمهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلاً على نبوّته ؛ فكان أحقّ بذلك النّسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

٢٥ ظ

وكما جعل إبراهيمُ أباً لمن لم يلدّه ، فالبَنَوِيُّ خُرَاسانيٌّ من جهة الولادة ، والمولى عربيٌّ من جهة المدّعى والعاقلة<sup>(٥)</sup> . وإنّ أحاطَ علمنا بأنّ زيّداً لم يخلق من نَجَلِ عمرو إلّا عماراً لنفيّناه عنه<sup>(٦)</sup> ، وإنّ وثّقنا<sup>(٧)</sup> أنّه لم يخلق من صُلْبِهِ .

(١) الملائعة : أن يقذف الرجل امرأته برجل أنه زنى بها .

(٢) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « والتمرين » .

(٣) التكملة من سائر النسخ .

(٤) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « الصيغة » .

(٥) انظر ماسبق في ص ١٢ الحاشية ٣ .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « إلا بما هو ألحقناه به » .

(٧) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « وإن أيقنا » .

وكا جعل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه أمهات المؤمنين وهنَّ لم يلدنهم ولا أرضنهم ، وفي بعض القراءات<sup>(١)</sup> : ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ﴾ ، على قوله : ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(٢)</sup> . وجعل المرأة من جهة الرضاع أمًا ، وجعل [ امرأة ] البعل أم ولد البعل من غيرها ، [ وجعل ] الرابَّ والدًا ، وجعل العمَّ أبًا [ في كتاب الله ]<sup>(٣)</sup> . وهم عبيده لا يتقلبون إلَّا فيما قلبهم فيه . وله أن يجعل من عبادِه مَنْ شاء عربيًّا ومن شاء عجميًّا ، ومن شاء قرشيًّا ، ومن شاء زنجيًّا ؛ كما له أن يجعل من شاء ذكرًا ومن شاء أنثى ، [ ومن شاء خنثى ]<sup>(٤)</sup> ، ومن شاء أفرده من ذلك فجعله لا ذكرًا ولا أنثى ولا خنثى .

وكذلك خلق الملائكة وهم أكرمُ على الله من جميع الخليفة . وخلق آدم فلم يجعل له أبًا ولا أمًا ، وخلق من طينٍ ونسبه إليه ، وخلق حواء من ضلع آدم وجعلها له زوجًا وسكنًا . وخلق عيسى من غير ذكرٍ ونسبه إلى أمه التي خلقه منها . وخلق الجانَّ من نار السموم ، وآدم من طينٍ ، وعيسى من غير نُطفة . وخلق السماء من دُخانٍ ، والأرض من الماء ، وخلق إسحاق من عاقِرٍ . وأطلق عيسى في المهد ، وأطلق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلم سليمان منطق الطير ، وكلام النمل ، وعلم الحفظة من الملائكة جميع الألسنة حتَّى كتبوا بكلِّ خطٍّ ، ونطقوا بكلِّ لسان . وأطلق ذئب أهبان بن أوس<sup>(٥)</sup> .

(١) هي قراءة أبي وعبد الله بن مسعود في الآية ٦ من سورة الأحزاب .

تفسير أبي حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) هذه التكملة والثتان قبلها من سائر النسخ .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كله ثم بشره بالرسول ، =



والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والمجانين [ منهم <sup>(١)</sup> ] ، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بلسان أهل الجنة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والتلقين . فكيف يتمجّب الجاهلون من إنطلق إسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الحواضن ؟ !

وهذه المسألة ربّما سأل عنها بعض القحطانية ، ممن لا علم له ، بعض العدنانية ، وهي على القحطانيّ أشدّ . فأما جواب العدنانيّ فليس النظام سهل الخروج ، و ٢٦ و قريب المعنى ؛ لأنّ بني قحطان لا يدعون لقحطان نبوّة <sup>(٢)</sup> فيعطيه الله مثل هذه الأعجوبة .

وما الذي قسم الله - عزّ اسمه - بين الناس من ذلك ، إلّا كما صنع في طينة الأرض ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضه ذهباً ، وبعضه نحاساً ، وبعضه رصاصاً ، وبعضه حديداً ، وبعضه تراباً ، وبعضه فخّاراً . وكذلك الزّاج <sup>(٣)</sup> ، والمفرة ، والزّرنيخ ، والمرتك ، والكبريت <sup>(٤)</sup> ، والقار <sup>(٥)</sup>

= انظر تفصيل ذلك في عمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣ ، ٥١٣ / ٤ : ٧ / ٨٠ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ . في الأصل : « لحيان » ، صوابه في مائر النسخ والمراجع المتقدمة .

(١) التكملة من م ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « بنوم » ، تحريف .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الزجاج » ، تحريف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « والطين » ، صوابه في سائر النسخ .

(٥) في بعض أصول ن وس : « والقار » تحريف . والقار : الزفت .

والتوتيا، والثوشادر<sup>(١)</sup>، والمرقشينا، والمغنطيس .

ومن يَحْصِي عددَ أجزاء الأرض<sup>(٢)</sup>، وأصناف الفلزِّ ؟ !

وإذا كان الأمر على ما وصَّفتنا فالبَنَوِيُّ خراسانيّ . وإذا كان الخراسانيّ مولّى ، والمولّى عربيّ - فقد صار الخراسانيّ والبَنَوِيُّ والمولّى والعربيّ واحداً .

وأدنى ذلك أن يكون الذي معهم من خصال الوفاق غامراً ما معهم من خِصال الخلاف ، بل هم في معظم الأمر وفي كُبر الشأن<sup>(٣)</sup> وعمود النسب متفقون . والأتراكُ خراسانيّة وموالى الخلفاء قُصرة<sup>(٤)</sup> ، فقد صار التركيّ إلى الجميع راجعاً ، وصار شرفه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرف سائرُ ذلك ساحت النفوس ، وذهب التعقيد<sup>(٥)</sup>، ومات الضغن ، واقطع سبب الاستئصال ؛ فلم يبقَ إلّا التحاسد والتنافسُ الذي لا يزال يكون بين المتقاربين في القرابة وفي الجاورة .

على أن التّوازَرَ والتسالم<sup>(٦)</sup> في القرابات وفي بنى الأعمام والعشائر ، أفشى وأعمُّ من البُعداء .

(١) انظر حواشي الحيوان ٣ : ٣٧٧ و ٥ : ٣٤٩ .

(٢) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « جواهر الأرض » .

(٣) كبر الشأن ، بكسر الكاف وضمها : معظمه . وبهما قرئ قوله تعالى : « والذي تولى كبره منهم » .

(٤) قُصرة ، بالضم ، أى أدنى إليهم ، كما يقال هو ابن عمى قُصرة ، أى داني النسب . وفي الأصل وبعض أصول ن : « نصرة » .

(٥) التعقيد كناية عن الضغينة المعقودة ، ويقولون للرجل إذا سكن غضبه : قد تحلّت عقده . وفي الأصل وبعض أصول ن : « التعقل » ، تحريف .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « فإن التوازن في الفساد » ، صوابه في سائر النسخ .

وَلَحُوفِ التَّخَاذُلِ وَلِحَبِّ التَّنَاصُرِ ، وَالْحَاجَةِ إِلَى التَّعَاوُنِ - انْضَمَّ بَعْضُ الْقَبَائِلِ فِي الْبُوَادِي إِلَى بَعْضٍ ، يَنْزِلُونَ مَعًا وَيَطْعَنُونَ مَعًا . وَمَنْ فَارَقَ أَصْحَابَهُ أَقَلٌّ<sup>(١)</sup> ، [و] مَنْ نَصَرَ ابْنَ عَمِّهِ أَكْثَرُ . وَمَنْ اغْتَبَطَ بِنِعْمَتِهِ وَتَمَنَّى بَقَاءَهَا وَالزِّيَادَةَ فِيهَا أَكْثَرُ مِمَّنْ بَغَاها الْغَوَائِلُ<sup>(٢)</sup> ، وَطَلَبَ انْقِطَاعَهَا وَزَوَالَهَا . وَلَا بَدَّ فِي أَضْعَافِ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ التَّنَافُسِ وَالتَّخَاذُلِ ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ .

وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ تَصْفُو الدُّنْيَا وَتَنْقَى مِنَ الْفَسَادِ وَالْمَسْكُورَةِ<sup>(٣)</sup> حَتَّى يَمُوتَ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ ، وَتَسْتَوِيَ لِأَهْلِهَا ، وَتَتَمَهَّدَ لِسُكَّانِهَا عَلَى مَا يَشْتَهُونَ وَيَهْوَوْنَ ؛

لَأنَّ ذَلِكَ مِنْ صِفَةِ دَارِ الْجَزَاءِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ صِفَةُ دَارِ الْعَمَلِ .

ظ ٢٦

(١) فِي الْأَصْلِ : « أَوْلَى » .

(٢) الْغَوَائِلُ : لِلْهَلَكَاتِ . وَيُقَالُ بَغَيْتُكَ الشَّيْءَ : طَلَبْتَهُ لَكَ وَتَمَنَيْتَهُ . وَفِي التَّنْزِيلِ

الْعَزِيزِ : « يَبْغُونَكَ الْفِتْنَةَ » ، أَيْ يَبْغُونَ لَكَ .

(٣) نَقَى الشَّيْءَ يَنْقَى : صَارَ نَقِيًّا خَالِصًا .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيامَ المعتصم بالله<sup>(١)</sup>، رضى الله عنه ، فلم يفصل إليه ، لأسبابٍ يطول شرحها ، فلذلك لم أعرضُ للإخبار عنها . وأحببتُ أن يكونَ كتاباً قَصِداً ، ومذهباً عدلاً ، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ في مدح قوم ، وإغراقٍ في هجاء آخرين . وإن كان الكتابُ كذلك شابهَ الكذب ، وخالفه التزيُّد ، وبُنِيَ أساسُه على التكلُّف ، وخرج كلامُه مخرجَ الاستكراه والتعليق<sup>(٢)</sup> .

وأفنعُ الدائح<sup>(٣)</sup> للمادح وأجداها على الممدوح ، وأبقاها أثراً وأحسنها ذكراً : أن يكونَ للديحِ صدقاً ، وللظاهر<sup>(٤)</sup> من حالِ الممدوح موافقاً ، وبه لا ثقتاً ، حتَّى لا يكونَ من المعبرِ عنه والواصفِ [ له<sup>(٥)</sup> ] إلا الإشارةُ إليه ، والتنبيةُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذلك في مناقب الأتراكِ إلا بذكر مثالب سائر الأجناد ، فتركُ ذكرِ الجميعِ أضوب ، وإلا ضربُ عن [ هذا الكتاب

(١) بويح المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسرمن رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .

(٢) التعليق ، المراد به العسر ، كما يغلق الباب تغليقاً . وفي جميع الأصول : « التعليق » بعين مهملة .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « المدح » ، ولا تساوق سائر الكلام .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « والظاهر » ، والوجه من سائر النسخ التي سقطت منها كلمة « من » بعدها .

(٥) التكملة من سائر النسخ ، وقد سقطت من بعض أصول ن .

أحزم ، وذكر الكثير من<sup>(١)</sup> [ هذه الأصناف بالجميل<sup>(٢)</sup> ] ، لا يقوم بالقليل<sup>(٣)</sup> من ذكر بعضهم بالقبيح ، لأنّ ذكر الأكثر بالجميل نافلة ، وباب من التطوُّع ، وذكّر الأقلّ بالقبيح معصية ، وباب من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدى علينا من كثير التطوُّع .

ولكلّ نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ؛ وإنّما يتفاضل الناس بكثرة الحسن وقلة المساوى . فأما الاشتغال على جميع الحسن ، والسلامة من جميع المساوى دقيقتها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يُعرف . وقد قال النابغة :

ولست بمسبقي أخاً لا تأمّه على شعث ، أيُّ الرجال المهذبُ  
وقال حريش السعدي<sup>(٤)</sup> :

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه تلون ألواناً على خطوبها  
إذا عبت منه خلّة فتركته دعني إليه خلّة لأعيها  
وقال بشار<sup>(٥)</sup> :

إذا كنت في كلّ الأمور معاتباً خليلاً لم تلقَ الذي لا تُعاتبه

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) في الأصل : « أجمل » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) في الأصل : « لا يقوم الكثير من ذكر بعضهم بالجميل بالقليل » ، وتوجيه

العبارة من باقي النسخ .

(٤) في الأصل : « مرس السعدي » ، وأثبت ما في سائر النسخ . والبيتان

بدون نسبة في عيون الأخبار ٣ : ١٧ .

(٥) ديوان بشار ١ : ٣٠٩ وحامسة البحتري ١٠٠ وحامسة ابن الشجري ١٤٣

والأغاني ٣ : ٧٧ والتمثيل والمحاضرة للتحالي ٧٤ .

فِشْ واحدًا أو صِلْ أخاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ  
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى ظَمِيتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مِشَارِبُهُ  
وقال مطيع بن إلياس اللّيثي :

وَلَنْ كُنْتَ لَا تَصَاحِبُ إِلَّا صَاحِبًا لَا تَزِلُّ ، مَا عَاشَ ، نَعْلُهُ  
لَمْ تَجِدْهُ وَلَوْ جَهَدْتَ وَأَنْتَ بِالَّذِي لَا يَكُونُ يُوجَدُ مِثْلُهُ  
إِنَّمَا صَاحِبِي الَّذِي يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَكْفِيهِ مِنْ أَخِيهِ أَقْلُهُ  
وقال محمد بن سعيد<sup>(١)</sup> ، وهو رجل من الجُند :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَيْدِيْ لَمْ تُنَمِّنْ وَإِنْ هِيَ جَلَّتْ  
فَتَى غَيْرَ مُحْجُوبٍ الْغِنَى عَنْ صَدِيقِهِ  
وَلَا مُظْهِرٍ الشُّكُورَى إِذَا النُّعْلُ زَلَّتْ  
رَأَى خَلْقِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَدَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

(١) في معجم الشعراء للمرزباني ٤٢١ أنه محمد بن سعد الكاتب التيمي ، وأنه شاعر بغدادى . وقيل الشعر لأبى الأسود الدؤلى وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص فيينا هو يحدث إذ ظهر كم قميصه من تحت جيبه وبه خرق ، فلما انصرف بعث إليه بعشرة آلاف درهم ومائة ثوب ، فقال هذا الشعر . وقيل الشعر لعبد الله بن الزبير الأسدي ، وأنه أتى عمر بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . اللآلى ١٦٦ . ونسب إلى إبراهيم بن العباس الصولى في مجموعة المعانى ٩٦ ومعجم الأدباء ٥ : ٢٥٨ مرجليوت وابن خلكان ٢ : ٢٤٧ . وقيل لعمرو بن كميل يمدح عمرو بن ذكوان وكان قد رآه وعليه جبة بلا قميص فتشفع له حتى ولى الحرب بالبصرة ، فأصاب في ولايته مالا عظيما . أو هو رجل من أشرف المدينة أنعم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قميصه من تحت جيبه . شرح التبريزى للحماسة . والأبيات بذون نسبة في الحماسة ١٥٨٩ بشرح الرزوقي وحماسة البحترى ١٥٩ والكمال ١٢٣ .

فإذا كان الخلقاء<sup>(١)</sup> من جمهور الناس، وأصحابُ المعاش من دُهاء الجماعة، يرون ذلك واجباً وتديراً في التعامل، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ للصواب، وامتزاج الضعف بالقوة، فلسنا نشكُّ أنَّ الإمامَ الأكبرَ والرئيسَ الأعظم، مع الأعراقِ الكريمة والأخلاقِ الرفيعة، والتَّمام في الحلم والعلم، والكمال في الحزم والقزم، مع التمكن والقُدرة، والفضيلة والرِّئاسة [ والسيادة<sup>(٢)</sup> ]، والخصائص التي معه من التَّوفيق والعِصمة، والتأييد وحسن المعونة، أنَّ الله<sup>(٣)</sup> جلَّ أسمى لم يكن ليُجلِّله باسم الخلافة، ويحبَّوه بتاج الإمامة، وبأعظم نعمة وأسبغها، وأفضل كرامة وأسناها، ثم وصل طاعته بطاعته، ومعصيته بمعصيته، إلَّا ومعه من الحلم في موضع الحلم، والعفو في موضع العفو، والتَّغافل في موضع التَّغافل، ما لا يبلُغُه فضلُ ذي فضل، ولا حِلْمُ ذي حلم.

ونحن قائلون، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله، فيما انتهى إلينا في أمر الأتراك:

زعم محمدُ بنُ الجهم، وثُمَامَةُ بنُ أشرس، والقاسمُ بنُ سيار، في جماعة ٢٧ ظ  
عن يَفْشَى دارَ الخلافة، وهي دارُ العامَّة<sup>(٤)</sup>، قالوا جميعاً:

يُنا مُحَمَّدُ بنُ عبد الحميد جالساً ومعه بخشاد الصُّفدي<sup>(٥)</sup>، وأبو شجاع

(١) في الأصل وبعض أصول ن: «الخطاء»، صوابه في سائر النسخ.

(٢) التكملة من سائر النسخ.

(٣) في الأصل، وبعض أصول ن: «وأن الله»، وفي سائر النسخ: «لم يكن الله».

(٤) ف فقط: «الإمامة».

(٥) ن، س: «بخشاد ج، ف: «إخشيذ الصفدي».

[ شبيب<sup>(١)</sup> ] بن بخار اخداى البلخى ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المعدودين المتقدمين فى العلم بالحرب [ من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة<sup>(٢)</sup> ] فى صناعات الحرب<sup>(٣)</sup> ، إذ خرج رسول المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرقين<sup>(٤)</sup> ومُجتمعين : ليكتب كل رجلٍ منكم دعواه وحجته ، وليقل أيُّما أحبُّ إلى [ كلٍّ<sup>(٥)</sup> ] قائدٍ منكم إذا كان فى عدته من صحبه وثقاته : أن يلقى مائة تركيٍّ أو مائة خارجيٍّ ؟ فقال القوم جميعاً : [ لأنَّ<sup>(٦)</sup> ] نلقى مائة تركيٍّ أحبُّ إلينا من أن نلقى مائة خارجيٍّ ! وحميد<sup>(٧)</sup> ساكت .

فلما فرغ القوم [ جميعاً ] من حُجَجهم<sup>(٨)</sup> ، قال الرسولُ : قد قال القوم فقلُّ

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) فى سائر النسخ : « بصناعة الحرب » . وكذا فى بعض أصول ن .

(٣) فى سائر النسخ وبعض أصول ن : « متفرقين » .

(٤) التكملة من سائر النسخ .

(٥) التكملة من ف فقط .

(٦) هو أبو غانم حميد بن عبد الحميد الطوسى ، أحد أمراء الدولة العباسية وقوادها وأجوادها ، وهو أحد من وطد الخلافة للمأمون بهزيمة إبراهيم بن المهدي . وكان لأبى القتاهية وعلى بن جبلة وأبى تمام فيه مدائح . كما رثاه أبو تمام ورثى بنيه عمداً وقحطبة وأبا نصر بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها غدر

وقد قتل بشربة صنعها له جبريل بن يحنشوع سنة ٢١٠ . الأغاني ١٩ :

١٠٠ - ١١٤ والضربى ٩ : ٢٤٥ - ٢٥٤ وأسماء القتالين من نوادر المخطوطات

٢ : ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٧) فى الأصل وبعض أصول ن : « حجتهم » ، وأثبت ما فى سائر النسخ

وكلمة « جميعاً » قبله تكملة من ف وبعض أصول ن .



واكتب قولك ، وليكن حجة لك أو عليك . قال : بل ألقى مائة خارجي أحب إليّ ؛ لأنني وجدت الخصال التي يفضل بها الخارجي جميع المقاتلة غير تامة في الخارجي ، ووجدتها تامة في التركي . ففضل التركي على الخارجي بقدر فضل الخارجي على سائر المقاتلة ، ثم بان التركي عن الخارجي بأمور ليس فيها للخارجي دعوى ولا متعلق . على أن هذه الأمور التي بان بها التركي عن الخارجي ، أعظم خطراً وأكثر نفعا ، مما شاركه الخارجي في بعضها<sup>(١)</sup> .

ثم قال حميد : والخصال التي يصل بها الخارجي على سائر الناس صدق الشدة عن أول وهلة ، وهي الدفعة التي يبذلونها بها ما أرادوا ، وينالون الذي أملوا<sup>(٢)</sup> .

والثانية : الصبر على الخلب وعلى طول الشرى ، حتى يصبح القوم [ الذين مرقوا بهم<sup>(٣)</sup> ] غارين<sup>(٤)</sup> فيجمعوا عليهم وهم بسوء<sup>(٥)</sup> ، ولحم على وضهم<sup>(٦)</sup> ، يتعجلونهم عن الروية ، وعن رد النفس عن النزوة والجلولة ؛ لا يظنون أن أحداً يقطع في ذلك المقدار من الزمان ذلك المقدار من البلاد .

(١) ج ، ف : « في بعضه » .

(٢) ج ، ف : « وينالون بها ما أملوا » .

(٣) التكهة من سائر النسخ . والروق : المرور بسرعة ، كما يمرق السهم من الرمية .

(٤) غارين : غافلين .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « بشر » .

(٦) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير يوقى به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

والثالثة : أن الخارجى موصوف عند<sup>(١)</sup> الناس بأنه إن طلب أدرك ، وإن طلب فات .

والرابعة : خفة الأزواد وقلة الأمتعة ، وأنها تجنب الخيل<sup>(٢)</sup> وتركب البغال ، وإن احتاجت أمتت بأرض وأصبحت بأخرى ، وأنهم قوم حين خرجوا لم يخلّفوا الأموال الكثيرة ، والجنان اللتفة ، والدور المشيدة ، ولا ضياعاً ولا مستغلات ، ولا جوارى مطهّات<sup>(٣)</sup> ، ولا أنهم<sup>(٤)</sup> لا سلب لهم ولا مال معهم فيرغب الجنّد في لقاءهم ، وإنما هم كالطير لا تدّخر ولا تهتمّ لعدّ ، ولها في كلّ أرض من المياه والأقوات ما يتبلّغ به<sup>(٥)</sup> ، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجنتها تُقرّب لها البعيد ، وتسهّل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القرى والمطعم ، وإن تمنّع عليهم في بنات شحّاج وبنات صّهال<sup>(٦)</sup> ، وخفة الأثقال على طول الخبب ، ما يسهّل أقواتها ، ويكثر من أرزاقها .

(١) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « بعد » .

(٢) أى تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٣) المطهم من الناس والخيل : الحسن التام كل شيء منه على حدته ، فهو بارع الجمال .

(٤) التكملة من ج ، ف وبعض أصول ن .

(٥) ج ، ف وبعض أصول ن : « من المياه والبزور ما يقوتها » .

(٦) بنات شحّاج ، هى البغال ، لأنها تشحج بصوتها . وبنات صّهال ، هى الأفراس ، فللفرس صهيل . ويقال بنات شاحج أيضاً . وبنات صّهال لم ترد في اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت في الزهر ١ : ٥٢٥ .

والخامسة : أن الملوك إن أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أوزارهم<sup>(١)</sup> وأثقالهم ، وليقوؤا على التنقل كقوتهم ، لم يقوؤا عليهم ؛ لأن مائة من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثفوا الجيش بالجيش ، وضاعفوا العدد [ بالعدد<sup>(٢)</sup> ] ثقلوا عن طلبهم ، وعن الفتوت إن طلبهم عدوهم . ومتى شاء الخارجى أن يقرب منهم ليتطرقهم<sup>(٣)</sup> أو ليصيب الغرة منهم ، أو ليسلبهم ، ففعل ذلك ثقة بأنه يغتم عند الفرصة<sup>(٤)</sup> ورؤية العورة ، ويمكنه الهرب عند الخوف . وإن شاء كبسهم ليقطع نظامهم ، أو ليقطع<sup>(٥)</sup> القطعة منهم .

قال حميد : فهذه هي مفاخرهم وخصالهم ، التي لها كره القواد لقاءهم .  
قال قاسم بن سيار : وخصلة أخرى ، وهي التي رعبت القلوب وخلعتها ، ونقضت العزائم وفسختها ، وهو ما تسمع الأجناد ومقاتلة العوام ، من ضرب المثل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخیلُ والمحاذِرُ للقرى

رأى الضیفَ مثل الأزرقِ الجفِّفِ<sup>(٦)</sup>

(١) الأوزار : جمع وزر بالكسر ، وهو الحمل الثقيل . ف ، ج وبعض أصول ن : « أزوادهم » ، وهو جمع زاد .

(٢) التكملة من سائر الأصول .

(٣) التطرف : الإغارة من حول العسكر .

(٤) في الأصل : « ولعلم ذلك فانه يغتم عن الفرصة » ، وصوابه من سائر النسخ .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « ليقطع » .

(٦) الجفّف : الذى جفف فرسه بالجفاف ، وهو ما جلد به من سلاح وآلة تقيه الجراح .

وكقول الآخر :

وَقَلْبٍ وَدٌّ حَالٍ عَنْ عَهْدِهِ وَالسَّيْفُ يَنْبُو بِبَيْدِ الشَّارِي

وكقول الآخر :

لِقَاءِ الْأَسَدِ أَهْوَنُ مِنْ لِقَاءِهِ إِذَا التَّحْكِيمُ يَسْهَرُ بِالْأَصِيلِ

فهذه زيادة قاسم بن سيار .

فأما حميد فإنه قال :

الشَّدَّةُ الْأُولَى التَّرْكِيُّ فِيهَا أَحَدٌ [أثراً، وأجمع<sup>(١)</sup>] أمراً، وأحكم شأننا ؛  
لأنَّ التَّرْكِيَّ مَنْ أَجَلَ أَنْ تَصْدُقَ شِدَّتُهُ وَيَتِمَّكَنَ عَزْمُهُ ، وَلَا يَكُونُ مَشْتَرَكُ الْعَزْمِ  
وَلَا مُنْقَسِمِ الْخَوَاطِرِ ، قَدْ عَوَّدَ بِرِذْوَنِهِ أَلَّا يَنْتَنِي وَإِنْ ثَنَاهُ ، أَنْ يَمْلَأُ فَرْجَهُ<sup>(٢)</sup>  
لِلْأَمْرِ يَدِيرُهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ لَا يَدْعُ سَنَنَهُ ، وَلَا يَقْطَعُ رِكْضَهُ . وَإِنَّمَا  
أَرَادَ التَّرْكِيَّ أَنْ يُوَثِّسَ نَفْسَهُ مِنَ الْبَدَوَاتِ<sup>(٣)</sup> ، وَمَنْ أَنْ يَعْتَرِيَهُ التَّكْذِيبُ بَعْدَ  
الْإِعْتِزَامِ ، لَهَوُلِ [ اللِّقَاءِ<sup>(٤)</sup> ] ، وَحُبِّ الْحَيَاةِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ صَيَّرَ بِرِذْوَنِهِ  
إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ حَتَّى لَا يَنْتَنِي وَلَا يُجْبِيهِ إِلَى التَّصَرُّفِ مَعَهُ إِلَّا بِأَنْ يَصْنَعَ شَيْئاً بَيْنَ  
الصَّغِيرَيْنِ فِيهِ عَطْبُهُ ، لَمْ يُقَدِّمِ عَلَى الشَّدَّةِ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِ الْأَمْرِ ، وَالْبَصَرِ

٢٨ ظ

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) الفروج : ما بين قوائم الفرس ، وملؤها كناية عن الإسراع وشدة العدو حتى لا تكاد تبدو .

(٣) البدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر .

(٤) موضع هذه الكلمة يباض في الأصل ، وإثباته من سائر النسخ . وفي الأصل : « لظول » ، تحريف .

بالعورة<sup>(١)</sup> . وإنما يريد أن يُشَبِّه نفسه بالمُحَرَّج الذي إذا رأى أشدَّ القتال<sup>(٢)</sup> لم يدعْ جهداً ولم يدَّخِرْ حيلةً ، ولينفَى عن قلبه خواطرَ الفرار ، ودواعي الرجوع .  
وقال : الخارجىُّ عند الشدَّةِ إنما يعتمد على الطَّعان ، والأتراك تطعن طعنَ الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألفُ فارسٍ فرَمُوا رِشْقاً واحداً صرعوا ألفَ فارس ، فما بقاء جيشٍ على هذا النوع من الشدَّةِ !

والخوارج والأعراب ليست لهم رِمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ، والتركيُّ يرمى الوحشَ والطَّيرَ ، والبرجاس<sup>(٣)</sup> ، والنَّاسُ<sup>(٤)</sup> ، والمجسَّمة ، والمُشَلِّ الموضوعة ، ويرمى وقد ملأُ فروجَ دابَّته مُدبراً ومُقبلاً ، وبِمنَّةٍ وبِسرَّة ، وصُعداً وسُقلاً ، ويرمى بعشرة أسهم قبل أن يُفَوِّقَ الخارجىُّ سهماً واحداً<sup>(٥)</sup> ، ويركض دابَّته منحدراً من جَبَل ، أو مستفلاً إلى بطن وادٍ بأكثر مما يمكن الخارجىُّ على بَسِيط الأرض .

وللتركيُّ أربعة أعين<sup>(٦)</sup> : عينان في وَجْهِه ، وعينان في قفاه . وللخارجىُّ

(١) في الأصل : « والنظر إلى العودة » وكذا في بعض أصول ن ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) في الأصل : « إذا أثر القتال » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) سبق تفسيره في ص ٣١ .

(٤) انظر ما سيأتى في ص ٤٨ س ٦ و ٥٩ س ٢ .

(٥) فوق السهم : جعل له فوقاً ، والفوق بالضم : موضع الوتر من السهم ، والمراد وضع السهم في الفوق .

(٦) كذا بتأنيث الأربعة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز في العربية مذكور في المطولات . انظر الصبان ٤ : ٦٣ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس ؛ فإنه يجوز فيه وجهان .

عيبٌ في مُستدبرِ الحرب ، وللخراسانيّ عيبٌ في مُستقبلِ الحرب . فعيب  
الخراسانيّة أنّ لها جولةً عند أوّل الالتقاء<sup>(١)</sup> ، وإن ركبوا [ كُسنَاهُم<sup>(٢)</sup> ]  
كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يثوبون ، وذلك [ بعد<sup>(٣)</sup> ] الخطار بالعسكر ،  
وإطماع العدو في الشدّة .

والخوارج إذا ولّوا فقد ولّوا وليس لهم بعد الفرّ كرّ ، إلّا ما لا يُعدّ .  
والتركيّ ليست له جولةُ الخراسانيّ ، وإذا أدبرَ فهو السّمّ الناقع ، والحتف  
القاضي ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقبل ، ولا يؤمن  
وهقه<sup>(٤)</sup> ، ولا انتسافُ الفرس<sup>(٥)</sup> ، واختطافُ الفارس بتلك الرّكضة .

ولم يُفلت من الوهق في جميع الدّهر إلّا المهلب بن أبي صفرة ، والحريش  
ابن هلال<sup>(٦)</sup> ، وعباد بن الحُصين<sup>(٧)</sup> . وربّما رمى بالوهق وله فيه تدبير آخر

٢٩ و

- 
- (١) في الأصل : « بين أوّل الالتقاء » ، ووجه من سائر النسخ .  
(٢) موضعها يابض في الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ ما عدا ف ، فيها :  
« أ كسَاءهم » بالجمع . ويقال ركب كسَاءه : وقع على قفاه ، والمراد أدبروا وتقهقروا .  
وكسء كل شيء : مؤخره . (٣) إثباتها من سائر النسخ .  
(٤) الوهق ، بالتحريك : جبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشودة ، فتؤخذ فيه  
الدابة والإنسان ، وجمعه أوهاق . والكلام بعده إلى كلمة « المرمى » ساقط من  
ج ، ف ، وبعض أصول ن .

(٥) انتسف الشيء : اقتلعه . قال أبو النجم :

وانتسف الجالب من أندابه إغباطنا ليس على أصلا به

(٦) في الاشتقاق ٣٥٧ : « الحريش بن هلال بن قدامة ، كان من فرسان  
بني تميم ، وله أيام بخراسان مشهورة » .

(٧) هو عباد بن الحُصين بن يزيد التميمي ، كان شجاعاً رئيساً . جمهرة ابن حزم  
٣١٣ والاشتقاق ٢٠٣ والبيان ٤ : ٣٦ .

وإن لم يَجْنُبِ المرمى معه ، يوم الجاهل أن ذلك إنما كان لخرق التركي<sup>(١)</sup> ،  
أو لحذق المرمى .

قال : وهم علموا الفرسانَ حمل قوسين وثلاثة قسي ، ومن الأوتار  
على حسب ذلك .

قال : والتركي في حال شدته ، معه كل شيء يحتاج إليه لنفسه وسلاحه  
ودابته وأداة دابته . فأما الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر ، وعلى طول  
السرى وقطع البلاد ، فمجببٌ جداً .

فواحدة : أن فرس الخارجي لا يصبر صبر برذون التركي .

والخارجي لا يحسن أن يعالج فرسه إلا معالجة الفرسان خيولهم ،  
والتركي أحذق من البيطار ، وأجود تقويماً لبرذونه على ما يريده من الرّاضة<sup>(٢)</sup>  
[ وهو استنتجته<sup>(٣)</sup> ] ، وهو ربّاه فلّوا ، وتتبعه إن سماه<sup>(٤)</sup> ، وإن ركض  
ركض خلفه . وقد عوّده ذلك حتّى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدم<sup>(٥)</sup> ،

(١) في الأصل : « لحذق » صوابه في ن ، س . والخرق ، بالضم : الجهل والحمق ،  
وتقيض الرفق .

(٢) الرّاضة : جمع راض ، وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذلّلها .  
وفي الأصل وبعض أصول ن : « الرّياضة » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) موضعها بياض في الأصل ، وإثباتها من النسخ .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « وثبته » ، صوابه من سائر النسخ .

(٥) أقدم : زجر للفرس ، وكذا أقدم . ومثله اجدّم وهجدّم ، كلها زجر

للفرس . في معظم النسخ : « اجدم » بالجم ، وهذه بوصل الهمزة وفتح الدال .

وَالنَّاقَةُ حَلَّ<sup>(١)</sup>، وَالْجَلَّ جَاهٍ، وَالْبَغْلُ عَدَسٌ، وَالْحَمَارُ سَاسَا، وَكَمَا يَعْرِفُ  
الْمَجْنُونُ لِقَبِّهِ وَالصَّبِيُّ اسْمَهُ.

وَلَوْ حَصَلَتْ عُمرُ التَّرْكِيِّ وَحَسِبَتْ أَيَّامَهُ لَوَجَدَتْ جُلُوسَهُ عَلَى ظَهْرِ دَابَّتِهِ  
أَكْثَرَ مِنْ جُلُوسِهِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ. وَالتَّرْكِيُّ يَرْكَبُ فَحْلاً أَوْ رَمَكَةً، وَيَخْرُجُ  
غَازِياً أَوْ مُسَافِراً، أَوْ مُتَبَاعِداً فِي طَلَبِ صَيْدٍ، أَوْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَتَتَّبِعُهُ  
الرَّمَكَةُ وَأَفْلَاؤُهَا، إِنْ أَعْيَاهُ اصْطِيَادُ النَّاسِ اصْطَادَ الْوَحْشِ، وَإِنْ أَخْفَقَ مِنْهَا  
أَوْ احْتَاجَ إِلَى طَعَامٍ فَصَدَّ دَابَّةً مِنْ دَوَابِّهِ، وَإِنْ عَطِشَ حَلَبَ رَمَكَةً مِنْ  
رِمَاكِهِ، وَإِنْ أَرَاكَ وَاحِدَةً تَحْتَهُ رَكَبَ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الْأَرْضِ.  
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَبَدَنُهُ يَنْتَقِضُ عَلَى اقْتِيَاتِ اللَّحْمِ وَحَدَهَ غَيْرُهُ؛  
وَكَذَلِكَ دَابَّتُهُ تَكْتَفِي بِالْعَنْقَرِ<sup>(٢)</sup> وَالْعُشْبِ وَالشَّجَرِ، لَا يَظْلُمُهَا مِنْ شَمْسٍ وَلَا يَكْنُهَا  
مِنْ بَرْدٍ.

قَالَ: وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى الْخَبَبِ فَإِنَّ الشَّغْرِيَّيْنِ<sup>(٣)</sup> وَالْفَرَاتِيَّيْنِ<sup>(٤)</sup>، وَالْخُصْيَانَ  
وَالْخَوَارِجَ، لَوْ اجْتَمَعَتْ قَوَاهِمُ فِي شَخِصٍ وَاحِدٍ لَمَا وَفَوْا بِتَرْكِيِّ وَاحِدٍ<sup>(٥)</sup>.

(١) وَيُقَالُ: «حَلَّى» أَيْضاً كَمَا فِي بَعْضِ النُّسخِ. وَقَالَ أَبُو النُّجُمِ:

\* وَقَدْ حَدَوْنَاهَا بِحُبِّ وَحَلَّ \*

(٢) الْعَنْقَرُ، بَضْمُ الْعَيْنِ وَالْقَافِ: أَوَّلُ الْبَقْلِ وَالْقَصْبِ وَالْبَرْدَى مَا دَامَ أَيْضُ  
مَجْتَمِعاً. فِي الْأَوَّلِ: «بِالْعَفْرِ»، صَوَابُهُ مِنْ سَأَرَ النَّسَخِ.

(٣) الْغُرَيُّونَ: نِسْبَةٌ إِلَى الثَّغْرِ، وَهُوَ وَاحِدٌ ثَغُورِ الشَّامِ، وَمِنْ أَشْهُرِ مَدَنِهِ  
أَنْطَاكِيَّةٌ وَبُزْرَاسٌ وَالْمَصِيصَةُ، وَأَوَّلُ أَهْلِهَا مِنَ الرُّومِ.

(٤) نِسْبَةٌ إِلَى الْفَرَائِقِ، يَعْنِي بِهِمْ عَمَالُ الْبَرِيدِ. وَيَدَّوْنَهُمْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ.  
وَالْفَرَائِقُ: الَّذِي يَدُلُّ صَاحِبُ الْبَرِيدِ عَلَى الطَّرِيقِ، مَعْرَبٌ «بِرْوَانَكَ».

(٥) يُقَالُ فِي الشَّيْءِ وَفِي بَيْتِهِ: عَادَلَهُ. وَفِي الْأَوَّلِ وَبَعْضِ أَصُولِ ن:  
«لَمْ يَوْفُوا»، تَحْرِيفٌ.



والتركي لا يبقى معه على طول الغاية إِلَّا الصَّيْمُ من دَوَابِّهِ<sup>(١)</sup> . [ و ] الذي يَقْتُلُهُ التركيُّ بِاتِّعَابِهِ لَهُ ، وَينْفِيهِ<sup>(٢)</sup> عِنْدَ غَرَائِهِ ، هُوَ الَّذِي لَا يَصْبِرُ مَعَهُ فَرَسُ الْخَارِجِيِّ ، وَلَا يَنْبَقِي مَعَهُ كُلُّ بَرْدَوْنٍ بُخَارِيٍّ<sup>(٣)</sup> . وَلَوْ سَايَرَ خَارِجِيًّا لَا سَتَفْرَغَ وَسَعَهُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْخَارِجِيَّ عَفْوَهُ<sup>(٤)</sup> .

وَالتركيُّ هُوَ الرَّاعِي ، وَهُوَ السَّائِسُ وَهُوَ الرَّائِضُ ، وَهُوَ النَّخَّاسُ ، وَهُوَ الْبَيْطَارُ ، وَهُوَ الْفَارَسُ . وَالتركيُّ الْوَاحِدُ أُمَّةٌ عَلَى حِدَةٍ .

قَالَ : وَإِذَا سَارَ التَّرْكِيُّ فِي غَيْرِ عَسَاكِرِ التَّرْكِ ، فَسَارَ الْقَوْمُ عَشْرَةَ أَمْيَالٍ سَارَ عَشْرِينَ مِيلًا ؛ لِأَنَّهُ يَنْقَطِعُ عَنِ الْعَسْكَرِ يَمَنَةً وَيَسْرَةً ، وَيُسْرِعُ فِي ذُرَى الْجِبَالِ ، وَيَسْتَبِطِنُ قُغُورِ الْأُودِيَةِ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَرْمِي [ كُلَّ<sup>(٥)</sup> ] مَا دَبَّ وَدَرَجَ ، وَطَارَ وَوَقَعَ .

قَالَ : وَالتَّرْكِيُّ لَمْ يَسِرْ فِي الْعَسَاكِرِ سَيْرَ النَّاسِ قَطُّ ، وَلَا سَارَ مُسْتَقِيمًا قَطُّ .

قَالُوا : وَإِذَا طَالَتِ الدُّلْجَةُ وَاشْتَدَّ السَّيْرُ ، وَبُعِدَ الْمَنْزِلُ ، وَاتَّصَفَ النَّهَارُ ، وَاشْتَدَّ التَّعَبُ ، وَشَغَلَ النَّاسَ الْكَلَالُ<sup>(٦)</sup> ، وَصَحَّتِ الْمَتَسَايِرُونَ فَلَمْ يَنْطَقُوا ،

(١) الصَّيْمُ : الْخَالِصُ الْمُخْصِ . فِي الْأَصْلِ : « الْإِطْلُوقُ الصَّيْمِ » ، صَوَابُهُ فِي سَائِرِ النُّسخِ .

(٢) فِي بَعْضِ أَصُولِ ن : « وَيَقِيهِ » .

(٣) نِسْبَةٌ إِلَى بُخَارَى . وَفِي بَعْضِ أَصُولِ ن : « بُخَارَى » .

(٤) الْعَفْوُ : مَا يَجِيءُ بِسَهْوَةٍ وَبِغَيْرِ كَلْفَةٍ . فِي سَائِرِ النُّسخِ : « لَا سَتَفْرَغُ جَهْدَهُ » .

(٥) التَّكْهَلَةُ مِنْ سَائِرِ النُّسخِ .

(٦) الْكَلَالُ : التَّعَبُ وَالْإِعْيَاءُ . ج ، ف وَبَعْضُ أَصُولِ ن : « الْكَلَامُ » ،

تَحْرِيفٌ

وقَطَعَهُمْ ما هم فيه عن التَّشَاغُلِ بالحديث ، وتَفَسَّخَ كُلُّ شَيْءٍ من شِدَّةِ الحرِّ ،  
 وخذ كُلُّ شَيْءٍ من شِدَّةِ البرد<sup>(١)</sup> ، وتمنَّى كُلُّ جَلِيدٍ القَوَى على طُولِ السَّرى<sup>(٢)</sup>  
 أَنْ تُطَوَّى له الأرض ، وكلَّمَا رأى خيالًا أو أبصر عِلْمًا<sup>(٣)</sup> سُرَّ به واستبشر ،  
 وظَنَّ أَنَّهُ قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغه الفارس نَزَلَ وهو متَفَحِّجٌ<sup>(٤)</sup> كأنَّهُ صَبِيٌّ  
 يَحْقُون ، يَتَنُّ أنينَ المريض ، ويستريح إلى الثَّأوب ، ويتداوى بما به بالتَمَطَّى  
 والتَضَجُّع . وترى التَّرَكَّى في تلك الحال وقد سار ضعَفَ ما ساروا وقد أتعَبَ  
 مَنَكِبِيهِ كَثْرَةُ النَّزْعِ<sup>(٥)</sup> ، يرى قُرْبَ المنزلِ عَيْرًا<sup>(٦)</sup> أو ظَبْيًا ، أو عَرَضَ له  
 ثَعْلَبٌ أو أرنب ، فيركضُ ركضَ مبتدئٍ مُسْتَأْنِفٍ ، كأنَّ الذي سار ذلك  
 السَّيرَ وتعَبَ ذلك التَّعَبَ غَيْرُهُ .

وإنْ بلغَ النَّاسُ وادِيًا فازدحموا على مَسَلِكِهِ أو [ على<sup>(٧)</sup> ] قنطَرَتِهِ ، بَطَنَ  
 بِرِذْوَنِهِ فَأَفْحَمَهُ<sup>(٨)</sup> ثم طَلَعَ من الجانب الآخر كأنَّهُ كوكب . وإن اتَّهَوْا إلى  
 عَقَبَةٍ صَعْبَةٍ تَرَكَ السَّيِّئُ<sup>(٩)</sup> وذهب في الجبلِ صُعْدًا ، ثم تدلَّى من موضعٍ يَعْجِزُ

(١) ج ، ف : « وتفسخ كل شيء من شدة البرد » فقط .

(٢) ف فقط : « قوى على طول السرى » .

(٣) أبصر ، من الأصل فقط . وفي الأصل : « عطاء » موضع « علما » ، صوابه  
 من باقى النسخ .

(٤) متفحج : قد فتح ما بين رجليه .

(٥) النزع فى القوس : مد وترها للرمى بسهامها .

(٦) فى الأصل وبعض أصول ن : « عنزا » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٧) التكملة من سائر النسخ .

(٨) بطنه بطنا : ضرب بطنه .

(٩) السنن : نهج الطريق ومحجته . فى الأصل ، ف : « السير » ، صوابه فى  
 سائر النسخ .

عنه الوعل ؛ وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذي ترى من مُطلعه . ولو كان في كل ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابع ذلك منه .

قال : ويفخر الخارجىُّ بأنه إذا طَلَب أدرك ، وإذا طَلِب لم يُدرك . ٣١ و  
والتركيُّ ليس يُحَوِّج إلى أن يفوت ؛ لأنه لا يُطلب ولا يُرام . ومن يروم  
[ ما لا يُطمع فيه ] ؟ !

فهذا . على أننا قد علمنا أنَّ العِلَّةَ التي عَمَّت الخوارجَ بالنَّجدة استواء حالاتهم في الدِّيانة ، واعتقادهم أنَّ القتالَ دين ؛ لأنَّنا حين وجدنا السَّجستانيَّ والخراسانيَّ والجزريَّ واليماحيَّ والمغرَّبِيَّ والعُمانيَّ ، والأزرقَ منهم والنَّجديَّ<sup>(١)</sup> والإباضيَّ والصفريَّ ، والمولى والعربيَّ ، والعجميَّ والأعرابيَّ ، والقيبيد والنِّساء ، والحائِك والفلاح ، كلُّهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان<sup>(٢)</sup> - علمنا أنَّ الدِّيانة هي التي سوَّت بينهم ، ووقَّعت بينهم في ذلك . كما أنَّ كلَّ حِجَّامٍ في الأرض من أيِّ جنسٍ كان ، ومن أيِّ بلدٍ كان ، فهو يحبُّ

---

(١) نسبة إلى نجدة بن عامر - وقيل عاصم - الحنفي . وهم النجدات أيضاً . وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع بن الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى اليمامة . وذلك في سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى ٧ : ٥٦ - ٥٧ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب الزبير بخيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم قم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة في تلك السنة . الطبرى ٧ : ١٩٤ . وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٢) في الأصل : « وسائر البلدان » ، صوابه من سائر النسخ .

النَّبِيذ ، وكما أَنَّ أَصْحَابَ الْخُلُقَانِ<sup>(١)</sup> وَالسَّامَكِينَ وَالنَّخَّاسِينَ وَالْحَاكَةَ فِي كُلِّ بَلَدٍ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ ، شِرَارُ خَلْقِ اللَّهِ فِي الْمُبَايَعَةِ وَالْمَعَامَلَةِ . فَعَلَمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ خِلْقَةٌ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ ، وَبَنِيَّةٌ فِي هَذِهِ التَّجَارَاتِ ، حِينَ صَارُوا مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ النَّاسِ كَذَلِكَ .

قال : ورأينا التُّرْكِيَّ فِي بِلَادِهِ لَيْسَ يِقَاتِلُ عَلَى دِينٍ وَلَا عَلَى تَأْوِيلٍ ، وَلَا عَلَى مُلْكٍ وَلَا عَلَى خَرَاكِجٍ ، وَلَا عَلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَا عَلَى غَيْرَةٍ دُونَ الْحُرْمَةِ وَالْمَحْرَمِ<sup>(٢)</sup> ، وَلَا عَلَى حِمْيَةٍ وَلَا عَلَى عَدَاوَةٍ ، وَلَا عَلَى وَطَنِ وَمَنْعِ دَارٍ وَلَا مَالٍ ؛ وَإِنَّمَا يِقَاتِلُ عَلَى السَّلْبِ وَالْخِيَارِ فِي يَدِهِ . وَلَيْسَ يَخَافُ الْوَعْدَ إِنْ هَرَبَ ، وَلَا يَرْجُو الْوَعْدَ إِنْ أَبْلَى عَذْرَاهُ . وَكَذَلِكَ هُمْ فِي بِلَادِهِمْ وَغَارَاتِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ . وَهُوَ الطَّالِبُ غَيْرِ الْمَطْلُوبِ ؛ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا يَأْخُذُ الْعَفْوَ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى [ مَجْهُودِهِ<sup>(٣)</sup> ] . ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ وَلَا يَطْمَعُ فِيهِ أَحَدٌ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ أَنْ لَوْ اضْطَرَّه إِجْرَاجٌ أَوْ غَيْرَةٌ أَوْ غَضَبٌ أَوْ تَدْيُنٌ ، أَوْ عَرَضَ لَهُ بَعْضُ مَا يَصْحَبُ الْمُقَاتِلَ الْحَافِيَّ مِنَ الْعِلَلِ وَالْأَسْبَابِ .

قال : وَقَنَاةُ الْخَارِجِيِّ طَوِيلَةٌ صَمَاءٌ ، وَقَنَاةُ التُّرْكِيِّ مِطْرَدٌ أَجُوفٌ<sup>(٤)</sup> . وَالْقُنَى الْجَوْفَةُ الْقِصَارُ أَشَدُّ طَعْنَةً وَأَخْفَى فِي الْحِمْلِ . وَالْعَجَمُ تَجْعَلُ الْقُنَى

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، وهو البالي . انظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) أى على غيرة على حرمة ومحرمه . فى الأصل وبعض أصول ن : « غير ذلك » صوابه فى سائر النسخ . (٣) موضعها بياض فى الأصل ، وإثباتها من ب .

(٤) المطرد : رمح قصير .

الطَّوَالَ الرَّجَالَةَ ، وهى قُنَى الأبناء<sup>(١)</sup> ، على أبواب الخنادقِ والمضايق . ٣٠ ظ  
والأبناء فى هذا الباب لا يَجْرُونَ مع الأتراك والخُرَاسَانِيَّة ؛ لَأَنَّ الغالبَ على  
الأبناء المطاعنةُ على أبواب الخنادق وفى المضايق ، وهؤلاء أصحابُ الخيلِ والفرسانِ  
وعلى الخيلِ والفرسانِ تدور الجيوش ، لهم الكُرُّ والفرُّ . والفارس هو الذى  
يَطْوِي الجيشَ طَيَّ السَّجَلِ ، ويفرِّقهم تفريق الشعر . وليس يكون الكمينُ  
إِلَّا منهم ولا الطَّلِيعَة ولا السَّاقَة<sup>(٢)</sup> . وهم أصحابُ الأيَّامِ المذكورة والحروبِ  
الكبارِ والفتوحِ العظامِ<sup>(٣)</sup> ، ولا تكون المقانب والسكتائبُ إِلَّا منهم .  
ومنهم من يحملُ البُنُودَ والرَّايَات ، والطُّبولَ والتجافيف<sup>(٤)</sup> والأجراس .  
وهم أصحابُ الصَّهِيلِ والقتامِ<sup>(٥)</sup> ، وزجرِ الخيلِ ، وققععةِ الرِّيحِ فى الثَّيابِ<sup>(٦)</sup>

(١) الأبناء ، قوم من الفرس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء  
يستنجد على الحبشة ، فصرّوه وملكوا اليمن وتديّروها ، وتزوجوا فى العرب قليل  
لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم .  
اللسان ( بنو ) . وفى التنبيه والإشراف ٢٢٦ أنهم الذين ساروا مع خرزاذ بن نرسى  
ابن جاماسب أخى قياذ بن فيروز . وفى ص ٤٢١ أنهم الذين شخصوا مع وهرز  
إلى اليمن . ويبدو أن جميع الذين اجتذبتهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب  
كان العرب يسمونهم الأبناء .

(٢) كذا فى الأصل وبعض أصول ن . وفى ب : « وليس يكون الكمين  
ولا الطليعة ولا الساقة إلا الكبار منهم » .

(٣) الكلام بعده إلى موضع التنبيه فى ص ٦٥ لم يرد فى ج ، ف . وسأنبه على  
ذلك فى موضعه .

(٤) جمع تجفاف ، بكسر التاء وفتحها ، وهو ما يوضع على الخيل من حديد  
وسلاح يقيه الجراح فى الحروب .

(٥) القتام : الغبار . وفى الأصل وبعض أصول ن : « القيام » .

(٦) فى الأصل : « ثياب » مع ياض بعدها ، وأثبت ما فى ن ، س .

والسلاح ووقع الحوافر ، والإدراك إذا طلبوا ، والعوث إذا طلبوا . ولم يجعل  
النبي صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين وللراجل من المقاتلة سهماً واحداً  
إلا لتضعيف الرد في القتل والفتوح ، والنهبة والمغانم <sup>(١)</sup> .

ثم قال : ولعمري إنَّ للأبناء من القتال في السكك والسجون <sup>(٢)</sup>  
والمضايق ما ليس لغيرهم . ولكن الرجالة أبداً أتباع ومأمورون ومنقادون ،  
وقائد الرجالة لا يكون [ إلا <sup>(٣)</sup> ] فارساً ، وقائد الفرسان من الممتنع أن  
يكون راجلاً . ومن تعود الطعان والضرب والرمي راكباً إن اضطرَّ إلى  
الطعن والضرب والرمي راجلاً كان على ذلك أدفع عن نفسه ، وأردَّ عن  
أصحابه ، من الراجل إذا احتاج أن يستعمل سلاحه فارساً . وعلى أنه ما أكثر  
ما ينزلون ويقاتلون . وقد قال الشاعر <sup>(٤)</sup> :

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا وأخو الحرب من أطاق النزولا  
وقال الضبي <sup>(٥)</sup> :

\* وعلام أركبه إذا لم أنزل <sup>(٦)</sup> \*

(١) الرد : النفع . والنهبة ، بالضم الغنيمة ، كالنهي . وفي الأصل : « الهية » ،  
صوابه في ن ، س .

(٢) وكذا سبق في ص ٢٧ س ٦ .

(٣) تكملة ضرورية .

(٤) هو مهلهل ، كما في الأغاني ٤ : ١٤٩ وشروح سقط الزند ٦٦ والخزانة  
٢ : ٣٠٥ . وانظر ما قيل في النزول في هذا الموضع من الخزانة .

(٥) هوربيعة بن مقروم الضبي . الحماسة ص ٦٢ بشرح المرزوقي والخزانة  
٢ : ٣٠٥ .

(٦) صدره : فدعوا نزال فكنت أول نازل

وقال آخر :

\* فمعانق ومنـازل<sup>(١)</sup> \*

وقال مُحيد : وليس في الأرض قومٌ إلّا والتَّسانُدُ في الحروب ، والاشتراك في الرِّياسة ضارٌّ لهم ، إلّا الأتراك . على أنَّ الأتراك لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أنَّ الذي يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأى ، والتنافس في السرِّ<sup>(٢)</sup> ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

والأتراك إذا صافوا جيشاً إنَّ<sup>(٣)</sup> كان في القوم موضعٌ عورةٍ فكلُّهم قد أبصرها وعرفها ؛ وإن لم تكن هناك عورةٌ ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأى الانصرافَ ، فكلُّهم قد رأى ذلك الرأى وعرف الصوابَ فيه . وخواطرهم واحدة ، ودواعيهم مستوية ياقبالهم معاً . وليس هم أصحاب تأويلاتٍ ولا أصحاب تفاخر وتناشد ، وإنَّما شأنهم إحكام أمرهم ؛ فالاختلاف يقلُّ بينهم .

وكانت الفرس تعيب العرب إذا خرجوا إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراك في الحرب وفي الزَّوجة وفي الإمرة سواء .

قال مُحيد : فما ظنُّك بقومٍ إذا تسانَدُوا لم يضرَّهم التَّساندُ ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

(١) لم أهتد إلى بقيته ولا إلى قائله .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « السير » .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « وإن » ، والواو مقحمة .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون<sup>(١)</sup> قال : ليست بالترك حاجةٌ إلى حكم حاكم بعد حميد ؛ فإنَّ حميداً قد مارسَ الفريقين ، وحميد خراسانيٌّ وحميد عربيٌّ ، فليس للثَّمة عليه طريق .

فالوا : وأتى الخبرُ ذا اليمينين<sup>(٢)</sup> طاهر بن الحسين فقال : ما أحسن ما قال حميد . أمّا إنه لم يقصّر ولم يفرط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحُكم حميد ، وتصويب طاهر .

وخبرني رجلٌ من أهل خراسان أو من بني سدوس قال : سمعت أبا البطّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يملأُ فروج دابَّته منحدرًا من جبل ، أو مُصعدًا في مقطعٍ عفير ، ويمكنه على ظهر الفرس ما لا يمكن الرّاقص الأُبلّ<sup>(٣)</sup> على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عُقبة بن سلّيم الهُنائي<sup>(٤)</sup> ، وكان ذا رأيٍ في الحرب وابن ذى رأيٍ فيها<sup>(٥)</sup> : فرّق ما بيننا وبين التُّرك أن التُّرك لم تغزُ قومًا قطّ ،

(١) كلمة « الحر » ساقطة من ن ، س

(٢) قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصًا بالسيف في وقته مع علي بن ماهان ، فقدّه نصفين ، وكانت الضربة بيساره . ولد طاهر سنة ١٥٩ وتوفي سنة ٢٠٧ . وفيات الأعيان وثمار القلوب ٢٠٧ .

(٣) نسبة إلى الأبلّة ، وهي بلدة على شاطئ دجلة ، وفيها يقول الأصمعي :  
جنان الدنيا ثلاث : غوطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الأبلّة .

(٤) نسبة إلى بني هُناة بن مالك بن فهم بن دوس . الاشتقاق ٤٩٨ وجمهرة ابن حزم ٣٨٠ حيث ذكر عقبة بن سلم .

(٥) كان عقبة بن سلم والد سعيد واليًا للمنصور على البحرين والبصرة .



ولا صافَّت جيشاً ولا هجمت على عدو كانوا عرباً أو عجماً ، فأخَّرَ جوا إليهم أعدادهم ولقَّوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلا أن ينفادوا ليكفُّوا عنهم بأنسهم ومعرَّتهم<sup>(١)</sup> ، وبصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصلح واعتزموا على الحرب فليس شأنهم والذي يدور عليه أمرهم إلا مَنَعَ أنفسهم وتحصينَ عسكرهم ، والاحتِراسَ منهم . فأمَّا أن ترقى هُمُهم وتسمو أنفسهم إلى الاحتِمالِ عليهم ، والتماسِ غِرَّتِهم ، فإنَّ هذا شيء لا يخطر على بالٍ من يحاربهم . ثم قال : وقد عرقتهم حيلهم في دخول المُدن من جهة حيطانها المُصمَّمة العريضة ، وحيلتهم في عبور نهر بَلَخ .

وسعيدٌ هذا هو الذي قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثة فاجعلوا واحداً مدداً ، وآخرَ كميناً . وله كلامٌ في الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرني أبي قال : شهدت أبا الخطاب يزيد بن قتادة ابن دِعامَةَ الفقيه<sup>(٢)</sup> ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه في التُّرك حيث قال : « عَدُوٌّ شَدِيدٌ طَلْبُهُ ، قَلِيلٌ سَلْبُهُ » ، فقال رجلٌ من العالِيَةِ : نهى عمر<sup>(٣)</sup> أبا زُبَيْدٍ الطائِيَّ عن وصف الأسد ؛ لأنَّ ذلك ممَّا يزيد في رُعب

(١) المرة : الشدة والأذى في الحرب .

(٢) ليس الفقيه يزيد ، بل أبوه قتادة هو الفقيه . وهو قتادة بن دعامَةَ السدوسي ، وكنيته أبو الخطاب أيضاً . ولد سنة ٦١ وتوفي سنة ١١٧ . تهذيب التهذيب ووفيات الأعيان ونسكت الهميان ٤٣٠ . وقد ذكر الجاحظ قتادة في مواضع كثيرة من الحيوان والبيان .

(٣) كذا . والمعروف أن عثمان بن عفان هو الذي نهاه . انظر طبقات ابن سلام

٥١٠ و الأغاني ١١ : ٢٤ والخزانة ٢ : ١٥٥ .

الجبان ، وفي هَوَلِ الْجَنَانِ ، وَيُقَلُّ مِنْ رَغَبِ الشَّجَاعِ<sup>(١)</sup> ، وقد وُصِفَ التُّرْكُ بأشدَّ من وصف أبي زُبَيْدٍ الأَسَدِ .

وقال سعيد في حديثه يومئذ ، وقد قطعتُ شِرْذِمَةً منهم بلادَ أبي خزيمة - يُرِيدُ حَمْزَةَ<sup>(٢)</sup> بن أدركَ الخارجيَّ - وما والى خُرَّاسَانَ [ في ] بعض الأمر ، وَحَمْزَةٌ فِي مُعْظَمِ النَّاسِ ، فقال لأصحابه : أفرجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعصَّبوا لهم ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ : « تَارَكُوهُمْ مَا تَارَكُوكُمْ » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه ؛ وهو عربيٌّ خُرَّاسَانِي .

وذكر يزيد بن مَزِيدِ الوُقْعَةِ التي قَتَلَ فِيهَا يُولُبَا<sup>(٣)</sup> التُّرْكِيُّ الْوَلِيدَ بْنَ طَرِيفٍ<sup>(٤)</sup> الخارجيَّ ، فقال في بعض ما يصف من شأن التُّرْكِ : ليس لبدن التُّرْكِي عَلَى

(١) الرَّغَبُ : الرغبة والطمع والحرص .

(٢) فِي الْأَصْلِ وبعض أصول ن : « يزيد بن حمزة » تحريف . وأبو خزيمة كنية حمزة . وفي البيان ٤ : ٢٥ عند الكلام على الكنية بأبي خزيمة : « وهذه الكنية كنية زرارة بن عدس ، وكنية خازم بن خزيمة ، وكنية حمزة بن أدرك » . وفي الطبري ١٠ : ٦٥ وابن الأثير ٦ : ٥٣ : « حمزة بن أترك » وما هنا يطابق البيان واللمل والنحل ١ : ١٧٤ . وكان حمزة صاحب فرقة من فرق العجاردة من الخوارج ، خرج في أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ بسجستان وخراسان ومكران وقهستان ، وهزم الجيوش الكبيرة ، وبقي الناس في فتنته إلى أن مضى صدر من أيام خلافة المأمون ، ودارت بينه وبين طاهر بن الحسين وعبد الرحمن النيسابوي حروب انتهت بموت حمزة . وانظر للواقف ٦٣٠ والفرق بين الفرق ٧٦ والاعتقادات للرازي ٤٨ .

(٣) أَهْمَلُ نَقَطَ الْحَرْفِ الْأَوَّلِ فِي الْأَصْلِ وبعض أصول ن .

(٤) هَذَا نَصُّ نَادِرٍ ، فَإِنَّ الضَّرْبَةَ الَّتِي أَصِيبَ بِهَا الْوَلِيدُ بْنُ طَرِيفٍ لَمْ يَعْينَ =

ظهر الدابة ثقل ، ولا لشيء على الأرض وقع ، وإنه ليرى وهو مدبرٌ ما لا يرى  
 الفارسُ منّا وهو مُقبل . وهو يرى الفارسَ منا صيداً ويعُدُّ نفسه فهذا ،  
 ويعُدُّه ظيباً<sup>(١)</sup> ويعُدُّ نفسه كلباً . والله لو رُمي به في قعرٍ بئرٍ مكتوفا لما أعجزته  
 الحيلة ؟ ولولا أن أعمارَ عامتهم تقصُر دُونَ الجَبَل - يعنى جَبَل حُلوان -  
 ثم هموا بنا ، لألقوا لنا سُفلاً طويلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدنْيا تُساقُ إِلَيْكَ عَفْواً أليس مصيرُ ذاكِ إلى زَوَالِ

قال : أمّا التُّركي فلأنَّ يَنالَ الكَفافَ غَصْباً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَنالَ . ٣٢ و  
 المُلْكَ عَفْواً . ولم يَتَهَنَّ تَرْكِيٌّ بِطُعْمٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَيْداً أَوْ مَغْنَمًا ، وَلَا يُعَزُّ<sup>(٢)</sup>  
 على ظَهْرِ دَابَّتِهِ طَالِباً كَانَ أَوْ مَطْلُوباً .

وقال ثُمَامَةُ بْنُ أَشْرَسَ ، وكان مثْلَ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَهْمِ فِي كِبَرَةِ ذِكْرِهِ لِلتُّركِ .  
 قال ثُمَامَةُ : التُّركيُّ لَا يَخافُ إِلَّا نَحْوَفاً وَلَا يَطْمَعُ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ ، وَلَا يَكْفُهُ عَنِ  
 الطَّلَبِ إِلَّا الْيَأْسَ صِرْفاً ، وَلَا يَدْعُ الْقَلِيلَ حَتَّى يَصِيبَ أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَإِنْ قَدَرَ  
 أَنْ يَجْمَعَهُمَا لَمْ يَفِرِّطْ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا . وَالْبَابُ الَّذِي لَا يُحْسِنُهُ لَا يُحْسِنُ مِنْهُ شَيْئاً ،

= ضارِبُهَا الْمُؤَرِّخُونَ . انظر ابن الأثير ٦: ٥١ في حوادث ١٧٩ وكذا الأغاني ١١: ٩ .  
 وقد ذكر ابن الأثير وأبو الفرج والطبري ١٠: ٦٥ أن يزيد بن يزيد هو الذي  
 احتز رأسه بعدما أصيب . وفي ذلك تقول أخت الوليد ليلي بنت طريف ، أو الفارعة :  
 فَإِنْ يَكُ أَرادَهُ يَزِيدُ بْنُ مَزِيدٍ فَيَارَبَّ خَيْلَ فَضْها وَصَفوفِ  
 وانظر الأُمالي ٣: ٢٧٤ والآل ٩١٣ ووفيات الأعيان ٢: ١٧٩ .

(١) أى يعد الفارس منا ظيباً جديراً بالقنص . وفي الأصل وبعض أصول ن :

« ونعده » .

(٢) أى لا يغلب . في الأصل ون : « ولا يعر » . وفي س : « ولا يفر » .

والباب الذى يُحسّنه قد أحكمه بأسره وأمره<sup>(١)</sup> وخفيّه عنده كظاهرة<sup>(٢)</sup> ،  
ولا يتشاغل بشيء ليس فيه شيء ، ولا على نفسه من شيء<sup>(٣)</sup> . فلو أن يُجِمْ  
نفسه بالنوم لما نام ، على أن نومه مشوبٌ باليقظة ، ويقظته سليمة من الوشّة .  
ولو كان في شِقْمهم أنبياء ، وفي أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطرُ قد مرّت  
على قلوبهم ، وقرّعت أسماعهم<sup>(٤)</sup> ، لأنسوك أدب البصريين ، وحكمة  
اليونانيين ، وصنعة أهل الصّين .

وقال ثمامة : عَرَضَ لَنَا فِي طَرِيقِ خُرَاسَانَ تَرْكِيٌّ وَمَعْنَا قَائِدٌ يَصُولُ بِنَفْسِهِ  
وَرَجَالَهُ ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ التَّرْكِيِّ وَادٍ ، فَسَأَلَهُ أَنْ يَبَارِزَهُ فَارِسٌ مِنَ الْقَوْمِ ، فَأَخْرَجَ  
لَهُ رَجُلًا لَمْ أَرَقُطًا أَكْمَلَ مِنْهُ ، وَلَا أَحْسَنَ تَمَاقِيًا وَقَوَامًا مِنْهُ ، فَاحْتَالَ حَتَّى عَبَرَ  
إِلَيْهِمُ الْفَارِسَ ، فَتَجَاوَلَا سَاعَةً ، وَلَا نَظَنُّ إِلَّا أَنَّ صَاحِبَنَا يَبْقَى بِأَضْعَافِهِ ، وَهُوَ  
فِي ذَلِكَ يَتْبَاعِدُ عَنَّا . فَبَيْنَا هُمَا فِي ذَلِكَ إِذْ وَلَّى عَنْهُ التَّرْكِيُّ كَالْهَارِبِ مِنْهُ ، وَفَعَلَ  
ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ ظَنَنَّا أَنَّ صَاحِبَنَا قَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ ، وَأَتْبَعَهُ الْفَارِسُ لَا نَشْكُ إِلَّا أَنَّهُ  
سَيَأْتِينَا بِرَأْسِهِ ، أَوْ يَأْتِينَا بِهِ مَجْنُوبًا إِلَى فَرَسِهِ ، [ فَلَمْ نَشْعُرْ<sup>(٥)</sup> ] إِلَّا وَصَاحِبُنَا قَدْ  
أَفْلَتَ عَنْ فَرَسِهِ وَغَابَ عَنْهُ ، فَتَزَلَّ التَّرْكِيُّ إِلَيْهِ فَأَخَذَ سَلَبَهُ وَقَتْلَهُ ، ثُمَّ عَارَضَ  
فَرَسَهُ فَجَنَّبَهُ إِلَيْهِ مَعَهُ .

(١) أمره إمرارا : أحكمه ووثقه توثيقاً .

(٢) في الأصل ون : « وأمره عنده خفيه كظاهرة » . والوجه ما أثبت من س .

(٣) صححت في ن ، س بزيادة « يخاف » بعد كلمة « لا » .

(٤) هذا هو الصواب ، وعدلت في ن ، س إلى : « وفرغت لها أسماعهم » ،

وليس ما يدعو إلى ذلك ، وما أثبت من الأصل أوفق وأعلى .

(٥) موضعها يياض في الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركيَّ قد جيءَ به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلتُ له : كيف صنعتَ يومئذ ، وكيف طاولته ثمَّ علاك ثم وليت عنه هارباً ثم قتلته ؟ قال : أما إنِّي لو شئتُ أن أقتله حينَ عَبرَ ، وقد كانَ مقتله بارزاً لي ، ولكنني احتلتُ عليه حتَّى نَحَيْتَهُ عن أصحابه لأجوزَه ، فلا يُحَالَ بيني وبين فرسه وسَلَبه .

قال ثمامة : وإذا هو يُدير الفارسَ من سائر الناس ويرِيغُه كيف شاء وأحبَّ<sup>(١)</sup> .

قال ثمامة : وقد غَبرتُ في أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتُفهمهم والُعطافهم .

فهذا ثمامةُ بنُ أشرسَ ، وهو عربيٌّ لا يُتَمِّمُ في الإخبار عنهم . وأنا أخبرك أنِّي قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمرأً غريباً : رأيتُ في بعض غزوات المأمون سِمَاطِيَّ خيلٍ على جَنْبَتِي الطَّرِيقَ بِقُربِ المنزل ، مائةً فارسيين من الأتراك في الجانب الأيمن ، ومائةً من سائر الناس في الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطَفَوْا ينتظرون محيَّ المأمونِ ، وقد انتصفَ النهارُ واشتدَّ الحر . فورد عليهم وجمعُ الأتراك<sup>(٢)</sup> جلوسٌ على ظُهور خيولهم إلَّا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأَخْلَاطِ من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم إلى الأرض إلَّا ثلاثة أو أربعة . فقلتُ

(١) أراغه : أراحه وطلبه . وعلى الأمر : أداره عليه . وأنشدوا :

يديروني عن سالم وأريغه وجلدة بين العين والأنف سالم

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « وجميع » .

لصاحب لي : انظر أي شيء اتفق لنا . أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطنعهم .

وأردت مرةً القاطول - وهي المباركة - وأنا خارج من بغداد ، وأرى فوارس من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عارَ لهم فرس<sup>(١)</sup> ، وهم على خيلٍ عتاق يُريغونه فلا يقدرّون على أخذه ، ومرّ تركيٌّ ولم يكن من ذوى هيئاتهم وذوى القدرِ منهم ، وهو على برّذونٍ له خسيس ، وهم على الخيول المطهّمة ، فاعترضَ الفرسَ اعتراضاً ، وقتله قتلاً وَحِيّاً<sup>(٢)</sup> ؛ وأناه من زجره بشيء ، فوقف أولئك الجندُ وصاروا نظّارة ، فقال بعضهم من كان يُزري على ذلك التركيّ : هذا وأبيك التكلف والتعريض : أن فرساً قد أعجزهم وهم أسد البلاد ، وجاء هذا مع قصر قامته وضعف دابّته ، فطمع أن يأخذه . فما انقضى كلامه حتّى أقبل به ثمّ سلّمه إليهم ومضى لطليبتِه ، لم ينتظر ثناءهم ولا دعاءهم ، ولا أراهم أنّه قد صنع شيئاً ، أو أتى إليهم معروفاً .

والأتراك قومٌ لا يعرفون الملق ولا الخلابه ، ولا النفاق ولا السعاية ، ولا التصنع ولا النميّة ولا الرّياء ، ولا البذخ على الأولياء<sup>(٣)</sup> ، ولا البغى على الخطاء ، ولا يعرفون البدع ، ولم تُفسدْهم الأهواء ، ولا يستحلّون الأموال على التأوّل ، وإنما كان عيبتهم ، والذي يُوحش منهم ، الحنين إلى الأوطان ، وحبُّ التقلّب في البلدان ، والصّباة بالغارات ، والشّغف بالنّهب ، وشدة

و ٣٣

(١) عار يعير : اقلّت وزهد هاهنا وهاهنا وحاد عن الطريق .

(٢) الوحي : السريع .

(٣) البذخ : الكبر والتطاؤل والفخر .

الإلف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سُرور الظفر وتتابعه ، وحلاوة  
المغنم وكثرته ، وملاعبهم في تلك الصحارى ، وترددهم في تلك المروج ،  
وَأَلَّا يذهب بطول الفراغ فضلُ نجدتهم باطلا ، ويصير حَدُّهم على طول  
الأيام كليلًا .

وَمَنْ حَذَقَ شَيْئًا لَمْ يَصْبِرْ عَنْهُ ، وَمَنْ كَرِهَ أَمْرًا فَرَّ مِنْهُ .  
وإنما خُصُّوا بالحنين من بين جميع العجم لأنَّ في تركيبهم وأخلاق طبايعهم من  
تركيب بلادهم وتربيتهم ، ومشاكله مياهم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحدٍ  
سواهم . أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَرَى البصريَّ فلا تدرى أبصريُّ هو أم كوفيٌّ ، وتَرَى  
المسكِّيَّ فلا تدرى أمكِّيَّ هو أم مدنيٌّ . وتَرَى الجبليَّ فلا تدرى أجبليُّ هو  
أم خراسانيٌّ ، وتَرَى الجزريَّ فلا تدرى أجزريُّ هو أم شاميٌّ . وأنت لا تَفْلُطُ  
في التركيَّ ، ولا تحتاج فيه إلى قِيافةٍ ولا إلى فِرَاسةٍ ، ولا إلى مُسَاءلةٍ . ونساؤهم  
كرجالهم ، ودوابُّهم تركيَّةٌ مثلهم .

وهكذا طَبَعَ اللهُ تلك البلدة ، وقسمَ لتلك التُّربة . وجميعُ دُور الدنيا  
ونشوؤها إلى منتهى قُواها ومُدَّة أجلها ، جارية على عللها ، وعلى مقدار أسبابها ،  
وعلى قدر ما خَصَّها اللهُ تعالى به وأبانها ، وجَعَلَ فيها . فإذا صاروا إلى دار  
الجزاء ، فهي كما قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً <sup>(١)</sup> ﴾ .

وكذلك تَرَى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خُرَاسَانَ ، لا تَفْصِلُ بين  
من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فرغانة ، ولا تَرَى بينهم فرقًا في السَّبِيل الصُّهْبِ

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الواقعة .

والمجلود القشرة<sup>(١)</sup> ، والأقفاء العظيمة ، والأكسية القرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النابتة .

٣٣ ظ

ومحبة الوطن شيء شامل لجميع الناس ، وغالب على جميع الجيرة<sup>(٢)</sup> . ولكن ذاك في الترك أغلب ، وفيها أرسخ ؛ لما معها من خاصّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشبه ، وتكافؤ التركيب . ألا ترى أن العبدى يقول<sup>(٣)</sup> : « عمّر الله البلدان بحبّ الأوطان » ، وأن ابن الزبير قال : « ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم »<sup>(٤)</sup> ، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « لولا تفرق أهواء العباد لما عمّر الله البلاد » ، وأن جمعة الإيادية قالت : « لولا ما أوصى الله به العباد من قفر البلاد ، لما وسّعهم واد ولا كفاهم زاد » . وذكر قتيبة بن مسلم الترك فقال : « هم والله أحنّ من الإبل المعقّلة إلى أوطانها » ؛ لأنّ البعير يحنّ إلى وطنه وعطنه ، وهو بُعْمان ، من ظهر البصرة ، فهو يحنط<sup>(٥)</sup> كلّ شيء ويستبطن كلّ وادٍ ، حتّى يأتى مكانه ؛ على أنّه طريق لم يسلكه إلّا مرة واحدة ، فلا يزال بالشّم والاسترواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة المخصوص بها حتّى يأتى مبركه ، على بُعد ما بين عُمان والبصرة .

(١) من القشر ، بالتحريك ، وهو شدة الحمرة .

(٢) فى الأصل وبعض أصول ن : « الحيرة » . وفى ف : « الجيزة » . والجيزة بمعنى الناحية .

(٣) بدله فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ : « وقد قالوا » .

(٤) الأقسام : جمع قسم ، بالكسر . وهو الحظ والنصيب . والنص فى الحيوان

٣ : ٢٢٧ .

(٥) فى الأصل وبعض أصول ن : « فعى تحت » تحريف .



فلذلك ضرب به قتيبة المثل<sup>(١)</sup> .

والشُّحُّ على الوطن [ والحين إليه<sup>(٢)</sup> ] ، والصَّباة به ، مذكورة في القرآن ، مخطوطة في [ الصَّحَف بين<sup>(٣)</sup> ] جميع الناس . غير أنَّ التركيَّ للعلل التي ذكرناها أشدَّ حننًا وأكثر زُوعًا<sup>(٤)</sup> .

وباب آخر ، ممَّا كان يدعوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت<sup>(٥)</sup> ، والعادة المنقوضة<sup>(٥)</sup> : وذلك أنَّ التُّرك قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْر [ والجُنوم<sup>(٦)</sup> ] ، وطول اللَّبث والمُسْكُت ، وقلة التصرُّف والتحرُّك ، وأصلُ بنيتهم إنمَّا وُضِعَ على الحركة ، وليس للسكون فيها نصيب ، وفي قُوَى أنفسهم فضلٌ على قُوَى أبدانهم ، وهم أصحاب توقُّد وحرارة ، واشتغال<sup>(٧)</sup> وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريعٌ لحظهم ، وكانوا يرون الكفاية معجزة ، وطولُ المُقام بلادة ، والراحة عُقْلة<sup>(٨)</sup> ، والقناعة من قصر الهمة ؛ وأنَّ ترك الغزو يُورث الذلَّة .

(١) إلى هنا ينغى إغفال الاختيار في ج ، ف الذي نهت على بدايته في ص ٥٣ .

(٢) التَّكَلُّف من ب .

(٣) هذا ما في ف . وفي الأصل ، ن : « وأشدَّ نزاعاً » . ج : « وأكثر نزاعاً » ،

(٤) ج : « عزم الثاني » ف : « ثنى العزم » ، وفي الأصل : « العزم الثاني » ،

والوجه ما أثبت من سائر النسخ

(٥) في الأصل ، س : « والمادة المنقوضة » ، صوابه في ج ، ف . وفي ن :

« والمادة المنقوضة » .

(٦) التَّكَلُّف من ن . والكلمة ساقطة من ف . وبدلها في ج : « الخنوم » .

جثم : لزم مكانه فلم يبرحه .

(٧) في الأصل و ف : « واستعال » ، وأثبت ما في ب .

(٨) أى تعقل صاحبها وتجبسه عن الانطلاق .

٣٤ و

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبدُ الله بن وهبٍ الراسبيّ :  
 « حبُّ الهَوَيْنَا يُكْسِبُ النَّصَبَ » . والعرب تقول : « من غلا دماغه  
 في الصَّيْفِ غَلَتْ قِدْرُهُ في الشِّتَاءِ » . وقال أكرم بن صَيْقٍ : « ما أَحَبُّ أُنَى  
 مكفى كُلِّ أمرٍ الدنيا » . قيل : ولم ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عِلَالُ التُّرْكِ في حبِّ الرُّجُوعِ والحينِ إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يَدْعُوهم إلى الشُّرُودِ ويبغثهم على الرجوع ، ويُكرِّه  
 عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جَهْلٍ قُوَادِمٍ بأقدارهم ، وقَلَّةِ معرفتهم  
 بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرَّدِّ عليهم والانتفاع بهم ، حتَّى جعلوهم أُسُوةَ  
 أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا في الحاشية والحُشوة ، وفي غِمارِ العامَّةِ  
 ومن عُرضِ العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ،  
 ورأوا أنَّ الضَّيْمَ لا يليقُ بهم ؛ وأنَّ الخمولَ لا يجوزُ عليهم ، وأنهم في المُقامِ  
 على من لا يعرف حقَّهم أَلْوَمَ مَن منَّعهم حقَّهم ، فلمَّا صادفوا مَلَكًا حَكِيمًا ،  
 وبأقدارِ النَّاسِ عَليًّا ، لا يميلُ إلى [ سوء<sup>(٢)</sup> ] عَادَةٍ ولا يَجَنِّحُ إلى هوى ،  
 ولا يتعصَّبُ لبلدٍ على بلد ؛ يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقم مع الحقِّ حيثما  
 أقام ، أقاموا إقامةً من قد فهم الحظَّ<sup>(٣)</sup> ، ودانَ بالحقِّ ونَبَذَ العادة ، وآثر

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « الدنيا » ، صوابه في ب .

(٢) التَّكَلُّفُ من ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الحق » ، وأثبت ما في ب . لكن في ف :

« منح » موضع « فهم » .

الحقيقة ، ورحل نفسه لقطيعة وطنه<sup>(١)</sup> ، وآثر الإمامة على مُلك الجَبَرِيَّة<sup>(٢)</sup> ، واختار الصَّواب على الإلْف .

ثم اعلم<sup>(٣)</sup> بعد هذا كله أنَّ كلَّ أمةٍ وقرنٍ ، وكلَّ جيلٍ وبنى أبٍ وجدتهم قد برعوا في الصَّناعات ، وفضَّلوا النَّاسَ في البَيان ، أوفَّقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحرب ؛ فإنَّك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية ، إلَّا أنَّ يكون الله قد سخرهم لذلك المعنى بالأسباب ، [ وقصرهم<sup>(٤)</sup> ] عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعاني ؛ لأنَّ مَنْ كان متقسِّم الهوى ، مشترك الرَّأْي ، ومتشعِّب النفس ، غير موفِّرٍ على ذلك الشَّيء ولا مهَيِّئاً له ، لم يَحْدِقْ من تلك الأشياء [ شيئاً<sup>(٥)</sup> ] بأمره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأهل الصين في الصناعات ، واليونانيِّين في الحِكم والآداب ، والعَرَبِ فيما نحن فيه ذا كروه في موضعه ، وآلِ ساسان في المُلْك ، والآتراك في الحروب . ألا ترى أنَّ اليونانيين الذين نظروا في العِلَل لم يكونوا تُجَّاراً ولا صُنَّاعاً بأَكْفَهُم ، ولا أصحابَ زرعٍ ولا فِلاحةٍ وبناءٍ وعرَّس ، ولا أصحابَ جمعٍ ومنع ، وحرص وكَدٍّ ، وكانتِ الملوكُ تُفرِّغهم ، وتُجرى عليهم كفايتهم ،

ظ ٣٤

(١) يقال رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفي الأصل وبعض أصول ن : « فظنه » تحريف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « وآثر ملك الإقامة على ملك الحرية » ، صوابه في ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « وأعظم » .

(٤) موضعها بياض في الأصل ، وإثباته من ب .

فَنظَرُوا حِينَ نَظَرُوا بِأَنْفُسِهِمْ مَجْتَمِعَةً ، وَقُوَّةً وَافِرَةً ، وَأُذْهَانَ فَارِغَةً ، حَتَّى اسْتَخْرَجُوا آلَاتِ الْأَدْوَاتِ ، وَالْمَلَاهِيَّ الَّتِي تَكُونُ جَمَامًا لِلنَّفْسِ ، وَرَاحَةً بَعْدَ الْكَدِّ ، وَسُرُورًا يَدَاوِي قَرَحَ الْهُمُومِ ، فَصَنَعُوا <sup>(١)</sup> مِنَ الْمُرَافِقِ ، وَصَاغُوا مِنَ الْمَنَافِعِ كَالْقَرِصُطُونَاتِ <sup>(٢)</sup> ، وَالْقَبَّانَاتِ ، وَالْأَسْطُرْلَابَاتِ <sup>(٣)</sup> ، وَآلَةَ السَّاعَاتِ ، وَكَالْكُونِيَا <sup>(٤)</sup> وَكَالشِّيزَانِ <sup>(٥)</sup> وَالْبِرَكَارِ <sup>(٦)</sup> وَكَأَصْنَافِ الْمَزَامِيرِ وَالْمَعَازِفِ ، وَكَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَالْمُهَنْدِسَةِ وَاللُّحُوفِ ، وَآلَاتِ الْحَرْبِ كَالْجَانِيْقِ ،

(١) فِي الْأَصْلِ وَبَعْضُ أَصُولِ ن : « فَصَنَعُوا » .

(٢) جَاءَ فِي الزَّهَةِ الْمُهْجَةِ لِدَاوُدِ الْأَنْطَاكِيِّ بِهَامِشٍ تَذَكُّرَةَ دَاوُدَ ١ : ١٥ : « عِلْمُ مَرْكَزِ الْأَتْقَالِ مِثْلُ الْقَرِصُطِيُونِ ، يَعْنِي الْقَبَانَ » . وَجَاءَ فِي كِتَابِ التَّرْيِيعِ وَالتَّدْوِيرِ ص ١٣٨ سَاسِي : « وَخَبَرَنِي عَنِ الْقَرِصُطُونِ كَيْفَ أَخْرَجَ أَحَدَ رَأْسِيهِ ثَلَاثِمِائَةَ رَطْلٍ زَادَ ذَلِكَ أَمْ قَصَصَ ، وَوزَنَ جَمِيعَهُ ثَلَاثُونَ رَطْلًا زَادَ ذَلِكَ أَوْ قَصَصَ » وَانْظُرِ الْحَيَوَانَ ١ : ٨١ ، فَيَدُو أَنَّهُ ضَرَبَ مِنَ الْقَبَانَ .

(٣) الْأَسْطُرْلَابُ أَوْ الْأَسْطُرْلَابُ : مِقْيَاسُ لِلنَّجُومِ ، وَهُوَ بِالْيُونَانِيَّةِ أَصْطُرْلَابُونُ . وَأَصْطُرْ هُوَ النَّجْمُ ، وَلَابُونُ هُوَ الْمَرَاةُ ، وَقَدْ يَهْذِي بَعْضُ الْمُؤَلِّعِينَ بِالِاسْتِشْقَاقَاتِ فِي هَذَا الْمَعْنَى بِمَا لَامَعْنَى لَهُ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَابَ اسْمُ رَجُلٍ وَأَسْطُرْ جَمْعُ سَطَرٍ . وَهَذَا اسْمُ يُونَانِيٍّ ، اسْتِشْقَاقُهُ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ جَهْلٌ وَسَخْفٌ . مِفْتَاحُ الْعُلُومِ لِلْخَوَازِمِيِّ ص ١٣٤ وَالْحَيَوَانَ ١ : ٨١ / ٢ : ٢٤٢ . وَقَدْ وَقَعَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ فِي هَذَا الْوَهْمِ الَّذِي نَبِهَ عَلَيْهِ الْخَوَازِمِيُّ فِي مَادَّةِ ( لُوبِ ) .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَكَالْكِرْسَا » بِهَذَا الْإِهْمَالِ ، وَأُثْبِتَ مَا فِي ج ، ف . وَفِي مِفْتَاحِ الْعُلُومِ : « السَّكُونِيَا » بِالْوَاوِ ، وَقَالَ : « لِلتَّجَارِينِ يَقْدُرُونَ بِهَا الزَّارِيَةَ الْقَائِمَةَ » .

(٥) ج ، ف : « وَالْكُسِيرَانِ » ن ، س : « وَالْكُشْتَوَانِ » .

(٦) الْبِرَكَارُ : آلَةٌ هَنْدَسِيَّةٌ مَرْكَبَةٌ مِنْ سَاقَيْنِ مُتَصِلَتَيْنِ تُثَبَّتُ إِحْدَاهُمَا وَتَدُورُ حَوْلَهَا الْأُخْرَى ، تُرَسَّمُ بِهَا الدَّوَائِرُ وَالْأَقْوَاسُ ، وَتُسَمَّى بِالْعَامِيَةِ « الْبِرَجْلُ » ، وَهِيَ فِي الْفَارْسِيَّةِ « بِرَكَار » .

والعرّادات<sup>(١)</sup> ، والرتيلات<sup>(٢)</sup> ، والدّبّابات ، وآلة النّفاط<sup>(٣)</sup> ، وغير ذلك  
تّما يطول ذكره .

وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة ؛ يصوّرون الآلة ، ويخرطون الأداة ،  
ويصوغون المثل ولا يحسنون العمل بها<sup>(٤)</sup> ، ويشيرون إليها ولا يمشونها ،  
ويرغبون في العلم ويرغبون عن العمل .

فأمّا سكّان الصين فهم أصحاب السّبك والصياغة ، والإفراغ والإذابة  
والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخرط والنّحت والتصاوير ، والنّسخ والخطّ ،  
ورفق الكفّ في كلّ شيء يتولّونه ويعلّونونه ، وإن اختلف جوهره ، وتباينت  
صنعتة ، وتفاوتت ثمنه .

واليونانيون يعرفون الفلك ، لأنّ أولئك حكماء وهؤلاء فعلة<sup>(٥)</sup> .  
وكذلك العرب ، لم يكونوا تجاراً ولا صنّاعا ، ولا أطباء ولا حُساباً ،  
ولا أصحاب فلاحه فيكونون مهنة ، ولا أصحاب زرع ، لخوفهم من صغار

(١) العرادة : منجنيق صغير والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة في القتال .  
وانظر حواشي البيان والتبيين ٣ : ١٧ .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « الترسلات » بالإهمال . وفي بعض أصول ن :  
« الرّقيلات » ، وباقي النسخ : « الرّتيلات » . وفي البيان ٣ : ١٧ : « الرّتيلة » .  
(٣) ج ، ف : « النفاطين » .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « المثل ولا يحسنون العمل به » ، وعدلت  
العبارة لتتفق مع سائرهما .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « حكماء وهم فعلة » ، وأثبت الصواب من ب .

الجزية<sup>(١)</sup> . ولم يكونوا أصحاب جمع وكسب ، ولا أصحاب احتكار لما في أيديهم  
 وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من أسنة الموازين ورءوس المكاييل ،  
 [ ولا عرفوا الدوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذى يشغل عن  
 المعرفة<sup>(٢)</sup> ] ، ولم يستغنوا الغنى الذى يورث البلدة<sup>(٣)</sup> ، والثروة التى تحدث  
 الغيرة ، ولم يهتموا ذللاً قط فميميت قلوبهم ويصغر عندهم أنفسهم . وكانوا سكان  
 فياف وتربية العراء ، لا يعرفون العمق ولا اللثق<sup>(٤)</sup> ، ولا البخار ولا الغلظ  
 ولا العفن ، ولا التخم<sup>(٥)</sup> . أذهان حداد ، ونفوس منكرة ، فحين حملوا حدهم  
 ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصريف الكلام ،  
 بعد قيافة الأثر وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ،  
 وتعرف الأنواء ، والبصر بالخليل والسلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكل مسموع  
 والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن اللثاب والناقب ، بلفوا فى ذلك  
 الغاية ، وحازوا كل أمنية . وبيعض هذه العلل صارت نفوسهم أكبر ،  
 وهمهم<sup>(٦)</sup> أرفع من جميع الأمم وأغزر ، ولأيامهم أحفظ وأذكر .

٣٥ و

وكذلك الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش ، وهم أعراب

(١) الصغار : الذل .

(٢) الكلمة من ب ، ولم يبيض لها فى الأصل .

(٣) البلدة ، بضم الباء وفتحها : ضد النفاذ والدكاء والمضاء فى الأمور .

(٤) العمق : الندى والرطوبة والوخامة . واللثق : الندى مع سكون الريح .

فى الأصل وبعض أصول ن : « العمق والسق » ، تحريف .

(٥) التخم : الوخم ، وهو الوباء .

(٦) فى الأصول وبعض أصول ن : « وقسمهم » ، وأثبت ما فى ب .

العجم كما أن هذيلاً أكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات ، والطب والفلاحة والهندسة ؛ ولا غرس ولا بُنيان ، ولا شق أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والفارة والصيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البلدان ، وكانت همهم إلى ذلك مصروفةً وكانت لهذه<sup>(١)</sup> المعاني والأسباب مسخرةً ومقصورةً ، عليها ، وموصولةً بها [ أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره<sup>(٢)</sup> ، و] صار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ، [ ولذتهم<sup>(٣)</sup> ] وفخرهم ، وحديثهم وسمّهم .

فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كالليونانيين في الحكمة ، وأهل الصين في الصناعات ، والأعراب فيما عدنا ونزلنا ، وكآل ساسان في الملك والرياسة .

ومما يُستدلُّ به على أنهم قد استقصوا هذا الباب واستغرقوه ، وبلغوا أقصى غايته وتعرفوه ، أن السيف إلى أن يتقلده متقلد ، أو يضرب به ضارب ، قد مرَّ على أيدي كثيرة ، وعلى طبقات من الصنّاع ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عمل صاحبه ، ولا يُحسنه ولا يدعيه ولا يتكلفه ، لأن الذي يذيب حديد السيف ويُميِّعه ، ويصفيه ويهذبه ، غير الذي يمدّه ويمطّله<sup>(٤)</sup> : والذي يمدّه ويمطّله<sup>(٤)</sup>

(١) في الأصل وبعض أصول ن : « وكانوا بهذه » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « غير الذي يحده ويمده » ، وأثبت ما في ب .

(٤) اللط : المد . وفي الأصل وبعض أصول ن : « ويملّطه » تحريف .

ظ ٣٥

غير الذى يطبعه ويسوى متنه ، ويقم حشيتته<sup>(١)</sup> ؛ والذى يطبعه ويسوى متنه  
غير الذى يسقيه ويرهفه ، والذى يرهفه غير الذى يركب قبيعته ويستوثق  
من سيلانه<sup>(٢)</sup> ، والذى يعمل مسامير السيلان و [ شاربى<sup>(٣)</sup> ] القبيعة ونصل  
السيف غير الذى ينحت خشب غده ، والذى ينحت خشب غده غير الذى  
يدبغ جلده ، والذى يدبغ جلده غير الذى يحلّيه ، والذى يحلّيه ويركب نعله  
غير الذى يخز حائله . وكذلك السرج<sup>(٤)</sup> ، وحالات السهم والجمبة والرمح  
وجميع السلاح ، مما هو جارح أو جنة<sup>(٥)</sup> .

والتركى يعمل هذا كله لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ،  
ولا يفزع فيه إلى صديق<sup>(٦)</sup> ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يشغل قلبه بمطاله  
وتسويفه ، وأكاذيب مواعيده ، وبغرم كرائه .

وحين بلغ أوس بن حجر صفة القانص ، وبلغ له الغاية فى جمعه لأبواب  
الكفاية بنفسه ، قال :

(١) فى اللسان : « يقال سيف مشقوق الحشية ، يقول عرض حين طبع » .  
فى الأصل وبعض أصول ن : « جنبته » ، ج : « خشابته » ، وأثبت ما فى ن ،  
س ، ف .

(٢) السيلان ، بالكسر : منخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(٣) التكملة من ن ، س . وبدلها فى ج « وشادى » وفى ف : « وشاذى » .  
والقبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنقان طويلان  
فى أصل مقبض السيف .

(٤) فى الأصل وبعض أصول ن : « السراج » .

(٥) الجنة ، بالضم : ما يتقى به من ترس ونحوه . فى الأصل وبعض أصول ن :  
« خارج أو منه » ، تحريف .

(٦) ب : « ولا يفزع إلى رأى صدق » .



قَصِي مَيِّتِ اللَّيْلِ لِلصَّيْدِ مُطْعَمٌ لِأَسْهُمِهِ غَارٍ وَبَارٍ وَرَاصِفٌ<sup>(١)</sup>  
وليس أنه ليس في الأرض تركيٌّ إلَّا وهو كما وصفنا ، كما أنه ليس كل  
يونانيٍّ حكيمًا ولا كل صينيٍّ غايةً في الخلق ، ولا كلُّ أعرابيٍّ شاعرًا قافيًا ،  
ولكنَّ هذه الأمور في هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وهي فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا في السبب الذي تكاملت به النجدة<sup>(٢)</sup> والفروسيَّة في التُّرك دون  
جميع الأمم ، وفي العلل التي من أجلها انتظموا جميع معاني الحرب ، وهي معاني  
تشتمل على مذاهب غريبة ، وخصالٍ عجيبية .

فمنها : ما يقضى لأهله بالكرم ويُبْعَدُ الهمة وطلب الغاية . ومنها : ما يدلُّ  
على الأدب السديد والرأي الأصيل ، والفطنة الثاقبة والبصيرة النافذة .  
[ ألا ترى أنه ليس بدُّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحزم والعزم ، والصبر  
والكتمان ، ومن الثقافة<sup>(٣)</sup> ] ، وقلة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بدُّ من البصر  
بالخيل والسلاح ، [ والخبرة<sup>(٤)</sup> ] بالرَّجال والبلاد ، والعلم بالمكان والزَّمان  
والكايد ، وبما فيه صلاحُ هذه الأمور كلها .

(١) ديوان أوس ص ٧١ . قصي مبيت الليل ، يقول : لا يبيت مع أهله ،  
إنما يبيت مع الوحش . ويقال فلان مطعم للصيد ومطعم الصيد ، إذا كان مرزوقا .  
منه . غار ، هو من غراه يغروه ، إذا طلاه بالغراء . والبري معروف . والرافف ،  
من الرصفة ، وهي ما يشد على صدر السهم . في الأصل : « وواصف » ، صوابه في ن ،  
س . والبيت والكلام التعلق به قبله ساقط من ج ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « قد قلنا في السنة التي لها تكاملت النجدة » ،  
صوابه في ب .

(٣) التكهلة من ب . (٤) التكهلة من ب .

٣٦ و

والمَلِكُ يحتاج إلى أوايخٍ شِدَادٍ وأسبابٍ مِتَنٍ ، ومن أتمَّها سَبِيًّا وأعَمَّقها نفعًا ما ثَبَّتَه في نِصابه ، وأَقَرَّه وسكَّنه في قراره ، وزاد في تمكُّنه وبهائِه ، وقطع أسباب المِطْمَعة فيه ، ومنع أيدي البُغَاة من الإشارة إليه فضلًا عَن البَسْط عليه<sup>(١)</sup> .

قال : ثم إنَّ التُّرك عطفَت على العَرَب بالحاجَّة والمقايَسة ، وقالوا : قلتم إن نكن القِرابَةُ بما يستحقُّ بالكفاية فنحن أقدَمُ في الطَّاعة والوَدِّ والمناصَحة ، وإن تكن تُستحقُّ بالقِرابَة فنحن أقرَّبُ قِرابَةً .

قالوا : والعرب بعد هذا صِنْفانٍ : عدنان وقحطان . فأما القحطانيُّ فنسبتنا إلى الخلفاء أقرَّبُ من نسبتهم ، ونحن أَمسُّ بهم رَحْمًا ؛ لأن الخليفة من ولد إسماعيل بن إبراهيم ، دون قحطان وعابر . وولد إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ ، وأُمُّه هاجر ، وهي قبطيَّة . وإسحاقُ وأُمُّه سارَّةٌ وهي سُريانيَّة . والستَّة الباقون أُمُّهم قَطُورا بنت مِظْطون<sup>(٢)</sup> عربيَّة . من العرب العاربة .

وفي قول القحطانية : إنَّ أَمَّنَّا أَشْرَفُ في الحِساب إذ كانت عربيَّة . وأربعةٌ من الستَّة هم الذين وقَّعوا بحراسانَ ، فأولدوا تُركَ خراسان . فهذا قولنا للقحطانيِّ .

(١) الكلام بعده إلى « وكلها جواد » في ص ٨٧ ليس في اختيار ج . ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « أُمهم قنطور » . والوجه ما أثبت من جمهرة

أنساب العرب ٥ . ٥١٠ وسيرة ابن هشام ٧١ . وفي سفر التكوين ٢٥ : ١ « قنطورة » . وقد ذكرت أسماء الستة في سفر التكوين .

وأما قولنا للعدنانيّ ، فإبراهيم أبونا ، وإسماعيلُ عُنّا ، وقرابتنا من إسماعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عديّ : قيل لمباركُ التُّركيّ ، وعنده حمّادُ التُّركيّ : إنكم من مذحج . قال : ومذحج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلا إبراهيمَ خليلَ الله وأميرَ المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقط إلى بلاد التُّرك رجلٌ من مذحجٍ فأنسلَ نسلًا كثيرًا ، ولذلك قال شاعرُ الشعوبية للعرب في قصيدةٍ طويلة :

زعمتم بأنَّ التُّرك أبناءُ مذحجٍ      وبينكم قُربى وبين البرابرِ  
وذلكم نسلُ ابنِ ضَبَّةٍ باسِلٍ      وصُوفانَ أنسال كثير الجرائر<sup>(١)</sup>  
وقال آخر :

متى كانت الأتراكُ أبناءَ مذحجٍ      ألا إنَّ في الدنيا عجيبًا إن عجب

وقد سمعتم ما جاء في سدِّ بنى قُطور<sup>(٢)</sup> وشأنِ خيولهم بنخلِ السَّواد<sup>(٣)</sup> ،  
وإنما كان الحديثُ على وجه التَّهويل والتَّخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا  
للإسلام مادَّةً [ و ] جنْدًا كثيفًا ، وللخلفاء وقايةً وموئلاً وجُنَّةً حصينةً ،  
وشعاراً دون الدُّثار .

(١) في جمهرة ابن حزم ٢٠٣ : « وباسل بن ضبة يقال إن الديلم من ولده » .

(٢) في الأصل : « قنطور » . وانظر ما سبق .

(٣) ن ، س : « تبخو السواد » . والسواد سواد العراق ، وهى قرى الكوفة والبصرة ، وأصل السواد جماعة النخل والشجر .

وفي المأثور من الخبر : « تَارِكُوا التُّرْكَ مَا تَارَكُواكُمْ » . وهذه وصيةٌ لجميع العرب : فإنَّ الرأى متاركتنا ومسالتنا . وما ظنُّكم بقسومٍ لم يعرض لهم ذو القرنين . وبقوله « اتركوهم » سُمُوا التُّرْكَ . هذا بعد أن غلب على جميع الأرض غلبةً وقسراً ، وعنوةً وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « هذا عدوٌ شديدٌ كذبهُ . قليلٌ سلْبُهُ » . فنهى كما ترى عن التعرُّضِ لهم ، بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضربت المثل في العداوة الشديدة قالوا : ما هم إلا التُّرْكَ والدَّيْلَم . قال عَمَلَسُ بْنُ عَقِيلِ بْنِ عُلْفَةَ :

نبدلتُ منه بعد ما شاب مفرقِ عداوةَ تُرْكِيٍّ وبغصَ أبي حِجْلٍ  
وأبو حِجْلٍ هو الضَّبُّ . والعرب تقول : « هو أعقُّ من ضَبٍّ » : لأنَّه يأكل أولاده .

ولم يرعب قلوبَ أحدٍ العربِ مثلُ التُّرْكَ . وقال خلفُ الأحمر :

كأنِّي حينَ أُرهنهم يَنْبِيَّ دفعتهمُ إلى صُهبِ السَّيْلِ<sup>(١)</sup>  
قال : وإبائهم عني أوسُ بن حجر :

ككتُّها ماءهم لما رأيتهم صُهبَ السَّيْلِ بيديهم ييازيرُ<sup>(٢)</sup>

(١) يجوز في ياء المنكلم المدغم فيها به أن تكون مفتوحة كما يجوز كسرهما . وبالأخيرة فراء حمزة : « وما أتم بمصرخى » بالكسر . الأشموني ٢ : ٢٨٢ .

(٢) في الأصل وفي بعض أصول ن : « سكهم اساهم » ، وكتب في حاشيتها : « ظ حسبيهم أنهم لما رأيتهم » أى الظاهر . والصواب ما أثبت من ن ، س وديوان أوس ٣٣ . والييازير : جمع يزاره ، وهى العصا العظيمة . وفي الأصول : « ماربن » صوابه من الدوان .

وحدثني إبراهيم بن السندی مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديد الحبّ لأبناء الدعوة ، وكان يحوط موالیه ويحفظ أيّامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم<sup>(١)</sup> ، وكان نغم المعاني نغم الألفاظ ، لو قلت لسانه كان أرد<sup>(٢)</sup> على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير ، وسنان طير<sup>(٣)</sup> ، لكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن علي ، أن خاقان ملك الترك واقف مرة الجنيد بن عبد الرحمن<sup>(٤)</sup> أمير خراسان ، وقد كان الجنيد هاله أمره ، وأفزعه شأنه ، وتعاظمه جموعه وجمعه ، وبعل به<sup>(٥)</sup> ، وفطن به خاقان وعرف ما قد وقع فيه ، فأرسل إليه :

« إني لم أقف هذا الموقف وأمسك هذا الإمساك وأنا أريد مكروهاً ، فلا ترع . ولو كنت أريد غلبةً أو مكروهاً لقد كنت انتسفتُ عسكرك انتسافاً

(١) يقال درسته الشيء درساً وأدرسته إياه : علمته إياه . انظر اللسان ( درس ٣٨٢ ) .

(٢) يقال هذا الشيء أرد من ذاك ، أى أنفع وأكثر عائدة .

(٣) الشهير ، المشهور المسلول ، وإن كان لم ينص عليه في المعاجم المتداولة . والطير : المحدث . وانظر البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث ، المرى . جمهرة أنساب العرب ٢٥٢ وفتوح البلدان للبلاذري ٦٠٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ . وقد استعمله هشام ابن عبد الملك على خراسان سنة ١١١ وكانت له حروب مع خاقان ملك الترك . الطبري ٨ : ٢٠٤ - ٢١٤ . وهو غير الجنيد بن عبد الرحمن بن عوف بن بجيد الكلبي . وقد ولي خراسان أيضاً . الجمهرة ٢٨٧ .

(٥) بعل به : ضاق به ودهش فلم يدرك كيف يصنع .

أَعْجَلَكَ فِيهِ عَنِ الرُّوِيَّةِ وَقَدْ أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ الْعَوْرَةِ . وَلَوْلَا أَنْ تَعْرِفَ هَذِهِ الْمَكِيدَةَ فَتَعُودَ بِهَا عَلَى غَيْرِي مِنَ الْأَتْرَاكِ ، لَعَرَفْتُكَ مَوْضِعَ الْإِنْتِشَارِ وَالْخُلَلِ وَالْخَطَأِ فِي عَسْكَرِكَ وَتَعْيِيتِكَ . وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ عَاقِلٌ ، وَأَنَّ لَكَ شَرَفًا فِي بَيْتِكَ وَفَضْلًا فِي نَفْسِكَ ، وَعِلْمًا بِدِينِكَ ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَحْكَامِكَ لِأَعْرِفَ بِهِ مَذْهَبَكُمْ ، فَأَخْرُجُ إِلَى فِي خَاصَّتِكَ لِأَخْرِجَ إِلَيْكَ وَحْدِي ، وَأَسْأَلُكَ عَمَّا أُحْتَاجُ إِلَيْهِ بِنَفْسِي . وَلَا تَحْتَفِلْ وَلَا تَحْتَرَسْ ؛ فَلَيْسَ مِثْلِي مَنْ غَدَرَ ، وَلَيْسَ مِثْلِي يُؤْمِنُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَمِنْ مَكْرِهِ وَكَيْدِهِ ، ثُمَّ يَنْكُثُ بِوَعْدِهِ . وَنَحْنُ قَوْمٌ لَا نَخْدَعُ بِالْعَمَلِ ، وَلَا نَسْتَحْسِنُ الْخَدِيعَةَ إِلَّا فِي الْحَرْبِ ، وَلَوْ اسْتَقَامَ أَمْرُ الْحَرْبِ بِغَيْرِ خَدِيعَةٍ لَمَا جَوَزْنَا ذَلِكَ لَأَنْفُسِنَا .

فَأَبَى الْجُنَيْدُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيْهِ إِلَّا وَحْدَهُ ، فَفَصَلَا مِنَ الصُّنُوفِ . وَقَالَ : سَلْ عَمَّا أَحْبَبْتَ ، فَإِنْ كَانَ عِنْدِي جَوَابٌ أَرْضَاهُ أَجِبْتُكَ ، وَإِلَّا أَشَرْتُ عَلَيْكَ بِمَنْ هُوَ أَبْصَرُ بِذَلِكَ مِنِّي .

قَالَ : مَا حَكَمَكُمْ فِي الزَّانِي ؟

قَالَ الْجُنَيْدُ : الزَّانِي عِنْدَنَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ دَفَعْنَا إِلَيْهِ امْرَأَةً تُغْنِيهِ عَنِ حَرَمِ النَّاسِ ، وَتَكْفِيهِ عَنْ حَرَمِ الْجِيرَانِ ؛ وَرَجُلٌ لَمْ نَعْطِهِ ذَلِكَ ، وَلَمْ تَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ . فَأَمَّا الَّذِي لَزَوْجَةً لَهُ فَإِنَّا نَجْلِدُهُ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَنُخْضِرُ ذَلِكَ الْجَمَاعَةَ مِنَ النَّاسِ لِنَشْهَرَهُ وَنَحْذَرَهُ بِهِ ، وَنَغْرِبُهُ فِي الْبُلْدَانِ لِنَزِيدَ فِي شَهْرَتِهِ وَفِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ ، وَلِنُنْزِجَ بِذَلِكَ كُلَّ مَنْ كَانَ يُهْمُّ بِمِثْلِ عَمَلِهِ . فَأَمَّا الَّذِي قَدْ [ أَغْنَيْنَاهُ <sup>(١)</sup> ] فَإِنَّا نَرْجُمُهُ بِالْجَنْدَلِ حَتَّى نَقْتُلَهُ .

(١) موضعها بياض في الأصل ، وإثباتها من ن ، س .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وتَدِيرُ كَبِيرٌ ، فَمَا قَوْلُكُمْ فِي الَّذِي يَقْذِفُ عَنيفًا بِالزُّنَى ؟

قال : يَحْلَدُ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ، وَلَا نَقْبِلُ لَهُ شَهَادَةً ، وَلَا نُصَدِّقُ لَهُ حَدِيثًا .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وتَدِيرُ كَبِيرٌ ، فَمَا حُكْمُكُمْ فِي السَّارِقِ ؟

قال : السَّارِقُ عِنْدَنَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ يَحْتَالُ لِمَا قَدْ أَحْرَزَهُ النَّاسُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يَأْخُذَهَا بِنَقَبِ حَيْطَانِهِمْ وَبِالتَّسَلُّقِ مِنْ أَعَالَى دُورِهِمْ ؛ فَهَذَا يَقْطَعُ يَدَهُ الَّتِي سَرَقَ بِهَا ، وَنَقَبَ بِهَا ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا . وَرَجُلٌ آخَرُ يُخَيِّفُ السَّبِيلَ ، وَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ ، وَيَكَايِدُ عَلَى الْأَمْوَالِ <sup>(١)</sup> ، وَيَشْهَرُ السَّلَاحَ فَإِنْ مَنَعَهُ صَاحِبُ الْمَتَاعِ قَتَلَهُ ، فَهَذَا قَتَلَهُ وَنَصَلَبَهُ عَلَى الْمَنَاهِجِ وَالطَّرِيقِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ ، وتَدِيرُ كَبِيرٌ . قال : فَمَا حُكْمُكُمْ فِي الْغَاصِبِ وَالْمُسْتَلَبِ ؟

قال : كُلُّ مَا فِيهِ الشُّبْهَةُ وَيَجُوزُ فِيهِ الْغَلَطُ وَالْوُجُوهُ ، كَالْغَضَبِ وَالِاسْتِلَابِ ، وَالْجَنَائَةِ ، وَالسَّرِقَةِ لِمَا يُوْكَلُ أَوْ يُشْرَبُ فَإِنَّا لَا نَقْطَعُ فِيهَا فِيهِ شُبْهَةً وَنَتِمَحَّلُ <sup>(٢)</sup> لَذَلِكَ وَجَهًا غَيْرَ السَّرِقَةِ .

قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وتَدِيرُ كَبِيرٌ . قال : فَمَا حُكْمُكُمْ فِي الْقَاتِلِ وَقَاطِعِ الْأُذُنِ وَالْأَنْفِ ؟

(١) المراد بالمكايدة هنا الاحتيال والمعالجة . وفي الأصل : « يَكَابِرُ » ، وأثبت ما في ن ، س .

(٢) في أصول ن : « وَيَتِمَحَّلُ » وقد جعلها فان فلو تن : « وَيَحْتَمَلُ » ، وتبعته نسخة س . وما أثبت من الأصل أولى وأوفق .

قال : النَّفْسُ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ . وَإِنْ قَتَلَ رَجُلًا عَشْرَةً قَتَلْنَاهُمْ . وَتَقْتُلُ الْقَوَى الْبَدْنَ بِالضَّعِيفِ الْبَدْنَ ، وَكَذَلِكَ الْيَدُ وَالرَّجُلُ .  
قال : حَسَنٌ جَمِيلٌ وَتَدْيِيرٌ كَبِيرٌ . قال : فَمَا تَقُولُونَ فِي الْكَذَّابِ وَالنَّمَامِ وَالضَّرَاطِ .

قال : عِنْدَنَا فِيهِمُ الْإِقْصَاءُ لَهُمْ وَإِبْعَادُهُمْ وَإِهَاتِهِمْ ، وَلَا تَقْبَلُ شَهَادَتَهُمْ ، وَلَا نَصَدِّقُ أَحْكَامَهُمْ .

قال : وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا ؟

قال : هَذَا جَوَابُنَا عَلَى دِينِنَا .

قال له : أَمَّا النَّمَامُ عِنْدِي ، هُوَ الَّذِي يُضْرَبُ بَيْنَ النَّاسِ <sup>(١)</sup> ، فَإِنِّي أُحْسِبُهُ فِي مَكَانٍ لَا يَرَى فِيهِ أَحَدًا . وَأَمَّا الضَّرَّاطُ فَإِنِّي أَكْوِي اسْتَهَ ، وَأَعَاقِبُ ذَلِكَ الْمَكَانَ فِيهِ <sup>(٢)</sup> . وَأَمَّا الْكَذَّابُ فَإِنِّي أَقْطَعُ الْجَارِحَةَ الَّتِي بِهَا يَكْذِبُ ، كَمَا قَطَعْتُمُ الْيَدَ الَّتِي بِهَا يَسْرِقُ ، وَأَمَّا الَّذِي يُضْحِكُ النَّاسَ وَيَعُودُّهُمْ السُّخْفَ فَإِنِّي أَخْرِجُهُ مِنْ سُلْطَانِي ، وَأُصْلِحُ بِإِخْرَاجِهِ عُقُولَ رَعِيَّتِي .

قال : فَقَالَ الْجَنْبِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : أَنْتُمْ قَوْمٌ تَرُدُّونَ أَحْكَامَكُمْ إِلَى جَوَازِ الْعُقُولِ ، وَإِلَى مَا يَحْسُنُ فِي ظَاهِرِ الرَّأْيِ ؛ وَنَحْنُ قَوْمٌ تَتَّبِعُ الْأَنْبِيَاءَ ، وَنَرَى أَنَّ لَمْ نَصْلُحْ عَلَى تَدْيِيرِ الْعِبَادِ . وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِغَيْبِ الْمَصَالِحِ وَسِرِّ الْأَمْرِ <sup>(٣)</sup>

(١) وكذا في ن مع عدم سبق واو لكلمة « هو » فيهما . لكن في س : « وهو الذي يرفع الحديث بين الناس إشاعة » .

(٢) جعلت في ن ، س : « منه » .

(٣) ن ، س : « وبسر الأمر » .



وحقائقه ، ومحصوله وعواقبه ، والناسُ لا يعلمون ولا يَرونَ الحزمَ إلَّا على ظاهر الأمور . وكَم من مُضِيع يَسلَم ، وحازِم يعطب .

قال : ما قلتَ كلاماً أشرف من هذا ، ولقد أقيمتَ لى فِكراً طويلاً .

قال إبراهيم : قال عبدُ الملك : قال صالح : قال الجنيد : فلم أرَ أَوْقَى ولا أنصَفَ ولا أفهمَ ولا أذكى منه . ولقد واقَفْتُهُ ثلاثَ ساعاتٍ من النَّهار وما تحرَّكَ منه شيءٌ إلَّا لسانه ، وما مَنى شيءٌ لم أحرَّكه .

٣٨ و

وهكذا يَصِفون مُلوَكَ التُّرك ، يزعمون أنَّ ساسانَ وخاقانَ الأَكبرَ ، توافقا ببعضِ الكسور<sup>(١)</sup> ، وفَصَلاً من الصَّقَّين ، وطالتِ المناجاةُ ، فلما افتتلا قالوا : كان خاقانُ أُرْكُنَ وآدَبَ ، وكان مَرَكَبُ كَسرى أُرْكُنَ وآدَبَ<sup>(٢)</sup> ، ولم يتحرَّك من خاقانَ إلَّا لسانه ، وكان بِرِذْوَنُهُ يرفعُ قائمَةً ويَضَعُ أخرى ، وكان مَرَكَبُ كَسرى كَأَنَّمَا صُبَّ صَبًّا ، وكان كَسرى يحرِّكُ رأسه ويُشيرُ بيده . قالوا : ومن الأعاجيب أنَّ الحارثَ بنَ كعبٍ لا يقومُ لحِزْمٍ<sup>(٣)</sup> ، وحزم لا تقومُ لكَندَةٍ ، وكندةٌ لا تقومُ للحارثَ بنَ كعبٍ .

(١) كسور الأودية والجبال : معاطفها وشعابها ، لا يفرد لها واحده كما في اللسان . وقد حورت في ن ، س إلى «الجسور» خلافاً لما في الأصول ، وليس ما يدعو إليه .  
(٢) أُرْكُن من الركائنة ، وهى السكون والوقار . وفي جميع الأصول : «أزكى» في هذا الموضع .

(٣) بنو حزم بن زيد بن لؤذان بن عمرو بن عيسد بن عوف بن غنم بن مالك ابن التجار . جهمرة أنساب العرب ٣٤٨ . وفي العرب جرم بن ربان بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة . الجهمرة ٤٥١ .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب في الحارث : أن العرب لا تقوم للترك ،  
والترك لا تقوم للرُّوم ، والرُّوم لا تقوم للعرب .

قال جهم بن صفوان الترمذى<sup>(١)</sup> : قد عرفنا ما كان بين فارس والترك  
من الحرب ، حتى تزوج كسرى أبرويز ، خاتون بنت خاقان ، يستميله بذلك  
الصَّهر ، ويدفعُ بأسه عنه . وقد عرفنا الحروب التي كانت بين فارس والرُّوم ،  
وكيف تساجلوا الظفر ، وبأى سبب غرس الزيتون بالمدائن وسوسا<sup>(٢)</sup> ، وبأى  
سبب بنيت الرُّومية<sup>(٣)</sup> ولم سميت بذلك ، ولم بنى كسرى على الخليج قبالة  
قُسطنطينية النواويس<sup>(٤)</sup> وبيوت النار . ولكن متى ظهرت الرُّوم على ترك  
خراسان ظهوراً موالياً ، ضربوا بها المثل إلى آخر دارمسه<sup>(٥)</sup> ، ومن هناك من  
الأشباه ، ومن يتخلل هذا النسب .

وكانت خاتون بنت خاقان عند أبرويز فولدت له شيرويه . وقد ملك  
شيرويه بعد أبرويز ، فتزوج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له

(١) نسبة إلى ترمذ ، وكان قد أظهر دعوته بها . السمعاني ١٤٩ والفرق بين  
الفرق ١٩٩ والملل والنحل ١ : ١٠٩ . وقد قتل سنة ١٣٨ . البداية والنهاية  
١٠ : ٢٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ . ويقال له أيضاً السمرقندى كما في لسان الميزان .  
وفي الأصول : « اليريدى » بالإهمال .

(٢) الذى فى معجم البلدان « شوشة » قال : قرية بأرض بابل .

(٣) هذه رومية المدائن ، وهى غير رومية الروم . انظر معجم البلدان  
( رومية ) .

(٤) النواويس : جمع ناووس ، وهى مقابر النصارى .

(٥) كذا وردت هذه العبارة .

فيروز اشاهي<sup>(١)</sup> أمّ يزيد الناقص<sup>(٢)</sup> والوليد . وكان يقول : ولدني أربعة أملاك : كسرى ، وخاقان ، وقيصر ، ومروان . وكان يرتجز في حروبه التي قتل فيها الوليد بن يزيد بن عاتكة :

أنا ابن كسرى وأبي خاقان وقيصر جدّي وجدّي مروان<sup>(٣)</sup>  
فلما صار إلى الافتخار في شعره بالتجدة والثقافة بالحرب ، لم يفخر  
إلا بخاقان فقط فقال :

فإن كنت أرى مُقبلاً ثم مُدبراً وأطلع من طودٍ زليق على مُهر  
نخاقان جدّي فاعرف في ذلك واذكري أخايرته في السهل والجبل الوعر<sup>(٤)</sup>  
قوله « وأطلع » يريد : وأنزل ، وهي لغة أهل الشام<sup>(٥)</sup> وأخذوها من  
نازلة العرب في أوّل الدهر . وجعل دابّته مُهرًا ، لأنّ ذلك أشدُّ وأشقّ .

(١) في الأصول : « فيروزا بنتاهي » تحريف . وفي الطبري ٩ : ٤٦ أن اسمها  
« شاه آفرید بنت فيروز » .

(٢) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . الطبري ٩ : ٢٢ ، ٤٦ قال :  
« وإما قيل يزيد الناقص لقصه الناس الزيادة التي زادهوها الوليد بن يزيد في أعطياتهم  
وذلك عشرة عشرة » . وروى الطبري أيضاً أنه سمى بذلك تلقباً له من مروان  
ابن محمد ، إذ سماه الناقص بن الوليد فسماه الناس الناقص لذلك . فهذا تعليل آخر .  
وفي أمثلة النحويين : « الناقص والأشج أعدلا بني مروان » . والأشج : عمر  
ابن عبد العزيز ، سمى بذلك لشجّة أصابته .

(٣) في الطبري ٩ : ٤٦ :

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقيصر جدّي وجدّي خاقان  
(٣) ن ، س : « أخايره » .

(٤) لم تسجلها المعاجم المتداولة ولا كتب الأضداد ، لكنهم ذكروا طلع عنهم  
وعليهم بمعنى غاب واختفى . وطلع عنهم وعليهم بمعنى أقبل .

وقال الفضل بن العباس بن رزيق : أتانا ذات يوم فرسان من الترك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجاً إلا دخل حصنه وأغلق بابه ، وأحاطوا بحصن من ذلك الحصون ، وأبصر فارس منهم شيئاً يطلع إليهم من فوق ، فقال له التركي : لئن لم تنزل إلي لأقتلنك قتلة ماقتلتها أحداً ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كل شيء فيه ، فضحك من نزوله إليه وفتح له وهو في أحسن موضع وأمنع مكان ، ثم أقبل به إلى حصن أنا فيه فقال : اشتروه مني . قلنا : لا حاجة لنا في ذلك . قال : فإني أبيعهم بدرهم واحد . فرمينا إليه بدرهم نحلى سبيله ، ثم أدبر عنا ومضى مع أصحابه ، فما لبث إلا قليلاً حتى عاد إلينا فوقف حيث نسمع كلامه ، فراعنا ذلك ، فأخرج الدرهم من فمه وكسره بنصفين . وقال : لا يسوى درهماً<sup>(١)</sup> ، وهذا غبن فاحش ، فخذوا هذا النصف ، وهو على كل حال غال جداً بالنصف الآخر . قال : فإذا هو أطرف الخلق .

قال : وكنا نعرف ذلك الرجل بالجنين ، وقد كان سمع باحتيال الترك في دخول المدن وعُبور الأنهار في الحروب ، فتوهم أنه لم يتوعد بفتح الباب<sup>(٢)</sup> وقال ثمامة : ما شَبَّهْتُ الذرَّ إلا بالترك ؛ لأنَّ كلَّ ذرَّةٍ على حدِّتها معها من المعرفة بادِّخار الطعم ، ومن الشَّمِّ والاسترواح ، ونَجَب المدَّخَر<sup>(٣)</sup> حتى

(١) أي لا يساوي درهما . وقد أنكر هذه الكلمة أبو عبيد ، وحكاها أبو عبيدة كما في اللسان (سوى ١٤٠) .

(٢) أي لم يكن كلامه وعيدا فحسب . وفي ن بعده : « إلا وعنده » ، ثم أكلها فان قلو تن بعبارة « شيء من ذلك » .

(٣) النجب : العض والقشر ، والمراد شق الجوب . انظر الحيوان ٤ : ٦٥ ، =

لا يَنْبُتَ فِي جَعْرِهِ<sup>(١)</sup> ، ثُمَّ الْاِحْتِيَالُ لِلنَّاسِ فِي الْاِحْتِيَالِ لَهَا بِالصَّامَةِ وَالْعِفَاصِ  
وَالْمَزْدَجِرِ<sup>(٢)</sup> ، وَتَعْلِيْقُ الطَّعَامِ عَلَى الْأَوْتَادِ وَالْبَرَّادَاتِ ، مِثْلُ الذَّرِّ مَعَ صَاحِبَتِهَا .  
وَقَالَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ : كُلُّ جَنْسٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَمِيرٍ وَرَئِيسٍ وَمُدَبِّرٍ ،  
حَتَّى الذَّرُّ<sup>(٣)</sup> .

وَرَوَى أَبُو عُمَرَ الضَّرِيرُ<sup>(٤)</sup> ، أَنَّ رَئِيسَ الذَّرِّ الرَّائِدَ الَّذِي يَخْرُجُ أَوَّلًا  
لِشَيْءٍ قَدْ شَمَّهِ دُونَ أَصْحَابِهِ ، لِمُصَوِّصِيَّةٍ خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا ، وَلَطَافَةِ الْحِسِّ ،  
فَإِذَا حَاوَلَ حَمْلَهُ وَتَعَاوَى نَقْلَهُ ، وَأَعْجَزَهُ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ يُبْلَى عُذْرًا ، أَتَاهَنَّ  
فَأَخْبَرَهُنَّ فَرَجَعَ ، وَخَرَجَتْ بَعْدَهُ كَأَنَّهَا خِيطٌ أَسْوَدُ مَمْدُودٌ . وَلَيْسَتْ ذَرَّةٌ أَبَدًا  
تَسْتَقْبِلُ ذَرَّةً أُخْرَى إِلَّا وَافَقَتْهَا وَسَارَتْهَا بِشَيْءٍ ثُمَّ انْصَرَفَتْ عَنْهَا<sup>(٥)</sup> .

و ٣٩

وَكَذَلِكَ الْأَتْرَاكُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ غَيْرُ عَاجِزٍ عَنْ مَعْرِفَةِ مُصْلَحَةِ أَمْرِهِ ،  
إِلَّا أَنَّ التَّفَاضُلَ وَاجِبٌ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْأَشْيَاءِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَوَاتِ . وَقَدْ تَخْتَلَفَ  
الْجَوَاهِرُ وَكُلُّهَا كَرِيمٌ<sup>(٦)</sup> ، وَتَتَفَاضَلُ الْعِتَاقُ وَكُلُّهَا جَوَادٌ .

= ١٨ و ٧ : ٣٥ . وَفِي الْأَصْلِ « نَجَب » بِإِهْمَالِ الْحَرْفِ الْأَوَّلِ وَالثَّلَاثِ . وَجَعَلَهَا  
فَانْ فَلَوْنٌ : « وَتَجَبُّ الْمَزْجَرُ » .

(١) فِي الْأَصْلِ : « حَتَّى لَا يَبِيتَ إِلَّا فِي جَعْرِهِ » . وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَ . انْظُرِ التَّنْبِيْهَ  
السَّابِقَ وَمُرَاجَعَهُ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « وَالْمُودَحِرُ » .

(٣) انْظُرِ الْحَيَوَانَ ٤ : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) وَكَذَا وَرَدَ اسْمُهُ فِي الْبَيَانِ ٢ : ٦٩ . وَفِي بَعْضِ نَسَخِ الْبَيَانِ « أَبُو عُمَرَ الضَّرِيرُ »  
وَوَرَدَ فِي الْحَيَوَانَ ٤ : ٢٠ « أَبُو عُمَرَ الْمَكْفُوفُ » .

(٥) انْظُرِ الْحَيَوَانَ ٤ : ٧ - ٨ .

(٦) فِي الْأَصْلِ : « وَكُلُّهُ كَرِيمٌ » .

وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجُمْل ما انتهى إلينا وبلغه علمنا ؛ فإن وقعَ ذلك بالموافقة فبتوفيق الله وصُنْعه ، وإن قصّر دون ذلك فالذى قصّر بنا نقصانُ علمنا ، وقلةُ حفظنا وسماعنا . فأما حُسْنُ النِّيَّةِ ، والذى نُضْمِرُ من الحُبَّةِ والاجتهاد في القُرْبَةِ ، فإننا لا نرجع في ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتضييع ، وبين التقصير من جهة العجز وضعف العزم ، فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كلُّ صِنْفٍ من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهارَ فضلِ نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه ووليّه <sup>(١)</sup> ، لكان كتاباً كبيراً ، كثيرَ الورق عظيماً ، وكان العدد <sup>(٢)</sup> الذين يَقْضُونَ لمؤلفه بالعلم والاتساع في المعرفة أكثرَ وأظهر ، ولكننا رأينا أن القليل الذي يُجمع خيرٌ من الكثير الذي يُفَرِّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العون والتسديد ، إنه سميع قريبٌ ، فقال لما يريد .

تم الكتاب والله المنة ، ويده الحول والقوة

والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامه

وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) في ن ، س : « وولده » .

(٢) في ب : « عدد » .

٢

رِسَالَةٌ

الْمِعَاشِ وَالْمِعَادِ  
أَوْ

الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَالْمَذْمُومَةِ

كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه الرسالة من نسختين في الأصل :

النسخة الأولى عنوانها : ( رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك في الأخلاق الحمودة والذمومة ) وهي ثاني رسالة في مجموعة الأصل ، والنسخة الثانية عنوانها : ( رسالة المعاد والمعاش في الأدب وتدبر الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ) وترتيبها في المجموعة هو الرابع ، إذ يفصل بين النسخة الأولى والثانية رسالة أخرى هي ( كتاب كتمان السر وحفظ اللسان ) .

أما محمد بن عبد الملك الزيات فهو في غنى عن التعريف ، وإن كنت قد عرفت به في كتابي الحيوان والبيان .

وأما محمد بن أحمد بن أبي دواد فكان قاضياً كآبيه ، ولاء التوكل على قضاء بغداد والأعمال بعد أن فلج أبوه سنة ٢٣٣ ، ثم عزله التوكل سنة ٢٣٧ . وتوفي أبو الوليد محمد سنة ٢٣٩ ومات أبوه بعده بعشرين يوماً<sup>(١)</sup> .

والراجع أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، لا إلى محمد بن عبد الملك ؛ لأنه يذكر في صدرها أنه عرف المكتوب إليه هذه الرسالة « أيام الحداثة » . ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الزيات ، فقد كانت حياته بين سنتي ١٧٣ ، ٢٣٣ ولم تعرف صلة الجاحظ به إلا في أيام سلطانه .

---

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ — ٣٠١ . وانظر لترجمة أبيه وإخوته جبهة أنساب العرب ٣٢٨ وتاريخ بغداد ٤ : ١٤١ — ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ — ٢٦ . وقد انفرد ابن حزم بتسمية أبي أحمد بن محمد بن أبي دواد .

وتجد ما يقتضى التسمية بالمعاش والمعاد فى ص ٩٥ س ١٧ .  
وقد حققت هذه الرسالة على أربع نسخ :

- ١ — نسخة الأصل فى الموضع الأول من المجموعة .
- ٢ — نسخة الأصل فى الموضع الثانى من المجموعة ، ورمزها د .
- ٣ — نسخة المتحف البريطانى التى تمثلها مصورة الجامعة ، ورمزها م .
- ٤ — نشرة پاول كراوس ومحمد طه الحاجرى ورمزها ط .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

و ٤١

حَفِظَكَ اللَّهُ وَأَمْتَعَ بِكَ <sup>(١)</sup>

أما بعدُ فَإِنَّ جماعاتِ أهلِ الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِنَ الارتدادَ لموضعِ البُغيةِ ، وأن يبيِّنَ أسبابَ الأمورِ ويمهِّدَ لعواقبها . فإنَّما حُدِثَ العلماءُ بحسنِ التثبُّتِ في أوائلِ الأمورِ ، واستشفافِهِم <sup>(٢)</sup> بعقولهم ما تجيء به العواقبُ ، فيعلمون عندَ استقبالها ما تُؤوِّلُ به الحالاتُ في استدبارها . وبقدرِ تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم . فأما معرفةُ الأمورِ عندَ تكشُّفها وما يظهر من خَفَيَّاتِها فذاك أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون <sup>(٣)</sup> .

وإني عرفتُك - أكرمك الله - في أيامِ الحداثة ، وحيث سُلطانُ اللهو المخلوق للأعراضِ أغلبُ على نظرائك ، وسُكرُ الشبابِ والجِدَّةِ <sup>(٤)</sup> المتحيِّفينِ للدينِ والمرُوءةِ مستولٍ على لِدَاتِك فاخْتَبِرْتَ أنتَ وهم [ ففَقَّتَهُم <sup>(٥)</sup> ] بيسطةِ المقدرةِ وحِمَا الحداثة ، وطَوَّلِ الجِدَّةَ ، مع ما تقدَّمَتَهُم فيه من الوسامةِ في الصُّورة ، والجمالِ في الهيئة . وهذه كُلُّها أسبابٌ [ تكاد أن <sup>(٦)</sup> ] توجب

(١) « حفظك الله وأمتع بك » من د فقط .

(٢) د : « واستشراقهم » .

(٣) م : « والعالم والجاهل » .

(٤) الجِدَّةُ ، كهدة : اليسار والسعة والغنى ، ومثلها الوجد مثلثة الواو : م :

« الحدة » تصحيف .

(٥) التكملة من م .

(٦) التكملة من م .

الاعتقاد للهوى ، ولنجح من المهالك لا يسلم منها إلا المنقطع القرين في صحة الفطرة ، وكال عقل . فاستعبدهم الشهوات حتى أعطوها أزيمة أديانهم ، وسلطوها على مروءاتهم وأباحوها أعراضهم ، قالت بأكثرهم الحال إلى ذلّ العدم وقد عزّ الغنى في العاجل ، والندامة الطويلة والحسرة في الآجل .

وخرجت نسيج وحدك ، أوحدياً في عصرك<sup>(١)</sup> ، حكمت وكيل الله عندك - وهو عقلك - على هواك ، وألقيت إليه أزيمة أمرك ، فسلك بك طريق السلامة<sup>(٢)</sup> ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذات أكثر مما بلغوا ، ونال بك من الشهوات أكثر مما نالوا ، وصرّفك من صنوف النعم<sup>(٣)</sup> أكثر مما تصرّفوا ، وربط عليك من نعم الله التي خوّلك ما أطلقه من أيديهم إيثارُ اللهو<sup>(٤)</sup> وتسليطهم الهوى [على أنفسهم]<sup>(٥)</sup> ؛ فغاض بهم سبيل تلك اللجج<sup>(٦)</sup> ، واستنقذك من تلك المعاطب ، فأخرجك سليم الدين ، وافرّ المروءة ، نقيّ العرض ، كثير الثراء ، بين الجدة<sup>(٧)</sup> . وذلك سبيل من كان ميله إلى الله تعالى أكثر من ميله إلى هواه .

٤١ و

(١) هذا ما في د . وفي الأصل و م : « نفسك » .

(٢) هذا ما في د . وفي الأصل : « طرق » وفي م : « سبيل » .

(٣) هذا ما في د ، م وفي الأصل : « التمتع » .

(٤) د : « إيثار الهوى » .

(٥) هذه من د .

(٦) في الأصل ، م : « غاض بك تلك اللجج » ، وأثبت ما في د .

(٧) هذه الكلمة والتي قبلها ساقطتان من د . وفي الأصل ، م : « من الجدة » ،

فلم أزل [ أبقاك الله <sup>(١)</sup> ] في أحوالك تلك كلها بفضيلتك عارفاً ، ولك بنعم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودة فتدعوني إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبة في الاتصال بك ، ارتياداً منى لموضع الخيرة في الأخوة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء في المودة ، وتخيراً لمستودع الرجاء في النجابة .

فلما محضتكم الخبرة ، وكشفك الابتلاء عن المحمدة ، وقضت لك التجارب بالتقدمة ، وشهدت لك قلوب العامة بالقبول والمحبة ، وقطع الله عذر كل من كان يطلب الاتصال بك ، طلبت الوسيلة إليك والاتصال بمحبك ، وامتت بحُرمة الأدب وذمام كرمك . وكان من نعمة الله عندي أن جعل أبا عبد الله <sup>(٢)</sup> - حفظه الله - وسيلتي إليك ، فوجدت المطلب سهلاً والمراد محموداً ، وأفضيت إلى ما يحوز الأمانة ويفوت الأمل ، فوصلت إياي <sup>(٣)</sup> بمودتك ، وخلطتني بنفسك ، وأسمتني في مراعي ذوى الخاصة بك ، تفضلاً لا مجازاة ، وتطوُّلاً <sup>(٤)</sup> لا مكافاة ، فأمنت الخطوب ، واعتليت على الزمان ، واتخذتكم للأحداث عُدَّةً ، ومن نواب الدهر حصناً منيعاً .

فلما حُزْتُ المؤانسة ، وتقلبت من فضلك في صنوف النعمة ، وزاد بصرى من مواهبك في الشرور والخبرة ، أردتُ خبرة المشاهدة ، فبلوت

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) لعله يعني أبا عبد الله أحمد بن أبي دواد .

(٣) د : « رجاي » .

(٤) د : « وتكرما » .

٤١ ظ أخلاقك ، وامتنتحت شيمك ، وعجمت مذهبك على حين غفلاتك ، وفي الأوقات التي يقل فيها تحفظك ، أراعى حركاتك ، وأراقب مخارج أمرك ونهيك ، فأرى [ من ] استصغارك لعظيم النعم التي تنعم بها ، واستكثارك لقليل الشكر من شاكريك ، ما أعرف به <sup>(٢)</sup> [ و ] بما قد بلوت من غيرك ، وما قد شهدت لي به التجارب ، أن ذلك منك طبع غير تكلف .

هيات ! ما يكاد ذو التكلف أن يخفى على أهل العباوة <sup>(٣)</sup> ، فكيف على مثلي من المتصفحين . فزادتني الموانسة فيك رغبة ، وطول العشرة لك محبة ، وامتحاني أفاعيلك لك تفضيلاً ، وبطاعتك دينونة .

وكان من تمام شكرى لربى ولى كل نعمة ، والمبتدئ بكل إحسان ، الشكر لك والقيام بمكافأتك بما أمكن من قول وفعل <sup>(٤)</sup> ؛ لأن الله تبارك وتعالى نظم الشكر له بالشكر لذى النعمة من خلقه ، وأبى أن يقبلهما إلا معاً ؛ لأن أحدهما دليل على الآخر ، وموصول به . فمن ضيع شكر ذى نعمة من الخلق فأمر الله ضيع ، وبشاهده استخف <sup>(٥)</sup> .

ولقد جاء بذلك الخبر عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

(١) التكملة من أحد أصول ط .

(٢) في الأصل و د : « أعرف » فقط . والكلمة التي قبلها والتي بعدها من أحد أصول ط . وقد زدت الواو بعد هذه العبارة ليلتئم القول .

(٣) في الأصل و د : « على العباة » ولم يعرف هذا الجمع للنبي ، ولا هو مقيس . وأثبت ما في م .

(٤) د : « وعمل » .

(٥) الشاهد : الدليل . في الأصل : « وبشهادته » ، وأثبت ما في د .

ولعمري إنَّ ذلك لَمَوْجُودٌ في الفطرة ، قائمٌ في العقل : أنَّ مَنْ كَفَرَ نِعَمَ الخَلْقِ كانَ لِنِعَمِ اللَّهِ أَكْفَرُ ؛ لأنَّ الخلقَ يُعطى بعضهم بعضاً بالكُفَّةِ والمِشْقَةِ ، وثَقُلَ العطية على القلوب ، واللهُ يعطى بلا كُفَّةٍ . ولهذه العلةُ جمع بين الشُّكر له والشكر لذوي النِّعم من خلقه .

فلما وجبت على الحَبَّةِ بِشُكْرِكَ ، وقُطِعَ عُذْرِي في مكافأتِكَ ، اعترفتُ بالتقصير عن تقصِّي ذلك ، إلَّا أنَّي بسطتُ لسانِي بتقريظِكَ ونشرِ محاسنِكَ . موصولٌ ذلك مَنِّي<sup>(١)</sup> عند السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قال : « من أودع عُرْفًا فليشكره ، فإن لم يمكنه فليشره ، فإذا نشره فقد شكَّره ، وإذا كتّمه فقد كَفَره » .

ثم رأيت أن قد بقى على أمرٍ من الأمور يمكنني فيه برُّك ، وهو عندي عَتِيدٌ ، وأنت عنه غير مستغنٍ ، والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله . ٤٢ و لم أزل أبقاك الله بالموضع الذي قد عرفت<sup>(٢)</sup> ، من جَمْعِ الكتب ودراسِها والنَّظَرِ فيها ، ومعلومٌ أنَّ طُولَ دراستها إنّما هو تصفُّح عقول العالمين ، والعلمُ بأخلاق النبيّين ، وذوى الحكمة من الماضين والباقيين من جميع الأمم ، وكتبِ أهل الملل .

فرأيتُ أن أجمع لك كتاباً من الأدب ، جامعاً لعلمٍ كثيرٍ من المعاد والمعاش ، أَصِفُ لك فيه عللَ الأشياء ، وأخبرُك بأسبابها وما اتَّفقت عليه محاسنُ الأمم .

(١) في الأصل : « عندي » وأثبت ما في د .

(٢) د : « علت » .

وعلمتُ أَنَّ ذلك من أعظم ما أبرُّك به<sup>(١)</sup> ، وأرجح ما أتقربُ به إليك .  
وكان الذى حدانى على ذلك ما رأيتُ الله قَسَمَ لك من الفهم والعقل ،  
وركَّب فيك من الطَّبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء<sup>(٢)</sup> أَنَّ العقل المطبوع والكرم الغريزى لا يبلغان  
غاية الكمال إلَّا بمعاونة العقل المكتسب . ومثلوا ذلك بالنار والخطب ،  
والمصباح والذهن . وذلك أَنَّ العقل الغريزى آلة والمكتسب مادة ، وإنَّما  
الأدب عقلٌ غيرك تزيده فى عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعى الآداب قبلى قد عهدوا إلى الغابرين<sup>(٣)</sup> بعدهم فى  
الآداب عهدوداً قاربوا فيها الحقَّ ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلَّا أننى رأيتُ أكثرَ  
مارسموا من ذلك فروعاً لم يبينوا عللها ، وصفاتٍ حسنة لم يكشفوا أسبابها ،  
وأموراً محمودة لم يدلُّوا على أصولها .

فإنَّ كان ما فعلوا من ذلك [ رواياتٍ رووها عن أسلافهم ، و<sup>(٤)</sup> ] وراثتٍ  
ورثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلة من استنبط<sup>(٥)</sup> .  
وإنَّ كانوا تركوا الدلالة على علل الأمور<sup>(٦)</sup> التى بمعرفة عللها<sup>(٧)</sup> يؤصل إلى

(١) د : « أسرك به » .

(٢) م : « وقد اجتمعت الحكماء على » .

(٣) د : « الغابر » .

(٤) التكملة من د ، م .

(٥) د . « يستنبط » . م : « استطب » .

(٦) هذا ما فى الأصل و م . وفى د : « على أعيان الأمور » .

(٧) د : « اللاتى على معرفة عللها » . وفى الأصل : « التى فى معرفة عللها »

وأثبت ما فى م .



مباشرة اليقين فيها ، وُيَنْتَهَى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعْدُوا في ذلك منزلة الظنِّ بها . ولن تجدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلا مبيّنة الأسباب ، مكشوفة العلل ، مضروبةً معها الأمثال .

فألقت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصل لك فيه الطبائع التي رُكِبَ ٤٢ ظ عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون<sup>(١)</sup> ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون .

ثمّ مبيّن لك كيف تفرق بهم الحالات ، وتفاوت<sup>(٢)</sup> بهم المنازل ، وما العلل التي يُوجب بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ، متى كان الأول كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول ، وربّما كان الأول ولم يكن الثاني . وفرق ما بين الطّبع الأول وبين الاكتساب والعادة التي تصير طبعاً ثانياً . ولم اختلف ذلك ؟ وكيف دواعي قلوب الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشيء الذي يُحتال لقلوبهم به حتى تُستمال ، وحتى تُؤنس بعد الوحشة ، وتسكن بعد النّفار ؟ وكيف يُتأتّى لِنُقْضِ<sup>(٣)</sup> ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تُصرف إلى الشّيم الحمودة ؟ ورأسم لك في ذلك أصولاً ، ومبيّن لك مع كلّ أصل منها علته وسببه .

(١) في الأصل : « متساوون » وأثبت ما في د .

(٢) أى تفاوت ، بحذف إحدى التاءين . وفي د : « وتفاوت » .

(٣) د : « لنقض » .

وقد علمت أن في كثير من الحقّ مشبّهات لا تُستبان إلّا بعد النظر ،  
وهناك يَخْتَلُ (١) الشَّيْطَانُ أَهْلَ الْغَفْلَةِ ، وذلك أنّه لا يجد سبيلا إلى اختداعهم عن  
الأُمُور الظاهرة (٢) .

فلم أدع من تلك المواضع الخفية موضعاً إلّا أقمتُ لك بإزاء كلّ شبهة منه  
دليلاً (٣) ، ومع كلّ خفيٍّ من الحقّ حجةً ظاهرة ، تستنيط لها غوامض البرهان  
وتستبين بها دقائق الصّواب (٤) ، وتستشِفُّ بها سرائر القلوب ، فتأتى ما تأتي  
عن بينة ، وتدع ما تدع عن خبرة ، ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفة كثيرٍ  
مما يغيب عنك ، إذا عرفت العلل والأسباب ، حتّى كأنك مشاهدٌ لضمير  
كلِّ امرئٍ ، لعرفتكَ بطبعه وما ركّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه  
ثمّ لا أرسِم لك بالأصول حتّى أتقصّي لك ما بلغه على من الفروع .  
ثم لا أرسِم لك من ذلك [ إلّا (٥) ] الأمر المعقول في كل طبيعة ، والموجود  
في فطر البرايا كلّها (٦) . فإن أحسنت [ رعاية (٧) ] ذلك وأقمته على حدوده ،  
ونزّلته منازلَه ، كان عمرك - وإن قصرت أيامه - طويلاً ، وفارقت ما لا بدّ  
لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

٤٣ و

(١) في الأصل : « يَخْتَلُ » صوابه في د . ويختل : يخدع .

(٢) في الأصل : « عن الأمر الظاهر » ، وأثبت ما في د .

(٣) كلمة « منه » ليست في الأصل ، وإثباتها من م وفي د : « منها دليلاً » .

(٤) هذا ما في د . وفي الأصل : « دقائق الصواب » .

(٥) التكملة من د .

(٦) في الأصل : « في فطرة » ، وأثبت ما في د .

(٧) التكملة من د .

واعلم أنَّ الآدابَ إنما هي آلاتٌ تصلحُ أن تُستعملَ في الدِّينِ وتُستعملَ في الدنيا ، وإنما وُضعت الآدابُ على أصولِ الطبائعِ . وإنما أصولُ أمورِ التدبيرِ في الدِّينِ والدُّنيا واحدةٌ ، فما فسدتُ فيه المعاملةُ في الدِّينِ فسدتُ فيه المعاملةُ في الدنيا ، وكلُّ أمرٍ لم يصحَّ في معاملاتِ الدُّنيا<sup>(١)</sup> لم يصح في الدِّينِ . وإنما الفرقُ بين الدينِ والدُّنيا اختلافُ الدارينِ من الدُّنيا والآخرةِ فقط ، والحكمُ هاهنا الحكمُ هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكةٌ ، ولا ثبتت دولةٌ ، ولا استقامت سياسةٌ . ولذلك قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾<sup>(٢)</sup> ، قال ابن عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبِّرَت أمورُ الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدِّينِ ، فإنما ينتقل بذلك العقل . فبقدر جهله بالدُّنيا<sup>(٣)</sup> يكون جهله بالآخرةِ أكثر ؛ لأن هذه شاهدةٌ وتلك غيبٌ<sup>(٤)</sup> ؛ فإذا جهل ما شاهد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأولُ ما أُوصيك به ونفسي تقوى الله ؛ فإنَّها جِماعُ كلِّ خيرٍ ، وسببُ كلِّ نجاةٍ ، ولِقاحُ كلِّ رشدٍ . هي أحرزُ حرزٍ ، وأقوى مُعينٍ ، وأمنعُ جُنَّةٍ . هي الجامعةُ محبةُ قلوبِ العباد<sup>(٥)</sup> ، والمستقبلةُ بك محبةِ قلوبٍ من لا تجرى عليهم

(١) د : « في معاملة الدنيا » .

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) في النسخ : « في الدنيا » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الشاهدة : تقيض الغائبة .

(٥) في الأصل : « قلوب محبة العباد » ، صوابه في د .

نِعْمُكَ<sup>(١)</sup>. فاجعلها عِدَّتَكَ وسلاحَكَ<sup>(٢)</sup>، واجعل أمر الله ونهيهِ نُصْبَ عَيْنِكَ .

وأحذرك ونفسى الله والاعتزاز به ، والإدهان فى أمره ، والاستهانة بعزائمه ، والأمن لمكره ؛ فقد رأيت آثاره<sup>(٣)</sup> فى أهل ولايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عبرة ، وللغابرين مثلاً .

واعلم أن خلقه كلهم برئته ، لا وُضلة بينه وبين أحدٍ منهم إلا بالطاعة ، فأولاهم به أكثرهم تزيّداً فى طاعته ، وما خالف هذا فإنه أمانى وغرور .

وقد مكن الله لك من أسباب المقدرة ، ومهد لك فى تمكين الفنى والبسطة ما لم تنحله بحيلة<sup>(٤)</sup> ، ولا بلغت به بقوة<sup>(٥)</sup> ، لولا فضله وطوله . ولكنّه مكنك ليلو خبرك ، ويخبر شكرك ، ويحصى سميك ، ويكتب أثرك ، ثم يوفيك أجرَكَ ، ويأخذك بما اجترحت يدك أو يعفو ؛ فأهل العفو هو .

ولله ابتلاءان فى خلقه - والابتلاء هو الاختبار - ابتلاء بنعمة ، وابتلاء بمصيبة . وبقدر عظمها يجب التكليف من الله عليها<sup>(٦)</sup> ؛ فبقدر ما حوّلَكَ من النعمة يستأديك الشكر<sup>(٧)</sup> .

(١) كلمة « حجة » ساقطة من الأصل ، وإثباتها من د .

(٢) د : « عونك وسلاحك » .

(٣) د : « أثره » .

(٤) تنحله ، من النحلة وهى العطية . د : « ما لم تنله بحيلة » .

(٥) فى الأصل : « ولم تلقنه بقوة » ، وأثبت ما فى د .

(٦) د : « وبقدر عظمها يجب التكليف عليهما » .

(٧) استأداه المال ونحوه : استخرجه منه وطلب أدائه .

ولو تقصّى الله على خلقه لعذابهم ؛ ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُوْءَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ <sup>(١)</sup> 〉 . ولكنه قبل التوبة ، وأقال العثرة ، وجعل بالحسنة أضعافاً .

واعلم أنّ الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا : ميزان قسط ، وحكم عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ <sup>(٢)</sup> 〉 .

وهذا مثل ضربته الله ؛ لأنّ الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كفتي الميزان شيء ولم يك في الأخرى قليل ولا كثير ، لم يكن للوزن معنى يُعقل . وذلك أن أحداً من الخلق لا يخلو من هفوة أو زلة أو غفلة ؛ فأخبر أنّ من كان حسناته الراجحة على سيئاته ، مع الندم على السيئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيئاته بحسناته كان العطب <sup>٤٤</sup> و والعذاب أولى به .

وكذلك حكمه في الدنيا ؛ لأنّه قد تولى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة ، وقد عاتبهم في بعض الأمور لغلبة الصّلاح [ في أفعالهم وإن هفوا ، وتبرأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور <sup>(٣)</sup> ] على أفعالهم <sup>(٤)</sup> ، وإن أحسنوا في بعض الأمور .

(١) الآية ٥٤ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٠٢ — ٢٠٣ من سورة المؤمنون .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « على أفعالهم » .

وكذلك جرت معاملات الخلق بينهم ، يُعدّلون العادل بالغالب من فعله  
وربّما أساء ، ويفسّقون الفاسق وربّما أحسن . وإنما الأمور بعواقبها ، وإنّما  
يُقضى على كلّ امرئ بما شا كلّ أحواله .

فهذه الأمور قائمة في القول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها  
السياسة ، لا اختلاف بين الأمة فيها .

فلا تُغَيِّبَنَّ حَظَّكَ مِنْ دِينِكَ<sup>(١)</sup> ، وإن استطعت أن تبلغ من الطّاعة  
غاياتها فلنفسك تمهد ، وإلّا فاجهد أن يكون أغلب أفعالك عليك الطّاعة<sup>(٢)</sup> ،  
مع الندامة عند الإساءة ، ويكون ميلك عند الإساءة ، إلى الله أكثر .  
والله يوفّقك .

اعلم أن الله جلّ ثناؤه خلق خلقه ، ثمّ طبعهم على حبّ اجترار  
المنافع<sup>(٣)</sup> ، ودفع المضارّ ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك<sup>(٤)</sup> . هذا فيهم طبع  
مرتب ، وجيلة مفطورة ، لا خلاف بين الخلق فيه ؛ موجود في الإنس  
والحيوان ، لم يدّع غيره مدّع من الأولين والآخرين . وبقدر زيادة ذلك  
ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء ؛ [ فنقصانه<sup>(٥)</sup> ] كزيادته تميل الطّبيعة معهما<sup>(٦)</sup>  
ككيل كفتي الميزان ، قلّ ذلك أو كثر .

(١) في الأصل : « فلا تعتبر » ، صوابه في د .

(٢) في الأصل : « أفاعيلك الطّاعة » ، وأثبت ما في د .

(٣) اجترار المنافع : اجتلابها . وكلمة « حب » ساقطة من د .

(٤) في الأصل : « ونقص من كان » ، صوابه في د .

(٥) تكملة ضرورية ليتزن بها الكلام .

(٦) في الأصل ، د : « معها » .

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميع تحابِّ العباد ومكارههم . والنفس في طبعها حبُّ الرَّاحة والدَّعة ، والازدياد والعلو ، والعزِّ والغلبة ، والاستطراف والتَّنَوُّق<sup>(١)</sup> ، وجميع ما تستلذ الحواسُّ من المناظر الحسنة ، والروائح العَبِقَة ، والطُّعوم الطَّيِّبَة<sup>(٢)</sup> ، والأصوات الموقنة ، والملامس اللذيذة . ومما كراهيته<sup>(٣)</sup> في طباعهم أصدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

فهذه الخلالُ التي تجمعها خلتان<sup>(٤)</sup> غرائز في الفِطَر ، وكوامن في الطَّبع ؛ جِبِلَّةٌ ثابتة ، وشيمة مخلوقة . على أنَّها<sup>(٥)</sup> في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم قدر القلَّة فيه والسكرَّة إلَّا الذي دبرَّهم .

٤٤ ظ

فلما كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك ملاذَّ لجميع حواسِّهم ، فتعلَّقت به قلوبهم ، وتطلَّعت إليه أنفسهم . فلو تركهم وأصلَّ الطبيعة ، مع ما مكن لهم من الأرزاق المشتهاة في طبائعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبارُّ . وإذا ذهباً كان ذلك سبباً للفساد ، وانقطاع التَّناسل ، وفناء الدُّنيا وأهلها ؛ لأنَّ طَبْعَ النفس لا يسلسُ بعطيَّة قليل ولا كثيرٍ مما حوته ، حتَّى تعوِّض أكثر مما تُعطى ، إمَّا عاجلاً وإمَّا آجلاً مما تستلذه حواسِّها .

(١) التَّنَوُّق في الشيء : التَّجود والمبالغة فيه ، مثل التَّنَاقُ . وفي النسختين : « التلون » ، وقد ارتضيت هذا التصحيح من ناشر ط .

(٢) في الأصل : « والطعم ذو الطيبة » ، وأثبت ما في د .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « كراهته » .

(٤) يعني : « المحاب والمكاره » . وفي د : « التي وصفت لك تجمعها خلتان » . ولا وجه لهذه الزيادة .

(٥) د : « إلا أنها » .

فَعَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يَتَعَاطِفُونَ وَلَا يَتَوَاصِلُونَ وَلَا يَنْقَادُونَ<sup>(١)</sup> إِلَّا بِالتَّأْدِيبِ ،  
وَأَنَّ التَّأْدِيبَ لَيْسَ إِلَّا بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، [ وَأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ<sup>(٢)</sup> ] غَيْرُ نَاجِعَيْنِ  
فِيهِمْ إِلَّا بِالْتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ اللَّذَيْنِ فِي طَبَاعِهِمْ<sup>(٣)</sup> . فَدَعَاهُمْ بِالْتَّرْغِيبِ إِلَى  
جَنَّتِهِ ، وَجَعَلَهَا عَوْضًا مِمَّا تَرَكُوا فِي جَنْبِ طَاعَتِهِ<sup>(٤)</sup> ، وَزَجَرَهُم بِالْتَّرْهِيبِ بِالنَّارِ  
عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ بِعِقَابِهَا عَلَى تَرْكِ أَمْرِهِ . وَلَوْ تَرَكَهُمْ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَالطَّبَاعَ  
الْأَوَّلَ<sup>(٥)</sup> جَرَوْا عَلَى سَنَنِ الْفِطْرَةِ ، وَعَادَةِ الشَّيْمَةِ<sup>(٦)</sup> .

ثُمَّ أَقَامَ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ عَلَى حُدُودِ الْعَدْلِ ، وَمَوَازِينِ النِّصْفَةِ ، وَعَدَّ لَهُمْ  
تَعْدِيلًا مَتَّفِقًا ، فَقَالَ : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ  
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ<sup>(٧)</sup> 》 .

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي تَدْيِيرِهِ الْخَلْلُ ، وَلَا جَائِزٌ  
عِنْدَهُ الْحَابَاةُ ؛ لِيَعْمَلَ كُلُّ عَامِلٍ عَلَى ثِقَةٍ مِمَّا وَعَدَهُ وَوَاعَدَهُ ، فَتَعَلَّقَتْ قُلُوبُ

(١) وَلَا يَنْقَادُونَ ، سَاقِطَةٌ مِنْ د .

(٢) التَّكْمِلَةُ مِنْ د .

(٣) د : « طَبَاعُهُمْ »

(٤) فِي الْأَصْلِ : « طَاعَتِهِمْ » ، وَأُثْبِتَ مَا فِي د .

(٥) الطَّبَاعُ : الطَّبِيعَةُ وَالسَّجِيَّةُ . قَالَ الزَّجَاجِيُّ : « الطَّبَاعُ وَاحِدٌ مَذْكَرٌ كَالنَّحَاسِ  
وَالنَّجَارِ » ، يَعْنِي بِكَسْرِ أَوَّلِهَا . انْظُرِ اللِّسَانَ ( طَبِعَ ) . وَفِي د : « وَالطَّبِيعُ الْأَوَّلُ » ،  
وَكِلَاهُمَا مُتَّجِهٌ .

(٦) م : « وَعَادَاتُ الشَّيْمَةِ » .

(٧) الْآيَةُ ٧ — ٨ مِنْ سُورَةِ الزَّلْزَلِ .



العباد بالرغبة والرَّهبة ، فَاطَرَدَ التدبير ، واستقامت السَّياسة ، لمواقفتها<sup>(١)</sup> ما في الفِطرة ، وأخذها بمجامع المصالحة .

ثمَّ جعلَ أكثر طاعته فيما تَسْتَنقِلُ النفوس ، وأكثر معصيته فيما تَلَذَّذَ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّتِ الجنةُ بالكاره ، والنَّارُ بالشهوات<sup>(٢)</sup> » . [ يخبر أنَّ الطريق إلى الجنَّة احتمال الكاره ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات<sup>(٣)</sup> ] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم يتقادوا لأمره إلا بما وصفتُ لك من الرِّغبة والرَّهبة ، فأعجزُ الناسِ رأياً وأخطؤهم تدبيراً ، وأجهلُهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أَمَلْ أو ظنَّ أو رجأ أنَّ أحداً من الخلق - فوقه أو دونه أو من نظرائه<sup>(٤)</sup> - يصلح له ضميره ، أو يصحُّ له بخلاف ما دبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم .

فالرَّغبة والرَّهبة أصلاً كلُّ تدبير ، وعليهما مدار كلِّ سياسة ، عظُمتْ أو صُغُرت . فاجعلُهما مثالك الذي تَحْتَذِي عليه ، وركنك الذي تَسْتَنِدُ إليه . واعلم أنَّك إن أهملت ما وصفتُ لك عرَّضْتَ تدبيرك للاختلاط .

(١) يعنى الرغبة والرَّهبة . وفي الأصل : « لمواقفتها » ووجه من د .

(٢) رواه مسلم والترمذى وأحمد عن أنس ، ومسلم أيضاً عن أبى هريرة . الجامع الصغير ٢٧٣٢ .

(٣) التكملة من د .

(٤) فى الأصل : « أو من يظن أن » مع سقوط هذه العبارة من د ، وصوابها مارأيت وانظر ما سبأى .

وإنَّ آثَرَ الْهُوَيْنَا وَاتَّكَلْتُ عَلَى الْكِفَاةِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي لَا يَجُوزُ فِيهِ إِلَّا نَظْرُكَ ، وَزَجَّيْتُ أُمُورَكَ عَلَى رَأْيٍ مَدْخُولٍ ، وَأَصْلٍ غَيْرِ مُحْكَمٍ ، رَجَعْتُ ذَلِكَ عَلَيْكَ بِمَا لَوْ حُكِّمَ فِيكَ عَدُوُّكَ كَانَ ذَلِكَ غَايَةَ أَمْنِيَّتِهِ ، وَشِفَاءَ غِيظِهِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ إِجْرَاءَكَ الْأُمُورَ بِمَجَارِيهَا ، وَاسْتِعْمَالَكَ الْأَشْيَاءَ عَلَى وَجُوهِهَا ، يَجْمَعُ لَكَ أَلْفَةَ الْقُلُوبِ ، فَيَعَامِلُكَ <sup>(١)</sup> كُلُّ مَنْ عَامَلَكَ بِمُودَةٍ ، أَوْ أَخَذَ أَوْ إعْطَا ، وَهُوَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ بَصَرِكَ بِمَوَاضِعِ الْإِنْصَافِ <sup>(٢)</sup> ، وَعِلْمِكَ بِمَوَارِدِ الْأُمُورِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَثَرَتَكَ عَلَى غَيْرِ النَّصِيحَةِ وَالشَّفَقَةِ ، وَالْحُرْمَةِ وَالْكِفَايَةِ ، يَوْجِبُ [ لَكَ <sup>(٣)</sup> ] الْمُبَاعَدَةَ وَقَلَّةَ الثِّقَةِ مِنْ آثَرَتِهِ أَوْ آثَرَ عَلَيْهِ .

فَاعْرِفْ لِأَهْلِ الْبَلَاءِ - تَمَنَّ جَرَتْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مُودَةٌ أَوْ حُرْمَةٌ ، مِنْ فَوْقَكَ أَوْ دُونَكَ أَوْ نَظْرَانِكَ - أَقْدَارَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ . ثُمَّ لَتَكُنْ أُمُورُكَ مَعَهُمْ عَلَى قَدَرِ الْبَلَاءِ وَالْإِسْتِحْقَاقِ ، وَلَا تُؤْثِرْ فِي ذَلِكَ أَحَدًا لَهْوًى <sup>(٤)</sup> ؛ فَإِنَّ الْأَثَرَ عَلَى الْهَوَى يَتَوَجَّبُ الشُّخْطَةَ ، وَتُوجِبُ اسْتِصْفَارَ عَظِيمِ النِّعْمَةِ ، وَيُحَقِّقُ بِهَا الْإِفْضَالَ ، وَتَفْسُدُ عَلَيْهَا <sup>(٥)</sup> الطَّائِفَتَانِ : مَنْ آثَرَتْ وَمَنْ آثَرَتْ عَلَيْهِ .

أَمَّا مَنْ آثَرَتْ <sup>(٦)</sup> فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تُؤْثِرْهُ بِاسْتِحْقَاقٍ بَلْ لَهْوًى ، فَهُوَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَيَعَامِلُكَ » وَالْوَجْهُ مِنْ د .

(٢) د : « بِمَوَاقِعِ الْإِنْصَافِ » .

(٣) التَّكْلِمَةُ مِنْ د .

(٤) د : « بَهْوًى » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « بِهَا » وَأُثْبِتَ مَا فِي د .

(٦) د : « آثَرَتْهُ » فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَسَابِقِهِ .

مترقبٌ أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتحُولْ أثرتك حيث مال هواك . فهو مدخولُ القلب في مودتك ، غير آمنٍ لتغيرك .

وأما من آثرت عليه بعد الاستحقاق منه ، فقد جعلت له السبيلَ إلى الطَّعن عليك ، وأعطيتَه الحُجَّةَ على نفسِكَ . فكلُّ من يعمل على غير ثقةٍ عاد ما أراد به النَّفعَ ضرراً ، والإصلاح [ فيه <sup>(١)</sup> ] فساداً .

وربما آثر الرجلُ المرءَ من إخوانه بالعطية السنِّيَّة على بلاءٍ أبلاه <sup>(٢)</sup> ، فيعظمُ قدرها <sup>(٣)</sup> عنده حتَّى لعله تطيبُ نفسه ببذلِ ماله ودمِه دونه <sup>(٤)</sup> . فإنَّ أعطى من أبلي كبلائه وكانت له مثل دالته <sup>(٥)</sup> ، أكثر ممَّا أعطاه ، انتقل كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكلُّ مستحسنٍ مستقبحاً . وكذلك الأمر في العقوبة ، يجرى مجرى واحداً .

فاجعل العدلَ والنَّصفَ في الثَّواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخوانك ، فمن قدَّمتَ منهم قدَّمته على الاستحقاق ، وبصحة النِّيَّة في مودته ، وخلص نصيحته لك ممَّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه <sup>(٦)</sup> ، وعلمتَ بتجربتك له ، أنَّه يعلم أنَّ صلاحه موصولٌ بصلاحك ، وعطبه كائنٌ مع عطبك ، ففوّض

(١) التكملة من د .

(٢) في الأصل : « بلا بلاء أبلاه » ، والوجه من د .

(٣) في الأصل : « قدرها » ، صوابه من د .

(٤) د : « ونفسه دونه » .

(٥) في الأصل : « دلالة » ، صوابه في د .

(٦) في الأصل : « بمن قد بلوت في أخلاقه وشيمه » ، والوجه من د .

الأمر إليه ، وأشرِكهُ في خواصِّ أمورِك وخفيَّ أسرارِك ، ثمَّ اعرفْ له قدرَه في مجلسِك ومُحاورَتِك<sup>(١)</sup> ومعاملَتِك ، في كلِّ حالاتِك ومزاوَلاتِك في خلواتِك معه<sup>(٢)</sup> ، وبِحُضرةِ جُلُساتِك ؛ فإنَّ ذلك زيادة في نيته ، وداعية<sup>(٣)</sup> لِمَنْ دونه إلى التقرُّب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتليتَ في بعض الأوقات بمن يَضْرِبُ بِجرمة<sup>(٤)</sup> ويمتُ بدالة ، يطلب المكافأة بأكثر ممَّا يستوجب ، فدعاك الكرمُ والحياءُ إلى تفضيله على من [ هو<sup>(٥)</sup> ] أحقُّ منه ، إمَّا تخوُّفاً من لسانه<sup>(٦)</sup> ، أو مداراةً لغيره ، فلا تدع الاعتذارَ إلى من فوقه من أهل البلاء والنصيحة وإظهاراً ما أردتَ من ذلك لهم ؛ فإنَّ أهلَ خاصَّتِك والمؤمنين على أسرارِك ، هم شركاؤك في العيش ، فلا تستهينَنَّ بشيءٍ من أمورهم ؛ فإنَّ الرَّجُلَ قد يترك الشيء من ذلك اتِّكالا على حسن رأى أخيه<sup>(٧)</sup> ، فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو ، حتَّى يولِّد ضِعْفاً ويحوِّلَ عداوة .

فتحفَّظْ من هذا الباب ، واحملْ إخوانك عليه بجهدك .

(١) د : « ومحادثتك » .

(٢) في الأصل : « ومزاوَلتك » . والكلام بعد « معاملتك » إلى هنا ساقط من د .

(٣) د : « فإن ذلك زائد في نيته وداع » .

(٤) د : « يتقرب بجرمة » .

(٥) التكملة من د .

(٦) د : « تخوفاً » بدل « خوفاً » .

(٧) في الأصل : « أموراً لا على رأى أخيه » ، صوابه في د .

وستجد في من يتصل بك من يغلبه إفراط الحرص وحميّا الشره ، ولين جانبك له ، على أن ينقم العافية ، ويطلب الحقوق بمنازل من ليس هو مثله<sup>(١)</sup> ، ولا له مثل دالته ، فتلقاه لما تصنع به مستقلاً ، ولمعرفك مستصغراً .  
وصلاح من كانت هذه حاله بخلاف ما فسّد عليه أمره . فاعرف طرائقهم وشيمهم ، وداو كل من لا بدّ لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجع فيه ، إن لناً فليناً ، وإن شدةً فشدةً ؛ فقد قيل في المثل :

من لا يؤدّبه الجي ل في عقوبته صلاحه  
وقد قال بعض الحكماء :

« ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يجد من معاشرته بُدّاً<sup>(٢)</sup> ، بالعدل والنصفة ، حتّى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً<sup>(٣)</sup> .

فاحفظ هذه الأبواب التي يُوجب بعضها بعضاً ، وقد ضيّنت لك أوائلها كونَ أواخرها . فاعرفها واقتبسها ، واعلم أنّه متى كان الأوّل منها وجب ما بعده لا بدّ منه . فاحذر المقدّمات اللاتي يعقبها المكروه<sup>(٤)</sup> ، واحرص على توطيد الأمور التي على أثرها السلامة ، وألقح في البدئ الأمور التي تتأجها العافية<sup>(٥)</sup> .

(١) د : « ويطلب اللحاق بمنازل من ليس مثله » .

(٢) د : « من لم يعاشر من لا بد من معاشرته » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « حتّى يجعل الله له فرجاً » فقط .

(٤) د : « التي » .

(٥) البدئ : الأول . في الأصل : « والفتح في يدى » صوابه في د وفي د :

« أموراً تتأجها العافية » . وفي الأصل : « وتتأجها » .

فمن الأمور التي يُوجب بعضها بعضاً : المنفعةُ توجب المحبةَ ، والمضرةُ توجب البغضاء<sup>(١)</sup> ، والمُضادةُ توجب العداوةَ ، وخلافُ الهوى يُوجب الاستئثار ، ومتابعتهُ توجب الألفةَ ، والصدقُ يوجب الثقةَ ، والكذبُ يورث التهمةَ<sup>(٢)</sup> ، والأمانةُ توجب الطمأنينةَ ، والعدلُ يوجب اجتماع القلوبِ ، والجورُ يوجب الفرقةَ ، وحسن الخلقِ يُوجب المودةَ ، وسوء الخلقِ يوجب المباعدةَ<sup>(٣)</sup> ، والانبساطُ يوجب المؤانسةَ ، والانتقاصُ يوجب الوحشةَ ، والتكبرُ<sup>(٤)</sup> يوجب المقتَ ، والتواضعُ يوجب المِقةَ ، والجودُ بالقصدِ يوجبُ الحمدَ<sup>(٥)</sup> ، والبخلُ يوجب المذمةَ ، والتواني يوجب التضييعَ ، والجدُّ يوجب رخاءَ الأعمالِ ، والهويناءُ تورث الحسرةَ ، والحزمُ يورث الشُّرورَ ، والتَّغْيِيرُ يُوجبُ النَّدَامَةَ ، والحذرُ يوجب العُذرَ ، [ وإصابةُ التدبيرِ توجب بقاءَ النعمةِ<sup>(٦)</sup> ] والاستهانةُ توجب التَّبَاغِيَّ ، والتَّبَاغِيَّ مقدِّمةُ الشرِّ<sup>(٧)</sup> وسببُ البوارِ .

٤٦ ظ

ولكلِّ شيءٍ من هذا إفراطٌ وتقصيرٌ<sup>(٨)</sup> ، وإنما تصحُّ نتائجها إذا أُقيمت على حدودها ، وبقدر ما يدخل من الخلل فيها يدخل فيما يتولَّد منها ، لا بدَّ منه

(١) د : « لبغضة » .

(٢) في الأصل : « النجاسة » ، صوابه في د .

(٣) د : « التباعد » .

(٤) د : « والكبر » .

(٥) د : « والجود والفضل يوجبان الحمد » . ولا يتساقط هذا مع سائر الأسلوب .

(٦) التكهلة من د .

(٧) د : « مقدمات الشر » .

(٨) هذا ما يعبر عنه الأخلاقيون بمذهب الوسط .

ولا مَزَحَل عنه ، عليه عادةُ الخلق ، وبه جَرَتْ طبائعهم ، وتعمم المنفعة بها إصابَةُ مواضعها :

فالإفراط في الجود يوجب التَّبْذِيرَ ، والإفراط في التواضع يوجب المذلة<sup>(١)</sup> ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة<sup>(٢)</sup> ، والإفراط في المؤانسة يدعو لخطاء الشَّوء<sup>(٣)</sup> ، والإفراط في الاقتباس يوحش ذا النصيحة . وآفة الأمانة اثمان الخيانة<sup>(٤)</sup> ، وآفة الصَّدق تصديق الكذبة ، والإفراط في الحذر يدعو إلى ألاَّ يُوثَقَ بأحد ؛ وذلك ما لا سبيل إليه . [والإفراط في المضرَّة مَبْعُثَةٌ على حربك<sup>(٥)</sup>] ، والإفراط في جرِّ المنفعة غَناء لمن أفرطت في نفعه عنك . واحذرْ كل الحذر أن يَحْتَدَّكَ الشَّيْطَانُ عن الحِزْمِ<sup>(٦)</sup> فيمَثِّلَ لك التَّوَانِي في صورة التَّوَكُّل ، ويسلبك الحذر ، ويورثك الهَوَيْنَا بإحالتك على الأقدار ؛ فإنَّ الله إنَّما أمر بالتَّوَكُّل عند انقطاع الحِيل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار ، بذلك أنزل كتابه ، وأَمْضَى سُنَّتَهُ فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾<sup>(٧)</sup> ،

(١) في الأصل : « يورث المذلة » ، وأثبت ما في د .

(٢) في الأصل : « يدعو العقب الخاصة » ، صوابه في د .

(٣) بعده في الأصل : « والإفراط في الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد » ، وهو تكرار لما سيأتى مما اتفقت عليه النسختان .

(٤) الخيانة : جمع خائن ، وفي اللسان : « والجمع خانة وخونة ، الأخيرة شاذة » . ونظير هذه الأخيرة في الشذوذ حائك وحوكة .

(٥) التكملة من د .

(٦) هذا ما في د . وفي الأصل : « الحرص » .

(٧) الآية ٧١ من سورة النساء .

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾<sup>(١)</sup> . وقول النبي صلى الله عليه وسلم :  
« اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ »<sup>(٢)</sup> . وسئل ما الحزم ؟ فقال : الحذر<sup>(٣)</sup> .

فتحفظ من هذا الباب وأحكم معرفته إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أكثر الأمور إنما هو على العادة وما تضرى عليه النفوس ،  
ولذلك قالت الحكماء : « العادة أم لك بالأدب »

فرض نفسك على كل أمر محمود العاقبة ، وضرها بكل ما لا يذم من  
الأخلاق<sup>(٤)</sup> بصير ذلك طباعا<sup>(٥)</sup> ، وينسب إليك منه أكثر مما أنت عليه .

واعلم أن الذي يوجب لك اسم الجود القيام بواجب الحقوق عند  
النوائب ، مع بعض التفضل على الراغبين . وإذا أوجب<sup>(٦)</sup> لك اسم الجود  
زال عنك اسم البخل .

واعلم أن تسمير المال آلة للمكارم ، وعون على الدين ، ومتألف للإخوان ؛  
وأن من قد فقد المال قلت الرغبة إليه ، والرغبة منه ؛ ومن لم يكن بموضع  
رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره<sup>(٧)</sup> .

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذى عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ .  
ورواه الطبرانى : « قيدها وتوكل » أسنى المطالب لمحمد بن درويش البيرونى ص ٤٤ .

(٣) هذا ما فى د . وفى الأصل : « قال الحذر » .

(٤) فى الأصل : « الإخلاص » صوابه فى د . والتضرية : التعويد ، والضراوة :  
العادة .

(٥) الطباع : الطبع والجيالة . وانظر ما سبق فى حواشى ١٠٤ . د . د . طبعاً .

(٦) د : « وجب » .

(٧) هذا ما فى د . وفى الأصل : « به » .



( ٨ - رسائل الجامع )

واعلم أنَّ الجبن جبنان ، والشجاعة شجاعتان ، وليست تكون الشجاعةُ إلا في كلِّ أمرٍ لا يُدرى ما عاقبته ، يُخاطر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أردتَ الحزمَ في ذلك فلا تشجَّنْ نفسك على أمرٍ أبداً إلا والذي ترجو من نفعه في العاقبة أعظمُ مما تبذل فيه في المستقبل ، ثم يكون الرجاء في ذلك أغلبَ عليك من الخوف .

وها هنا موضعٌ يُحتاج فيه إلى النظر : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدين ، أو خوفاً لعارٍ تُسبُّ بهِ الأعقابُ فانت معذورٌ بالمخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان أمراً تعظمُ منفعتُهُ في الدنيا<sup>(١)</sup> إلا أنَّك لا تناله إلا بالمخاطرة بمهجة نفسك<sup>(٢)</sup> أو بتعريضِ كلِّ مالكٍ للتلف ، فالإقدام على مثل هذا ليس بشجاعة ، ولكن حماقةً بينةً عند الحكماء .

وقد قالت علماء أوائل الناس<sup>(٣)</sup> :

\* لا يرسل السَّاقَ إلا ممسكاً ساقاً<sup>(٤)</sup> \*

(١) في الأصل : « للدنيا » ، وأثبت ما في د .

(٢) الخطار : المخاطرة ، وهو أن يشقى بنفسه على خطر المهلك . وفي الأصل : « بالإخطار » والوجه ما أثبت من د . وفي د : « بالخطار بنفسك » .

(٣) د : « علماء الأوائل » فقط .

(٤) في الأصل : « ممسك » صوابه في د . وهو عجز بيت لأبي دواد الإيادي ، من أبيات رواها العسكري في الجمهرة ٢١٢ . وانظر اللسان ( حرب ، سوق ) وعيون الأخبار ٣ : ١٩٢ وأمثال الميداني ١ : ٢٠٢ وديوان المعاني ١ : ٢٣٨ والخصص ٨ : ١٠٣ . وصدرة :

\* أنى أتبع له حرباء تنضبة \*

وقالوا : « لا تُخرج الأمر كله من يدك وخذ بأحد جانبيه <sup>(١)</sup> » .  
ثم الشجاعة والجبن في ذلك بقدر الحالات والأوقات .

واعلم أن أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاث خلال :  
أشرفها : أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسنى ، فتكون عليه رحمة  
ولنفسك نظرا ؛ فإن كثرة الأعداء تنغيصُ للشُرور ، وقد قال الله تبارك  
وتعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ  
وَلِيٌّ حَمِيمٌ <sup>(٢)</sup> 》 .

فإن كان عدوك مما لا يصلح على ذلك فخصَّ عنه أسرارك ، وعمَّ عليه  
آثار تدبيرك <sup>(٣)</sup> ، ولا بطلنَّ على شيء من مكائدتك له <sup>(٤)</sup> بقول ولا فعل ،  
فيأخذ حذرَه ، ويعرف مواضع عوارك ، فإن تحصين الأسرار أخذ بأزمنة  
التدبير ، والإكثار من الوعيد للأعداء فشل <sup>(٥)</sup> . ولكن داج عدوك  
ما داجاك ، وأحص معايبه ما لاحاك .

وقال الشاعر <sup>(٦)</sup> :

كلُّ يداجي على البغضاء صاحبه      زَكِنْتُ منهم على مثل الذي زَكِنُوا <sup>(٧)</sup>

(١) د : « جوانبه » .

(٢) الآية ٣٤ من فصلت .

(٣) د : « وعم عليه تدبيرك » .

(٤) د : « مكائدتك » .

(٥) هذا ما في د . وفي الأصل : « وإكثار الوعيد للأعداء فشل » .

(٦) هو قعنب بن أم صاحب ، كما في اللسان ( زكن ) . وانظر أبياتاً من قصيدة

البيت في الحماسة ( باب الهجاء ) بشنوح التبريزي .

(٧) زكن بمعنى علم . وعداه بعلَى لأن فيه معنى اطلعت .

واعلم أن أعظم أعوانك عليه الحُجج [ ثم الفرصة <sup>(١)</sup> ] ، ثم لا تظهرن عليه حُجَّةً ، ولا تهتبل منه غِرَّةً ، ولا تطلبن له عَثْرَةً ، ولا تهتكن له سترًا [ إلا ] عند الفرصة في ذلك كله ، وفي المواضع التي يجب لك فيها العذر ويعظم فيها ضرره ، إن كان العفو عنه شرًّا له .

وإن كان ممن يُظهر لك العداوة ويكشف لك قِناع المحاربة ، وكان ممن أعيالك استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن في أمره بين حالين <sup>(٢)</sup> : استبطان الحذر منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [ به <sup>(٣)</sup> ] . ولست مستظهِراً عليه ٤٨ و  
بمثل طهارتك من الأدناس ، وبراءتك من المعايب .  
فلتكن هذه سيرتك في أعدائك .

واعلم أن إشاعة الأسرار فسادٌ في كلِّ وجهٍ من الوجوه ، من العدو والصديق <sup>(٤)</sup> . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الحوائج بسترها ؛ فإن كلَّ ذى نعمة محسود <sup>(٥)</sup> » .  
وإذا أفضيت سيرك فجاءت الأمور على غير ما تقدّر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك <sup>(٦)</sup> . وقد قيل في الأمثال : « من أفضى سرّه كثر اللتآمرون

(١) التكهلة من م .

(٢) د : « حالتين » .

(٣) التكهلة من د .

(٤) هذا مافي د . وفي الأصل : « والعدو والصديق » .

(٥) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٨٥ وذكّر أنه حديث ضعيف .

(٦) الكلام من أول الفقرة إلى هنا ساقط من د .

عليه . فلا تَضَعْ سِرَّكَ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَضُرُّهُ نَشْرُهُ كَمَا يَضُرُّكَ ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك<sup>(١)</sup> .

واعلم أَنَّكَ ستصحب من الناس أجناساً متفرقةً حالاًشهم ، متفاوتةً منازلهم ، وكلهم بك إليه حاجة ، وكل طائفة تسدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلمهم مجتمعون على نصيحتك والشفقة عليك . فمنهم من تريد منه الرأي والمشورة ، [ ومنهم من تريده للحفظ والأمانة<sup>(٢)</sup> ] ، ومنهم من تريده للشدة والغلظة ، ومنهم من تريده للمهنة . وكل يسدُّ مسدده على حياله . وقد قيل في الحكمة : « إِنَّ الْخِلَالَ تَنْفَعُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ السَّيْفُ » .

ولا تُخْلِنَ أحداً منهم - عظم قدره أو صغر منزله - من عنايتك وتعهدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثرة ؛ ليعلموا أَنَّهم منك بمرأى ومسمع . ثُمَّ لَا تَجُوزَنَّ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ حَدَّهُ ، ولا تدخله فيما لا يصلح له ، تستقيم لك حاله ، ويتسقى لك أمره<sup>(٣)</sup> .

واعلم أَنَّهُ سيمرُّ بك في معاملات الناس حالات تحتاج فيها إلى مداراة أصناف الناس وطبقاتهم ، يبلغ بك غاية الفضيلة فيها ، وكال العقل والأدب منها ، أَنْ تُسَالِمَ أَهْلَهَا وتملك نفسك عن هواها ، وتكف من جماحها<sup>(٤)</sup> ، بالأمر الذي لا يُخرجك في دينك<sup>(٥)</sup> ولا عرضك ولا بدنك ، بل يفيدك عزَّ الحلم ، وهيبة الوقار . وهي أمور مختلفة ، تجمعها حال واحدة .

٤٨ ظ

(١) في الأصل : « وينفعه نشره » ، صوابه في د . (٢) التكملة من د .

(٣) يتسقى : ينظم . وفي الأصل : « ويتفق » ، وأثبت ما في د .

(٤) في النسختين : « عن جماحها » .

(٥) في الأصل : « بأمر لا يخرجك في دينك » . صوابه في د .

منها : أن تأتيَ محفلاً فيه جمعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقُّه حتى يكون أهله [ الذين <sup>(١)</sup> ] يرفعونك ، فتظهر جلالُك وعِظْمُ قدرك .

ومنها : أن يفيضَ القومُ في حديثٍ ، عندك منه مثلُ ما عندهم أو أفضلُ ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم ، فإن نافستهم كنتَ واحداً منهم ، وإن أمسكت اقتضوكَ ذلك ، فصرتَ كأنك ممَّنٌ عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك .

ومنها : أن يتارى جُساؤُك - والمِراءِ نتاجُ اللّجاجة وثمرةُ أصلها الحميّة - فإن ضبطتَ نفسك كان تحاكمُهم إليك ، ومعوّلهم عليك .

واعلم أن طبع النفوس - إذ كان على حسبِ العلوّ والغلبّة - أن في تركيبها بَعْضٌ من استطالّ عليها . فاستدعِ محبّةَ العامّة بالتواضع ، ومودّة الأَخِلّاء بالمؤانسة والاستشارة ، والثقة والطمأنينة .

واعلم أن الذي تُعامل به صديقك هو ضدُّ ما تعامل به عدوك . فالصديقُ وجهٌ معاملته المسالمة ، والعدوُّ وجهٌ معاملته المداراة <sup>(٢)</sup> والمواربة ، هما ضدّانِ ينفان ، يُفسد هذا ما أصلح هذا <sup>(٣)</sup> ، وكلّما نقصت من أحدِ البابين زاد في صاحبه ، إن قليلاً قليلاً ، وإن كثيراً فكثيراً <sup>(٤)</sup> .

(١) التكملة من د .

(٢) د : « المداراة والمسالمة » ، وكلمة « والمسالمة » مقحمة .

(٣) د : « فصلاح هذا ما أفسدها »

(٤) د : « إن قليلاً قليلاً وإن كثيراً فكثيراً » .

فلا تَسْلَمْ بالمواربةِ صدَاقَةٍ ، ولا تَظْفُرُ بالعدوِّ مع الاستسلامِ إليه . فضعِ الثِّقَةَ موضِعَها ، وأقمِ الحذرَ مُقامَه <sup>(١)</sup> ، وأسرعِ إلى التفهَمِ بالثِّقَةِ ، ولا تبادِرْ إلى التَّصديقِ ، ولا سِيًّا بالحالِ من الأمورِ .

واعلمْ أنَّ كلَّ عِلْمٍ بغائبٍ ، كائنًا ما كان ، إنَّما يُصاب من وجوهٍ ثلاثة لا رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لغيرك إلى غايةِ الإحاطاتِ ؛ لاستئثارِ الله بها . ولن تَهْنَأْ بعيشٍ مع شدَّةِ التحرُّزِ ، ولن يتَّسِقَ لك أمرٌ مع التضييعِ <sup>(٢)</sup> . فاعرفْ أقدارَ ذلكِ .

فما غابَ عنك مما قد رآه غيرُك ممَّا يدركُ بالعيانِ ، فسبيلُ العلمِ به الأَخْبَارُ المتواترةُ ، التي يحملُها الوليُّ والعدوُّ ، والصَّالحُ والطَّالِحُ ، المستفيضةُ في الناسِ ، فتلك لا كُلفَةٌ على سامعِها من العلمِ بتصديقِها . فهذا الوجهُ يستوى فيه العالمُ والجاهلُ .

وقد يحییء خبرٌ أخصُّ من هذا <sup>(٣)</sup> ، إلَّا أنَّه لا يُعرفُ إلَّا بالسُّؤالِ عنه ، والمفاجأةُ لأهله ، كقومٍ نقلوا خبرًا ، ومثلُك يحيطُ علمُه <sup>(٤)</sup> أنَّ مثلهم في تفاوتِ أحوالهم ، وتباعدِهِم من التَّعارفِ ، لا يُمكن <sup>(٥)</sup> في مثله التَّواطؤُ وإنَّ جهلَ ذلك أكثرُ الناسِ . وفي مثل هذا الخبرِ يمتنعُ الكذبُ <sup>(٦)</sup> ، ولا يَهَيِّأُ الاتفاقُ فيه على الباطلِ .

(١) د : « مكانه » .

(٢) في الأصل : « ولن يتفق » ، ووجهه من د .

(٣) في الأصل : « أصح من هذا » ، صوابه في د .

(٤) د : « وعلمك يحيط » ، فقط .

(٥) د : « لا يكون » .

(٦) د : « يشنع الكذب » .

وقد يحىء خبرٌ أخصُّ من هذا ، يحمله الرجلُ والرجلانِ ممن يجوز أن يصدقَ ويجوز أن يكذب ، فصدق هذا الخبرِ في قلبك إنما هو بحسن الظنِّ بالخبر ، والثقة بعدالته . ولن يقومَ هذا [ الخبر<sup>(١)</sup> ] من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين الأولين [ أبداً<sup>(٢)</sup> ] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنع بالدين<sup>(٣)</sup> واستوى الظاهر والباطن من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في العقول أنه قد يفتش بعضُ الأمناء عن خيانة<sup>(٤)</sup> ، وبعضُ الصادقين عن كذبٍ ، وأن مثل<sup>(٥)</sup> الخبرين الأولين لم يتعقب الناس في مثلهما كذباً قط ، عليم أن الخبر إذا جاء من مثلهما جاء بحىء اليقين ، وأن ما علم من خبر الواحدِ فإنما هو بحسن الظنِّ والاثمان<sup>(٥)</sup> فهذه<sup>(٦)</sup> الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فأمّا العلم بما غاب مما لا يدركه أحدٌ بعيان ، مثلُ سرائر القلوب

(١) التكلة من د .

(٢) أى والتصنع بالدين كائن لا محالة بين طائفة من الناس ، لا يخلو منه عصر . والتصنع : تكاف حسن السميت وإظهاره والتزين به والباطل مدخول . اللسان : ( صنع ٧٩ ) .

(٣) أى تظهر خيانتهم بعد تقنينهم .

(٤) فى الأصل : « أو مثل » ، صوابه من د .

(٥) د : « فإذا علم » .

(٦) فى الأصل : « بهذه » ، وفى د : « هذه » . وصواب الأول ووجه الثانى ما أثبت .



وما أشبهها ، فإنما يُدرك علمها بآثار أفعالها وبالعالم<sup>(١)</sup> من أمورها ، على غير إحاطةٍ كإحاطة الله بها .

وأولُ العلمِ بكلِّ غائبِ الظنونُ ، والظنونُ إنما تقع في القلوب بالدلائل ، فكلما زاد الدليل قوَى الظنِّ حتّى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوكُ عن القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ ولترادفها .

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة<sup>(٢)</sup> ] .

فمن عرف ما طبع عليه الخلق وجرت به عاداتهم ، وعرف أسباب اتّصاليهم واتّصاليهم بهم ، وتقصى علل ذلك ، كان خليقاً - إن لم يحطْ بعلم ما في قلوبهم - أن يقع من الإحاطة قريباً .

واعلم أن المقادير بما جرت بخلاف ما تقدّر الحكماء ، فقال [ بها<sup>(٣)</sup> ] الجاهلُ في نفسه ، المختلطُ في تدبيره ، ما لا ينال الحازمُ الأريب الحذر . فلا يدعونك ما ترى من ذلك إلى التضييع والاتّكال على مثل تلك الحال ؛ فإنّ الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، فجاءت المقادير بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمد رأياً وأوجب عذراً ، ممّن عمل بالتفريط وإن اتّفقت له الأمور على ما أراد .

(١) في الأصل : « وبالعالم » ، صوابه في د .

(٢) التكملة من د . والكلام بعده إلى « والله يوفقك » في ص ١٢٣ انتقل في الأصل إلى ما يلي « والمواظبة عليه » في ظهر الورقة ٥١ من الأصل . وقد أُجريت ترتيب العبارة من د .

(٣) التكملة من د .

ولعمري ما يكاد ذلك يحيى إلّا في أقلّ الأمور ، [ وما كثر محيى  
السلامات إلّا لمن أتى الأمور <sup>(١)</sup> ] من وجوهها وإنما الأشياء بعوامها <sup>(٢)</sup> . فلا تكون  
لشيء ممّا في يدك أشدّ ضنّاً ، ولا عليه أشدّ حدّاً ، منك بالأخ الذى قد بلوته فى  
السّراء والضّرّاء ، [ فعرفت مذهبهم <sup>(٣)</sup> ] وخبّرت شيمه ، وصحّ لك غيبه ، وسلمت  
لك ناحيته ؛ فإنّما هو شقيقٌ روحك <sup>(٤)</sup> وباب الرّوح إلى حياتك ، ومُسْتَمَدُّ  
رأيك وتوأم عقلك <sup>(٥)</sup> . ولست منتفعاً بعيش مع الوحدة . ولا بدّ من المؤانسة ،  
وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخٌ فكن به  
أشدّ ضنّاً منك بنفائس أموالك ، ثمّ لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقاً أو خلقين  
تكرههما ؛ فإنّ نفسك التى هى أخصّ النفوس بك لا تعطيك المقدّاة فى كلّ  
ما تريد ، فكيف بنفس غيرك !

وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره ، وقد قالت الحكماء : « من  
لك بأخيك كلّ <sup>(٦)</sup> » ، و « أى الرّجال المهذب <sup>(٧)</sup> » .

ثم لا يمتنعك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء <sup>(٨)</sup> فإنهم جندٌ معدّون

(١) التكملة من د .

(٢) يعنى أن العبرة فى الأحكام بالأعم الغالب .

(٣) التكملة من د .

(٤) د : « شق روحك » . ه د : « ويوم غفلتك » ، تحريف .

(٦) لأكثم بن صيفى . العمرين ١٢ .

(٧) من قول النابغة الذبياني فى ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخا لا تله على شعث أى الرجال المهذب

(٨) د : « الصديق » .

[ لك<sup>(١)</sup> ] ينشرون محاسنك ، ويحاجون عنك . ولا يحملنك استطرافُ  
صديق ثانٍ<sup>(٢)</sup> على ملالةٍ للصديق الأول ؛ فإن ذلك سبيلُ أهل الجاهلة ، مع  
ما فيها من الدناءة وسوء التدبير ، وزهد الأصدقاء<sup>(٣)</sup> جميعاً في إخوانك .  
والله يوفقك<sup>(٤)</sup> .

وستجد في الناس من قد جرّبته الرجالُ قبلك ، ومحضه اختبارهم لك .  
فمن كان معروفاً بالوفاء في أوقات الشدة وحالات الضرورة ، فنافس فيه  
واسبق<sup>(٥)</sup> إليه ؛ فإن اعتقاده أنفسُ العقْد<sup>(٥)</sup> . ومن بلاه غيرك فكشف عن  
كُفر النعمة ، والغدر عند الشدة ، فقد حذرْك نفسه وإن آنسك<sup>(٦)</sup> وكما غدر  
بغيرك بغيرك بك ؛ فإن من شيمته الوفاء يفي للصديق والعدو ، ومن طبيعته  
الغدر لا يفي لأحد<sup>(٧)</sup> ، وإنما يميل مع الرجحان : يذلُّ عند الحاجة<sup>(٨)</sup> ويشمخ  
مع الاستغناء .

فاحذر ذلك أشدَّ الحذر . واعلم أن الحكماء لم تدم شيئاً ذمها  
أربع خلال :

(١) التكلّة من د .

(٢) في الأصل : « الصديق » فقط ، صوابه من د .

(٣) في الأصل : « الصديقين » ، وأثبت ما في د .

(٤) د : « موفقك » .

(٥) أراد أنفس ما يقتني . وأصل العقدة الضيقة يقتنيها الرجل .

(٦) في الأصل : « وأنسك » وأثبت ما في د .

(٧) في الأصل : « لا يدوم » ، وأثبت ما في د .

(٨) د : « في وقت الحاجة » مع إسقاط كلمة « يذل » .

الكذب فإنه جاع كل شر . وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده .

والغضب فإنه لؤم وسوء مقدرة ؛ وذلك أن الغضب ثمرة لخلاف ما تهوى النفس <sup>(١)</sup> ، فإن جاء الإنسان خلاف ما يهوى ممن فوقه أغضى وسمى ذلك حزنًا ، وإن جاء ذلك ممن دونه حمله لؤم النفس وسوء الطباع على الاستطالة بالغضب ، والمقدرة والبسطة على البطش <sup>(٢)</sup> .

والجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها ؛ فإنهم لم يجعلوا لصاحب الجزع في مثل هذا عذراً ، لما يتعجل من غم الجزع مع علمه بقوت الجزوع عليه . وزعموا أن ذلك من إفراط الشره ، وأن أصل الشره والحسد واحد وإن افرق فرعاهما .

وذموا الحسد كذمهم الجزع ، لما يتعجل صاحبه من ثقل الانتقام ، وكلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يحدى عليه شيئاً <sup>(٣)</sup> . فالحسد انتقام ، والقدر لؤم . وقال بعض الحكماء : « الحسد خلق دنيء ، ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب » . وزعموا أنه لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء ، وخول قدره عن احتمال الكاره في جنب نيل المكارم .

(١) د : « النفوس » .

(٢) في الأصل : « والمقدر والبسطة » ، وفي د : « والمقدرة بالبطش » ، وصوبت العبارة وأكملتها بما تلائم به مع ما قبلها .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « من غير أن يكون عليه في ذاك شيء » ، تحريف .

وبقدر ما دُمَّت الحِكماء هذه الأخلاق الأربعة<sup>(١)</sup> ، فكذلك حُدَّت أضدادها من الأخلاق ، فأكثرَت في تفضيلها الأقاويل ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنَّها أصلٌ لكلِّ كريم ، وجماعٌ لكلِّ خير ، وأنَّ بها تُنال جِسامُ الأمور في الدنيا والدين<sup>(٢)</sup> .

فاجعل هذه الأخلاق إمامًا لك ، ومَثَلًا بين عينيك ، ورُضًى عليها ٥٠  
نفسك ، وحكْمًا في أمرك ، تَفُزْ بِالرَّاحَةِ فِي الْعَاجِلِ<sup>(٣)</sup> ، وَالْكَرَامَةِ فِي الْآجِلِ .  
والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبرَ على ما ترجو فيه الغنم في العاقبة .  
والحلم حلمان : فأشرفُهما حلمك عَمَّنْ هُوَ دُونَكَ . والصَّدَق صدقان :  
أعظمهما صدقتك فيما يضرُّك . والوفاء وفاءان : أسناها وفاؤك لمن لا ترجوه  
ولا تخافه . فإنَّ مَنْ عُرِفَ بِالصَّدَق صار الناس له أتباعا ، ومن نُسِبَ إِلَى الْحِلْمِ  
أَلْبِسَ ثَوْبَ الْوَقَارِ وَالْهِيبَةِ وَأَبْهَتَ الْجَلَالََةَ ، ومن عرف بالوفاء استقامت بالثِّقَّة به  
الجماعات<sup>(٤)</sup> ومن استعزَّ بالصبر<sup>(٥)</sup> نال جسيماَت الأمور .

ولعمري ما غَلِطَت الحِكماء حين سمَّتها أركانَ الدِّينِ والدُّنْيَا .  
فالصَّدَق والوفاء توأمان ، والصَّبر والحلم توأمان<sup>(٦)</sup> ، فهنَّ<sup>(٧)</sup> تمامُ كلِّ

(١) في الأصل : « من هذه الأخلاق الثلاثة » ، والوجه من د .

(٢) د : « في الدين والدنيا » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « في العاجل والآجل » .

(٤) يقال استقام إليه ، إذا أنس به واطمأن إليه وسكن . في الأصل :

« واستقامت بالثقة به الجماعة » ، صوابه في د . وانظر ص ١٣٩ .

(٥) د : « استعان بالصبر » .

(٦) يقال هما توأمان أيضاً . في الأصل : « توأم » في الموضعين ، وأثبت ما في د .

(٧) في الأصل : « فهن » ، وفي د : « منهن » ، والوجه ما أثبت .

دين ، وصلا ح كل دنيا . وأضدادهن سبب كل فرقة ، وأصل كل فساد .  
واحذر خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها ، وضيعوا النظر فيها ، مع  
اشتغالها على الفساد ، وقدحها البغضاء في القلوب ، والعداوة بين الأوداء :  
المفاخرة بالأنساب ؛ فإنه لم يغلط فيها عاقل قط ، مع اجتماع الإنس جميعاً على  
الصورة<sup>(١)</sup> وإقرارهم جميعاً بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدّامة ،  
والثّوم والكرم ، والجبن والشّجاعة ، في كل حين ، وانتقالها من أمة إلى أمة ،  
ووجود كل محمود ومذموم في أهل كل جنس من آدميين . وهذا غير مدفوع  
عند الجميع .

فلا تجعلنّ له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حظاً ، تسلم بذلك على  
الناس أجمعين ، مع السّلامة في الدين .

واعلم أنّك موسومٌ بسيا من قارنت ، ومنسوبٌ إليك أفاعيل من  
صاحبت . فتحرّز من دخلاء السّوء ، ومجالسة أهل الرّيب<sup>(٢)</sup> ، وقد جرّت  
لك في ذلك الأمثال ، وسطّرت لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يعمل  
نفسه<sup>(٣)</sup> » ، وقالوا : « يُظنُّ بالمرء ما ظنَّ بقرينه » ، وقالوا : « المرء بشكله ،  
والمرء بأليفه » .

ولن تقدر على التحرّز من جماعة الناس<sup>(٤)</sup> ، ولكن أقلّ الموانسة

(١) أى اتفاقهم جميعاً في الصورة الإنسانية .

(٢) د : « وأظهر محاببة أهل الرّيب » .

(٣) ومنه قول منقر بن فروة ، أنشده الجاحظ في البيان ١٠٣ : ٣ و ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه    ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

(٤) د : « جماعات الناس » .

إِلَّا بِأَهْلِ الْبِرَاءَةِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَرْءَ بِقَدْرِ مَا يَسْبِقُ إِلَيْهِ يُعْرِفُ ،  
وَبِالْمُسْتَفِيزِ مِنْ أَعْمَالِهِ يُوصَفُ ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَعْمَالِهِ <sup>(١)</sup> أَلْفَاهُ  
النَّاسَ وَحَكَمُوا عَلَيْهِ بِالْغَالِبِ مِنْ أَمْرِهِ .

فَاجْهَدْ أَنْ يَكُونَ أَغْلَبَ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَفَاعِيلِكَ كُلِّ مَا تَحْمَدُهُ الْعَوَامُ <sup>(٢)</sup>  
وَلَا تَذُمَّ الْجَمَاعَاتِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَعْنِي عَلَى كُلِّ خَالٍ إِنْ كَانَ .  
فَبَادِرْ أَلْسِنَةَ النَّاسِ فَاشْغَلْهَا بِمَحَاسِنِكَ ، فَإِنَّهُمْ إِلَى كُلِّ سَيِّئٍ سِرَاعٌ <sup>(٣)</sup> ،  
وَاسْتَظْهِرْ عَلَى مَنْ دُونَكَ بِالْتَّفَضُّلِ ، [ وَعَلَى نَظَائِكَ <sup>(٤)</sup> ] بِالْإِنْصَافِ ، وَعَلَى مَنْ  
فَوْقَكَ بِالْإِجْلَالِ . تَأْخُذُ بَوَثَائِقِ الْأُمُورِ ، وَأَزِمَّةِ التَّنْدِيرِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ كَثْرَةَ الْعِتَابِ سَبَبٌ لِلْقَطِيعَةِ ، وَاطَّرَاحَهُ كُلُّهُ دَلِيلٌ عَلَى قَلَّةِ  
الْاِكْتِرَافِ لِأَمْرِ الصَّدِيقِ <sup>(٥)</sup> . فَكُنْ فِيهِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : عَاتِبُهُ فِيمَا تَشْتَرِكُانِ فِي  
نَفْعِهِ وَضَرَرِهِ وَذَلِكَ فِي الْهَيِّنَاتِ <sup>(٦)</sup> ، وَتَحَافَ لَهُ عَنْ بَعْضِ غَفَلَاتِهِ تَسْلِمُ لَكَ  
نَاحِيَتُهُ . وَبِحَسَبِ ذَلِكَ فَكُنْ فِي زِيَارَتِهِ ، فَإِنَّ الْإِلْحَاحَ فِي الزِّيَارَةِ يَذْهَبُ  
بِالْبَهَاءِ ، وَرَبَّمَا أَوْرَثَ الْمَلَالَةَ ؛ وَطَوَّلَ الْمَجْرَانَ يُعْقِبُ الْجَفْوَةَ ، وَيَحُلُّ عَقْدَةَ

(١) فِي الْأَصْلِ : « خِلَافِهِ » ، وَوَجْهُهُ مِنْ د .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « عَلَيْكَ أَفَاعِيلُكَ » صَوَابُهُ فِي د . وَفِي دَإْيَضًا : « مَا تَحْمَدُهُ  
الْعَوَامُ » .

(٣) فِي النَّسَخَتَيْنِ : « إِلَى كُلِّ شَيْءٍ » وَالْوَجْهُ مَا أَثْبَتَ . وَفِي م : « إِلَى كُلِّ شَرٍّ » .  
(٤) التَّكْمِلَةُ مِنْ د ، م .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « الْأَمْنُ » وَفِي د : « بِأَمْرِ » وَهَذِهِ الْأَخِيرَةُ صَحِيحَةٌ ، يُقَالُ  
مَا اكْتَرَتْ بِهِ وَمَا اكْتَرَتْ لَهُ ، أَيْ مَا بَالِي بِهِ . وَأَثْبَتَ الْوَجْهَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْجَمْعُ  
بَيْنَهُمَا .

(٦) د : « الْهَيِّنَاتُ » ، وَكَلَامُهَا مُتَجَهٌّ .

الإخاء ، ويجعلُ صاحبه مدرجةً للقطيعة<sup>(١)</sup> وقد قال الشاعر<sup>(٢)</sup> :

إذا ما شئتُ أنْ تسليَ حبيباً      فأكثرُ دونهَ عددَ الليالي  
فما يسليَ حبيبك مثلُ نأيٍ      ولا يبلى جديداً كابتدال<sup>(٣)</sup>  
[ وزر غباً إذا أحببت خلاً      فتحظى بالودادِ مع اتصال<sup>(٤)</sup> ]

واقصد في مزاحك ؛ فإن الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجري عليك  
أهل الدناءة . وإن التقصير فيه يقبض عنك المؤانس . فإن مزحت فلا تمزح  
بالذي يسوء معاشرتك .

وأنا أوصيك بخلي قل من رأيت يتخلق به ، وذلك أن تحمله شديد ،  
ومرتقاه صعب ، وبسبب ذلك يورث الشرف وحيد الذكر : ألا يحدث لك  
انحطاط من حطت الدنيا من إخوانك استهانةً به ، ولا لحقه إضاعة ، ولما  
كنت تعلم من قدره استصغاراً ؛ بل إن زرتة قليلاً كان أشرف لك ،  
وأعطف للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلاً  
وإثارةً له على نظرائه في الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضت عنه كان مادحك  
أكثر من ذامك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك ، إلا أن يكون مسلطاً  
تخاف شذاه ومعرته<sup>(٥)</sup> ، وترجو عنده جرّ منفعة لصديق ، أو دفع مضرّة

٥١ و

(١) هذا مافي د . وفي الأصل : « درجة للقطيعة » .

(٢) البيتان التاليان من أبيات الحماسة . انظر شرح الرزوقي ١٣٠٠ وشروح

سقط الزند ١٢٢ ، ٦٥٣ ، ٦٩٠ .

(٣) هذا البيت ساقط من د .

(٤) التكملة من د .

(٥) الشذا : الأذى والشر . د : « شذاته » ؛ والشذاة : الحدة . والمعرة :

الأذى .



عنه ، أو كبتاً لعدوّ وإنزال هوانٍ به ؛ فإنَّ السُّلطان وخِيلاءه وزَهْوَه يُحتمَل فيه ما لا يجوز في غيره ، ويُعذَّر فيه ما لا يُعذَّر في سواه <sup>(١)</sup> .

واعلم أنَّ نشرَ محاسنك لا يليق بك ، ولا يُقبل منك <sup>(٢)</sup> ، إلّا إذا كان القولُ لها على ألسُن أهلِ المروءات ، وذَوِي الصِّدق والوفاء ، ومن يَنجع قوله في القلوب ممَّن يُستنام إلى قوله ، ويُصدَّق خبره ، ومن إنَّ قال صدق ، أو مدح اقتصد ، يُثني بقدر البلاء ، فإنَّ إشراف <sup>(٣)</sup> الثناء على قدر النعمة يولّد في القلوب التكذيب ، ويدلّ على طلب المزايد .

فأمّا ثناء المادحين لك في وجهك ، فإنّما تلك أسواق أقاموها للأرباح ، وساهلوك في المباينة ، ولم يكن في الثناء عليهم كلفة ، لكساد أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادّون عن طرق المكارم ، والمثبّطون عن ابتناء المعالي .

فارتدّ لنعيمك مغرِساً تنمو فيه فروعها ، وتركوا ثمرتها ، لا تذهب نفقتك ضياعاً ، إمّا لعاجلٍ تقدّمه ، أو لآجلٍ ثناء تنتفع به <sup>(٤)</sup> .

ولن تعدّم أن يفجأك في بعض أحوالك حقوقٌ تنهّطك ، وأحوالٌ تدحلك ، وأمورٌ كلّها تنقسمُ عنايتك ، وفي الثبّت في مثلها تُعرف فضيلتك ،

(١) الكلام بعده إلى كلمة « تنتفع به » في س ١٢ ساقط من د .

(٢) في الأصل : « فيك » .

(٣) الإشراف : العلو ، يقال أشرف عليه ، أى علا . والمراد الزيادة . وفي الأصل : « إشراف » .

(٤) انظر ما سبق في التنبيه الأول .

فلا تستقبلها بالتضجّع وتفتير الرأى<sup>(١)</sup> ، وابدأ منها بأعظمها منفعةً ، وأشدّها خوف ضرر . وكلّ ما أعجزك إلى الكفاة ، واعتذر من تقصير إن كان ؛ فإنّ الاعتذار يكسر حُمَيّا اللأمة<sup>(٢)</sup> ، ويردع شذاة الشرّة .

ثمّ تلاف بعد انكشاف ذلك عنك ما فاتك<sup>(٣)</sup> ، واجهد الجهد كلّهُ أن تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً ، موصولةً لأصحابها<sup>(٤)</sup> ٥١ ظ  
بشرك وطلاقة وجهك ؛ فقد زعمت الحكماء أن القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوب ذوى المروءات من الكثير مع العُبوس والاقباض<sup>(٥)</sup> .

وقد قال بعض الحكماء : « غاية الأحرار أن يلقّوا ما يحبّون ويُحرّموا ، أحبّ إليهم من أن يلقّوا ما يكرهون ويُعطّوا » .  
[ وما أبعدوا عن الحقّ<sup>(٦)</sup> ] .

ولا يدعونك كفرُ كافرٍ لبعضِ نعمك<sup>(٧)</sup> من آثر هواه على دينه

(١) التضجّع ، يقال تضجّع في الأمر ، إذا تقعد ولم يقم به . وفي د : « وتغبين الرأى » .

(٢) الحميا : السورة والشدة والحدة ، وأصله من كسر حميا الشراب بمزجه بالماء . في الأصل : « حمى اللأمة » ، ووجهه في د .

(٣) في الأصل « الانكشاف » وفي د : « انكسار » ، والوجه ما أثبت . وكلمة « ما فاتك » ساقطة من د .

(٤) د : « لأصحابك » .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « ويعطوا » في س ٩ ساقط من د .

(٦) التكملة من د .

(٧) د : « نعمتك » .

ومروءته ، أو غَدْرُهُ غادرٍ تصنعَ لك وختلك عن مالك ، أن تزهد  
في الإِنعام<sup>(١)</sup> ، وتساء بثقاتك الظنون ؛ فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله  
الدَّريعةَ إلى استفساد الصَّنائع<sup>(٢)</sup> ، وتعطيل المكارم .

واعلم أن استصغاركَ نِعَمِكَ يكبرها عند ذوى العقول ، وسترك لها نشرٌ  
لها عندهم ؛ فانشرها بسرها ، وكبرها باستصغارها .

واعلم أن من الفعل<sup>(٣)</sup> أفاعيل وإن عظمت منافعها ، ومنافع أضدادها  
فلا يثارها فضيلةٌ على كلِّ حال . فاجعل صمتك أكثر من كلامك ؛ فإنه أدلُّ  
على حكمتك . واجعل عَفْوُكَ أكثر من عقوبتك ؛ فإن ذلك أدلُّ على كرمك .  
ولا تُفَرِّطَنَّ فيه كل الإفراط حتَّى تطرح الكلامَ في موضعه ، والتأديبَ  
في أوانه .

واعلم أن لكلِّ امرئٍ سيِّداً من عمله ، قد ساهلته فيه نفسه وسلسَ له  
فيه هواه ، فتحفظْ ذلك من نفسك ، وتقاضها الزيادةَ فيه ، ورُضها على تسميره  
والمواظبةِ عليه<sup>(٤)</sup> .

واحذر الحذرَ كله الغرار بأمر ثلاثة ؛ فإنَّ من عَطِبَ بها كثير ،  
وتلافىها صعبٌ شديد :

(١) في الأصل : « الابعاض » ، وأثبت ما في د .

(٢) الصنائع : جمع صنعة ، وهو ما أعطيته وأسدته من معروف أويد إلى  
إنسان تصطنعه بها . وفي الأصل : « الطبايع » ، صوابه في د .

(٣) د : « الأفاعيل » .

(٤) انظر ما سبق من التنبيه في ص ١٢١ .

أحدها: ألا تولى جسام تصرّفك وتقلّد مهمّ أمورك<sup>(١)</sup> ووثائق تدبيرك  
إلا اسراً صلاحه موصولٌ بصلاحك ، وبقاء النعمة عليك هو بقاء  
النعمة عليه .

أو أن تأنس أو تغترّ<sup>(٢)</sup> بمن تعلم أن بصلاحك فسادَه ، وبارتفاعك  
انحطاطَه ، وبسلامتك عطبه ؛ فإنّ من كان هكذا فأنت ملكٌ موته<sup>(٣)</sup> .  
فبحسب ذلك فليكن عندك .

أو أن تجعل مالك كلّهُ في عقدة واحدة ، أو حيز واحد ، [أو وجه  
منفرد<sup>(٤)</sup>] ، إن اجتاحتَه جائحةٌ أو نابتهُ نائبةٌ بقيتَ حسيراً . وقد قال بعض  
الحكماء : « فرّقوا النية » ، و « اطلبوا الأرباح بكلّ شعب » .

واعلم أنّه ليس من الأخلاق التي ذمّتها الحكماء خلقٌ إلا وقد ينفع  
في بعض الحالات ، ويردّ به شكّله ، ويقام بإزاء مثله ، ويدافع به نظيره<sup>(٥)</sup> .  
إنّك ستُمنّى بصُحبة السلطان الحازم العادل ، وبصحبة السلطان الأخرق  
الجهول الغشوم . فالحازم العادل يسوسه لك الأدبُ والنصح ، والأخرق  
تسوسه لك الحيلة والرّفق . العادل يعضدك منه ثلاث ، وتصرّ نفسه لك  
على ثلاث :

- 
- (١) في الأصل : « وتقليدهم أمورك » ، صوابه في د .  
(٢) في الأصل : « وأن لا تأنس وتغتر » ، صوابه في د .  
(٣) د : « ملك موته » ، والوجه ما أثبت من الأصل .  
(٤) التكملة من د .  
(٥) الكلام بعده إلى كلمة « النصحاء » في ص ١٣٣ ماقط من د .

فاللواتى يعضدنك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة - وفي ذلك صلاح الرعية - وإثابة المحسنين الذين إثابتهم تحصيل البيضة والسبل ، والعمو ما بلغ به الاستصلاح ، واكتفى به من البسط . واللواتى تصبر نفسه لك عليهن : الهوى إلى ما وافق الرأي ، وأمضى الرأي الآ بعد التثبت حتى تعاونه عليه النصحاء<sup>(١)</sup> .

ولكنى أوصيك برياضة نفسك حتى تدللها على الأمور الحمودة ؛ فإن كل<sup>(٢)</sup> أمر ممدوح هو مما تستنقل النفوس . [ ومما تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق المذمومة<sup>(٣)</sup> ] . فإن أهملتها وإياها غلبت عليك ، لأنها فيها طبيعة [ مركبة<sup>(٣)</sup> ] ، وجيلة مفطورة .

فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلب عليك من المعاصرة ، والحلم أولى بك من العجلة ، والصبر الحاكم عليك دون الجزع ، والعمو أسبق إليك من المجازاة بالذنوب ، والمكافأة بالشوء .

[ وكذلك سائر الأخلاق الحمودة والمذمومة ، فلتكن محموداتها غالبية على أفعالك ، محكمة في أمورك<sup>(٣)</sup> ] . فإنك إن ضبطت [ ذلك ، وقومت عليه<sup>(٣)</sup> ] نفسك ، عشت رخي البال ، قليل الهموم ، كثير الصديق قليل

---

(١) كذا . ولعله : « وإمضاء الرأي بعد التثبت حتى تعاونه عليه معاونة النصحاء » . وهذا نهاية سقط الذي نهت عليه في ص ١٣٢ .

(٢) في الأصل : « وإن كان » صوابه في د .

(٣) التكملة من د .

العدو ، [ سليم الدين ، نقيّ العرض ، محمود الفِعال <sup>(١)</sup> ] ، جميلَ الأحداثِ  
في حياتِكَ وبعد وفاتِكَ ، وكنت بموضع الرجاء أن يصلَ اللهُ لك السَّلامَ  
الآجلةَ بالنَّعمة العاجلة ، [ إن شاء الله عزَّ وجلَّ <sup>(٢)</sup> ] .

٥٣ و أسأل الله المبتدئ بكلِّ نعمة ، والمتولَّى لكلِّ إحسان ، أن يصلِّيَ على محمد  
خيرته من خلقه ، وصفوته من بريته ، وأن يتمَّ <sup>(٣)</sup> عليك نعمته ، ويشفع  
لك ماخولك من نعمته بالنَّعمة التي يؤمن معها الزَّوال ، في جواره ومرافقة  
أنبيائه . والسلام عليك ورحمة الله .

\* \* \*

تمت الرسالة في الأخلاق الحمودة والمذمومة بعون الله ومَنِّه . والله الموفق  
للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .  
يتلو هذه الرسالة :

كتاب كتان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر  
الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته <sup>(٤)</sup> .

(١) التكملة من د .

(٢) التكملة من د .

(٣) في الأصل : « يتم » ، وأثبت ما في د .

(٤) وفي د : « تمت الرسالة في كتان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان  
عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، والله الحمود على ذلك كثيراً برحمته . يتلو  
هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاب غفر السودان على البيضان من تأليفه أيضاً .  
والله الموفق للصواب ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه  
الطيبين الطاهرين وسلامه » .

٣

كِتَابُ

كِتْمَانِ السِّرِّ وَحِفْظِ اللِّسَانِ





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثالثة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتمان السرّ وحفظ اللسان »

ومن هذه الرسالة نسختان :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموع رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة بول كراوس وطه الحاجري ، وهي مقابلة على نسخة داماد وعلى كتاب المختار من كلام الجاحظ ، لمجهول . ورمزها « ط » . وقد وقع في هذه الأخيرة بعض السهو في إيراد النص على وجهه ؛ فنبهت على ذلك في الحواشي ، والعصمة لله وحده .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد فإنني قد تصفّحتُ أخلاقك ، وتدبّرتُ أعراقك ، وتأملتُ  
شيمك ، ووزنتُك فعرفتُ مقدارك ، وقوّمتُك فعلتُ قيمتك ، فوجدتُك  
قد ناهزتُ الكمال ، وأوفيتَ على التّمام ، وتوقّلتَ في درج الفضائل <sup>(١)</sup> ،  
وكدتَ تكون منقطعَ القرين ، وقاربتَ أن تُلّني عديمَ النّظير ، لا يطمعُ  
فاضلٌ أن يفوتَكَ ، ولا يأنفُ شريفٌ أن يقصّرَ دونك ، ولا يخشعُ عالمٌ أن  
يأخذَ عنك .

ووجدتُك في خلال ذلك على سبيل تضييع وإهمالٍ لأمرين هما القطب  
الذي عليه مدارُ الفضائل ، فكنتَ أحقَّ بالعدل ، وأقنَّ بالتأنيبِ ممن لم يسبقُ  
شأوك ، ولم يتسنَّ ربّبتك ؛ لأنه ليس ملومًا على تضييع القليلِ من قد أصاعَ  
الكثير ، ولا يُسام <sup>(٢)</sup> إصلاحَ يومه وتقويمَ ساعته من قد استحوذَ الفسادُ  
على دهره ، ولا يُحاسبُ على الزّلة الواحدة من لا يعدم منه الزّلل والعثار ،  
ولا يُنكر المنكرُ على من ليس من أهل المعروف ؛ لأنَّ المنكر إذا كثُر صار  
معروفًا ، وإذا صار المنكرُ معروفًا صار المعروف منكرا .

وكيف يُعجّبُ من أمره كلّهُ عجب ، وإنّما الإنكار والتعجّبُ ممن خرج  
عن مجرى العادة ، وفارق السّنة والسجّية ، كما قال الأول : « خالفٌ تذكّر » .

(١) التوقّل : الصعود ، والإسراع فيه .

(٢) سامه الشيء : كلفه إياه وجشمه . وفي الأصل : « ولا يسَم » ، وفي ط :  
« لا يهتم بإصلاح يومه » . وما أثبت أوفق بسياق النص .

وقيل : « الكامل من عُدَّت سَقَطَاتِهِ » ، وقيل : « من استوى يوماه فهو مغبون ، ومن كان يومه خيراً من غده فهو مفتون ، ومن كان غده خيراً من يومه فذلك السعيد المغبوط » . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رَأَيْتَكَ أَمْسٍ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسٍ  
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ خَيْرًا كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدِ شَمْسٍ  
وقال آخر في معنى<sup>(١)</sup> :

أَنْتَ امْرُؤٌ هُمُكَ الْمَعَالِي وَدَلَوْ مَعْرُوفِكَ الرِّبْعُ  
وَأَنْتَ مِنْ وَائِلٍ صَمِيمٍ كَالْقَلْبِ تُحْنِي لَهُ الضَّلُوعُ<sup>(٢)</sup>  
فِي كُلِّ عَامٍ تَزِيدُ خَيْرًا يُشِيعُهُ عَنْكَ مِنْ يُشِيعُ  
وَالْأَمْرَانِ اللَّذَانِ نَقَمْتَهُمَا عَلَيْكَ<sup>(٣)</sup> : وَضَعُ الْقَوْلِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ،  
وَإِضَاعَةُ السَّرِّ بِإِذَاعَتِهِ .

وليس الخطرُ فيما أسومك وأحاولُ حملَك عليه بسهلٍ ولا يسير . وكيف  
وأنا لا أعرف في دهرى - على كثيرٍ عددِ أهله - رجلاً واحداً ممن ينتحل  
الخاصَّة ، ويُنسَب إلى العلية ، ويطلبُ الرياسة ويخطبُ السَّيادة ، ويتحلَّى

---

(١) معن بن زائدة الشيباني ، كان مضرب المثل في الجود والشجاعة ، وكان ممدحاً مقصوداً . وكان من ولادة بني أمية ، وغضب عليه بنو العباس في أوائل دولتهم ، ثم أبلى بلاء حسناً مع النصور ، فأكرمه وقدمه وصار من خواصه . وقتل سنة ١٥١ ، أو ١٥٢ وقيل سنة ١٥٨ . وفيات الأعيان وتاريخ بغداد ١٣ : ٢٣٥ - ٢٤٤ .

(٢) في الأصل : « تحي به » ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال تقم ينقم كضرب يضرب ، وتم ينقم كفرح يفرح .

بالأدب ويديم الثخانة والزمانة<sup>(١)</sup> ، والحلم والفخامة ، أرضى ضبطه لسانه ، وأحمد حياطته لسره . وذلك أنه لا شيء أصعب من مكابدة الطبايع<sup>(٢)</sup> ، ومغالبة الأهواء ؛ فإن الدولة لم تزل للهوى على الرأى طول الدهر . والهوى هو الداعية إلى إذاعة السر ، وإطلاق اللسان بفضل القول .

وإنما سمي العقل عقلاً وحجراً ، قال تعالى - ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾<sup>(٣)</sup> - لأنه يزعم اللسان ويخطمه ، ويشكله ويربئه<sup>(٤)</sup> ، ويقيد الفضل ويمقله عن أن يمضي فرطاً في سبيل الجهل والخطأ والمضرة ، كما يعقل البعير ، ويحجر على اليتيم .

وإنما اللسان ترجمان القلب ، والقلب خزانة مستحفظة للخواطر والأسرار ، وكل ما يبعه [ من<sup>(٥)</sup> ] ذلك عن الحواس من خير وشر ، وما تولده الشهوات والأهواء ، وتنتجه الحكمة والعلم .

ومن شأن الصدر - على أنه ليس وعاء للأجرام ، وإنما يعي بقدرة [ من<sup>(٥)</sup> ] الله لا يعرف العباد كيف هي - أن يضيق بما فيه ، ويستثقل ما حمل

(١) الثخانة ، من قولهم رجل ثخين ، أى رزين ثقيل فى مجلسه .

(٢) مكابدة الأمر : معاناة مشقته ، ومقاساة شدته . ووقع فى ط : « مكابدة » خلافاً لما فى الأصل .

(٣) الآية ٥ سورة الفجر .

(٤) يشكله ، من شكل الدابة : شد قوائمهأ بحبل ، واسم ذلك الحبل الشكال ككتاب . الربث : الحبس . وفى الأصل : « ويزنه » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٥ : ٢٦٣ .

(٥) تكلمة ضرورية .

منه ، فيستريح إلى نبذه ، ويلدّ إلقاءه على اللسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضى به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه . كل ذلك ما دام الهوى مستولياً على اللسان ، واستعملَ فضولَ النظر فدعت إلى فضول القول .

فإذا قهر الرأى الهوى فاستولى على اللسان ، منعه من تلك العادة ، وردّه عن تلك الدُّربة ، وجشّمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة .

ولا شيء أعجب من أن المنطق أحد مواهب الله العظام ، ونعيمه الجسام ، وأن صاحبها مسؤول عنها ، ومحاسب على ماخول منها ، أوجب الله عليه استعمالها في ذكره وطاعته ، والقيام بقسطه وحجته ، ووضعها مواضع النفع في الدين والدنيا ، والإنفاق منها بالمعروف لفظةً لفظةً ، وصرفها عن أضدادها . فلم يرضَ الإنسان أن عطلها عما خلقت له مما ينفعه حتى استعملها في ضد ذلك مما يضره ، فاجتمع عليه الإيمان اللذان اجتمعا على صاحب المال الذي كنزه ومنعه من حقّه ، فوجب عليه إثم المنع وإن كان لم يصرفه في معصية ، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها<sup>(١)</sup> . وهذه غاية الغبن والخسران . نعوذ بالله منها .

فاللسان أداة مستعملة ، لا حمد له ولا ذمّ عليه ، وإنما الحمد للحلم واللوم على الجهل . فالعلم هو الاسم الجامع لكل فضل ، وهو سلطان العقل القامع للهوى . فليس قع الغضب وتسكين قوة الشرّة ، وإسقاط طائر الخرق بأحقّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من<sup>(٢)</sup> قع فرط الرضا وغلبة الشهوات ،

(١) في الأصل : « منها » . والمراد به في أبواب الباطل .

(٢) في الأصل : « مع » ، صوابه من ط .

والنفع من سوء الفرح والبطر ، ومن سوء الجزع والهلع ، وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطبع والجشع ، وسوء مناهزة الفرصة ، وفرط الحرص على الطلبة ، وشدة الحنين والرقّة ، وكثرة الشكوى والأسف ، وقرب وقت الرضا من وقت السخط ، ووقت السخط من وقت الرضا ؛ ومن اتّفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفي غير نفع ولا جدوى<sup>(١)</sup> .

واعلم يقيناً أنّ الصّمت سرمداً أبداً ، أسهل مرأماً - على ما فيه من المشقة - من إطلاق اللسان بالقول على جبهة التحصيل والتميز ، والقصد للصواب ، لما قدّمنا ذكره من علة مجاذبة الطّباع ؛ ولأنّ من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجبلّة التي جُبِلَ عليها الناس نُقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد<sup>(٢)</sup> ، وأحبّ الناس أن ينقل عنهم<sup>(٣)</sup> ، ونقشوا خواطرم في الضّخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الخيل . وبذلك ثبتت حجة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آيات الرّسل ، وقام مجيء الأخبار عن غير تشاعر<sup>(٤)</sup> ولا تواطؤ مقام العيان ؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتديرات والعلامات ؛

(١) الجدوى : الجدوى والفناء والنفع . يكتب بالألف والياء ، ويقال بالمد أيضاً « الجداء » ، ومنه قوله :

لقلّ جداءً على مالك إذا الحرب شبت بأجذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقي المعاصر .

(٣) في الأصل : « أن يعقل عنهم » ، صوابه من ط .

(٤) المراد بالتشاعر المخالطة والملابسة والمعاشرة . انظر العثمانية ص ٣ س ١٥

و ٢٦٣ س ٢ . وأساس البلاغة ( شعر ) ولسان العرب ( شعر ٨١ ) .

وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل ،  
وسلماً إلى التصديق ، وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلت  
هذا المحل . ولكن الله عز وجل حبَّبها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء  
داعيةً للجماع ، ولذةً للجماع سبيلاً للنسل ، والرقّة على الولد عوناً على التربية  
والحضانة - وبهما كان النشوء والنماء - وحُبَّ الطعام والشراب سبباً للغذاء ،  
والغذاء سبباً للبقاء وعمارة الدنيا .

ففسّر على الإنسان الكتمان لإيثار هذه الشهوة ، والالتقياد لهذه الطبيعة ؛  
وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعدها أسهل من مُجاذبة الطباع .  
فاعتراه الكربُ لكتمان السرِّ ، وغشيته لذلك سُقمٌ وكمد يحسُّ به في سُويده  
قلبه بمثل ديب النمل ، وحِكَّة الجرب ، ومثل لسع الدَّبَرِ ووخز الأَشَافِي<sup>(١)</sup> ،  
على قدر اختلاف مقادير الخلوم والرّزّانة والخفّة . فإذا باح بسرّه فكأنه  
أُنْشِطَ من عِقَال<sup>(٢)</sup> . ولذلك قيل : « الصّدْر إذا نفث برأ » مثلاً مضروباً  
لهذه الحال . وقيل :

\* ولا بدّ من من شكوى إذا لم يكن صبر<sup>(٣)</sup> \*

(١) الدَّبَر: جماعة النحل . والأَشَافِي : جمع الإشفى ، وهو الثقب يخرج به .

(٢) أى حل من عقال ، والعقال : الرباط الذى يعقل به .

(٣) لمالك بن حذيفة كما فى حماسة البحتري ١٩٧ . وأنشد هذا العجز فى الحيوان

١ : ٣٠٢ و صدره كما فى البيان ٣ : ٢٢٠ و ٤ : ٦٣ :

\* وما كثرة الشكوى بأمر حزامه \*

ويرى : « بحد حزامه » . ويروى : « لعمر ك ما الشكوى بأمر حزامه » .



وليس قولنا « طُبِعَ الإنسانُ على حُبِّ الإخبار والاستخبار » حجةً له على الله ، لأنه طبع على حُبِّ النساءِ ومُنِعَ الزَّنى ، وحُبِّ إليه الطعامُ ومُنِعَ من الحرام . وكذلك حُبِّ إليه أن يُخْبِرَ بالحقِّ النافعِ ويستخبر عنه ، وجُعِلَتْ فيه استطاعةُ هذا وذاك ، فاختر الهوى على الرأى .

٥٦ ظ

ومما يؤكد هذا المعنى في كَرَبِ الكتمان وصُعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم ، ما رَوَاهُ <sup>(١)</sup> عن بعض فقهاءهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يَحْتَمِلُهَا العوامُ ، فضاقت صدره بها ، فكان يبرُز إلى العراء <sup>(٢)</sup> فيحتفر بها حفيرةً يُودِعُهَا دَنًا ، ثم ينكبُّ على ذلك الدَّنِّ فيحدثه بما سمع ، فيروِّحُ عن قلبه ، ويرى أن قد نقل سرَّه من وعاءٍ إلى وعاءٍ .

وكان الأعمش <sup>(٣)</sup> سَيِّئُ الْخُلُقِ غَلَقًا ، وكان أصحاب الحديث يُضْجِرُونَهُ وَيُسُوْمُونَهُ نَشْرَ مَا يَحِبُّ طَيِّبَهُ عَنْهُمْ ، وَتَكَرَّرَ مَا يَحْدِّثُهُمْ بِهِ ، وَتَتَعَنَّتُونَهُ ، فَيَحْلِفُ لَا يَحْدِّثُهُمْ الشَّهْرَ وَالْأَكْثَرُ وَالْأَقَلَّ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ ضَاقَ صَدْرُهُ بِمَا فِيهِ ، وَتَطَلَّعَتِ الْأَخْبَارُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَيَقْبَلُ عَلَى شَاةٍ كَانَتْ لَهُ <sup>(٤)</sup> فَيَحْدِّثُهَا بِالْأَخْبَارِ وَالْفَقْهِ ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ يَقُولُ : « لَيْتَ أُنِّي كُنْتُ شَاةَ الْأَعْمَشِ » .

(١) في الأصل : « رَوَاهُ » .

(٢) العراء : الأرض الواسعة المستوية الصحرة ، وأنت الضمير بعدها لمعناها .

وفي الأصل : « العرى » ، تحريف كتابي .

(٣) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المعروف . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ،

وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفى سنة ١٨٨ .

(٤) في ثمار القلوب للثعالبي ١٣٤ أنها غُر . والشاة : الواحدة من الغنم ،

وقيل الشاة تكون من الضأن والمز والطباء والبقر والنعام وحمير الوحش .

( ١٠ - رسائل الجاحظ )

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجدُ من فقد الأُنيسِ المأمونِ على سرِّه فقال :  
أكلت الحامضَ والحلوَ حتَّى ما أجد لهما طعماً ، وأتيتُ النساءَ حتَّى ما أبالي امرأةً  
لقيتُ أم حائطاً ، فما بقيت لي لذةٌ إلَّا وجود أُنخٍ أضع بيني وبينه  
مؤونة التحفُّظ .

وقال معاوية لعمر بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شبابَ قريش أن  
يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللذةُ طرح المروءة .

وقد صدَّق عمرو ، ما تكون الزَّمانة والوقار إلَّا بحملٍ على النفس شديد ،  
ورياضة مُتعبة .

وقال بعض الشعراء<sup>(١)</sup> :

ألم تَرَ أَنَّ وُشاةَ الرجا لِي لا يتركون أديماً صحيحاً  
فلا تُفشِ سِرَّكَ إلَّا إِلَيْكَ فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحاً

والسرُّ - أبقاك الله - إذا تجاوز صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى أذنٍ  
واحدةٍ فليس حينئذٍ بسرٌّ ، بل ذلك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ النَّشرِ<sup>(٢)</sup> والشَّهرة .  
وإنما بينه وبين أن يَشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية . وهو مع قلة  
المؤمنين عليه ، وكَرُبَ الكتمان ، حَرِيٌّ بالانتقال إليها في طرفة عين .

٥٧ و

(١) هو أنس بن أسيد ، كما في أدب الدنيا والدين ٢٧٩ . وفي الكامل ٤٢٤ :  
« وأحسن ما سمع في هذا ما يعزى إلى علي بن أبي طالب ، فقايل يقول : هو له ،  
ويقول آخرون : قاله متمثلاً . ولم يختلف في أنه كان يكثر إنشاده . » وانظر الحيوان  
٥ : ١٨١ وما في حواشيه من تخريج .

(٢) في ط : « الشر » ، خلافاً لما هو واضح في الأصل .

وصدّر صاحب الأذن الثانية أضيق ، وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى  
وفي الحديث به أعذر ، والحجّة عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث  
انتهى .

هذا أيضاً إذا استُمعَ الحديث واستُكتم ، وكان عاقلاً حليماً ، وناصحاً  
وإذا ، فكيف إذا أخبر ولم يؤمر بالسكمان ، وكان ممن يمشى بالنمائم ويحب  
إفشاء المعاييب ، وكان ممن ينطوى على غشٍّ أو شحنة ، أو كان له في إظهاره  
اجتلابٌ نفعٍ أو دفع ضرر .

فاللوم إذ ذاك على صاحب السرّ أوجب ، وعن أفضى به إليه أنزل<sup>(١)</sup> ؛  
لأنه كان مالِكاً لسرّه فأطلق عقاله ، وفتح أقفاله ، وسرّحه فأفلت من قيده  
ووثاقه ، وصار هو العبد القنّ الملوّك لمن ائتمنه على سرّه ، وملّكه رقّ رقبته ؛  
فإن شاء أحسن ملكته لحفظ ذلك السرّ فجزّ ناصيته ، وجعله رهينة ليوم عتبه  
عليه . وقلّ من يُحسن الملكة ، ويحرس الحرّية أو يضبط نفسه ؛ فإنه ربّما  
لم يُخرجه غشّاً فأخرجه سُخفاً وضعفاً . وإن أساء الملكة وختر الأمانة<sup>(٢)</sup>  
فأطلق السرّ واسترعه من هو أشدُّ له إضاعة ، فسفك الدّم وأزال النعم وكشف  
العورة وقرق بين الجميع ، وإن كان المضيع لسرّه ألوم<sup>(٣)</sup> . قال الشاعر :

(١) أى أقل . وفي الأصل : « أدل » ، ولا وجه له .

(٢) الختر : شبيه بالعدر والحديعة . يقال ختره فهو ختار ؛ والمراد : خانها .

(٣) في الأصل : « اليوم » .

إذا ضاق صدرُ المرء عن سرِّ نفسه

فصدر الذي يستودع السرَّ أضيقُ<sup>(١)</sup>

فَمَنْ أسوأ حالا ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الحزم ، ممن كان حرّاً  
مالكاً لنفسه فصير نفسه عبداً مملوكاً لغيره ، مختاراً للرقِّ ، من غير أسيرٍ  
ولا قسر ! والعبيد لم يصبروا على الرقِّ إلا بذلَّ الأسر والسَّباء .

ومن كان سرُّه مصوناً في قلبه يُطلب إليه في الحديث به فأخرجه عن  
يده ، صار<sup>(٢)</sup> هو الطالبُ الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ، ولا يفكر له  
في عاقبة ، ولا يتحرّز له من مُصيبة<sup>(٣)</sup> . وكلّما كانت إذاعته لأسراره أكثر  
كان عدد مواليه أكثر ، وشقاؤه بخدمتهم أَدْوَم . فإذا كان أصل السرِّ معلوماً  
عند عدّة أو أقلّ من العدّة ، فما أَعسر استتاره . غير أنّه لا لومَ على صاحب  
الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذي أفشاه ، ولا مِن قِبَله عُلِمَ .

٥٧ ظ

ولو أن أوزنَ الناسَ حِلماً ملكَ لسانه وحصنَ سرّه وقللَ لفظه ، ما قدر  
على أن يملكَ لحظَ عينيه ، وسحنةَ وجهه ، وتغيّرونه ، وتبشّمه أو قطوبه ، عند  
ما يجري بلبّه<sup>(٤)</sup> من ذكر ذلك السرِّ ، أو يخطر<sup>(٥)</sup> بباله منه ، فيبدو في وجهه

(١) البيت من أبيات ستة رواها البرد في الكامل ٤٢٥ .

(٢) في الأصل : « وصار » .

(٣) في الأصل : « ولا يتحرّز له بمصيبة » .

(٤) في الأصل : « به » .

(٥) في الأصل : « خطر » .

ومخايله إذا عرّض بذكره<sup>(١)</sup> ، أو سنح له نظير<sup>(٢)</sup> أو مثيل<sup>(٣)</sup> ، أو حضر من له فيه سببٌ - إلّا بعد التصنع الشديد ، والتحفّظ المفرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطلع عليه بتظنّين المرجّمين<sup>(٤)</sup> ، والمتعقّبين للأفعال والأقوال ، والنظر في مصادر التدبير ومخايل الأمور ، فيفشو من هذه الجهات أكثر مما تفشيه ألسُن المذاييع البذر<sup>(٥)</sup> . فكيف إذا أطلق به اللسان ، وعود إذاعته القلب . والعادة أملك بالأدب .

وربّما أدركه الحدس ، وقِيضه الظنّ<sup>(٥)</sup> ، فنالت صاحبه فيه خدعة ، بأن يُذكر له طرف منه ، ويُوهم أنه قد فشا وشاع ، فيصدّق الظنّ فيجعله يقيناً ، ويفسّر الجملة فيصيرها تفصيلاً ، فيهلك نفسه ويوبقها .

وربّ كلام قد ملأ بطون الطوامير<sup>(٦)</sup> قد عُرِف جملته وما فيه الضررُ

(١) ط : « عرض ذكره » خلافاً لما في الأصل .

(٢) في الأصل : « مثل » ، وأثبت ما تقتضيه لغة الجاحظ .

(٣) الرجم : القول بالظن والحدس . ومنه قوله تعالى : « رجماً بالغيب » . والترجم تفعيل منه .

(٤) البذر : جمع بذور ، كصبور وصبر . وفي حديث علي في صفة الأولياء : « ليسوا بالمذاييع البذر » . والمذاييع : جمع مذيع ، وهو من يذيع السرويشفيه . انظر اللسان ( بذر ، ذيع ) . وفي الأصل : « البذر » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قِيضه : هَيَأه وسببه من حيث لا يحتسب . وفي الحديث : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه إلا قِيض الله له من يكرمه عند منه » .

(٦) جمع طومار ، وهو الصحيفة ، عربي أو دخيل .

منه ، بسحاة<sup>(١)</sup> أو طابع<sup>(٢)</sup> ، أو لحظة مطلع في الكتاب ، أو حرف تبيين من ظهره .

فاستيقظ عند هذه الأحوال ، واستعمل سوء الظن بجميع الأنام ؛ فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحزم سوء الظن » . وقيل لتقيف : بم بلقتم ما بلقتم من الشرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظن . فلا تعتمد على رجل في سرّك تحمد عقله دون أن تحمد ودّه ونصحه ؛ فإن الأمر في ذلك كما قال الشاعر<sup>(٣)</sup> :

وما كل ذى لبٍّ بمؤتيك نصحه ولا كل مؤتٍ نصحه بليبٍ

ولقد استحسن الناس من بعض رجال العراق أنه دخل على عبد الملك ابن مروان فأوقع بالحجاج عنده وسبّه ، فلما خرج من عنده خبر بما كان منه لبعض أصحابه ، فلامه وأنبه وقال : ما يؤمنك أن يُخبر أمير المؤمنين عبد الملك الحجاج بما قلت فيه - ومرجئك إلى العراق - فيضعفه عليك ؟ قال : كلا ، والله إنّي مارطلتُ بيدى قُطُّ أحدًا أرزنَ منه<sup>(٤)</sup> .

وهذا والله - أبقاك الله - الغلط البين ، والعذر الملقق<sup>(٥)</sup> ، وتحسين فارط

(١) سحاة القرطاس : ما انقشر منه .

(٢) الطابع ، بفتح الباء وكسر ها : الخاتم الذي يختم به الكتاب . وفي الأصل : « طائر » ، صوابه في ط .

(٣) هو أبو الأسود الدؤلي . الأغاني ١١ : ١٠٥ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ .

(٤) رطل الشيء يرطله رطلا : رازه يده ليعرف وزنه ، كما في اللسان . وأرزن من الرزاة ، وأصل الرزاة الثقل .

(٥) في الأصل : « والعذر الملقق » ، تحريف .

الخطأ ؛ لأنه ليس كل راجح وعاقل بناصح لصاحب السر ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أهم ، وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلف الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدنون بالأعلى رغبة ورهبا ، وتحسنا عندهم بمحبتهم إليهم .

وأكثر ما يذبح أسرار الناس أهلهم وعبيدُهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، و [ من <sup>(١)</sup> ] لهم عليهم اليد والسلطان . فالسر الذي يودعه خليفة في عامل له يلحقه زينه وشينه ، أخرى ألا يكتمه . وهذا سبيل كل سر يستودعه الجلالة والعظمة ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه الالامة .

وقال سليمان بن داود في حكمته : ليكن أصدقاؤك كثيرا ، وصاحب سرّك واحدا من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعدّ من تعرف ألفا وتفضي إلى واحد بسرّك <sup>(٢)</sup> إن لم يكن ذلك الواحد موصفا للأمانة في السر . لكنه قيل : رجل يساوي ألف رجل ، ورجل لا يساوي رجلا . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة <sup>(٣)</sup> » .

فكل ذلك يراد به أن الفضل قليل والنقص قليل لا على نسب ما يتلقاه الاجتماع من هذه الأعداد ؛ لأننا قد نجد الرجل يؤزن بالامة ، ونجد الامة لا تساوي قلامة ظفر ذلك الرجل .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ط : « بسر » خلافا للأصل .

(٣) ويروى : « تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة » . الراحلة : البعير القوي على الأسفار . أراد أن الكامل الزاهد في الدنيا قليل كما أن الراحلة النجبة نادرة في الإبل الكثيرة . رواه ابن ماجه ٣٩٩٠ بإسناد صحيح .

فإذا كان مَنْ تقع عليه الشَّريطة معدوماً - سيِّماً من يُوثَّق بحبله وعقله ، وأمانته ونُصحه ، ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له في السِّرِّ الذي يُضمر ولا يحرم عليه كتمانهُ ، ومن قد وُأى على نفسه بالسِّرِّ والحفظ<sup>(١)</sup> ؛ فإنه ليس كلُّ من ضَمَّن فلم يَضْمَنْ ضامناً ، ولا من استودع فلم يقبل مستحفظاً ، ولا من استخلف فلم يخلف خائناً ، وإنما يلحقه الحمدُ والذمُّ ؛ والأجر والإثم إذا ضَمَّن الأمانة ثم خترها<sup>(٢)</sup> - فكانَّ القوم قالوا : لا تودعنَّ سرَّك أحداً . وإلا فتي تجد رجلاً فيه الصفة التي وصف بها مسكينُ الدَّارمِيِّ نفسه حيث يقول :

٥٨ ظ

إني امرؤ منِّي الحياء الذي ترى أنوء بأخلاقٍ قليل خداعها<sup>(٣)</sup>  
أواخي رجالاً لست أطلعُ بعضهم على سِرِّ بعضٍ غير أني جماعها<sup>(٤)</sup>  
يظنون شتي في البلاد وسرهم إلى صخرةٍ أعيا الرجال انصداعها<sup>(٥)</sup>

وقيل لرجلٍ : كيف كتمانك للسِّرِّ ؟ قال : أجعلُ قلبي له قبراً أدفنه فيه إلى يوم النُّشور .

(١) وأى على نفسه : أى جعل عليها وعداً . وفي حديث وهب : « قرأت في الحكمة أن الله تعالى يقول : قد وأيت على نفسى أن أذكر من ذكرنى » . عدها بعلَى لأنه أعطاه معنى جعلت على نفسى .

(٢) أى خانها . وانظر ما سبق في ص ١٤٧ .

(٣) المقطوعة في حماسة أبي تمام في أول باب الأدب . انظر شرح المرزوقي ١١١٥ - ١١١٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ وعيون الأخبار ١ : ٣٩ والكمال ٤٢٥ وأمالى القالى ٢ : ٦٢ والرتضى ١ : ٣٩٩ .

(٤) الجماع : اسم لما يجمع به الشيء ، كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء .

(٥) أى أن يصدعوها فتصدع . ويروى : « أعيا الجبال انضاعها » .



وقال الآخر<sup>(١)</sup> :

\* وأكتمُ السرَّ فيه ضربُ العُنقِ<sup>(٢)</sup> \*

وهذه صفاتٌ موجودةٌ بالأقوال ، معدومة بالأفعال . والمغرورُ من اغترَّ بما يعدُّه الواعدُ منها دون أن يبُلُو الخبر .

والذى جرّبناه ووجدناه : أنَّ من يُفْضَى إليه بالشئ ، يبلِّغ من إذاعته ونشره ما لا يبلغه الرسولُ المستحفظُ المعنى بتبليغ الرسالة ، الحمودُ المجازى على أدائها ؛ حتّى ربّما كان يبلغ<sup>(٣)</sup> فى الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاغة من الرجال<sup>(٤)</sup> ، المعروف بالثّيمة والتقيت<sup>(٥)</sup> ، فيوهمه أنه قد استحفظه السرّ ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء فى الظلّة .

وهذا فعلُ عمر بن الخطّاب رضى الله عنه حين أحبَّ أن يُشيع إسلامه فقال : مَنْ أنتمُ أهلُ مكة ؟ قيل له : جميل بن النّجّيت . فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتمه عليه ، فلم يُمسِ وبمكة أحدٌ لم يعلم بإسلام عمر ، رضى الله عنه .

(١) هو أبو محجن الثقفى . ديوانه ٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ والأغانى ٢ : ١٤٣ .

(٢) صدره فى ديوانه :

\* وأكشف المأزق المكروب غمته \*

وفى الحيوان :

\* وقد أجود وما مالى بذى فنع \*

وفى الأغانى :

\* وأطعن الطعنة التجلاء عن عرض \*

(٣) فى الأصل : « لا يبلغ » وكلمة « لا » مقحمة .

(٤) البلاغة : الكثير التبليغ ، عنى بذلك وإن لم يكن مذكوراً فى المعاجم المتداولة .

(٥) التقيت : مبالغة من الفت ، وهو الثّيمة .

ثم يكون من أكثر الأعوان على إظهار السر الاستعداد له ، والتَّحذِير من نشره ؛ فإنَّ النَّهْيَ أغْرَى ؛ لأنَّه تكليف مشقَّة ، والصبر على التكليف شديد ، وهو حَظْرٌ ، والنفسُ طيَّارة متقلِّبة ، تَعْشَقُ الإباحة وتُغْرِمُ بالإطلاق .  
ولعلَّ رجلاً لو قيل له : لا تمسح يدك بهذا الجدار - وهو لم يمسه قط -  
غَرَى بأن يفعل .<sup>(١)</sup>

وكذلك ما حدث به من السر فلم يؤمر بستره ، لعله ألاَّ يخطر بباله ؛  
لأنَّه موجود في طبائع الناس الولوعُ بكلِّ ممنوع ، والضَّجْر بكلِّ محمول . ٥٩ و

فتريد أن نعلم : لم صار الإنسانُ على ما منع - وإن كان لا ينفعه -  
أَحْرَصَ منه على ما أبيح من غير علة ولا سبب إلاَّ امتهاناً ما كثر عليه<sup>(٢)</sup> ،  
واستطراف ما قلَّ عنده ؟ ولم أقبل على مَنْ ولى عنه وولى عمن أقبل عليه ؟ ولم  
قالوا : إذا جدَّت المسألة جدَّ المنع ؟ وقال الشاعر<sup>(٣)</sup> :

الحُرُّ يُلْحَى والعَصَا للعبدِ وليس للمُلْحِفِ مثلُ الرَّدِّ  
ولم صار يَتَمَنَّى الشَّيءَ وَيَنْذِرُ فِيهِ النَّذورَ ، ويتقطَّعُ إليه شوقاً ، فإذا ظَفِرَ  
به صدَّ عنه وأخلقَ عنده ؟ ولم زهدَ الملوكُ فيما في أيديهم ورغبوا فيما في  
أيدى الناس ؟

فنقول : إنَّ الله تبارك وتعالى جعل لكلِّ نفسٍ مَبْلَغاً من الوُسْعِ  
لا يمكنها تجاوزه ، ولا تتسع لأكثر منه . فكان معها فيما دون الوُسْعِ الفقرُ

(١) غَرَى بالشَّيءِ غَرّاً وَغَرَاءً : أولع به وأغرى .

(٢) في الأصل : « ولا امتهان بما كثر عليه » ، صوابه في ط .

(٣) هو بشار بن برد . البيان ٣ : ٣٧ .

وخوفُ الإخوان ، وفيما تجاوزه عزُّ الغنى وأمنُ العُدْم . وبهذا وبمثله من البُخل والحرص استخفَّت من احتاجَ إليها ، وأعظمت من استغنى عنها . وجعلها توافقة مشتاقة ، متطرِّفة ملالة<sup>(١)</sup> ، كثيرة النزاع والتقلب ، تستحكم عليها الفتنة<sup>(٢)</sup> ، ويُبلى خيرها [ من شرِّها<sup>(٣)</sup> ] وصبرها من جزعها . ولولا هذه الخلالُ سقطت المحن ، فهي تعظم القليل بالضرورة إليه إن كان من أقواتها ، أو لشدة النزاع والشوق إن كان من طُرف شهواتها ؛ فإنَّ صنوف الشهوات كثيرة ، ولكلِّ صنفٍ منها أهل لا يحفلون بما سواه . وتتعبج من الغريب النادر ، ويضحكها البديع الطارئ . إلا أنه إذا كثر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز المطلوب مقدارٌ وسعها وحاجتها فصار ظهرياً وفضلاً استخفَّت به وقلَّ في أعينها كثيره . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتدَّ إليه الفقر والحاجة وإن قلَّ قدره<sup>(٤)</sup> ، وأهونها عليها ما استغنى عنه وإن عظم خطره . وجعل لما تنوق إليه ونشاقه مكاناً من قواها ، له<sup>(٥)</sup> . فإذا امتلأ ذلك المكانُ سروراً ، وقضى ذلك الأربُ وطراً مما كان طمَح إليه ، وروى مما كان ظامئاً إليه ، انصرف عنه وقلاه ، وحالَ عشقه بُغضاً ، وشوقه ملالاً .

والعلةُ في ذلك : أن الدنيا دارُ زوالٍ وملال ، ليس في كيانها أن تثبت ٥٩ ظ

(١) المتطرف والمستطرف : الذي لا يثبت على أمر وفي الأصل : « مطرفة » .  
والملالة : الكثرة الملل .

(٢) في الأصل : « تستحكم عليها العنته » .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : « ضرره » .

(٥) أى مكاناً له من قواها .

هى ولا شىء مما فيها على حالٍ واحدة ، وإنَّما الثُّبُوتُ الدائم لدارِ القرار .  
فالسَّامة تلحقها فى محبوبها ، كما يصيب المنتهى من الطعام والشراب والباه ،  
فإنه ليس شىء أبغضَ إلى من يتناهى فيه إلى غايته ، من النَّظر إلى ناحيته ،  
فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عَوْدَةِ السبب الأوَّل .

فإذا كانت الطبائع تتشابه ، ولكلِّ حاسة قوة ، فإذا امتلأت تلك  
القُوَّة من محسوسها لم تجد لها وراءه طعمًا ولا ريحًا ، وعاد عليها الضرر . فبعضُ  
النَّظر يُعمى ، والصَّوت الشديد يُصمِّم ، والرائحة المُنتنة تُبطل المَشمِّم ،  
والأطعمة الحارَّة المُحرقة تبطل حاسة اللسان .

وتتطرَّف كلُّ واحدةٍ منها ؛ فبين الطَّيِّبِ عند مَنْ بُعِدَ عهده [ به ] ،  
والجامع والسَّماع ، وبين من هو مغموسٌ فيه بونٌ بعيدٌ جدًّا ، فى الخلاوة  
وحسن الموقع . كلٌّ ذلك ما لم يأت المالُ والعلم ؛ فإنه كلما كثر كان أشهى  
وأعجب ؛ لأنَّ قَصْدَ الناس له ليس لطلبِ مقدار الحاجة وسدِّ الخلة كما يُريده  
أهل القناعة والزَّهادة ، وإنَّما يراد لقمع الحرص ، والحرصُ لا حدَّ له  
ولا نهاية ؛ لأنه سعىٌ لا حاجة ، وإيضاعٌ لا لبغية .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أنَّ لابنَ آدمَ وادَّيينِ  
من ذهبٍ لا يَتَغنى إليهما ثالثًا . ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ »<sup>(١)</sup> .

وقال بعض الحكماء :

من كان لا يَغنى بما يَغنيه فكلُّ ما فى الأرض لا يَغنيه

---

(١) حديث صحيح ، أخرجه فى الجامع الصغير ٧٤٧٦ بلفظ : « لو كان لابن آدم واد من مال لا يتغنى إليه ثانيا ، ولو كان له واديان لا يتغنى لهما ثالثاً » .

قال الله عز وجل : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا <sup>(١)</sup> ﴾ . وقال : ﴿ وَإِنَّ  
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدَ <sup>(٢)</sup> ﴾ . وقال الشاعر :

والناسُ إن شَبِعَتْ بطونهمُ فعيونهم في ذاك لا تشبَعُ

فأمَّا الحديث الذي جاء : « لا يشبع أربع من أربعة : أرض من مطر ،  
وعين من نظر ، وأنتى من ذكر ، وعالم من علم <sup>(٣)</sup> » . فإن العين لا تشبع  
في الجملة كما لا يشبع الخيشوم من الاستنشاق . فأمَّا من صنف مما يراه دون  
صنيف ، فإنه يشبع ويروى ، ويصد ويصدف إلى غيره .

وأمَّا العلم فإنه أوسع من أن يحاط به ، فمن طلبه لشرفه ونفخه فإنه  
لا حد له ولا نهاية ، ولم يزد له طلباً إلا ازداد فيه رغبة . ومن طلب منه  
مقدار كفايته وحاجته كفاه منه اليسير . على أنه لا يملك من كثر علمه أن  
يرى فيه الغنى والكبرياء أيضاً . وقد يمل كما يمل كل شيء . وتمل العين  
أيضاً منه ومن المال .

وقيل : اثنان منهومان : طالب علم وطالب دُنيا . وهذه القضية <sup>(٤)</sup> تدل  
على الخروج عن العقل ؛ لأن النهم تجاوز القدر .

(١) الآية ٢٠ من سورة الفجر .

(٢) الآية ٨ من سورة العاديات .

(٣) حديث ضعيف ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٢٢ بلفظ : « أربع  
لا يشبعن من أربع » .

(٤) في الأصل : « القصة » والقضية : الحكم .

وأما<sup>(١)</sup> الحرص على الممنوع الذي لا ينتفع به ، والعجب مما يتعجب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء . وما لم يكن في أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه ، وإنما ذلك فعل من استوحش من الحجة ، وشرذ عن علم العلل والأسباب .

وإفشاء السرِّ إنما يوكل بالخبر الرائع ، والخطب الجليل ، والدفين المغمور ، والأشنع الأبلق ، مثل سرِّ الأديان<sup>(٢)</sup> لغلبة الهوى عليها ، وتضاغن أهلها بالاختلاف والتضاد ، والولاية والعداوة . ومثل سرِّ الملوك في كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العطاء والجلّة ؛ لتفاسد العوام على الملوك<sup>(٣)</sup> ، وأنهم سماء مظلة عليهم ، أعينهم إليها سامية ، وقلوبهم بها معلقة ، ورغباتهم ورهباتهم إليها مصروفة . ثم عداوات الإخوان ؛ فإنما صارت العداوة بعد المودة أشدّ لاطلاع الصديق على سرِّ صديقه ، وإحصائه معايبه ، وربّما كان في حال الصداقة يجمع عليه السقطات ويحصي العيوب ، ويحتفظ بالرفقاع ؛ إرصاداً ليوم النبوة ، وإعداداً لحال الصّريمة .

وقد شكّا بعض الملوك تنقيب<sup>(٤)</sup> العوام عن أسرار الملوك فقال :

ما يريد الناس منّا ما ينأم الناس عنّا

٦٠ ظ

(١) في الأصل : « وإنما » .

(٢) في الأصل : « الأديان » ، صوابه في ط .

(٣) النفاسة : الحسد ، يقال نفس عليه ينفس نفساً ، بالتحريك ، ونفاسة كسحابة .

(٤) في الأصل : « تنقب » .

لو سَكَنَّا باطنَ الأَرَضِ لكانوا حيثُ كُنَّا  
إِنَّمَا هُمُ أُنْ يَنْشُرُوا ما قَدْ دَفَنَّا

ولم نَرِ حُبَّ الطعنِ على الملوك<sup>(١)</sup> ، والتجسسِ على أخبارهم ، وعشقِ  
نشرِ المعاييب ، واستحلالِ الغيبةِ ، ظاهراً في طباعِ الناسِ لا يكاد ينجو منه  
أحدٌ منهم إلَّا من رَجَحَ حلمه وعظمتُ مروءته ، وظهر سُودده ، واشتدَّ  
ورعُه ، حتى قال بعضهم : « الغيبةُ فاكهةُ النَّسَاكِ » .

ورَوَّاهُ عن بعضهم أَنه قال : « الفاسقُ لا غيبةَ له » .

وقال آخر : « أترعون من ذكرِ الفاسق<sup>(٢)</sup> ؟ اذكروه يعرفه الناس » .

ولم نَرِ اللهَ جلَّ ثَناءُه رَحَّصَ في اغتِيابِ مؤمن ، بل ضربَ المثلَ في الغيبةِ  
بأكره ما تكرهه النفوسُ ، وما تختارُ منه الموتُ على الحياةِ ، فقال :  
﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ  
مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾<sup>(٣)</sup> .

واغتِيابُ الناسِ جميعاً خُطَّةٌ جَوْرٍ في الحكم ، وسقوطٌ في الهمةِ ، وسَخَافَةٌ  
في الرأيِ ، ودناءةٌ<sup>(٤)</sup> في القيمةِ ، وكُلْفَةٌ عريضةٌ ، وحَسَدٌ ونفاسةٌ ، قد

(١) في الأصل : « ولم نوجب الطعن على الملوك » وفي ط : « ولم نرحب  
الطعن على الملوك » والوجه ما أثبت . انظر لتأييد هذا الأسلوب ما سبق في  
ص ١٥٤ س ٨ وما بعده .

(٢) يقال ورع من الشيء يرع بكسر الراء فيهما ويورع ، كيوجل ، أى تخرج  
وتأثم . وفي ط عن نسخة المختار : « أترعون » .

(٣) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٤) في الأصل : « ودناء » .

استحوذت على هذا العالم وغلبت على طبائعهم ، وتوكدت لسوء العادة عندهم ، ولعلو الشر على الخير ، وكثرة الدغل والنغل والحسد في القلوب . فلست ترى منها ناجياً . إما ناظر بعين عدل وإنصاف ، فهو يرى ما ينكر فيبدو في وجهه ولسانه . وإما ناظر بعين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد من العيوب في عدوه ما يعينه على التخرص عليه<sup>(١)</sup> فيقويها ويزيد فيها . وإن عدم الحق تقوّل وقبح الحسن ، وزاد في قبح القبيح .

والحديث كله - إلا ما لا بال به - ذكرُ الناس ، ولغو وخطل ، وهجر وهذاء ، وغيبة وهمز ولمز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنى ، إنما الإنسان حديث ، فإن استطعت أن تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكل سر في الأرض إنما هو خبر عن إنسان ، أو طي عن إنسان ، فله في الغيبة أكثر الخطأ ، وجلها كلفة لا ضرورة ، يرى صاحبها أنه قد أهمل محاسبة نفسه ، وغفر ذنوبها وألغى عيوبها ، وقصد قصد غيره ، فتشاغل عما يعنيه بما لا يعنيه ، فأنكر أقواله وأفعاله ، وهجر تدبيره ، وتعجب من مقابحه ، وجهد نفسه في تقطد أموره . ليس ذلك عن عناية بصلاحه ، ولا محبة لتقويمه وتهذيبه ، ولا أنه مسيطر عليه ولا محمود عنده على ما عني به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم .

وهذا جُلّ حديث البشر وشغلهم في الليل والنهار .

(١) في الأصل : « عن التخرص » تحريف . والتخرص : القول والكذب .



قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى فضل القول ، وفضول الخواطر تبعث على اللهو والخلط .

ولو كان الرجل لا يتكلم إلا بما يعنيه ، ولا يتكلف ما قد كُفِيَهِ ، قلَّ كلامه . ولو حُكِّمَ العدل<sup>(١)</sup> في أموره ، وفيما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين إخوانه ومعامله ، لطاب عيشه وخفَّتْ مؤونته والمؤونة عليه ؛ فإن الله تبارك وتعالى لم يَخْلُقْ مذاقاً أحلى من العدل ، ولا أروحَ طيِّ القلوب من الإنصاف ، ولا أمرّاً من الظلم ، ولا أبشعَ من الجور .

وقال بعض المتقدمين : « إنما يعرف الظلم من حُكْم به عليه » . ومن استعمل العدل دلّه على أنّ النَّاسَ يمدّون من طعمه وطعم الظلم إذا فعله بهم مثل الذي يمد إذا ظلم ، فكرِهَ لهم ما كره لنفسه ، فأَنصَفَ ولم يَظْلِم .

ويظالم الناس فيما بينهم بالشرّ والحرص المركّب في أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحُكَماء - وقد أُطْلِقَ لهم تصريف أخلاقهم وأماناتهم<sup>(٢)</sup> - التي رَدَّتْ إليهم بالأحكام فيها<sup>(٣)</sup> ، ما جُنِيتْ عليهم أكثر مما يطالبهم به الخصوم<sup>(٤)</sup> .

(١) في الأصل : « العدى » .

(٢) في الأصل : « تصريفها وأخلاقهم وأماناتهم » .

(٣) في الأصل : « الأحكام فيها » .

(٤) المراد بالجناية جزاء الجناية ، كما في قوله تعالى : « يلق أُنّاماً » أى يلق جزاء الأنام ، وهو الإثم . وكما في قول بشر بن أبي خازم :

وكان مقامنا ندعو عليهم بأبطح ذى المجاز له أُنّام

( ١١ - رسائل الجاحظ )

وقال بعض الحكماء : إنَّ من أصعب الأعمال إنصافك في نفسك ، ومواساتك أخاك في مالك ، وذكرَ الله . أمّا إنّي لا أعنى قول سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر - وإنَّ ذلك لمن ذكر الله - ولكنَّ ذكره عند ما يعرض من الأمور ، فإن كان طاعة لله فعلته ، وإن كان معصية لله اجتنبته .

٦١ ظ

وروى عن بعضهم أنه قال : « ثلاثة في ظلِّ عرش الله يوم لا ظلَّ إلا ظله : رجلٌ لم يعب أخاه بعيبٍ فيه مثله حتّى يُصلَحَ ذلك العيبَ من نفسه ؛ فإنّه لا يُصلحه حتّى يهجمَ على آخر<sup>(١)</sup> ، فتشغله عيوبه عن عيوب الناس . ورجلٌ لم يقدّم يداً ولا رجلاً حتّى يعلم : أفى طاعة الله هو أم في معصيته ؟ ورجلٌ لم يلتمس من الناس إلّا مثلاً ما يعطيهم من نفسه . أما تحبّون أن تُنصّفوا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً أنفق الفضلَ من ماله وأمسك الفضلَ من قوله ، وشغله عيبه عن عيوب الناس » .

وقال عيسى بن مريم<sup>(٢)</sup> : « يا بنى إسرائيل أيرى أحدكم القذاة في عين أخيه ويَقْبِي عن الجذع المعترض في عينه » .

وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركى ما لا يعنينى .

وقال عمرو بن عبّيد : أعيّنتى ثلاثٌ خلال : تركى ما لا يعنينى ، ودرهمٌ من حِلّه ، وأخ إذا احتجّت إلى ما في يديه بذلّه لى .

---

(١) أى على عيب آخر في نفسه .

(٢) انظر إنجيل متى ٧ : ٣ - ٤ .

وَمَا أَحَقَّ مِنْ أُحْصِيَتْ أَلْفَاظُهُ وَلَيْسَ مِنْ قَوْلٍ يَدُرُّ مِنْهُ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ، وَمَنْ أُحْصِيَتْ عَلَيْهِ مَثَاقِيلُ الذَّرِّ وَاسْتُشْهِدَ عَلَيْهِ جُلْدُهُ وَجَوَارِحُهُ - أَنْ يَضْبِطَ لِسَانَهُ .

وقد جاء في بعض الآثار : مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا لَا يَعْنِيهِ .

وكلُّ امرئٍ فحسبُ نفسه ، غير مأخوذ بغيره ، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جل ثناؤه - وقوله الحق - ﴿ كُلُّ أَمْرٍئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ ﴾<sup>(١)</sup> . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع السيف والسوط .

وقال بعض الحكماء : شيثان لا صلاح لأحدهما إلا بالآخر : اللسان والسيف .

وأنت إذا تأملت أكثر ما يتناجى به المتحدثون وجدت أكثر السائلين يسأل عما لا يعنيه ، ويكثر لما لا يكرهه ، ويعني بما لا ينفعه ولا يضره ؛ وأكثر الجيبين يُجيب ولم يسأل ، ويتكلف ما لا يعلم ، ولو قال له قائل : من سألك لافتضح ، ولو حاجه فيما ادعى ووقفه لا تقطع . قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) الآية ٢١ من سورة الطور .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٨٦ من سورة ص .

ومرّ هشامُ بن عبد الملك ببعض أهل الكُلفة والفضول ، وعليه حُلّة ذِيَالَة<sup>(١)</sup> يسحبها في التراب ، فقال له المتكلف : يا هذا ، إنَّكَ قد أفسدت ثوبك . قال : وما يضرُّكَ من ذلك ؟ قال : ليتك ألقيته في النار . قال : وما ينفعُكَ من ذلك ؟ فأخفه غاية الإلحاح .

ولو تهتأ المتكلفين في كل وقتٍ مثل صرامة هشام لآزدرج من به حياة منهم ، ولقلّت الفضول والكُلف والغيبة .

قالوا : وليس من أحد أذلّ من مغتاب ؛ لأنّه يُخفي شخصه ، ويُطامن حسّه ، ويفضّ من صوته ؛ ولا يَزِيدُ<sup>(٢)</sup> بما يناله من ذلك إلّا بأن يرفع من قدر خصمه ويعظّم من شأنه .

قال معاوية : أتدرى من النبيل ؟ هو الذي إذا رأيته هبتّه ، وإذا غاب عنك اغتبتّه .

وهي لعمري سبيلُ العطاء عند العوامّ ، والملوك عند الرعيّة ، والسّادة عند العبيد .

فلم يأخذ المغتاب ممن اغتابه شيئاً بعضيته إِيّاهُ<sup>(٣)</sup> إلّا والذي أعطى من الهيبة عند حضوره أكثر منه .

ولو كان المغتاب لا يستتر من الغيبة إلّا ممّن يخاف سطوته ، كان أعذر . ولكن اللّؤم المتمكن منه يحمله على اغتيا بعبده وأمته ، فضلاً عن كفه ونظيره .

(١) الذِيَالَة : الطويلة الذيل .

(٢) في الأصل : « ولا يريد » .

(٣) العضية : الإفك والبهتان والكذب .

ويغتَاب الرجل عند عدوّه والمشاحِن له ، مساعدةً له بالسُّخْف ، وتقرَّباً إليه بالمهانة والضعف ، من غير أن يكون له عليه طَوْل ، أو يلتَمِس منه على ما تقرَّب به إليه جزاءً أو شُكُوراً .

ثم لعلَّ ينكفي إلى الذي اغتابه وقصَّبه<sup>(١)</sup> من ساعته ويومه ، فيعطيه في عدوّه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل ذلك وأكثر منه ، لالعلَّة أيضاً ولا مرفق ولا ربح أكثر من الذلَّة التي يجدها في نفسه ، والضعف في مُنته ، كما يعظَّم الغنى بغير ثمن ، ويحتقر الفقير بغير سبب ، فتى كُوشِف أو عُوتِب لبِسْتَه ذلَّةٌ أخرى من الكِطَّة بالمعاذِر الكاذبة ، والاعتصام بالآيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دُرْبته فهو حرى أن يُطْلَعَ على دِخْلَة أمره ، فلا يُقبَل منه عذر ، ولا يُصدَّق في قول ولا حلف ، وقد تسرَّبل الذلَّة ، وتدرَّع الخضوع . ٦٢ ظ

وليس من سُوس النفس الكريمة الشَّهْمَة<sup>(٢)</sup> ، أن تلقى الناس بخلاف ما يتخلَّقون به<sup>(٣)</sup> ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها إلى كيد وغيلة ، أو مكر وحيلة ، ويثار بالغيبة فيها الرأى الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقلُ فيما يحلُّ له ويحسُن به ، بعد أن تُعيَّيه الحيلةُ في استصلاح ذلك العدوِّ بالرفق والملاينة .

وإنما قيل : « قلَّ من اعتذر إلاَّ كذب » ، لكثرة النَّطْف في الناس<sup>(٤)</sup> ،

(١) قصبه قصبا : شتمه وعابه ووقع فيه .

(٢) السوس : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٣) في الأصل : « يخلفون به » .

(٤) النطف ، بالتحريك : التلطف بالعيب .

وضعف أنفسهم على الإقرار بالذنب ، فلا ذلة الضعف الثاني في الاعتذار  
نهت عن كلفة الضعف الأول في الاعتياب ، ولا كلفة الضعف الأول صانت  
عن ذلة الضعف الثاني .

وعلى أن أكثر من يعتذر إليه ليس بقابل للعذر على حقيقة وإن أظهر  
القبول ، لما جرب من سخاء الناس <sup>(١)</sup> بالآيمان ، وبعدهم من الإقرار بالذنب  
ما لم تأت حجة واضحة ، ودليل شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيل المعتذر إليه فيحس على المعتذر - إن كانت في نفسه  
قيمة - أن لا يعتذر إلا إلى من يحب أن يجد له عذرا ، ولا يعجل إلى المين <sup>(٢)</sup>  
وهو لا يجد للحجة مكانا .

وأكثر من يعتذر إليه إنما يفعل ذلك به خوفاً من سقطته ،  
وإبقاء لسلطانه .

والمتفقهون يتأولون في الآيمان السلطانية ما يلحق بها عند السلطان التهمة ،  
ويُلزِمهم الظنة ، سيما <sup>(٣)</sup> في الأمور التي في الإقرار بها إباحة الدم والمال ،  
وهتك الستر .

ولا حسم لهذا الداء إلا بآطراح الفضول ، وسلامة اللسان من أن يبلغ  
في الأعراض <sup>(٤)</sup> ، ويستسر بالعضية والبهت .

(١) في الأصل : « النفس » .

(٢) المين : الكذب ، مان يمين . وفي الأصل : « الهين » .

(٣) أصل الولوغ شرب الماء أو الدم . ومنه ولغ السبع . وفي أساس البلاغة :  
« ومن المجاز : فلان يأكل لحوم الناس ويلغ في دماهم » . والفعل من باب نفع ،  
ووعد ، وورث ، ووجل . وفي الأصل : « يبلغ » .

(٤) كذا وردت بدون « لا » وأجازه بعض النحاة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده <sup>(١)</sup> » . ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .

وقال القائل : احرس أخاك إلا من نفسه .

وقالوا : مقتل المرء بين فكّيه .

وكتب على بعض أبواب المدين بالسند <sup>(٢)</sup> : احفظ رأسك .

وقال الأول : قد تصل النصال إلى الإخوان فتستخرج ، وأمثال النصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تستخرج أبداً .

وقال بهرام <sup>(٣)</sup> ، وسمِع في الليل صوت طائر فتحدّاه بسهم وهو لا يراه ، إلا أنه تتبّع الصوت فصرعه ، فلما صار بين يديه قال : والطير أيضاً لو سكت كان خيراً له !

وقيل : ماشى أحقّ بطول سجن من لسان <sup>(٤)</sup> .

وقيل : يسأل اللسان الأعضاء في كل يوم فيقول : كيف أنتن ؟ فيقلن :

بخير إن تركتنا !

(١) حديث صحيح . أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٢٠٦ ، ٩٢٠٧ ، ٩٢٠٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٠ .

(٢) في رواية عن كتاب المختار : « بالسند » ، أي بالخط المسند ، وهو خط حمير باليمن .

(٣) بهرام : اسم لعدة ملوك من الفرس ، أشهرهم بهرام جور بن يزدجرد ، ملك ثلاثاً وعشرين سنة ، ونشأ عند ملوك الحيرة وبنى له الخورنق . قال المسعودي في التنبيه والإشراف ٨٨ : « وكان فصيحاً بالعربية ، وله بها شعر صالح » . وذكره الجاحظ في الحيوان ١ : ١٤٠ .

(٤) حديث موقوف رواه الطبراني من كلام عبد الله بن مسعود . الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٣ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لُمعاذ بن جبل : « وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم <sup>(١)</sup> » .

وقال عيسى عليه السلام <sup>(٢)</sup> : « أعمال البر ثلاثة : المنطق ، والنظر ، والصمت . فمن كان منطقاً في غير ذكر الله فقد لغأ ، ومن كان نظره في غير اعتبارٍ فقد سها ، ومن كان صمته في غير تفكير فقد لها » .

فانظر بأى الأمرين قطعتَ عمرَكَ ؟ أبِ الحكمة أم باللغو ؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أثنى عليه بخير من عباده فقال : ﴿ والذين هم عن اللغو مُعْرِضُونَ <sup>(٣)</sup> ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ <sup>(٤)</sup> ﴾ ، وقال : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا <sup>(٥)</sup> ﴾ . وصانَ عنه أَسْمَاعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَلْسِنَتُهُمْ فَقَالَ : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا <sup>(٦)</sup> ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العبادة عشرة أجزاء ، تسعةٌ منها في الصمت » .

وقال على بن أبى طالب : « أفضل العبادة الصبر وانتظار الفرج <sup>(٧)</sup> » .

(١) في اللسان ( حصد ) : « أى ما قالته الألسنة ، وهو ما يقتطعونه من الكلام الذى لاخير فيه ، واحدها حصيدة ، تشبها بما يحصد من الزرع إذا جذ » . وتكلم عليه في الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٥) الآية ٨٢ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٧) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .



وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصّامت في صمته إلا الكفاية لأن يتكلم بكلام ويحكي عنه محرّفاً فيضطرّ إلى أن يقول : ليس هكذا قلت ، إنما قلت كذا وكذا . فيكون إنكاره إقراراً ، واعترافه بما حكي عنه شاهداً لمن وشى به ، وادّعاءً لتحريف غير مقبول منه إلا أن يأتي ببينة له <sup>(١)</sup> - لكان ذلك من أكثر فضائل الصّمت .

وربما ذكر رجل الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذّكر إثماً له ، لأنه قد يدخله في باب تفخيم الذنب الحقير والإغراء والتّحريض ، فيسفك الدم الحرام ، أو يعظم الجرح الصغير . بل ربّما ضحك وتبسّم ، فأعزى وحرّض ، وأثم وأوبق . قال بعض الشعراء <sup>(٢)</sup> :

فإن شئت أدلى فيكما غير واحدٍ مجاهرةً أو قال عندي في سرٍّ  
فإن أنا لم أمز ولم أنه عنكما ضحكت له حتى يلجّ ويستشري  
وقالت العرب <sup>(٣)</sup> : « من كفى شرّ لقلقه وذذبّه وقبّبه فقد كفى الشرّ » .

وهذا بابٌ لولا أن نشغل القارئ لهذا الكتاب بغير ما قصدنا إليه وعزّمنا عليه لأتينا عليه . وهو كثير موجود لمن طلبه ، وجملة واحدة فيها

(١) في الأصل : « بها » .

(٢) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . الحيوان ١ : ١٤ - ١٥ ومجالس ثعلب ١٧ - ١٨ وأما إلى المرتضى ١ : ٣٩٨ والأغانى ٨ : ٩١ و١٣ : ١٠ وجمع الجواهر ٣ والمخبر ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣) هو حديث ضعيف ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٠٧٣ . وانظر البيان ٣ : ٢٧٢ ومجالس ثعلب ٥٤٠ .

كفاية ؛ فإنَّما تختلف الألفاظ التي تُجَعَلُ كسوةً لتلك المعاني . وإلَّا فإنَّكَ إذا نظرتَ إلى جميع سُرور الدُّنيا وجدتَ أولها كلمة عَارَتْ فُجِنَتْ حرباً عَوَاناً<sup>(١)</sup> ، كحرب بكر وتغلب ابْنَيْ وائل ، وعَبَسٍ وذُيَّان ابْنِي بَغِيض ، والأوس والخزرج ابْنِي قَيْلَةَ ، والفِجَار الأوَّل والثاني ، وعامة حروب العرب والعجم . وإذا تَأَمَّلْتَ أخبارَ المَاضِينَ لم تُحْصِ عددَ من قَتَلَهُ لِسَانُهُ وكان هَلاكَهُ في كَلِمَةٍ بَدَرَتْ مِنْهُ .

وليس العجب من أَفْضَى بَسْرِهِ إلى من ليس له بموضعٍ ، مَن تَقَدَّمت معرفته وزالت الشُّكوكُ عنه في أمره : ولكنَّ العَجَبَ عَيْنَ العَجَبِ من استنَام بَسْرِهِ إلى من لم تَقْدُم معرفته ومن أنس إليه عن اللَّقاءِ واللِّقَاءِ<sup>(٢)</sup> ، دونَ معرفة العَيْنِ والاسم ، والسَّبَبِ والنَّسَبِ ، فأنْخَدَعَ في أوَّل وهلةٍ وَغُيِبَ عقله قبل أن يُعَبِّنَ دينه وماله ، وتضاعفت عليه البليَّةُ بطول الحسرة ؛ فإنَّ البلاءَ عَارِضٌ ومَكْتَسَبٌ ، فَكَانَ العَارِضُ السَّمَاءَ وما خَوَّلَتْهُ الأقدارُ سرّاً بعد اجتِهَادِ صاحبه رأيه ، وحيلته في طلب الخير . وصوابُ تديره فيه أسهلُّ وأيسرُ على العاقل المعتاد للصواب ، وإن كان كلُّ مكروهٍ مرّاً بشِعْراً . وإنَّما الكَرْبُ اللازم والداءُ العِيَاءُ ما اجتمع على صاحبه مع الفجیعة والحاجة ، والنَّقصُ والدَّلَّةُ ، غَمُّ النَّدامَةِ والأسفُ على ما فرط منه ؛ إذ كان الجاني على نفسه بيده .

---

(١) الحرب العوان : التي قوتد فيها مرة بعد مرة . عارت : أفلتت وذهبت على وجهها . « غارت » ، تصحيف .

(٢) في الأصل : « اللعاة واللغائين » . وفي ط : « عن اللقاء والمقائين » ، والوجه ما أثبت . وانظر لكلمة « اللقاء » شرح الرضی للشافیة ١ : ١٨٧ — ١٧٩ .

ولهذا الكلام نظرٌ نكره التطويلَ به ، والمعنى واحدٌ ، وإنما نحتاج من هذا ومثله - مما قدّمنا ذكره في الكتاب - إلى حفظ السرّ ووزن القول . وإلى هذا أجرينَا ، وله قصدنا .

ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرفٍ مما فيه ، لكان بإذن الله كافياً لمن له لبٌّ وعقل ، لكنّ الاحتجاج أوكد ، والإيضاح أبلغ ، والحظّ في هذا القول كلّهُ لمن عقله والآخذ به ، أوفرُ [ منه <sup>(١)</sup> ] لمن قاله ولم يعمل بقوله ؛ لأنّه إنما يجتنى ثمرة الصواب ، ويختلِف برَفَقَةٍ <sup>(٢)</sup> من صدّق قوله بفعله ؛ فإنّ الحكمة قول وعمل ، وإنما حظُّ القائل ما لم يستعمل علمه وقوله حظُّ الواصفين ؛ وحُسْنُ الصّفة يزول بزوالها ، ويتقطع بانقطاعها ؛ ومدّتها - إلى أن يملّها القائل والسامع - يسيرة .

والأفعال الحمودة متّصلة النفع والشرف والفضيلة في الحياة وبعد الوفاة ، ومذخور <sup>(٣)</sup> للأعقاب ، وحديثٌ جميلٌ ، ونشرٌ باقٍ على مرّ الجديدين . وأكثَر من ذلك كلّهُ توفيقُ الله وتسديده ؛ فإنّ القلوبَ في يده ، والخبراتِ مقسوماتٌ من عنده . وحسبنا الله ونعم الوكيل .

\* \* \*

(١) ليست في الأصل .

(٢) الاختلاف : الاستقاء . والرفق ، بالتحريك : الماء القصير الرشاء السهل المطلب .

(٣) ط : « ومذخورة » ، خلافاً لما في الأصل

تم كتاب كتمان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله  
وتأييده ، ومشيتته وتوفيقه . والله الموفق للصواب برحمته .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين  
الطاهرين وسلامه .

---

٤

كِتَابُ

فَخْرُ السُّودَانِ عَلَى الْبَيْضَانِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب نحر السودان على البيضان »

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة قان قلوطن المنشورة في ليدن ١٩٠٣ ، ورمزها « ن » .

٣ — نسخة الساسي ، ورمزها « س » .

وقد سبق التنبيه على أن هذه الرسالة في الأصل هي الرسالة الخامسة ، ولكن تكرار الرسالة الثانية يجعلها الرابعة في الأصل كانت سببا في تغيير أرقام الرسائل بالنقص ، كما اضطرنا إلى أن تتخطى أرقام الأصل في الرسالة المكررة ، وثبت الأرقام التي بعدها على جوانب النسخة ، فتبدأ هذه الرسالة بصفحة ( ٧٨ ظ ) .





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٧٨ ظ

تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرت - أعاذك الله من الغش - أنك قرأت كتابي في مُحاجة<sup>(١)</sup> الصُّرحاء للهَجَناء ، وردَّ الهَجَناء ، وجواب أحوال الهَجَناء ، وأنِّي لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السودان<sup>(٢)</sup> . فاعلم حفظك الله أنِّي إنما أخرت ذلك متعمداً .

وذكرت أنك أحببت أن أكتب لك مفاخر السودان ، فقد كتبتُ لك ما حضرنى من مفاخرهم .

قال الأصمعيّ : قال الفِرْزُ عبدُ فزارة<sup>(٣)</sup> وكانت في أذنه خُرْبة<sup>(٤)</sup> :  
إِنَّ الْوُثَامَ<sup>(٥)</sup> يَتَرَّعُ فِي جَمِيعِ الطَّمْشِ<sup>(٦)</sup> : لَا يَقْرُبُ الْعِزَّ الضَّانُ مَا وَجَدَتْ

(١) في ن ، س : « محاكمة » .

(٢) الكلام بعده إلى كلمة « السودان » التالية ساقط من ن ، س .

(٣) النص في الحيوان ٢ : ٣٤٠ - ٣٤١ محرفاً . وفيه « الفرير عبد بن فزارة » .

(٤) الخربة بالباء : ثقب شحمة الأذن؛ يقال عبد أخرب وأمة خرباء . وفي قول

ذى الرمة :

كَأَنَّهُ حَبَشَى يَبْتَغِي أَثَرًا أَوْ مِنْ مَعَاشِرِ فِي آذَانِهَا الْحَرْبِ

وفي ن ، س : « خرقة » ، والخرقة بالتاء تكون في الحديد من الفأس والإبرة .

وانظر ماسيأتى في ص ١٩٨ .

(٥) في جميع الأصول : « الأوام » ، صوابه ما أثبت . وانظر ماسيأتى

من الكلام على الرجز التالى . والوثام : الوفاق .

(٦) الطمش : الناس ، يقال ما أدرى أى الطمش هو ، أى الناس . وقد =

( ١٢ ) - رسائل الماحط )

الماعر<sup>(١)</sup> ، وتنفر الشاء من المخلب ولا تأنس بالخف<sup>(٢)</sup>  
 وأنشد أبو زيد النحوي :

\* لولا الوئام هلك الإنسان<sup>(٣)</sup> \*

وقال شداد الحارثي<sup>(٤)</sup> - وكان خطيباً عالماً - : قلت لأمة سوداء  
 بالبادية : لمن أنت يا سوداء ؟ قالت : لسيّد الحضر يا أصلع . قال : قلت  
 أو لست سوداء ؟ قالت : أو لست أصلع ؟ قلت : ما أغضبك من الحق .  
 قالت : الحق أغضبك ، لا تشتم حتى ترهب<sup>(٥)</sup> ، ولأن تتركه أمثل .  
 وقال شداد : لقد كلمتها وأنا أظن أني أفي بأهل نجد<sup>(٦)</sup> ، وما نزعني  
 عني إلا وأنا عند نفسي لا أفي بأمتي .

وقال الأصمعي : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرمة : قاتل الله أمة  
 آل فلان السوداء ، ما كان أفصحها وأبلغها ! سألتها كيف كان المطر عندكم ؟  
 قالت : غشنا ما شئنا<sup>(٧)</sup> .

= عني بالطمش هاهنا الخلق من إنسي ووحشي . والتترع : التسرع . وفي الحيوان :  
 « يسرع » وفي ن ، س : « ينتزع » .

(١) في الأصل : « ماوجبت » ، صوابه من الحيوان ، وبذلك صححت في س ، ن .  
 (٢) في الحيوان : « ولا تأنس » .

(٣) في الأصل : « الأوام » تحريف . صوابه في المخصص ١٢ : ١٥١ والغريب  
 المصنف ٣٨٨ . وانظر للمثل أساس البلاغة ( وأم ) وأمثال الميداني ٢ : ١١١ .

(٤) في الأصل : « وكان » ، صوابه في البيان ٣ : ٧١ حيث الخبر .

(٥) في البيان : « لا تسبب » ، من السبب .

(٦) أي في الفصاحة ، ويقال وفي به ، أي عادله ووازنه .

(٧) البيان ٣ : ٧١ ومجالس ثعلب ٣٤٨ .

## مناقب السودان

أَنَّ لِقْمَانَ الْحَكِيمِ مِنْهُمْ ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ : ثَلَاثَةٌ لَا تَعْرِفُهُمْ إِلَّا عِنْدَ ثَلَاثَةٍ : الْحَلِيمُ عِنْدَ الْعَظْبِ ، وَ الشُّجَاعُ عِنْدَ الْخُوفِ ، وَ الْأَخُ عِنْدَ حَاجَتِكَ .  
وَقَالَ لَابَنَهُ : إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَخَالَطَ رَجُلًا فَأَغْضِبْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنْ أَنْصَفَكَ وَإِلَّا فَاحْذَرِهِ .

وَلَمْ يَرَوْا ذَلِكَ عَنْهُ إِلَّا وَلَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ <sup>(١)</sup> . وَأَكْثَرُ مِنْ هَذَا مَدْحُ اللَّهِ إِيَّاهُ وَتَسْمِيَتُهُ الْحَكِيمَ ، وَمَا أَوْصَى بِهِ ابْنَهُ .

وَمِنْهُمْ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ <sup>(٢)</sup> ، قَتَلَهُ الْحَجَّاجُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ وَهُوَ ابْنُ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ الْحَجَّاجُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً . وَكَانَ سَعِيدٌ أَوْرَعَ الْخَلْقِ وَأَتْقَاهُمْ ، وَكَانَ أَعْظَمَ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ يَطْعَنُونَ فِي الَّذِي يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ حَتَّى يَجِيءَ [ مِنْ <sup>(٣)</sup> ] سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . وَأَبُوهُ مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، وَهُوَ مَوْلَى بَنِي أُمَيَّةَ ، وَقُتِلَ يَوْمَ قُتِلَ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ : كُلُّنَا مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ .

وَمِنْهُمْ : بِلَالُ الْحَبَشِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، الَّذِي يَقُولُ فِيهِ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ

(١) انظر أقواله بتتبع فهارس البيان ، والحيوان ، وعيون الأخبار ، والتكميل والمحاضرة وغيرها .

(٢) كان من موالى والبة ، وهم بطن من أسد بن خزيمه ، ولذا يقال في نسبه : الأسدى الوالى ، وهى نسبة ولاء . قتلته الحجاج صبرا سنة ٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) ليست فى الأصل .

رضى الله عنه : إن أبا بكرٍ سيِّدُنَا وأعتقَ سيِّدَنَا<sup>(١)</sup> ، وهو ثلث الإسلام .  
 ومنهم : مِهْجَع<sup>(٢)</sup> ، وهو أوَّل قَتِيلٍ قُتِلَ بين الصَّغَيْنِ في سبيل الله .  
 ومنهم : المقداد<sup>(٣)</sup> ، وهو أوَّل من عدا به فرسه في سبيل الله .  
 ومنهم : وحش<sup>(٤)</sup> قَاتِلُ مُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب . وكان يقول : قَتَلْتُ خَيْرَ  
 النَّاسِ - يعني حمزةَ بنَ عبد المطلب رضى الله عنه - وقَتَلْتُ شَرَّ النَّاسِ - يعني  
 مُسَيْلَمَةَ الكَذَّاب .

ومنهم : مكحولُ الفقيه<sup>(٥)</sup> .

ومنهم : الحيقطان الشاعر<sup>(٦)</sup> ، الذى كان يَفْضُلُ في رأيه وعقله وهمتَه .  
 وهو الذى يقول في الإخوان : لا تعرفُ الأخَّ حتَّى ترافقه في الحضر ، وتزامله  
 في السَّفر .

(١) العثمانة للجاحظ ٣٢ ، ١٨٠ .

(٢) في الأصل : « عَفْجَع » ، صوابه في السيرة ٤٩٠ والإصابة ٨٣٥٥ ومحاضرة  
 الأوائل للسيوطي ٤٨ . وهو مولى عمر ، قال ابن هشام : « وكان أول قتل من  
 المسلمين بين الصغين يوم بدر » .

(٣) المقداد بن الأسود الكندي ، كان أبوه عمرو بن ثعلبة حليفاً لكندة  
 فتزوج منهم امرأة فولدت له المقداد ، فلما كبر المقداد وقع شربينه وبين أبي ثمر  
 الكندي فضرب رجله بالسيف وهرب إلى مكة خالف الأسود بن عبد يغوث  
 الزهري ، وتبناه الأسود فعرف به أولاً ، فلما نزلت « ادعهم لأبائهم » رجع إلى  
 نسبه فقتل المقداد بن عمرو . توفي في خلافة عثمان سنة ٣٣ . الإصابة ٨١٧٩ .

(٤) وحش بن حرب الحبشي ، مولى بني نوفل .

(٥) يبدو أنه من سودان النوبة ، ففي تهذيب التهذيب أنه كان لرجل من هذيل  
 من أهل مصرفأعتقه . ويقال كان من الفرس ، واسم أبيه سهراب . توفي سنة ١١٢ .

(٦) ذكره في البيان ١ : ١٣٠ ، ٣٢٨ . قال الجاحظ : « وكان خطيباً  
 لا يبارى » . وأصل معنى الحيقطان طائر الدَّراج ، أو الذِّكر منه .

ومنهم : جُلَيْبِيبٌ<sup>(١)</sup> الذى تحدّثت الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في غزاة فقال لأصحابه : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا في الثالثة : لا . قال : لكنى أفقد جُلَيْبِيبًا ، اطلبوه . فطلبوه فوجدوه بين سبعة قد قتلهم ثم قُتِل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ . هذا منى وأنا منه » . قال : ثم حمله على ساعديه حتى حفروا له ، ماله سريرٌ غير ساعدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ولم يذكرُوا غُسْلًا .

ومنهم : فرجُ الحَجَّامِ<sup>(٢)</sup> وكان من أهل العدالة ، والمقدّمين في الشهادة . ٧٩ ظ  
أعتقه جعفر بن سليمان ؛ وذلك أنه خدمه دهرًا يصلح شاربه ولحيته ويهيئه ، فلم يره أخطأ في قول ولا عمل ، فقال : والله لأمتحنه ، فإن كان ما أرى منه عن تدبير وقصدٍ لأعتقنه ولأزوجه ولأغنيته . وإن كان على غير ذلك عرفتُ الضنّع فيه . فقال له ذات يوم وهو يحجمه : يا غلام ، أمتحمت ؟ قال : نعم . قال : ومتى ؟ قال : عند الحاجة . قال : وتعرف ذلك ؟ قال : أعرف أكثره وربما غلطت . قال : فأى شيء تأكل ؟ قال : أمّا في الشتاء

---

(١) تصغير جلباب . ذكر ابن حجر في الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه أنصارية ، ونزل في قصته قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . الأحزاب ٣٦ . وكانت أمها أبت أن تزوجها من جليبيب بعد خطبة الرسول إياها لجليبيب . تفسير ابن كثير ٣ : ٤٨٩ — ٤٩٠ .

(٢) الخبر في الحيوان ٧ : ٣٦١ — ٣٦٢ .

فدا كبراه<sup>(١)</sup> خاترة حلوة . وأما في الصَّيْف فسكباجةٌ حامضة عذبة<sup>(٢)</sup> . فبلغ به جعفر بن سليمان ما قال . وهو الذي يقول فيه أبو فرعون<sup>(٣)</sup> :

خَلُّوا الطَّرِيقَ زَوْجِي أُمَامِي أَنَا حَمِيمُ فَرَجِ الْحَجَّامِ<sup>(٤)</sup>

قال : وبلغ من عدالته ونُبله في نفسه وتوقيه وورعه ، أن موالِيه من ولد جعفرٍ وكبارِ أَهْلِ المَرِيد ، كانوا لا يطعمون أن يُشْهدوه إِلَّا على أمرٍ صَحِيح لا اختلاف فيه .

وأما الحَيْقُطَانُ فَقَالَ قَصِيدَةً تَحْتَجُّ بِهَا الْيَمَانِيَةُ عَلَى قُرَيْشٍ وَمُضَرَ ، وَيَحْتَجُّ بِهَا الْعَجَمُ وَالْحَبَشُ عَلَى الْعَرَبِ ، وَكَانَ جَرِيرٌ رَأَى يَوْمَ عَيْدٍ فِي قَيْصٍ أَيْيَسَ وَهُوَ أَسْوَدُ ، فَقَالَ :

(١) كذا . وفي الحيوان : « فديجبريجه » . وفي كتاب الطبخ للبغدادى ١٢ « ديكبريكة » . قال : « وصنعها أن يقطع اللحم وسطاً ، ويترك في القدر ، ويلقى عليه يسير ملح وكف حصص مقشور ، وكسفرة يابسة ورطبة ، ويصل مقطع ، وكراث ، ويطرح عليه غمره ماء ويغلى ، ثم تؤخذ رغوته ويلقى عليه خل خمر ومرى ، ويلقى فيه فلفل مسحوق ناعماً ويطبخ حتى يبين طعمه . ومن الناس من يحليه بقليل سكر » . وقل محققه داود الجلبى أن اسمه مأخوذ من الآرامية ومعناه الديك المبارك .

(٢) السكباج ، ويقال له الخلية ، والمخللة ، والصفصافة ، وهو لحم يعالج بالخل والتوابل ونحوها ويضاف إليه أحياناً الزعفران والسذاب . انظر صناعته في كتاب الطبخ للبغدادى ص ٩ — ١٠ ومحاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ .

(٣) ذكره الجاحظ أيضاً في الحيوان ٦ : ٧٨ . وذكره ابن النديم في الفهرست ٢٣٣ في جماعة من الشعراء القليلين وقال « أبو فرعون الشاشي . ثلاثون ورقة » . يعنى أن شعره في ثلاثين ورقة . وانظر بعض أخباره وشعره في طبقات الشعراء لابن العز ٣٧٦ — ٣٧٩ .

(٤) في الأصل : « أنا حمام » ، صوابه في الحيوان ٧ : ٢٦٢ .

كأنه لما بدا للناس أير حارٍ لَفَّ في قرطاس<sup>(١)</sup>  
 فلما سمعَ بذلك الحيقطانَ وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :  
 لئن كنتُ جَعَدَ الرَّأْسِ والجلدُ فاحمُ  
 فإني لَسَبَطُ الكَفَّ والعرضُ أزهر<sup>(٢)</sup>  
 وإنَّ ———— اللّون ليس بضائرٍ  
 إذا كنتُ يومَ الرَّوعِ بالسَّيفِ أخطرُ  
 فإن كنتَ تبغى الفخرَ في غيرِ كنهه  
 فرهطُ النَّجاشي منك في الناسِ أنخر<sup>(٣)</sup>  
 تأتي الجَلَنَدَى وابنُ كسرى وحارثُ  
 وهَـوَذَةُ والقِبْطِيُّ والشيخُ قيسرُ  
 وفاز بها دونَ الملوكِ سعادةً  
 فـدَامَ له الملكُ المنيعُ للوفـرِ  
 ولقمان منهم وابنُه وابنُ أمّه  
 وأبرهـةُ المَلِكِ الذي ليس يُنكرُ  
 غزاكم أبو يكسـومَ في أمّ داركم  
 وأنتم كقَبِصِ الرَّمْلِ أو هو أكثر<sup>(٤)</sup>

٨٠ و

(١) لم يرد البيت في ديوان جرير .

(٢) أزهر : أبيض نقى . (٣) كنه الشيء : حقيقته .

(٤) القبص : العدد الكثير ، يقال : إنهم لفي قبص الحصى . وقال الكميت :

لكم مسجدا الله الزوران والحصى لكم قبصه من بين أترى وأقترأ  
 وفي الأصل : « فيض » ، تحريف .

وَأَتَمَّ كَطِيرِ الْمَاءِ لَمَّا هَوَىٰ لَهَا      بِلِقَعَةٍ ، حُجْنُ الْمُخَالِبِ أَكْثَرُ<sup>(١)</sup>  
 فَلَوْ كَانَ غَيْرُ اللَّهِ رَامَ دِفَاعَهُ      عِلْمَتْ وَذَوَالْتَجَرِيبِ بِالنَّاسِ أَخْبَرُ<sup>(٢)</sup>  
 وَمَا الْفَخْرُ إِلَّا أَنْ تَبَيَّنُوا إِزَاءَهُ      وَأَنْتُمْ قَرِيبٌ نَارَكُمْ تَنْسَعُرُ  
 وَيَدْلُفُ مِنْكُمْ قَائِدُ ذُو حَفِيزَةٍ      نُكَالُخُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَدْبَرُ  
 فَأَمَّا الَّتِي قُلْتُمْ فَتَلْكُمُ نُبُوءَةٌ      وَلَيْسَ بِكُمْ صُؤْنُ الْحَرَامِ الْمُسْتَرُّ<sup>(٣)</sup>  
 وَقُلْتُمْ لَقَاحٌ لَا تُؤَدَّى إِيَّانَا      فَأَعْطَاهُ أَرْيَانٌ مِنَ الْفَرِّ أَيْسَرُ<sup>(٤)</sup>  
 وَلَوْ كَانَ فِيهَا رَغْبَةٌ لَمَتَّوِجٍ      إِذَا لَأَتَتْهَا بِالْقَاوِلِ حَيْرُ<sup>(٥)</sup>  
 وَلَيْسَ بِهَا مَشْتَى وَلَا مُتَصَيِّفٍ      وَلَا كَجُؤَانًا مَاؤُهَا يَتَفَجَّرُ<sup>(٦)</sup>

(١) حجن المخالب ، أى حجن محاله . و«أل» بدل من الضمير والحجن : جمع أحجن ، وهو المعوج . وفي الأصل : « حجر » تحريف .

(٢) أى هم قوم لا يستطيع أحد دفاع نفهم ومجدهم فأنت لو حاولت هذه الدفاع علمت عاقبة ذلك .

(٣) أى صين البيت الحرام ذو الستور . وصون : لغة فى صين ، وهى لغة بنى قفص وبنى دبير ، كما فى قوله :

\* لَيْتَ شَبَابًا بَوَّعَ فَاشْتَرَيْتَ \*

وقلتم ، لعلها « نلتم » .

(٤) اللقاح ، كسحاب : القوم لم يدينوا للملوك ولم يصبههم فى الجاهلية سباء والأريان ، بالفتح : الخراج والإتاوة . كما فى اللسان ( أرى ) . وفى ن ، س : « أربان » بالباء ، وليس بشئ ، فإنه بمعنى العربون . وأراد : أيسر من الفر .

(٥) فى الأصل « لانها » بهذا الإهمال . والقاول : جمع مقول ، بالكسر ، وهو القيل الملك من ملوك حمير .

(٦) جؤانا ، ويقال جؤاءاء أيضا : حصن لعبد القيس بالبحرين .



ولا مرتع للعين أو متقنص ولكن تجرًا ، والتجارة تُحقر  
ألت كليبيا وأمك نجة لكم في سمان الضان عار ومفخر  
أما قوله :

تأبى الجلندى وابن كسرى وحارث  
وهوذة والقبطى والشيخ قيصر

فإنه يقول : كتب النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى الجلندى <sup>(١)</sup> فلم يؤمنوا  
وكذلك كسرى ، وكذلك الحارث بن أبى شمر ، وكذلك هوذة بن على الحنفى ،  
وكذلك المقوقس عظيم القبط صاحب الإسكندرية ، وكذلك قيصر ملك الروم .  
على أن بنى الجلندى قد أسلموا من بعد ذلك الكتاب ، ولكن النجاشى  
أسلم قبل الفتح ، فدام له ملكه ونزع الله من هؤلاء النعمة . وقيصر إن كان  
قد بقى من ملكه شىء فقد أخرجوه من كل مكان يبلغه ظلف أو حافر ،  
وصار لا يتمنع إلا بالخليج والعقاب والحصون <sup>(٢)</sup> وبالشتاء والثلوج والأمطار .  
ونغر بلقان وابنه .

وأما قوله :

غزاكم أبو يكسوم فى أم داركم  
وأتم كقبص الرمل أو هو أكثر <sup>(٣)</sup>

(١) وكذا ورد فى أصول الحيوان ١ : ٩٨ ، والمعروف أنهما ابنا الجلندى ،  
فى السيرة ٩٧١ : « وبث عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعياد ، ابني الجلندى  
الأزدبيين ملكى عمان . ومثله فى الإصابة ١٣٠٥ .

(٢) العقاب : جمع عقبة وهى الجبل الطويل يعرض للطريق فىأخذ فيه .

(٣) فى الأصل : « كقبض الرمل » وانظر ماسبق فى حواشى ١٨٣ .

فإنه يعني صاحب الفيل حين أتى مكة ليهدم الكعبة . يقول : كنتم في عدد الرمل ، فلم فررتم منه ولم يلقه أحدٌ منكم حتى أفضى إلى مكة ، ومكة أم القرى ، ودار العرب ، هي جزيرة العرب ، ومكة قرية من قراها ، ولكن لما كانت أقدمها قديماً ، وأعظمها خطراً ، جعلت لها أمماً . ولذلك قيل لفتح مكة : فتح الفتوح . وعلى مثل ذلك سُميت فاتحة الكتاب : أم الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيء أمّ ما لم يلد . من ذلك قولهم : ضربته على أمّ رأسه ، وكذلك أمّ الهاوية<sup>(١)</sup> . والضيف يسمى ربةً منزله أمّ منواي . وقال أعرابيٌ وقد أصابته براغيثٌ عند امرأةٍ كان نزل بها<sup>(٢)</sup> :

يا أمّ منواي عدمت وجهك أنقذني ربُّ الفلا من مصركِ  
ولذع برغوثٍ أراه مُهلكي أبيت ليلى دائب التحكك<sup>(٣)</sup>  
\* تحكك الأجر عند المبرك \*

وقد أبان الله تعالى مكة والبيت حين قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِمَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) كذا . وفي الكتاب العزيز : « فأمه هاوية » . وهاوية والهاوية اسم من أسماء جهنم وقبل معنى فأمه هاوية ، أى أم رأسه تهوى في النار ، قال ابن بري : لو كانت هاوية اسماً لما للنار لم ينصرف .

(٢) الرجز التالي في الحيوان ٥ : ٣٩١ .

(٣) في الحيوان : « دائم التحكك » .

(٤) الآية ٩٦ من سورة آل عمران ،

يقول : فإذا غُزِيَتْ - وهى أمُّ القرى وفيها البيتُ الحرام الذى هو شرفُكم - فقد غُزِيَتْ جميعُكم<sup>(١)</sup> .  
وأما قوله :

وأما التى قُلتُم فتلكم نبوةٌ وليس بكم صُونَ الحرامِ المسترُّ  
[ وقُلتُم لَقاحٌ لا تُؤدّى إناوةٌ فإعطاء أريانٍ من الفرِّ أيسرُ<sup>(٢)</sup> ]  
فاللقاح : البلد الذى لا يُؤدّى إلى الملوك الأريان<sup>(٣)</sup> . والأريان : هو  
الخراج ، وهو الإناوة . وفى ذلك يقول عبيد بن الأبرص :  
أَبَوَا دِينَ الْمُلُوكِ فَهَمَّ لِقَاحٌ إِذَا نُدِبُوا إِلَى حَرْبٍ أَجَابُوا  
قال : قُلتُم إِنَّا لَقَاحٌ وَلَسْنَا تُؤدّى الخراج والأريان .

٨١ و

قال : فإعطاء الخراج أهونُ من الفرار وإسلام الدار وأنتم مثلُ عددٍ من  
جاءكم المرار الكثيرة .  
وأما قوله :

وليس بها مشى ولا متصيفٌ ولا كجؤاثا ماؤها يتفجّرُ  
يقول : ليس فى الغلبة على مكة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهلُ المين  
وغيرهم . وليس بها مشى ولا متصيفٌ ؛ لأنهم يتبرّدون بالطائف ويتدفّون  
بجدّة . وجؤاثا : عينٌ بالبحرين . وليس بمكة شىءٌ يدانى ذلك .

---

(١) فى الأصل : « غزا جميعكم » .

(٢) لم يرد هذا البيت فى الأصل ، والكلام التالى يتعلّق به .

(٣) انظر ماسبق فى الحاشية الرابعة من ص ١٨٤ . والكلمة واضحة فى الأصل  
بالياء الشناة .

وقال :

ولا سرتع للعين أو متقنص ولكن تجراً والتجارة تحقر  
يقول : ليس بها متنزّهات ، وصيدها حرام ، وإنما بها تجار والتجار  
يحقرّون . يقول : هم عند الناس في حدّ الضعف ولا يستجيز ملك أخذ الذي  
به يتعيشون ، ولا يكون ما يؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك<sup>(١)</sup> ، وهم قوم<sup>(٢)</sup>  
ليس عندهم امتناع . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهليّ :  
وزقّ سبأت لذي متجرٍ أسود كالرجل الأسحم<sup>(٣)</sup>  
ضربت بفيه على نحره وقائم كيد الأجدم  
إلى التاجر العربيّ الشحيح أو خرّذي النطف الطمطم<sup>(٤)</sup>  
أراد بهذا كله قريشاً<sup>(٥)</sup> . يقول : هم تجار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا  
خرجوا علّقوا عليهم الثقل ولحاء الشجر<sup>(٦)</sup> حتى يعرفوا فلا يقتلهم أحد .

(١) يعني حاجاتهم ونفقاتهم . وأصل النائية ما ينوب الإنسان أي ينزل به من  
المهمات والحوادث .

(٢) هو معاوية بن أوس بن خلف التميمي ، وهو ابن أبي حارثة المري . ترجم  
له الرزباني في معجمه ٣٩٢ وذكر له أبياتا أخرى من هذه القصيدة .

(٣) وقع في ن ، س : « ورزق » ، تحريف . والزق : السقاء ، وهو أيضا  
ما تنقل فيه الحمر . وسبأ الحمر : اشتراها ، أو حملها من بلد إلى آخر .

(٤) الشحيح : البخيل ، يعني أنه يغالي في ثمن الحمر . والنطف ، بالتحريك : جمع  
نطفة وهي القرط . قال الأعشى :

يسعى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أسفل السريال معتمل  
والطمطم : الأعجمي الذي لا يفصح .

(٥) في الأصل ، ون ، س : « قريش » .

(٦) أشير في الأصل إلى أنها في نسخة « السمر » . هذا وليس في نص الشعر  
المتقدم ما يقتضي هذا التفسير من تعليق المقل ولحاء الشجر .

وأما قوله :

أَلَسْتَ كَلَيْبًا وَأَمَّا نَعَجَةٌ لَكُمْ فِي سَمَانِ الضَّانِ عَارٌ وَمَفْخَرُ  
فَإِنَّ بَنِي كَلَيْبٍ يُرْمَوْنَ بِأَتِيَانِ الضَّانِ ، وَكَذَلِكَ بَنُو الْأَعْرَجِ ، وَسَلِيمُ .  
وَأَشْجَعُ تَرْمَى بِأَتِيَانِ الْمَعَزِ .

وقال النجاشي :

٨١ ظ

وَلَوْ شِئْتَنِي مِنْ قُرَيْشٍ قَبِيلَةٌ سِوَى نَاكَةِ الْمِعْزَى سَلِيمٌ وَأَشْجَعُ  
وقال الفرزدق :

وَلَسْتُ مُضَحِّيًا مَا دُمْتُ حَيًّا بَشَاءَ مِنْ حَلَوْبَةٍ أَعْرَجِي<sup>(١)</sup>  
فَمَا أَدْرَى إِذَا أَنْفَقْتُ مَالِي لَعَلَّ الشَّاةَ تُبْقِرُ عَنْ صَبِي<sup>(٢)</sup>  
وقال الآخر :

إِذَا أَحْبَبْتُ أَنْ تُغْلِي أُنَانًا فَدُلَّ الدَّارِمِيُّ عَلَى شِرَاهَا  
يُقْبَلُ ظَهْرَهَا وَبِكَادُ لَوْلَا قُحُولُ الظَّهْرِ يَدْنُو مِنْ قَفَاهَا  
وَوَدَّ الدَّارِمِيُّ لَوْ أَنَّ فَاهُ إِذَا نَالَ الْحَمَارَةَ نَالَ فَاهَا<sup>(٣)</sup>  
وقال عبد بن رشيد :

قَبِيلَةُ سَوَاءٍ خَيْرُهُمْ مِثْلُ شَرِّهِمْ تَرَى مِنْهُمْ لِلضَّانِ خَلًّا وَرَاعِيَا  
إِذَا جُلِّيتْ فِيهِمْ عُرُوسٌ لِبَعْلَاهَا تَرَى النَّعْجَةَ الْبَقْعَاءُ أَبْكَى الْبَوَاكِيا<sup>(٤)</sup>

(١) البيتان مما لم يرو في ديوان الفرزدق .

(٢) تبقر : يشق بطنها . وفي الأصل : « تبقر » .

(٣) في الأصل ، س « الحمار ينال » . وفي ن : « تنال فاهها » ، والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « عروسا » .

ولذلك قال الأخطل :

فَانْعَقُ بِضَانِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا<sup>(١)</sup>

ولذلك قال الحيقطان :

أَلَسْتَ كُلَيْبِيًّا وَأُمُّكَ نَعْجَةٌ لَهَا فِي سِمَانِ الصَّانِ عَارٌ وَمَفْخَرُ  
أُمِّ الْعَارِ فَالَّذِي شَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذِكْرِ النَّعَاجِ . وَأَمَّا الْمَفْخَرُ يَقُولُ : إِذَا  
فَخَّرُوا فَخَرُوا بِالْشَّاءِ ، وَلَا يَبْلُغُونَ إِلَى حَدِّ الْإِبِلِ .

ومن مفاخر السودان والزنج والحبش مع ما ذكرنا من قصيدة الحيقطان ،  
أَنَّ جَرِيرَ بْنَ الْخَطَفِيِّ لَمَّا هَجَا بَنِي تَغْلِبَ<sup>(٢)</sup> قَالَ :

لَا تَطْلُبَنَّ خُوُولَةً فِي تَغْلِبٍ فَالزَّنجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَخْوَالًا<sup>(٣)</sup>  
غَضِبَ سَنِيحُ بْنُ رَبَاحٍ<sup>(٤)</sup> شَارَ<sup>(٥)</sup> ، فَهَجَا جَرِيرًا ، وَغَفَرَ عَلَيْهِ بِالزَّنجِ فَقَالَ :  
مَا بَالُ كَلْبٍ مِنْ كُلَيْبٍ سَبَّنَا أَنْ لَمْ يُوَازِنْ حَاجِبًا وَعِقْلًا<sup>(٦)</sup>

(١) ديوان الأخطل ٥٠ وابن سلام ٤٢٩ واللسان (نق) . وفي الأصل  
« فانعم » ، تحريف .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) ديوان جرير ٤٥٣ والبيان ٤ : ٨٢ والكامل ٥١٤ .

(٤) في الكامل ٥١٤ : « رباح بن سنيح الزنجي مولى بني ناجية » . ويقال أيضا  
رباح بن سبيح ، وسبيح بن رباح ، كما في اللسان (طول) . وقال ابن الأثير في الكامل  
٤ : ١٦١ في ذكر فتنة الزنج أيام مصعب بن الزبير : « وجعلوا عليهم رجلا اسمه  
رباح ، ويلقب شيرزنجي ، يعني أسد الزنج » .

(٥) في الأصل « سار » ، وإعجمه مما سيأتي . وفي الحيوان ١ : ٢٧٠ :  
« السارنجي » . وفي ٧ : ٢٠٥ : « الشارزنجي » .

(٦) في الأصل : « توازن » ، صوابه في الكامل واللسان . يعني جريرا =

٨٢ و

إِنَّ امراً جَعَلَ المِراغَةَ وابْنَهَا      مثلَ الفرزدقِ جائراً قدْ فالاً<sup>(١)</sup>  
 والزَّيْجُ لو لا قِيَمَتَهُمْ في صَفِّهِمْ      لا قِيَتَ نَمَّ جَحَاجِجاً أَبْطالاً  
 فَسَلِ ابنَ عَمْرِو حِينَ رَامَ رِمَاحَهُمْ      أَرَأَى رِمَاحَ الزَّيْجِ نَمَّ طُولاً  
 فَجَعُوا زِياداً بَابِنِهِ وَتَنَازَلُوا      لَمَّا دُعُوا لِنَزَالِ نَمَّ نِزَالاً<sup>(٢)</sup>  
 وَمُرَبِّطِينَ خِيُولَهُمْ بِفِنَائِهِمْ      وَرَبَطَتْ حَوْلَكَ شَيْباً وَسِخَالاً<sup>(٣)</sup>  
 كَانَ ابنُ نَدْبَةَ فيكُمُ مِنْ نَجْلِنَا      وَخُفَافٌ الْمُتَحَمِّلُ الْأَثْقَالُ  
 وَابْنَا زُبَيْبَةَ : عَنَتْرٌ وَهَرَّاسَةٌ      مَا إِنْ نَرَى فيكُمُ لَهُمْ أَمْثالاً  
 سَلِ ابنَ جَيْفَرِ حِينَ رَامَ بِلَادِنَا      فَرَأَى بِغَزَوَتِهِمْ عَلَيْهِ خَبَالاً  
 وَسُلَيْكُ اللَّيْثِ الْهَزْبَرُ إِذَا عَدَا      وَالْقَرْمُ عَبَّاسٌ عُلُوكَ فَعَالاً  
 هَذَا ابنُ خَازِمِ ابنِ عَجَلَى مِنْهُمْ      غَلَبَ الْقَبَائِلُ نَجْدَةً وَنَوَالاً  
 أَبْنَاءُ كُلِّ نَجِيَّةٍ لِنَجِيَّةٍ      أَسَدٌ تُرَبِّبُ عِنْدَهَا الْأَشْبَالَ  
 فَلَنَحْنُ أَنْجَبُ مِنْ كُلِّيبِ خُوُولَةٍ      وَلَأَنْتِ الْأُمُّ مِنْهُمْ أَخْوَالاً  
 وَبَنُو الْحَبَابِ مَطَاعِنٌ وَمَطَاعِمٌ      عِنْدَ الشَّتَاءِ إِذَا تَهَبُّ شَمَالاً<sup>(٤)</sup>

= وجاء في قول الأخطل (ديوانه ٥٠ وابن سلام ٢٩٩) مخاطباً للجرير :

متك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازن حاجباً وعقلاً

وحاجب هو حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم ، من رهط الفرزدق ، وكثيراً ما افتخر به . وأما عقال فهو جد الفرزدق ، فإن اسمه هام ابن غالب بن صمصمة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم .

(١) المِراغَةُ : الأتان ، وهو لقب لقبها به الفرزدق ، كما في القاموس . قال ،  
بالقاء : أخطأ رأيَه وضعف . وفي الأصل : « قالا » تصحيف .

(٢) زياد ، هو والد حفص بن زياد بن عمرو .

(٣) الشَّيْبُ ، كسيد : جمع شاة . وفي الأصل : « اشأ » تحريف .

(٤) في الأصل : « الحنات » ، ولكن تعقيب الجاحظ فيما بعد ، يعين أنه  
« الحباب » .

أما ابن عمرو الذي ذَكَرَ ، فهو حَفْص بن زياد بن عمرو العَتَكِيُّ ،  
كان خليفة أبيه على شُرطة الحجاج ، فعَلَبَ رَباحَ شار الزَّنجي<sup>(١)</sup>  
على الفُرات ، فتوجَّه إليه حفص بن زيادٍ فقتله رَباحٌ وقتل أصحابه  
واستباح عسكره .

وأما ابنُ جيفر فهو النُّعمان بن جَيفر بن عُبَاد بن جَيفر بن الجُلَنْدِي .  
كان غزا بلادَ الزَّنج فقتلوه وغنموا عسكره .

ثم ذكر أبناء الزَّنجيات حين نزعوا إلى الزَّنج في البَسالة والأنفة<sup>(٢)</sup> .  
فذكر خُفاف بن نَدْبَة ، وعَبَّاس بن مِرْدَاس ، وابْنُ شَدَاد : عنترَة الفوارسِ  
وأخاه هَرَّاسَة ، وسُليمان بن السُّلُكَة . فهؤلاء أسدُّ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً  
وأشجعهم بأساً ، وبهم يُضرب المثل .

ومنهم : عبدالله بن خازِم السَّلمِي ، وبنو الحُباب : عُمر بن الحُباب وإخوته<sup>(٣)</sup> .  
وكان أيضاً منهم : الجَحَّاف بن حَكِيم<sup>(٤)</sup> .

٨٢ ظ

وهم أيضاً يفخرون بِرَباحِ أخى بلال وحاله وصلاجه .  
ويفخرون بعامر بن فُهيرة<sup>(٥)</sup> ، بدرىَّ استشهد يومَ بئرِ مَعُونَة ، فرآه  
الناسُ قد رفعه اللهُ بين السَّماء والأرض ، فليس له في الأرض قبر .

(١) انظر ما سبق في حواشى ص ١٩٠ .

(٢) في الأصل : « في الأصالة والأنفس » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاشتقاق ٣٠٨ ، ٣٣٩ . وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاشتقاق ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبى بكر الصديق ، ولذا جاء في نسبته التيمى . انظر الإصابة  
٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فُهيرة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه  
أبو بكر رضى الله عنه منهم . السيرة ١٦٤ . فكأنه أزدى وتيمى .



أما ابن عمرو الذي ذَكَرَ ، فهو حَفْص بن زياد بن عمرو العَتَكِيّ ،  
كان خليفة أبيه على شُرطة الحجاج ، فعَلَبَ رَباح شار الزُّنْجِي (١)  
على الفُرات ، فتوجّه إليه حفص بن زيادٍ فقتله رَباحُ وقتل أصحابه  
واستباح عسكره .

وأما ابنُ جيفر فهو النعمان بن جيفر بن عُبَاد بن جَيفر بن الجُلَنْدِي .  
كان غزا بلادَ الزُّنْجِ فقتلوه وغنموا عسكره .

ثم ذكر أبناء الزُّنْجِيّات حين نَزَعُوا إلى الزُّنْجِ في البَسالة والأنفة (٢) .  
فذكر خُفَاف بن نَدْبَة ، وَعَبَّاس بن مِرْدَاس ، وابْنِي شَدَادٍ : عنترَة الفوارسِ  
وأخاه هَرَّاسَة ، وسُليكَ بن السَّلَكَة . فهؤلاء أَسَدُ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً  
وأشجعهم بأساً ، وبهم يُضْرَب المثل .

ومنهم : عبد الله بن خازِم السَّامِي ، وبنو الحُباب : عُمَيْر بن الحُباب وإخوته (٣) .  
وكان أيضاً منهم : الجَحَّاف بن حَكِيم (٤) .

٨٢ ظ

وهم أيضاً يفخرون بِرَباحٍ أخى بلال وحاله وصلاحيه .  
ويفخرون بعامر بن فُهَيْرَة (٥) ، بدرئٍ استشهد يومَ بئرِ مَعُونَة ، فرآه  
الناسُ قد رفعه اللهُ بين السَّماء والأرض ، فليس له في الأرض قبر .

(١) انظر ما سبق في حواشي ص ١٩٠ .

(٢) في الأصل : « في الأصالة والأنفس » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاشتقاق ٣٠٨ ، ٣٣٩ . وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاشتقاق ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبي بكر الصديق ، ولما جاء في نسبته التيمى . انظر الإصابة  
٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فُهَيْرَة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه  
أبو بكر رضى الله عنه منهم . السيرة ١٦٤ . فكأنه أزدى وتيمى .

وَجَرَتْ<sup>(١)</sup> أَحْكَامُنَا فِي ذَلِكَ أَجْمَع . وَهَزَمْنَا ذَا نُوَّاسٍ ، وَقَتَلْنَا أَقْيَالَ حَمِير .  
وَأَنْتُمْ لَمْ تَمْلِكُوا بِلَادَنَا . وَقَدْ قَالَ شَاعِرُكُمْ :

وَحَرَّبَ غَمْدَانًا وَهَدَّمَ سَقْفَهُ

رِبَاطٌ بِأَجْنَادٍ وَصُولْتُ لَهُ هَضْمُ<sup>(٢)</sup>

أَطَافَتْ بِهِ الْأَحْبُوشُ لَيْلًا فَقَوَّضُوا

بِنَا شَدَّهُ الْأَقْيَالُ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ<sup>(٣)</sup>

بِجَمْعٍ مِنَ الْيَكْسُومِ سُودٍ كَانَتْهُمْ

أُسُودُ الشَّرَى اجْتَابَتْ جُلُودًا مِنَ الثَّنِيرِ<sup>(٤)</sup>

قَالُوا : وَمَنَا كِبَا جَلَا ، لَمْ يَصْعَدْ نَهْرُ سُلَيْمَانَ وَلَا قَاتَلَ فِي الْحَارِجَاتِ<sup>(٥)</sup> أَحَدٌ  
قَطُّ يَشْبَهُهُ .

(١) ن ، س : « ومرت » .

(٢) رباط ، يعنى به أرباط الحبشى . وفي السيرة ٣٦ : « وبينون وسليحين  
وغمدان من حصون اليمن التي هدم أرباط ، ولم يكن في الناس مثلها » . وانظر الإكليل  
للهمداني ٨ : ٣٩٥ . وفي الأصل وسأر النسخ : « رباط » ، تحريف . وفي البيت  
إقواء ظاهر .

(٣) الأحبوش : الحبش . والبنا : مقصور البناء . وفي ن ، س : « بنا شدة »  
تحريف .

(٤) اليكسوم ، أراد بهم الحبشة . والأصل في ذلك كنية أبرهة الأشرم ، إذ  
كان يكنى أبا يكسوم ، ويكسوم اسم ابنه كما في التنبيه والإشراف ص ٣٢٦ والسيرة  
٤٢ . وفي ذلك يقول ليلى ، وهو يعنى أبرهة ، كما في اللسان ( كسم ) :  
لو كان حى في الحياه مخلدا في الدهر ألفاه أبو يكسوم

(٥) يعنى بها المبارزات ، وهو أن يخرج كل من الفارسيين لصاحبه فيأرزوه .

قالوا : ومَنَّا الأربعمون الذين خَرَجُوا بِالْفَرَاتِ أَيَّامَ سَوَّارِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَاضِي ، فَأَجَلَوْا أَهْلَ الْفَرَاتِ عَنْ مَنَازِلِهِمْ ، وَقَتَلُوا مِنْ أَهْلِ الْأُبُلَّةِ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً . ٨٣ و  
قالوا : ومَنَّا الَّذِي ضَرَبَ عَنقَ عِيسَى بْنِ جَعْفَرٍ بَعْمَانَ ، بِمَنْجَلٍ بِحِرَانِ<sup>(١)</sup> ،  
بَعْدَ أَنْ لَمْ يَجْسُرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ .

قالوا : وَالنَّاسُ مُجْمِعُونَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أُمَّةٌ السَّخَاءُ فِيهَا أَعْمُ ،  
وَعَلَيْهَا أَغْلَبَ مِنَ الزَّيْجِ . وَهَاتَانِ اخْتَلَّتَانِ لَمْ تُوجَدَا قَطُّ إِلَّا فِي كَرِيمٍ .  
وَهِيَ أَطْبَعُ ائْتَلَقَ عَلَى الرَّقْصِ الْمَوْقِعِ الْمَوْزُونِ ، وَالضَّرْبِ بِالطُّبْلِ عَلَى  
الْإِيْقَاعِ الْمَوْزُونِ ، مِنْ غَيْرِ تَأْدِيبٍ وَلَا تَعْلِيمٍ .  
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحْسَنُ خُلُقًا مِنْهُمْ . وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ لَفَةٌ أَخْفَى عَلَى  
اللِّسَانِ مِنْ لِقَتِهِمْ ، وَلَا فِي الْأَرْضِ قَوْمٌ أَذْرَبُ أَلْسِنَةً ، وَلَا أَقْلُ تَمْطِيطًا مِنْهُمْ .  
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ قَوْمٌ إِلَّا وَأَنْتَ تَصِيبُ فِيهِمُ الْأَرْتَ وَالْقَافَاءَ وَالْعَيْيَ<sup>(٢)</sup> ،  
وَمَنْ فِي لِسَانِهِ حُبْسَةٌ ، غَيْرُهُمْ .

وَالرَّجُلُ مِنْهُمْ يَخْطُبُ عِنْدَ الْمَلِكِ بِالزَّيْجِ مِنْ لَدُنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى  
غُرُوبِهَا ، فَلَا يَسْتَعِينُ بِالْتَفَاتَةِ وَلَا بِسَكْنَتِهِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ كَلَامِهِ .  
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أُمَّةٌ فِي شِدَّةِ الْأَبْدَانِ وَقُوَّةِ الْأَسْرِ أَعْمُ مِنْهُمْ فِيهِمَا<sup>(٣)</sup> .  
وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْفَعُ الْحَجَرَ الثَّقِيلَ الَّذِي تَعَجَّزُ عَنْهُ الْجَمَاعَةُ مِنَ الْأَعْرَابِ وَغَيْرِهِمْ .  
وَهُمْ شَجْعَاءُ أَشَدَّاءِ الْأَبْدَانِ أَسْخِيَاءُ . وَهَذِهِ هِيَ خِصَالُ الشَّرَفِ .

(١) البحراني : نسبة إلى البحرين .

(٢) الأرت : الذي في لسانه عقدة وحبسة ، يعجل في كلامه فلا يطاوعه لسانه .

(٣) في الأصل : « فيها » .

[ والزنجي<sup>(١)</sup> ] مع حُسن الخلق وقلة الأذى ، لا تراه أبدًا إِلَّا طيب النفس ، فحوك السنّ ، حسن الظنّ . وهذا هو الشرف .  
وقد قال ناسٌ : إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ولقصر روياتهم ، ولجهلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بئس ما أنثيتم على السخاء والأثرة ، وينبغي في هذا القياس أن يكون أوفر الناس عقلًا وأكثر الناس علمًا أبخل الناس بُخلًا وأقلهم خيرًا .  
وقد رأينا الصّقالبة أبخل من الرّوم ، والرّوم أبعد رويةً وأشدّ عقولًا .  
وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغي أن تكون الصّقالبة أسخى أنفسًا وأسمح أكفأ منهم .

وقد رأينا النّساء أضعف من الرّجال عقولًا ، والصّبيان أضعف عقولًا منهم ، وهم أبخل من النّساء ، والنّساء أضعف عقولًا من الرّجال . ولو كان العقل كلما كان أشدّ كان صاحبه أبخل ، كان ينبغي أن يكون الصبيّ أكرم الناس خصالًا<sup>(٢)</sup> . ولا نعلم في الأرض شرًّا من صبيّ<sup>(٣)</sup> : هو أكذب النّاس وأنمّ النّاس ، وأشره النّاس وأبخل النّاس ، وأقلّ النّاس خيرًا وأقسى النّاس قسوة .

وإنما يخرج الصبيّ من هذه الخلال أولًا فأولًا ، على قدر ما يزداد من التعقل فيزداد من الأفعال الجميلة .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ن : « خصال » خلاف لما في الأصل .

(٣) انظر البيان ١ : ٢٤٧ والحيران ٣ : ٤٧١ .

فكيف صار قلّة العقل هو سبب سخاء الزّنج ، وقد أقررتهم لهم بالسّخاء  
ثم ادّعيتم ما لا يُعرف . وقد وقّفناكم على إحاض حجّكم في ذلك بالقياس  
الصّحيح .

وهذا القول يوجب أن يكون الجبانُ أَعْقَلَ من الشّجاع ، والفادرُ أَعْقَلَ  
من الوفيّ . وينبغي أن يكون الجزوعُ أَعْقَلَ من الصّبور . فهذا ما لا حُجّة فيه  
لكم ، بل ذلك هبةٌ في الناس من الله . والعقلُ هبةٌ ، وحسنُ الخلق هبةٌ ،  
والسّخاء والشّجاعة كذلك .

وقد قالت الزّنج للعرب : من جهلكم أنّكم رأيتمونا لكم أكفاء  
في الجاهلية في نسائكم ، فلما جاء عدلُ الإسلام رأيتم ذلك فاسداً ، و [ما<sup>(١)</sup>]  
بنا الرّغبة عنكم<sup>(٢)</sup> . مع أنّ البادية منّا ملأى<sup>(٣)</sup> ممّن قد تزوّج ورأس وساد ،  
ومنّع الدّمار ، وكنتفكم من العدو .

قال : وقد ضربتم بنا الأمثال وعظمت أمرَ ملوكنا ، وقدّمتموهم في كثير  
من المواضع على ملوككم . ولو لم تروا الفضلَ لنا في ذلك عليكم لما فعلتم .

وقال النّمر بن تولب :

أنى ملكه ما أتى مُتّبِعاً وأبرهةَ الملكَ الأعظما<sup>(٤)</sup>  
فرّقته على ملوك قومه .

(١) ليست في الأصل .

(٢) في ن : « وبنا الرّغبة عنكم » ، وفي س : « ونبت الرّغبة عنا »

(٣) في الأصل ون : « ملأ » ، والوجه ما أثبت مطابقاً لتصرف ناشر س .

(٤) العيني ١ : ٥٧٥ وشرح شواهد المغنى للسيوطي ٧٦ والخزانة ٤ : ٢٣٨ .  
ويروى : « فأدركه » .

وقال لبید بن ربیعۃ :

لو كان حیٌّ فی الحیاة مَحْلَدًا فی الدَّهر أدركه أبو یكسوم<sup>(١)</sup>  
وهذا شیءٌ من وصف الفضل لم یوصف أحدٌ بمثله .  
قالوا : ومما<sup>(٢)</sup> قدَّمتم به ملوکنا علی ملوککم قوله<sup>(٣)</sup> :

و ٨٤ غَلَبَ اللَّیالی خَلْفَ آلٍ مُحَرَّقٍ وكما فعلنَ بَتْبَعٍ وَهَرَقِلَ  
وغابنَ أبرهة الذی أَلْفیتَه قد كان خُلدٌ فَوْقَ غُرْفَةٍ مَوْكِلٍ<sup>(٤)</sup>  
فقدَّم أبرهة وأراد التَّسْوِیة<sup>(٥)</sup> .

قالوا : ومن الحَبْشَةِ عُكَيْمُ الحَبْشِ<sup>(٦)</sup> ، وكان أفصح من العَجَّاج . وكان  
علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذ علماء أهل العراق من المنتجع بن تَبْهَان .  
وكان المنتجع سِنْدِيًّا فی أذنه خُرْبَةٌ<sup>(٧)</sup> ، وقع إلى البادية وهو صبيٌّ ، فخرَجَ  
أفصح من رُؤْبَةٍ .

(١) أبو یكسوم : كنية أبرهة الأشرم الحبشي . انظر ماسبق فی حواشی ص  
١٩٤ دیوان لبید ٨٣ . أدركه أى أدرك التخلید .

(٢) فی الأصل : « وما » .

(٣) یعنی قول لبید . انظر دیوانه والإکیل ٨ : ١٠٨ ، ٢١٦ ، والتيجان ٧٦ .  
وفی الأصل : « قولکم » ، تحریف

(٤) موكل ، كمرحب : موضع باليمن ، كما فی معجم البلدان . وانظر صفته فی  
الإکیل ٨ : ١٠٦ .

(٥) یعنی التسوية بین العرب والعجم . وبعد البيت :

والحارث الحراب أمسى قاطنا دارا أقام بها ولم يتحلحل

(٦) انظر القاموس ( عكم ) .

(٧) انظر ماسبق فی ص ١٧٧

ولما<sup>(١)</sup> قال حَكِيم بن عَمِيَّاش الكَلْبِيُّ<sup>(٢)</sup> :  
 لَا تَفْخَرَنَّ بِخَالٍ مِنْ بَنَى أُسَدٌ فَإِنَّ أَكْرَمَ مِنْهَا الزَّيْجُ وَالنُّوبُ  
 اعْتَرَضَ عَلَيْهِ<sup>(٣)</sup> عُكَيْمُ الْحَبَشِيِّ ، فَقَالَ :  
 وَيَوْمَ عُمْدَانَ كُنَّا الْأُسَدَ قَدْ عَلِمُوا  
 وَيَوْمَ يَثْرِبَ كَذَا فِحْـلَةَ الْعَرَبِ  
 وَلِـلَّةِ الْفِيلِ إِذْ طَارَتْ قُلُوبُهُمْ  
 وَكُلُّهُمْ هَارِبٌ مُـوَفٍ عَلَى قَتَبِ  
 مَنَا النَّجَاشِيِّ وَذُو الْعَقَصَيْنِ صَهْرَكُمُ  
 وَجَدْتُ أَرْهَةً الْحَامِي أَبِي طَلَبٍ<sup>(٤)</sup>  
 هَبْنِي غَفَرْتُ لِعَدْنَانِ تَهَكُّمَهُمْ  
 قَمًّا لِحْمِيرٍ وَالْقَوَالِ فِي النِّسَبِ  
 حَمَارَةٌ جُمِعَتْ مِنْ كُلِّ مُحَرَّبَةٍ  
 جَمَعَ الشُّبَيْكَةُ نُونُ الرَّآخِرِ اللَّجَبِ<sup>(٥)</sup>

---

(١) في الأصل : « فلما » .

(٢) ترجم له ياقوت في معجمه ١٠ : ٢٤٧ وذكر أنه كان بينه وبين السكيت ابن زيد الأسدي مفاخرة

(٣) اعترض عليه . دخل معه في الشعر متمما ماقاله .

(٤) ذو العقصين . معى به الإسكندر المقدوني الملقب بذي القرنين ، كان له في رأسه شبه قرنين ، أى عصصين . والعقص : ضرب من ضفر الشعر . وكان الروم أصهارا للعرب .

(٥) سيأتي في تفسير حاحط أن حمير كانت حمارة . ومحربه ، كذا وردت في الأصل ، وستأتي في ص ٢٠٢ سم « محزوة » والنون : السمك ، واحدته نونة . وهو الحوت أيضا

عُمدان : حصنٌ كانَ ينزلهُ الملكُ الذي يكونُ على اليَمَن ، وكانَ عَجَبِيًّا ،  
فلما ملكَت الحبشةُ اليَمَنَ أخربتهُ إلَّا بقايا هدمها عُمانُ بنُ عفَّانَ رضى الله عنه  
فى الإسلام . وقال : « ينبغي لما أثر الجاهليَّة أن تُمَحَّى » . وكان فى الحصن  
مَصْنَعَةٌ عليها قُبَّةٌ من طَلق ، وفيها يقول خَلَفُ الأحرر :

ومَصْنَعَةُ الطَّلِقِ أودَى بها عَوادى الأحابيش بالصَّيْدِ<sup>(١)</sup>  
وفيها يقول قُدَّامةُ حَكيمُ المشرق<sup>(٢)</sup> ، وكان صاحبَ كيمياء :

فأوقد فيها نارَه ولو أنَّها أقامت كعمر الدهر لم تنصَرِّمَ  
لأنَّ الطَّلِقَ لو أوقِدَ عليه ألفَ عامٍ لم يسخُن . وبه يتطلَّى النَّفَّاطُونَ إذا  
أرادوا الدُّخول فى النار .

٨٤ ظ

وقال لييد :

أصاح ترى بُريقًا هبًّا وهنَّا كصباحِ الشَّعِيطَةِ فى الدُّبَالِ  
أرقتُ له وأنجَدَ بحدِّه وأصحابى على شُعبِ الرِّحالِ  
يُضِىءُ ربابُه فى المزنِ حُبشًا قيامًا بالحِرابِ وبالْإِلالِ<sup>(٣)</sup>

(١) المصنعة : شبه صهر يج يتخذ للماء . والطلق ، بالكسر وبالفتح : حجر  
براق يتشظى صفائح إذا دق . والصيدن : الملك . قال رؤبة :

إنى إذا استغلق باب الصيدن لم أنسه إذ قلتَ يوما وصنى

(٢) فى الأصل وسائر النسخ : « قدامة بن حَكيم المشرقى » ، وأثبت ما فى الحيوان  
٥ : ٩٥ . وقد يكون قدامة هذا جدا لقدامة بن جعفر بن قدامة .

(٣) فى الأصل : « رباوة » تحريف ، صوابه فى ديوان لييد ١٢٤ . والرباب :  
السحاب الذى تراه كأنه متدل ، كأنه أعناق النعام . والإلال : جمع أَلَّة ، وهى  
الحربة . وفى الأصل : « وبالآلى » ، صوابه فى الديوان .



وقال ذلك ليبدّ لأنهم إذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم ،  
وراياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سواد ألوانهم وضيخ أبدانهم - رأيت هؤلاء  
لم تر مثله ولم تسمع به ، ولم تتوهّه .  
وأما قوله :

\* ويوم يثرب كنّا فحلة العرب \*

فإنّ مسرف بن عقبة المرسي<sup>(١)</sup> ، حين كان أباح المدينة ، زعموا أنّه قد كان  
هناك أسرت قبيح من السودان والجند ، وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مضر :  
فسائل مسرف المرسيّ عنكم غداة أباح للجند العذاري<sup>(٢)</sup>  
فمازجكم على حنق زنوج وفز الشأم كالأسد الضواري<sup>(٣)</sup>  
ودافع وهرز والفرس عنكم ورأس الحبش يحكم في ذمار<sup>(٤)</sup>  
فأفسد نسلكم بسواد لون وأير مثل غرمول الحمار

(١) مسرف لقب له ، لقب به لما كان من إسرائفه في سفك الدماء وانتهاك حرمة  
المدينة وانتهاكها في وقعة الحرة سنة ٦٣ حين بعثه بجيش إلى المدينة يزيد بن معاوية  
وأمره بهتك حرمتها . واسمه مسلم بن عقبة ، وهذه الصورة ورد في البيان ٢ : ١٣١ .  
وانظر الطبري ٧ : ٥ - ١٢ والنجوم الزاهرة ١ : ١٦٠ - ١٦٢ . توفي مسرف  
أو مسلم سنة ٦٤ . وذكر الذهبي أنّه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) في النجوم الزاهرة أنّه قد افتض في وقعة الحرة ألف عذراء . والعذاري  
بكسر الراء ، كما يقتضيه الشعر ، وهي لغة في جمع عذراء ، ومثلها العذاري  
بفتح الراء .

(٣) فز الرجل يفز فزازة وفزوزة : توقد .

(٤) وهرز : قائد فارسي أرسله كسرى أنو شروان مع سيف بن ذي يزن الحيري ،  
منجدا له على الحبشة حين غلبت على اليمن . وذمار ، كقطام وسحاب : بلد باليمن  
على مرحلتين من صنعاء .

فذكر إباحتَ الحبش لليمن كما ذكر إباحتَ مسرف للمدينة .  
وأما قوله :

حَمَارَةٌ جُمِعَتْ مِنْ كُلِّ مُحَزَّوَةٍ جَمَعَ الشُّبَيْكَةُ نُونُ الزَّائِرِ اللَّجْبِ<sup>(١)</sup>  
فإنَّه ذهبَ إلى ما تقول الرُّوَاةُ أَنَّ حَيْرَ كَانَتْ حَمَارَةً .  
وأما الشُّبَيْكَةُ فَأَرَادَ الشُّبْكَ .

وقال السُّودَانُ : فهذا الفضلُ فِينَا ، ولم يصلِّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ  
إِلَّا عَلَى جِنَازَةٍ أَوْ قَبْرِ ، إِلَّا النَّجَاشِيَّ فَإِنَّهُ صَلَّى عَلَيْهِ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ وَقَبْرُ  
النَّجَاشِيِّ بِالْحَبَشَةِ .

قالوا : والنَّجَاشِيُّ هُوَ كَانَ زَوْجَ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سَفْيَانَ مِنَ النَّبِيِّ  
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ودعا خَالِدَ بْنَ سَعِيدٍ<sup>(٢)</sup> ففعلهُ وَلِيَّهَا ، وأصدقَ عَنِ النَّبِيِّ  
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعًا مِائَةَ دِينَارٍ<sup>(٣)</sup> .

٨٥ و

قالوا : وثلاثةُ أَشْيَاءَ جَاءَتْكُمْ مِنْ قَبْلِنَا . مِنْهَا الْغَالِيَةُ ، وَهِيَ أَطْيَبُ الطَّيْبِ  
وَأَنْفَرُهُ وَأَكْرَمُهُ . وَمِنْهَا النَّعْشُ وَهُوَ أَسْتَرُ لِلنِّسَاءِ وَأَصْوَنُ لِلْحَرَمِ . وَمِنْهَا  
الْمَصْحَفُ ، وَهُوَ أَوْقَى لِمَا فِيهِ وَأَحْصَنُ لَهُ ، وَأَبْهَى وَأَهْيَا .

(١) في الأصل : « حَمَارَةٌ » : وكذا في التفسير بعده . ، انظر ما سبق في

ص ١٩٩ .

(٢) هُوَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِي ، رَابِعُ الْمُسْلِمِينَ أَوْ خَامِسُهُمْ ، بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ

إِلَى مَلِكِ الْحَبَشَةِ فِي رَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ . السِّيرَةُ ٢٠٩ وَالْإِصَابَةُ ٢١٦٣ .

(٣) كَانَتْ أُمُّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سَفْيَانَ بِنِ حَرْبٍ - وَاسْمُهَا رَمْلَةٌ - زَوْجًا لِعَبِيدِ اللهِ

ابْنِ جَحْشٍ ، وَلَدَتْ مِنْهُ حَبِيبَةَ وَهَاجَرَتْ مَعَهُ إِلَى الْحَبَشَةِ ، فَصَرَّ زَوْجَهَا عَبِيدُ اللهِ =

قالوا : ونحن أهولُ في الصدور وأملا للعيون ، كما أن المسوِّدة أهولُ في العيون وأملا للصدور من المبيضة<sup>(١)</sup> ، وكما أن الليل أهولُ من النهار .  
قالوا : والسَّوادُ أبداً أهول . وإنَّ العربَ لتَصِفُ الإبل فتقول : الصَّهبُ سُرْع ، والحُمْرُ غُزُر ، والشُّودُ بُهَى<sup>(٢)</sup> . فهذا في الإبل .  
قالوا : ودُّهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقرُ الشُّود أحسنُّ وأبهى ، وجلودُها أثمن وأنفع وأبقى . والحُمْرُ الشُّود أثمن وأحسنُّ وأقوى . وسُودُ الشَّاءِ أدسمُ ألباناً وأكثرُ زُبداً ، والدُّبْسُ أغزرُ من الحُمْر<sup>(٣)</sup> .  
وكلُّ جَبِلٍ وكلُّ حجرٍ إذا كانَ أسودَ كانَ أصْلَبَ صلابَةً وأشدَّ يَبوسةً . والأسدُ الأسود لا يقوم له شيء .

وليس من التَّمَر شيءٌ أحلى حلاوةً من الأسود ، ولا أعمَّ منفعةً ولا أبقى على الدَّهْرِ . والنَّخِيلُ أقوى ما تسكونُ إذا كانت سُودَ الجنودِ .

---

= وارتد عن الإسلام . فبعث فيها رسول الله إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري فخطبها عليه النجاشي . الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء والسيرة ١٤٤ ، ٨٨٣ .

(١) كان السواد شعار العباسيين السياسى ، وقد بدأ التسويد فى سنة ١٢٩ أى قبل قيام الدولة العباسية بثلاث سنوات . الطبرى ٩ : ٨٢ . وفى سنة ٢٠٢ جعل المأمون على بن موسى بن جعفر ولى عهده وأمر جنده وأصحابه بطرح السواد ولبس الخضرة فى الأقبية والقلائس والأعلام . الطبرى ١٠ : ٢٤٣ . وكان هذا الأمر من أسباب الثورة على المأمون والانقسام فى طوائف الموالين للعباسيين . وفى تلك السنة أيضاً وثب أخو أبى السرايا بالكوفة فبيض ، فهم المبيضة . الطبرى ١٠ : ٢٤٥ . ومن البيضة أيضاً أصحاب المنع الكندى انظر صحاح الجوهري ( بيض ) .

(٢) انظر مثل هذا القول لحنيف الخناتم ، وكان من آبل الناس أى أحذقهم برعية الإبل . فى اللسان ( بها ١٠٧ ) .

(٣) الدبس : جمع أدبس ودبساء ، وهو مالونه الدبسة : حمرة مشربة سوادا .

وجاء : « عليكم بالسَّوَادِ الأعظم <sup>(١)</sup> » . وقال الأنصاري :

أَدِينُ وما دِينِي عَلَى بَغْمِ رَمِيمٍ

ولكنْ عَلَى الشُّمِّ الطَّوَالِ القَرَاوِحِ <sup>(٢)</sup>

عَلَى كُلِّ خَوَّازٍ كَانَ جَدْوَعَهَا

طَلِينٍ بَقَارٍ أَوْ بَدَمٍ ذَبَائِحٍ <sup>(٣)</sup>

قالوا : وأحسن <sup>(٥)</sup> الخُضْرَةُ ما ضَارَعَ السَّوَادِ . قال الله جلَّ وعلا :

﴿ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ <sup>(٦)</sup> ﴾ ، ثم قال لَمَّا وَصَفَهُمَا وَشَوَّقَ إِلَيْهِمَا :

﴿ مُدْهَمَّتَانِ <sup>(٧)</sup> ﴾ قال ابن عباس : خَضِرَاوَانٍ مِنَ الرَّيِّ سَوْدَاوَانِ .

وليس في الأرض عودٌ أَحْسَنَ خَشْبًا وَلَا أَعْلَى ثَمَنًا ، وَلَا أَثْقَلَ وَزَنًا

وَلَا أَسْلَمَ مِنَ الْقَوَادِحِ <sup>(٨)</sup> ، وَلَا أَجْدَرَ أَنْ يَنْشَبَ فِيهِ الْخَطُّ مِنَ الْآبَنُوسِ <sup>(٩)</sup> .

ولقد بلغ من اكتنازه والثناءه ومُلُوسته وشِدَّةِ تداخُلِهِ ، أَنَّهُ يَرُسُّبُ فِي الْمَاءِ

(١) في اللسان (سود ٢١١) . « وفي الحديث : إِذَا رَأَيْتُمْ الْاِخْتِلَافَ فَعَلَيْكُمْ

بِالسَّوَادِ الأعظم » .

(٢) وكذا في اللسان (خور) : وهو سويد بن الصامت الصحابي الجليل .

انظر اللَّامِي ٣٦١ والاقتضاب ٣٧٥ واللسان (قروح) والإصابة ٣٥٩٢ .

(٣) الصم : العاليات ، يعني النخل . والقراوح : جمع قرواح ، وهو الأجرد

الذي قد شذب كربه .

(٤) في اللسان : « ونخلة حوارة : غزيرة الحمل » . ويروى : « أو بحمأة

مأنح » .

(٥) في الأصل : « وحسن » .

(٦) الآية ٦٢ من سورة الرحمن . (٧) الآية ٦٤ من سورة الرحمن .

(٨) جمع قاذح ، وهو أكل يقع في الشجرة أو تصدع .

(٩) الآبنوس ، بضم الباء وكسر ها : شجر ينبت في الحبشة والهند ، خشبه

أسود صلب . دخیل انظر المعجم الوسيط .

دُونَ جَمِيعِ الْعِيدَانِ وَالْخَشَبِ . وَلَقَدْ غَلَبَ بِذَلِكَ بَعْضَ الْحَجَارَةِ ؛ إِذْ صَارَ  
يَرْسُبُ وَذَلِكَ الْحَجَرُ لَا يَرْسُبُ .

وَالْإِنْسَانُ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ فِي الْعَيْنِ مَا دَامَ أَسْوَدَ الشَّعْرِ . وَكَذَلِكَ  
شُعُورُهُمْ فِي الْجَنَّةِ .

٨٥ ظ

وَأَكْرَمُ مَا فِي الْإِنْسَانِ حَدِّقَتَاهُ ؛ وَهِيَ سَوْدَاوَانُ . وَأَكْرَمُ الْأَكْثَالِ  
الْإِيمِدُ ، وَهُوَ أَسْوَدُ . وَلِذَلِكَ جَاءَ أَنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ جُرْدًا  
مُرْدًا مَكْحَلِينَ .

وَأَنْفَعُ مَا فِي الْإِنْسَانِ لَهُ كَبْدُهُ الَّتِي بِهَا تَصْلُحُ مَعِدَتُهُ ، وَبِنَهْضِ طَبْعَائِهِ ،  
وَبِصْلَاحِ ذَلِكَ قَامَ بَدَنُهُ ؛ وَالْكَبِدُ سَوْدَاءُ .

وَأَنْفَسُ مَا فِي الْإِنْسَانِ وَأَعَزُّهُ سَوِيدَاءُ قَلْبِهِ ، وَهِيَ عَلَقَةٌ سَوْدَاءُ تَكُونُ  
فِي جَوْفِ فُؤَادِهِ ، تَقُومُ فِي الْقَلْبِ مَقَامَ الدِّمَاغِ مِنَ الرَّأْسِ .

وَمِنْ أَطْيَبِ مَا فِي الْمَرْأَةِ وَأَشْهَاهُ شَفَتَاهَا لِلتَّقْبِيلِ ، وَأَحْسَنُ مَا يَكُونَانِ  
إِذَا ضَارَعَتَا السَّوَادَ .

وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ :

لَمَيَاءُ فِي شَفَتَيْهَا حَوَّةٌ لَعَسَتْ فِي اللَّثَاثِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبٌ<sup>(١)</sup>

وَأَطْيَبُ الظِّلِّ وَأَبْرَدُهُ مَا كَانَ أَسْوَدَ . وَقَالَ الرَّاجِزُ :

\* سَوْدُ غَرَايِبِ كَأُظْلَالِ الْحَجَرِ \*

(١) دِيوَانُ ذِي الرُّمَّةِ ٥ وَاللِّسَانُ ( شَنْبٌ ) .

وقال حميد بن ثور<sup>(١)</sup> :

ظَلَلْنَا إِلَى كَهْفٍ وَظَلَّتْ رَكَابُنَا

إِلَى مُتَكِفَاتٍ لِمَنْ غُرُوبُ

إِلَى شَجَرٍ أَلَى الظَّلَالِ كَأَنَّهُ

رَوَاهُ أَحْرَمَنَ الشَّرَابِ عُذُوبُ<sup>(٢)</sup>

وجعل الله الليل سكناً وجماً ، والنهار للكسب والكد .

والذي يدل على أن السواد في وجه آخر مقرون بالشدة والصرامة ،  
والهيج والحركة ، انتشار الحيات والعقارب وشدة سُمومها بالليل ، وهيج  
السباع واستكلابها بالليل . وتحرك الأوجاع وظهور الغيلان ، هذه  
كلها بالليل .

قال : وأشبهنا الليل من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تكون القائلة وأشفاه للنفس ، وأسرع لحيثها إذا  
أردتها ، وأبطأ لذهابها إذا كرهتها ، ما كان منها في الظلمة ، عند إسبال  
الستور وإغلاق الأبواب .

قالوا : وليس لون أرسخ في جوهره وأثبت في حسنه من سواد .  
وقد جرى المثل في تبعيد الشيء : « لا ترى ذلك حتى يبيض القار ،  
وحتى يشيب الغراب »<sup>(٣)</sup> .

(١) في ديوانه ٥٧ واللسان ( كفف ، حرم ، لا ) والحيوان ٥ : ٥٩٤ .

(٢) عذوب : جمع عاذب ، وهو الذي لا يأكل ولا يشرب .

(٣) الحيوان ٥ : ٥٢٨ .

وهو العَرَضُ التَّلَاءُ<sup>(١)</sup> عند الحكماء .

وأكرمُ المطرِ المسك والقنبر ، وهما أسودان .

وأصلبُ الأحجارِ سُودها . وقال أبو دَهْلٍ الجَحْيُ يمدح الأزرقَ ٨٦ و  
الْخَزْومَى ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة<sup>(٢)</sup> :

فإنَّ شُكْرَكَ عِنْدِي لَا اقْتِضَاءَ لَهُ      مَادَامَ بِالْجَزْعِ مِنْ لُبْنَانَ جُلُودُ  
أَنْتَ الْمَدْحُ وَالْمَغْلَى بِهِ ثَمْنًا      إِذْ لَا يِعَاتِبُ صَخْرُ الْجَنْدَلِ الشُّودُ<sup>(٣)</sup>

والعرب تفخر بسواد اللون . فإن قال : فعلامَ ذلك وهي تقول : فلانٌ  
هَجَانٌ ، وأزهرُ وأبيض ، وأغرُّ ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياضَ الجلد ، إنما تريد  
به كرمَ الجوهر ونقاءه . وقد نغرت خُضْرُ محاربٍ بأنها سُود ، والشود عند  
العرب الخُضْرُ<sup>(٤)</sup> . وقال الشَّماخ بن ضرار :

وراحت رَوَاحًا مِنْ زَرُودَ فَنَارَعَتْ

زُبَالَةَ جِلْبَابًا مِنَ اللَّيْلِ أَخْضَرًا<sup>(٥)</sup>

(١) في الأصل : « التلاء » ، صوابه من تصحيح ن ، س .

(٢) في جمهرة ابن حزم ١٤٨ — ١٤٩ أنه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله  
ابن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة . ونحوه في الشعراء ٥٩٦ . وسماء في الأغاني ٦ : ١٥٧  
« ابن الأزرق » ، وهو عنده عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة .

(٣) كذا . وفي الأغاني ٦ : ١٥٨ : « إذ لا تمدح صم الجندل » .

(٤) الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

(٥) ديوان الشماخ ٣١ والحيوان ٣ : ٢٤٦

وقال الراجز :

حَتَّى انتِضَائِي الصُّبْحِ مِنْ لَيْلٍ خَضِرُ  
مَثَلُ انتِضَاءِ الْبَطْلِ السَّيْفِ الذَّكَرِ<sup>(١)</sup>  
وَهُمْ يَسْتُونُ الْحَدِيدَ أَخْضَرَ لِأَنَّهُ صُلْبُ<sup>(٢)</sup> ؛ لِأَنَّهُ الْأَخْضَرُ أَسْوَدُ<sup>(٣)</sup> .  
وقال الحارث بن حِزْرَةَ :

إِذْ رَفَعْنَا الْجَمَالَ مِنْ سَعَفِ الْبَحْرِ رَيْنَ سِيرًا حَتَّى نَهَاها الْحِمْيَاءُ  
فَهَزَمْنَا جَمْعَ ابْنِ أُمِّ قَطَامٍ وَلَهُ فَارَسِيَّةٌ خَضِرَاءُ<sup>(٤)</sup>  
وقال المُحَارِبِيُّ وهو يفخر بأنَّه من الْخَضِرِ :  
فِي خَضِرٍ قَيْسٍ نَمَانِي كُلُّ ذِي فَخْزٍ

صَعِبِ الْمَقَادَةِ أَبِي الضَّمِيمِ شَعِشَاعٍ

وبنو المغيرة خُضِرُ بْنُ مَخْزُومٍ . قال عُمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة  
المخزومي - ويقال إنَّها للفضل بن العباس اللُّهْيَ<sup>(٥)</sup> :

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ  
مَنْ يَسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَا جَدًّا يَمْلَأُ الدَّلَوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(١) في الحيوان ٣ : ٢٤٦ : « حتى انتضاه » .

(٢) وجه الكلام « مع أنه صلب » . وفي الحيوان ٣ : ٢٤٦ : « وأصل الخضرة إنما هولون الريحان والبقول ، ثم جعلوا بعد الحديد أخضر والسماء خضراء » .

(٣) في الأصل : « لأنه » . والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « ابن أم قضاع » . وانظر المعلقات ٤٩٦ بشرح ابن الأنباري .  
وابن أم قطام هو حجر بن الحارث والد امرئ القيس

(٥) انظر الحيوان ٣ . ٢٤٧ .



وَحُضِرَ غَسَّانَ بْنُ جَفْنَةَ الْمَلُوكُ ؛ قَالَ الْغَسَّانِيُّ :

إِنَّ الْخُضْرَمَةَ الْخُضِرَ الَّذِينَ وَدَّوْا أَهْلَ الْبَرِيصِ نَمَانِي مِنْهُمْ الْحُكْمُ <sup>(١)</sup> ٨٦ ظ

وقد ذكر حسان أو غيره الخضر من بني عكيم <sup>(٢)</sup> حين قال :

ولست من بني هاشم في بيت مكرمة  
ولا بني جُمَحٍ الْخُضِرِ الْجَلَالِيَّةِ <sup>(٣)</sup>

قالوا : وكان ولد عبد المطلب العشرة السادة دُلْمًا <sup>(٤)</sup> ضُخًا <sup>(٥)</sup> ، نظر إليهم  
عامرُ بن الطفيل يَطُوفُونَ كَأَنَّهُمْ جَهْلٌ جُونٌ ، فقال : بهؤلاء تُمنع السدانة .

وكان عبد الله بن عباس أدلمَ ضُخًا . وآلُ أبي طالبٍ أشرفُ الخلق ، وهم  
سُودٌ وأدلمٌ ودُلْمٌ .

(١) الخضرمة : جمع خضرم ، بكسر الخاء والراء . وهو السيد الجمول .  
وفي الحيوان : « الذين غدوا » . والبريص : اسم نهر دمشق حيث ملك الغساسنة .  
وفي الحيوان : « نمان » .

(٢) في القاموس ( عكيم ) : « وكزير : اسم » .

(٣) البيت من أبيات في ديوان حسان ١٢٣ — ١٣٧ يهجو بها مسافع بن عياض  
التيمنى ، أولها :

لو كنت من هاشم أو من بني أسد أو عبد شمس أو أصحاب اللوا الصيد  
وصدره فيه :

\* أو في السراة من تيم رضىت بهم \*

(٤) الدلم : جمع أدلم ، وهو الشديد السواد .

(٥) الضخم : جمع الأضخم . وفي اللسان : « قال ابن سيده : وأما قول أهل  
اللغة أضخم ، فالذي أتصوره في ذلك أنهم لم يشعروا بالمفاضلة في هذا البيت فجعلوه  
من باب أحمر . قال : ويدلك على المفاضلة أنهم لم يحيثوا به في بيت ولا مثل مجرداً  
من اللام ، فيا علماء من مشهور أشعارهم . على أن الذي حكاه أهل اللغة لا يمتنع » .  
( ١٤١ - رسائل الجاحظ )

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعِثَ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » .  
وقد علمت أنه لا يُقال للزنج والحبشة والثوبة بِيَضٍّ ولا حُمْرٍ ، وليس  
لهم اسمٌ إِلَّا الشُّودُ .

وقد علمنا أن الله عزّ وجل بعث نبيّه [ إلى الناس <sup>(١)</sup> ] كافة ، وإلى العرب  
والعجم جميعًا . فإذا قال : « بُعِثَ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » ولسنا عنده حُمْرٌ  
ولا بِيضٌ ، فقد بُعِثَ إِلَيْنَا ؛ فإنما عنانا <sup>(٢)</sup> بقوله « الْأَسْوَدِ » . ولا يخرج  
الناسُ من هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحمر ، فقد دخلت في عداد  
الرُّوم والصَّقَالِبَةِ ، وفارسَ وخُرَاسَانَ . وإن كانت من الشُّودِ ، فقد اشتقَّ لها  
هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم آدم وسمرٌ سودٌ ، حين دخلوا معنا  
في جملتنا ، كما يجعل العربُ الإناثَ من الذكور ذكورًا .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزنج والحبشة والثوبة ليسوا  
بحمرٍ ولا بِيضٍ ، وأنهم سُودٌ ، وقد بعثه الله تعالى إلى الأسود والأحمر ، فقد  
جَمَعْنَا والعربَ سواءً ، ونكونُ نحن الشُّودَ دونهم . فإن كان اسمُ أسودَ  
وقع علينا فنحن الشُّودانُ اُخْلَصَ ، والعربُ أشباهُ اُخْلَصَ . فنحن المتقدمون  
في الدَّعوة . وإذا كان اسمهم محمولًا على اسمنا ؛ إذ كنّا وحدنا يقال لنا سُودٌ ،  
ولا يقال لهم سُودٌ إِلَّا أن يكونوا معنا .

قالوا : وأنتم ترون كثرة العدد مجددًا ، ونحن أكثر الناس عددًا وولداً .

(١) موضع التكملة بياض في الأصل .

(٢) في الأصل : « عنا » . ووجه ما أثبت من ن ، س .

قالوا : ونحن صنفان : النمل والكلاب<sup>(١)</sup> .

قالوا : ولو عدلتم بالنمل العرب كلها لأربت عليها . فكيف إذا قرنت إليها الكلاب ؟ ثم كيف إذا ضمتم إليها الحبشة والثوبه وفران ومرو وزاوة<sup>(٢)</sup> وغير ذلك من أنواع السودان ؟

وليست قحطان من عدنان في شيء . ونحن بالحبشة أشبه ، وأرحامنا بهم أمس من عدنان بقحطان . وإن ذكرتم اختلاف اللغات ؛ فإن لغة عجز هوازن<sup>(٣)</sup> ، وقد تختلف اللغات والأصل واحد ، وقد تتفق والنجر مختلف . ومن دخل أوائل خراسان وأواخرها ، وأوائل الجبال وفارس وأواخرها ، علم أن اللغات قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد .

قالوا : وأتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قُط ، وإنما رأيتم السبي يحيى من سواحل قبلة<sup>(٤)</sup> وغياضها وأوديتها ، ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا ، وليس لأهل قبلة جمال ولا عقول . وقبلة : اسم الموضع الذي تُرفون منه سفنكم إلى ساحله . لأن الزنج ضربان : قبلة ولنجوية<sup>(٥)</sup> ، كما أن العرب ضربان :

(١) انظر الحيوان ٤ : ٣٥ والبيان ٣ : ٥١ .

(٢) في القاموس : « وزاوة ، بالضم : جنس من السودان » . وانظر التنبيه والإشراف ١٩١ .

(٣) في الكلام نقص ، ولعل تنمته : « على خلاف لغة فصحاء الحجاز » . وانظر ما سبق في مناقب الترك ص ١٠ .

(٤) في التنبيه والإشراف ٥١ : « ويقرب من جبل القمر هذا كثير من أحواز الزنج ومساكنهم ، إلى أن يتصل ذلك ببلاد سفالة الزنج وجزيرة قبلاو ، وأهلها مسلمون » .

(٥) انظر البيان ٣ : ٥١ .

قحطان وعدنان . وأتم لم تَرَوْا من أهل لنجوية أحدًا قَطُّ ، لا من السَّواحِل ولا من أهل الجوف<sup>(١)</sup> ، ولو رأيتهم نسيتم الجمال والكمال .

فإن قلتهم : وكيف ونحن لم نر زنجيًّا قَطُّ له عقلٌ صبيٌّ أو امرأة ؟

قلنا لكم : ومتى رأيتم من سبى السِّند والهند قومًا لهم عقول وعلم وأدب وأخلاق حتَّى تطلبوا ذلك فيما سقط إليكم من الزنج . وقد تعلمون ما في الهند من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطِّبِّ ، وألحُرط والنَّجر ، والتَّصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتفق لكم مع كثرة ما سببتم منهم واحدٌ على هذه الصِّفة ، أو بعشر هذه الصِّفة ؟

فإن قلتهم : أهل الشَّرَف والعقل والعلم إنَّما ينزلون الواسطة ، وبقراب دار الملك ، وهؤلاء حاشية<sup>(٢)</sup> وأعلاج<sup>(٣)</sup> وأكَّرة ، ونُزال السَّواحِل والآجام والفيوض<sup>(٤)</sup> والجزائر ، من أكَّار ومن صِّياد .

قلنا : وذلك من رأيتم ومن لم<sup>(٥)</sup> تَرَوْا منا . وجوابنا هو جوابكم لنا .

قالوا : ولو أنَّ الزَّنجيَّ والزَّنجيَّة إذا تناكحا بقيت أولادها بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق ، كانوا قد غلبوا على الدَّار بالعدد والجلد ، والعلم والتدبير ، ولكنَّ ولد الهنديِّ والهنديَّة ، والروميِّ والروميَّة ، والخراسانيِّ والخراسانيَّة ، يبقون فيكم وفي بلادكم كبقاء آبائهم وأُمَّهاتهم ، ولا يبقى ولد

٨٧ ظ

(١) في الأصل : « الحوف » ، صوابه بالجيم كما صحح في ن ، س .

(٢) في الأصل : « حاشيته » .

(٣) في الأصل : « والنفوس » .

(٤) في الأصل : « ومالم » .

الزَّنجِيَّينَ بعد الحيض والاحتلام . على أَنَّا لَا نُصِيبُ فِي عَشْرَةِ آلَافٍ ، وَاحِدٌ يَبْلُغُ مَا ذَكَرْنَا ، إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ الزَّنجِيُّ فِي غَيْرِ الزَّنجِيَّاتِ ، وَالزَّنجِيَّةِ فِي غَيْرِ الزَّنجِ . وَلَوْلَا أَنَّ الزَّنجِيَّ وَالزَّنجِيَّةَ قَلِيلًا مَا يَرِيدَانِ <sup>(١)</sup> مِنَ الْغَرَائِبِ وَالْغُرَبَاءِ ، لَكُنَّا عَلَى حَالٍ <sup>(٢)</sup> سَرَى لِرَجَالِ الزَّنجِ نَسْلًا كَثِيرًا . وَلَكِنَّ الزَّنجِيَّةَ لَا تَكَادُ نَنشِطُ لَغَيْرِ الزَّنجِيِّ .

قَالُوا : وَكَذَلِكَ الْبَيْضَانُ مِنْكُمْ ، لَا يَكَادُونَ يَنْشِطُونَ لَطَلَبِ النَّسْلِ مِنَ الزَّنجِيَّاتِ . وَالزَّنجِيَّةُ أَيْضًا مِنَ الزَّنجِيِّ <sup>(٣)</sup> أَسْرَعُ لِقَاحًا مِنْهَا مِنَ الْأَبْيَضِ . قَالُوا : وَأَنْتُمْ لَا تَكَادُونَ تَعْدُونَ مَن وَلَدَ لَهُ مِنْ صُلْبِهِ مِائَةٌ وَلَدٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَلِيفَةً <sup>(٤)</sup> ، فَيَكُونُ ذَلِكَ لِكثْرَةِ الطَّرِيقَةِ <sup>(٥)</sup> ، وَلَا تَجِدُونَ ذَلِكَ فِي سَائِرِكُمْ . وَالزَّنجِ لَا تَسْتَكْثِرُ هَذَا وَلَا تَسْتَعْظِمُهُ ؛ لِكثْرَتِهِ فِي بِلَادِهِمْ ، لِأَنَّ الزَّنجِيَّةَ تَلِدُ نَحْوًا مِنْ خَمْسِينَ بَطْنًا فِي نَحْوِ مِنْ خَمْسِينَ عَامًا ، فِي كُلِّ بَطْنٍ اثْنَيْنِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ تِسْعِينَ . لِأَنَّهُ يَقَالُ إِنَّ النِّسَاءَ لَا يَلِدْنَ إِذَا بَلَغْنَ السَّتِينَ إِلَّا مَا يَحْكِي عَنْ نِسَاءِ قَرِيْشٍ خَاصَّةً .

وَالزَّنجِ أَحْرَصُ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ عَلَى نِسَائِهِمْ ، وَنِسَائِهِمْ لَهُمْ كَذَلِكَ ، وَهِنَّ أَطْيَبُ مِنْ غَيْرِهِنَّ .

قَالُوا : فَتَأَمَّلُوا قَوْلَنَا وَاحْتِجَاجَنَا ؛ فَإِنَّا قَدْ رَوَيْنَا الْأَخْبَارَ وَقُلْنَا الْأَشْعَارَ ، وَعَرَفْنَاكُمْ وَعَرَفْنَا الْأُمَمَ .

(١) حُورَتْ فِي ن ، س إِلَى : « يَلِدَان » .

(٢) ن ، س : « عَلَى كُلِّ حَالٍ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ وَسَاءُ النَّسَخِ : « مِنَ الزَّنجِ » .

(٤) انْظُرْ جُمُوهْرَةَ أَنْسَابِ الْعَرَبِ لِابْنِ حَزْمٍ ٤٠ ، ٩٨ .

(٥) طَرِيقَةُ الْفَحْلِ : أَثْنَاهُ . وَالطَّرِيقَةُ : الزَّوْجَةُ أَيْضًا .

وقد كان الفرزدقُ أعلمَ النَّاسِ بالنِّساءِ ، وكان قد جَرَّبَ الأجناسَ كُلَّها  
فلم يجدْ مثلهنَّ ، ولذلك تزوج أم مَكِّيَّةَ الزَّنجِيَّةَ وأقامَ عليها ، وترك النِّساءَ ،  
للَّذي وجَدَ عندها . وفي ذلك يقول :

يَارُبَّ خَوْدٍ مِنْ بَنَاتِ الزَّنجِ تَمْشِي بِتَنْوَرٍ شَدِيدِ الْوَهَجِ  
\* أَخْتَمَ مِثْلَ الْقَدَحِ الْخَلْنَجِ \*

وكانت دنانيرُ بنت كعبوية الزَّنجِي عند أعشى سُلَيْمٍ ، وكانت شديدةَ  
السَّوَادِ ، فرآها يوماً وقد خضبت يديها بالحناءِ ، واكتحلت بالإمْدِ ، فقال :

تَخْضِبُ كَفًّا بِتَكْتٍ مِنْ زَنْدِهَا فَتَخْضِبُ الْحَنَاءَ مِنْ سَوْدِهَا<sup>(٢)</sup>  
كَأَنَّهَا وَالْكُحْلُ فِي مِرْوَدِّهَا<sup>(٣)</sup> تَكْحُلُ عَيْنِهَا بِبَعْضِ جِلْدِهَا

٨٨ و

فلما سمعت ذلك قالت :

وَأَقْبَحُ مِنْ لَوْنِي سَوَادُ عَجَانِهِ عَلَى بَشَرٍ كَالْقَلْبِ أَوْ هُوَ أَنْصَعُ<sup>(٤)</sup>  
فَسَمَّوْهُ أَسْوَدَ ، وصاح به الصَّبِيانُ فطَلَّقَهَا . وقد كان صبيحةً عُرْسِهَا قال :  
\* إِنَّ الدَّانِيرَ تَكُونُ سُودًا<sup>(٥)</sup> \*

(١) ديوانه ١٤٣ والأغاني ١٩ : ٢١ .

(٢) نسب هذا الرجز في الأغاني ١٨ : ٣٦ إلى دعبل الخزاعي . وفي الأغاني :  
« قطعت » بدل « بتكت » ، وكلاهما بمعنى .

(٣) المرود ، بتشديد الدال للشعر هو المرود الذي يكتحل به . وانظر لأمثال  
هذا التشديد مجالس ثعلب ٦٠٢ — ٦٠٤ .

(٤) البشر : جمع بشرة ، وهو ظاهر الجلد . والقلب ، بالفتح : جمار النخلة .

(٥) في ن ، س : « سوداء » ، ولكن هكذا ضبطت « سودا » في الأصل  
بضم السين وبدون الهمزة ، وهو شطر من الأرجاز .

فقال : فقالت :

بياض الرأس أقبح من سوادى وشيب الحاجبين هو الفضوخ  
فأمسك عنها حيناً ثم عاودها ، فلما فضحت طلقها .

قالوا : وإن نظر البيضانُ إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك  
السودان في نساء البيضان . على أن الشهواتِ عاداتٌ وأكثرها تقليد . من  
ذلك أن أهل البصرة أشهى النساءَ عندهم الهنديّاتُ وبناتُ الهنديّات والأغوار .  
والين أشهى النساءَ عندهم الحبشيّاتُ وبنات الحبشيات . وأهل الشام أشهى  
النساء عندهم الروميّاتُ وبنات الروميّات . وكلُّ قومٍ فإنما يشتهون جَلَبهم  
وسَبْيهم . إلّا الشاذّ ، وليس على الشاذّ قياس .

قالوا : وأطيب<sup>(١)</sup> الأفواه نكهةً ، وأشدّها عذوبةً ، وأكثرها ريقاً ،  
أفواه الزنج . والكلاب من بين السباع أطيبُ أفواهها منها<sup>(٢)</sup> .

قالوا : والسواد مُلّومٌ للعين<sup>(٣)</sup> ، وإذا اعتلّت خفيف عليها لم يكن لها  
دواءٌ خيرٌ من القعود في الظلّة وفي يد صاحبها خرقة سوداء . فالسوادُ للإبصار ،  
وخيرُ ما في الإنسان البصر .

وقالوا : والسودان أكثر من البيضان ، لأنّ أكثر ما يُعدُّ البيضانُ  
فارسَ والجبالَ وخراسانَ ، والرُّومَ والصّقالبةَ وفرنجية<sup>(٤)</sup> والأبر ، وشيئاً

(١) سقطت الواو في كل من ن ، س ، خلافاً لما في الأصل

(٢) انظر الحيوان ٢ : ١٥٤ ، ١٧٦ ، ٥ : ٣٣٧ .

(٣) كذا في أصل ون ، س ويبدو أنه من اللغة المولدة التي شاعت قديماً .  
وفي اللسان : « ومنه قولهم هذا طعام لا يلائمي . ولا تغل يلاومني »

(٤) انظر مروج الذهب ٢ : ٣٤ والفهرست ٣٠ ، ٣٤ والقاموس (فرنج) .

بعد ذلك قليلاً غير كثير . والشُّودان يُعدُّون الزَّنج والحبشة ، وفَزَّان وبربر ،  
والقبط والثوبة ، وزَغَاوة ومَرَو ، والسَّند والهند ، والقَمار<sup>(١)</sup> والدَّيلا<sup>(٢)</sup> ،  
والصِّين وماصين . والبحر أكثر من البر ، وجزائر البحر ما بين الصِّين  
والزَّنج مملوءة سُوداناً ، كسرنديب ، وكله<sup>(٣)</sup> ، وأمل ، وزابج<sup>(٤)</sup> وجزائرها  
إلى الهند إلى الصين إلى كابل وتلك السواحل .

٨٨ ظ

قالوا : وكان الأعمى الاشتيام<sup>(٥)</sup> يقول : الشُّودان أكثر من البيضان ،  
والصَّخر أكثر من الوحل ، والرَّمْل أكثر من التُّراب ، والماء المالح أكثر  
من العذب .

قالوا : ومِنَّا العربُ لا من البيضان ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهندُ  
أسفَرُ ألواناً من العرب ، وهم من الشُّودان . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :  
« بُعثت إلى الأحمر والأسود » . وقد علم النَّاسُ أَنَّ العرب ليست بحُمْر كما  
ذكرنا قبل هذا<sup>(٦)</sup> .

- 
- (١) قار بفتح القاف وكسرهما : موضع بالهند ينسب إليه العود القهارى .  
(٢) الذى فى ياقوت « ديل » بفتح الدال وضم الباء ، وقال : « مدينة مشهورة  
على ساحل بحر الهند » . وانظر التنبيه والإشراف للسعودى ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٩ .  
(٣) فى الأصل ون ، س : « سودان » .  
(٤) فى معجم البلدان : « كله : فرضة بالهند ، وهى منتصف الطريق بين عمان  
والصين ، وموقعها من العمورة فى طرف خط الاستواء » .  
(٥) زابج قال فيها ياقوت : « وقيل هى بلاد الزنج ، وبها سكان شبه الآدميين  
إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه » . وفى الأصل : « وترج » . وانظر ماسياقى .  
والباء تفتح وتكسر .

(٦) الاشتيام : رئيس الركاب ، كما فى اللسان ( شتم ) .

(٧) انظر ص ٢١٠ .



قال : فهذا المَفْعَرُ لنا وللعربِ على جميعِ البيضان إنْ أَحَبَّتْ ذلك العربُ ؛ وإنْ كَرِهَتْه فإنَّ المَفْعَرُ لنا بالذى ذكرنا على الجميع .

قالوا : ولو لم نكثرْكم إلَّا بالزاجِ وحدها لَفَضَلْنَاكم بهم فضلاً مِيناً ؛ وذلك أنَّ ملكَ الزاجِ إنْ غَضِبَ على أهلِ مملكةٍ ولم يَتَّقَوْه بالخَراجِ بعثَ ألفَ سُنْبُوقَةٍ<sup>(١)</sup> في كلِّ سُنْبُوقَةٍ ألفُ رجلٍ على أن [ لا<sup>(٢)</sup> ] يجلدوهم ولا يقاتلونهم ، ولكن يأمرهم أن يقيموا أبداً فيهم حتَّى يَتَّقَوْهم بالخَراجِ ، فيكون ما يأكلون ويشربون ويُغَدِّون ويلبسون ، أضرَّ عليهم من مقدار الخَراجِ المرارِ الكثيرة . فإن اتَّقَوْهم بالخَراجِ وإلَّا أرسلَ إليهم ألفَ سُنْبُوقَةٍ أخرى ، فلا يجد ذلك الملكُ بدًّا من أن يَتَّقِيَه بكلِّ ما طلب ، ولا يأمن أن يَغْضَبَ فَيَأْتِيَ عليه وعلى أهلِ مملكته .

قالوا : ولقد نزل ملكُ الزاجِ على خليجٍ مرَّةً والخليجُ فراسخٌ في فراسخ ، فبينما هو على مائدته وفي سُرَادِقِهِ على شاطئِ الخليجِ ، إذ سمع صارخةً فقال : ما هذا ؟ وقطع الأكل<sup>(٣)</sup> . قالوا : امرأةٌ سقطتْ ابنُها في هذا الخليجِ فأكله التمساح . قال : وفي مكانٍ أنا فيه شيءٌ يشاركني في قتلِ النَّاسِ ! ثم وثبَ فإذا هو في الخليجِ . فلما رآوه النَّاسُ سقطوا عن آخِرمَ ، فغَضَضُوهُ<sup>(٤)</sup> وهو فراسخٌ في فراسخ ، حتَّى أخذوا كلَّ تمساحٍ فيه أخذَ يدٍ .

(١) الذى فى القاموس « السنبوق » ، وقال : « السنبوق كمصفور : زورق صغير » .

(٢) تكملة يستقيم بها الكلام .

(٣) فى الأصل : « وقع الأكل » .

(٤) خضض الماء ونحوه : حركه . وفى الأصل : « فحضضوه » .

فيقال : إن أهل الزابج وأغابها<sup>(١)</sup> أكثر من شطر أهل الأرض .  
 قالوا : وآخر العمران كله سودان ، وما استدار من أقاصي العمران  
 أكثر من أهل الواسطة ، كطوق الرّحى الذى يلى الهواء ، الذى هو أوسع  
 ٨٩ و وأكثر ذرعاً مما قصر عنه من فلك الرّحى<sup>(٢)</sup> ولنعتبر ذلك بالجنّاح المطيف ،  
 لا يرى أحد ذرعَه مع قلة عرضه ، ونجده أكثر ذرعاً من نفس الدار .  
 وليس خلف الزابج بيسان ، وكذلك جميع بلاد السودان الساكنة  
 فى الأطراف وفى آخر أطواق العمران .  
 قالوا : فهذا دليل على أننا أكثر ، وإذا كنّا أكثر كنّا أنفَر . وقد  
 قال شاعركم<sup>(٣)</sup> :

ولستَ بالأكثر منه حصّى وإنّا العزّة للكاثر<sup>(٤)</sup>  
 قالوا : والقبط جنسٌ من السودان وقد طَلَب منهم خليلُ الرحمن  
 [ الولد<sup>(٥)</sup> ] فولد له منهم نبيّ عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيلُ عليه  
 السلام . وطلب النبيُّ صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، وولد له إبراهيم ،  
 وكنّاه به جبريل .

(١) الكلمة مهملة النقط فى الأصل . والأغاب : جمع غب ، بالضم . وهو  
 الغامض من الأرض قال :

كأُها فى الغب ذى القيطان ذئاب دجن دائم النّهتان

(٢) فلك الرّحى . مدارها وفى الأصل ون ، س : « ذلك الرّحى » .

(٣) هو الأعشى ، ديوانه ١٠٦ .

(٤) يخاطب علقمة بن علاثة مفضلاً عامر بن الطفيل عليه . والرواية المشهورة :

« منهم حصّى » .

(٥) ليست بالأصل ، والسلام يقتضيها .

قالوا : والحجر الأسود من الجنة . والنحاس إذا اشتدَّ سواده كان أتمنَّ وأجود . فمن استنكرَ لونَ السواد فما في فِرْنَجَةٍ<sup>(١)</sup> والرُّوم والصَّقالبة من إفراط سُبُوطَةِ الشَّعر والرَّقَّة والصُّهوبة ، والحُمْرة في شعر الرِّأس واللَّحية ، وبياضِ الحواجب والأشعار ، أقبح وأسمج . وليس في السُّودان مُغْرَبٌ<sup>(٢)</sup> ، ليس المُغْرَب إلاَّ فيكم . ولا سواهُ من لم تنضجه الأرحام وما جازت به حدَّ التمام .

قالوا : ولنا بعدُ معرفةٌ بالتفلسف<sup>(٣)</sup> والنَّظَر ، ونحن أثقفُ النَّاس . ولنا في الأسرار حجة . ونحن نقول : إنَّ الله تعالى لم يجعلنا سَوْدًا تشويهاً بخلقنا ، ولكنَّ البلدَ فعل ذلك بنا . والحجَّة في ذلك أنَّ في العرب قبائل سَوْدًا كبنى سُلَيْم بن منصور . وكلُّ مَنْ نزل الحَرَّة من غير بنى سُلَيْمٍ كلَّهم سود . وإنَّهم ليتخذون الممالك للرعى والسَّقاء ، والمهنة والخدمة ، من الأشبائين<sup>(٤)</sup> ومن الرُّوم نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبطنٍ حتَّى تنقلهم الحرَّة إلى ألوان بنى سُلَيْم<sup>(٥)</sup> . ولقد بلغ من أسر تلك الحرَّة أنَّ ظِبَاءها ونعامها ، وهوامها وذبابها ، وثعالبها وشاءها وحميرها ، وخيلها ، وطيرها كلُّها سَوْدٌ . والسَّواد والبياض إنَّما هما من قِبَل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء

(١) انظر ما سبق في ص ٢١٥

(٢) المغرب ، بفتح الراء : الأبيض أشعار العينين .

(٣) لعل هذا من أقدم النصوص التي ورد فيها لفظ التفلسف . وفي اللسان : « الفلسفة : الحكمة ، أعجمي . وهو الفيلسوف ، وقد تفلسف » .

(٤) في الأصل : « الاشباين » بهذا الإهمال .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٧١ و ٥ : ٣٧٠ .

٨٩ ظ والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرّها وليّنها . وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير <sup>(١)</sup> .

على أنّ بلاد بنى سليم تجرى تجرى بلاد الترك . ومن رأى إبلهم ودوابهم وكلّ شيء لهم تركىّ رآه شيئاً واحداً . وكلّ شيء لهم تركىّ للنظر . وربّما رأى الغزاة دون العواصم أخلاط غنم الرّوم فلا يخفى عليهم غنم الرّوم من غنم الشّام ، للرّوميّة التي يرونها فيها .

وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا نشكّ أنّهم علوج القرى . وهذا موجود في كلّ شيء . وقد نرى جرّاد <sup>(٢)</sup> البقل والريحان وديدانها خضراً <sup>(٣)</sup> ، ونرى قمل رأس الشّابّ سوداً ، ونراها إذا ابيضّ رأسه بيضاً ، ونراها إذا خضبت حمراً .

فليس سوادنا ، معشر الزّنج ، إلّا كسواد بنى سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام .

وما إفراط سواد من اسودّ من الناس إلّا <sup>(٤)</sup> كإفراط بياض من ابيضّ من الناس . وكذلك الشّجرة المتولّدة من بينهما ، وكذلك الزّيّ والهيئات ، وكذلك الصّناعات ، وكذلك المطاعم والشّهوات .

(١) في جميع النسخ : « ولا تفضيل » .

(٢) في الأصل : « جزاز » ، صوابه في الحيوان ٤ : ٧١ . وقد صحّ بذلك في نوس .

(٣) في الأصل : « خضر » .

(٤) في الأصل : « ولا » .

وقد ذكر الشاعر، حين مدح أُسَيْلِمَ بنَ الأحنف الأسدِيَّ، سوادَ  
اليمانيّة فقال<sup>(١)</sup> :

أُسَيْلِمُ ذَاكُم لَا خَفَا بِمَكَانِهِ  
لَعِينُ تَدَاخَى أَوْ لِأُذُنٍ تَسْمَعُ<sup>(٢)</sup>  
مِنَ النَّفَرِ الشُّمِّ الَّذِينَ إِذَا انْتَمَوْا  
وَهَابَ الرَّجَالُ حَلَقَةَ الْبَابِ قَعَقَعُوا  
جَلَا الْأَذْفَرُ الْأَحْوَى مِنَ الْمَسْكَ فَرْقَهُ  
وَطِيبُ الدَّهَانِ رَأْسَهُ وَهُوَ أَنْزَعُ<sup>(٣)</sup>  
إِذَا النَّفَرُ الشُّودُ الْيَمَانُونَ حَاوَلُوا  
لَهُ حَوْكَ بُرْدِيهِ أَرْقُوا وَأَوْسَعُوا  
وَقَدْ عَابَ بَعْضُ الْبَيْضَانِ عَبْدَ بَنِي جَعْدَةَ بِلَوْنِهِ، فَقَالَ :

قَدْ عَابَ لَوْنِي أَقْوَامٌ فَقُلْتُ لَهُمْ  
مَا عَابَ لَوْنِي إِلَّا مُفْرِطُ الْحُمُورِ  
إِنْ كَانَ لَوْنِي فِيهِ دُعْجَةٌ كَلَفَتْ  
حَزَنُ الْإِهَابِ فَإِنِّي أَيْبُضُ الْخُلُقِ

(١) الأبيات في الحيوان ٣ : ٤٨٦ والبيان ١ : ٣٩٦ و ٣ : ٣٠٥ والبخلاء  
٣١٣ والعقد ٥ : ٣٤٣ .

(٢) في معظم المراجع : « لعين ترجى » .

(٣) في الأصل : « جرى الأذفر . . . فوقه » ، صوابه من البيان والحيوان  
والبخلاء . والأذفر : الشديد سطوح الرائحة . والأنزع : الذي انحسر الشعر عن  
جانبى جبهته .

أَرْضِي الصَّدِيقَ وَأَحْيِ الظُّعْنَ مَعْتَرِضًا

صَدَرَ الْقِنَاسَةِ وَأَكْنَى كَنَّهُ السَّرَقِ<sup>(١)</sup>

وكانت امرأة عمرو بن شأس تجفو عِرَارًا<sup>(٢)</sup> بن عمرو ، وكان ابن ٩٠

سوداء ، فقال عمرو بن شأس في ذلك ، وفي صفة أبناء الحبشيات والزنجيات :

أَلَمْ يَأْتِهَا أَنِّي صَحَوْتُ وَأَنْتِ

تَخَشَّعْتُ حَتَّى مَا أَعَارِمُ مِنْ عَرَمٍ

وَأُطْرِقُ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ ، وَلَوْ يَرَى

مَسَاغًا لَنَابِيهِ الشُّجَاعُ لَقَدْ أَرَمَ<sup>(٣)</sup>

أَرَادَتْ عِرَارًا بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرَدُّ

عِرَارًا لَعَمْرِي بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمَ

وَإِنَّ عِرَارًا إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ

فَإِنِّي أَحَبُّ الْجَوْنِ ذَا النِّكَبِ الْعَمَمِ<sup>(٤)</sup>

فَإِنْ كُنْتَ مَنِيَّ أَوْ تُحِبِّينَ شَيْمِي

فَكُونِي لَهُ كَالسَّمَنِ رُبَّتْ لَهُ الْأَدَمُ<sup>(٥)</sup>

(١) كذا ورد عجز هذا البيت .

(٢) في الأصل : « عزار » أو « غراز » ، صوابه من الحماة ٢٨٠ - ٢٨٢ بشرح الرزوقي ومما ثبت في حواشيه من المراجع ، والأغاني ١٠ . ٥٩ - ٦٠ .

(٣) أزم : عض شديداً . وفي الأصل : « أرم » ، صوابه في الأغاني .

(٤) في الأصل : « لم يكن » ، صوابه من المراجع التقدمة . والعمم : الطويل التام من كل شيء .

(٥) في الأصل : « كالشمس » تحريف . قال الرزوقي : والسمن إذا راب نحيه لم يتغير . يريد فلا تتغيري أنت أيضاً . والأدم : جمع أديم ، وهو الجلد .

وإلا فيني مثل ما نان راكب

تزود خسا ليس في سيرة أتم<sup>(١)</sup>

وأما الهند فوجدناهم يقدّمون في النجوم والحساب ، ولهم الخطّ الهنديّ خاصّة ، وبقدمون في الطبّ ، ولهم أسرار الطبّ وعلاج فاحش الأدوية خاصّة . ولهم خرط التماثيل وحتّ الصّور بالأصباغ تتخذ في المحارب<sup>(٢)</sup> وأشياء ذلك . ولهم الشطرنج ، وهي أشرف لعبة وأكثرها تديراً وفطنة . ولهم السيوف القلعية<sup>(٣)</sup> ، وهم ألعب الناس بها وأحذقهم<sup>(٤)</sup> ضرباً بها . ولهم الرقيّ النافذة في السّموم وفي الأوجاع . ولهم غناء معجّب . ولهم الكنكلة<sup>(٥)</sup> ، وهي وتر واحد يمد<sup>(٦)</sup> على قرعة فيقوم مقام أوتار العود والصنج . ولهم ضروب الرقص والخفة ، ولهم الثقافة عند الثّفاف خاصّة ، ولهم معرفة المناصفة ، ولهم السّحر والتّدخين والدمازكية<sup>(٧)</sup> . ولهم خطّ جامع الحروف اللغات ، وخطوط أيضاً كثيرة ، ولهم شعر كثير وخطب طوال ، وطبّ في الفلسفة

(١) الأتم : الإبطاء .

(٢) في الأصل : « مجد من المحارب » .

(٣) القلعية : نسبة إلى القلعة ، وهي قلعة عظيمة يبلدة تسمى « كله » ، وهي أول بلاد الهند من جهة الصين ، وفيها تضرب السيوف القلعية . انظر معجم البلدان والحیوان ٣ : ١٤٣ .

(٤) ن ، س : « وأحذقها » .

(٥) انظر نوادر المخطوطات ٢ : ٣٢٤ .

(٦) في الأصل ون ، س : « يمر » ، صوابه ما أثبت .

(٧) كذا ولعله « الترمازكية » ، وهو ضرب من اللعوق الطي . كما في

معجم استينجاس ١٣٩٥ .

والأدب . وعندهم أخذ كتاب كليله ودمنة . ولهم رأيٌ ونجدةٌ ، وليس لأحدٍ من أهل الصبر ما لهم . ولهم من الزّي<sup>(١)</sup> الحسن والأخلاق الحمودة مثل الأخلّة والقرن والسّواك ، والاحتباء ، والفرق والخضاب . وفيهم جمال وملح<sup>(٢)</sup> واعتدال وطيب عرق . وإلى نسائهم يضرب الأمثال . ومن عندهم جاءوا الملوك بالعود الهندي الذي لا يعدله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما إذا تكلم به على السّم لم يضر . وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه النّاس خاصّة . وآدم عليه السلام إنّما هبط من الجنّة فصار ببلادهم<sup>(٣)</sup> .

٩٠ ظ

قالوا : ومن مفاخر الزنج حُسن الخلق ، وجودة الصّوت . وإنّك لتجد ذلك في القيّان إذا كنّ من بنات السّند .

وخَصلةٌ أخرى : أنّه لا يوجد في العبيد أطبخ من السّنديّ ، هو أطبع على طيّب الطّبخ كلّ<sup>(٤)</sup> .

ومن مفاخرهم أنّ الصّيّافة لا يولّون أكيسّتهم وبيوت صُروفهم إلّا السّند وأولاد السّند ؛ لأنّهم وجدوهم أنفدّ في أمور الصّرف ، وأحفظ وآمن . ولا يكاد أحدٌ أن يجد صاحب كيس صيرفيّ ومفاتيحه ابن روميّ ولا ابن خراسانيّ

(١) في الأصل : « الرأى » .

(٢) الملح ، بالكسر : الملاحه .

(٣) في تفسير أبي حيان ١ : ١٦٣ عند الكلام على هبوط آدم : « وآدم بالهند ، وقيل بسرنديب بجبل يقال له واسم » .

(٤) في الأصل : « هو أطبخ على طيب الطبخ كلّ » .



ولقد بلغ من تبرُّك التجار بهم أن صيارفة البصرة وبنادرة البربهارات<sup>(١)</sup> ،  
لما رأوا ما كسب فرج أبو رويح السندی لمولاه<sup>(٢)</sup> من المال والأرضين  
اشترى كل امرئ منهم غلاماً سندياً ، طمعاً فيما كسب أبو رويح لمولاه .

قال : وكان عبد الملك بن مروان يقول : « الأدغم سيّد أهل المشرق »<sup>(٣)</sup>  
يعنى عبید الله بن أبي بكر . وكان أشدّ الشّودان سواداً . وإيّاه يعنى  
عبد الله بن خازم<sup>(٤)</sup> حيث يقول :

\* حبشنى حبشته حبشه \*

فهذا جملة ما حَصَرنا من مفاخر الشّودان . وقد قلنا قبل هذا فى مفاخر  
قحطان ، وسنقول فى نخر عدنان على قحطان فى كثير مما قالوا إن شاء الله .

\* \* \*

(١) البنادرة : جمع بندار ، بضم الباء ، وهم التجار الذين يلزمون المعادن ،  
أو الذين يخزنون البضائع للغلاء . والبربهار : الأدوية التى تجلب من الهند من الحشيش  
والعقاقير ، والقلوس وغيرها ، يقول البحرية وأهل البصرة لها : البربهار . أنساب  
السمعانى ٧١ . وقال الأب أنستاس مارى : المراد بها توابل بر الهند . حواشى  
الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٢) اسم مولاه محمد بن السكن ، كما فى الحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) فى المعارف ١٢٦ : « سيد أهل الشرق » . وفيه : ويقال الأدغم الدابة  
الديزج ، شبه به .

(٤) هو عبد الله بن خازم بن أسماء السلمى البصرى ، أمير خراسان . ولى إمرتها  
لبنى أمية ، فلما ظهر ابن الزبير كتب إليه ابن خازم بطاعته فأقره على خراسان ، ثم  
ثار به أهل خراسان فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك سنة ٧٣ . انظر الطبرى  
فى حوادث هذه السنة ، وتهذيب التهذيب والإصابة ٤٦٣٢ .

( ١٥ - رسائل الجاحظ )

تم كتاب نخر السودان على البيضان

من تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله تعالى وتوفيقه ،  
ومشيئته وتأيبده . يتلوه إن شاء تعالى رسالة له أيضاً إلى محمد بن عبد الملك  
في الجد والهزل . والله الموفق للصواب .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين  
الطاهرين وسلامه .

---

٥

رِسَالَةٌ

فِي الْحَبْدِ وَالْهَمَزِ

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إلى محمد بن عبد الملك الزيات



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الخامسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة في الجسد والهزل »

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

ومن هذه الرسالة نسخ :

- ١ - نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .
- ٢ - مختارات فصول الجاحظ ، وهي نسخة المتحف البريطاني المودعة صورتها في مكتبة جامعة القاهرة ، ورمزها « م » .
- ٣ - نسخة بول كراوس وطه الحاجري ، وهي مقابلة على نسخة داماد ، والمتحف البريطاني ، ورمزها « ط » .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جُعِلَتْ فِدَاكَ . ليس من أجل<sup>(١)</sup> اختياري النَّخْلَ على الزَّرْعِ<sup>(٢)</sup> ٩٢ ظ  
أَقْصَيْتَنِي ، ولا على ميل إلى الصَّدَقَةِ دون إعطائي الخراج عاقبتني ، ولا لِبُغْضِي  
دفعَ الإتاوة والرضا بالجزية حَرَمَتْنِي .

ولست أدري لم كَرِهْتَ قُرْبِي وهَوَيْت بُعْدِي ، واستثقلتَ روحي ونَفْسِي  
واستطلتَ عُمري وأَيَّامَ مُقَامِي . ولمَ سَرَّكَ سَيِّئِي ومَصِيبِي وسَاءَتِكَ حَسَنَتِي  
وسلامتي ، حتَّى سَاءَكَ تَجَهُّلِي بِقَدْرِ مَا سَرَّكَ جَزَعِي وتَضَجُّرِي ، وحتى تَمَنَّيْتَ  
أَنْ أَخْطِئَ عَلَيْكَ فتَجْعَلَ خَطِيئَةَ حُجَّةٍ لَكَ فِي إِبْعَادِي ، وكَرِهْتَ صَوَابِي فِيكَ  
خَوْفًا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ ذَرِيعَةً لَكَ إِلَى تَقْرِبِي .

[فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ ، وَكَانَ هُوَ السَّبَبُ لِمَوْجِدَّتِكَ<sup>(٣)</sup>] فَلَيْسَ  
- جُعِلَتْ فِدَاكَ - هَذَا الْخَفْدُ فِي طَبَقَةِ هَذَا الذَّنْبِ ، وَلَا هَذِهِ الْمَطَالِبَةُ مِنْ شَكْلِ  
هَذِهِ الْجَرِيْمَةِ .

(١) هذه الكلمة ساقطة من م

(٢) أَلْفُ الْجَاهِظِ كِتَابُ : ( الزرع والنخل ) لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصُّوْلِيِّ  
الْتَوَفَّى سَنَةَ ٢٤٣ . فَتَنُوحُهُ خَمْسَةُ آلَافٍ دِينَارٍ ، كَمَا أَلْفُ كِتَابُ : ( الْحَيَوَانُ )  
لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ فَتَنُوحُهُ مِثْلُهَا ، وَكِتَابُ : ( الْبَيَانُ ) لِلْقَاضِي أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ  
فَتَنُوحُهُ كَذَلِكَ . مَعْجَمُ الْأَدْبَاءِ ١٦ : ١٠٦ . وَجَاءَ فِي الْحَيَوَانِ ١ : ٤ نَظِيرُ هَذَا النَّصِّ  
مَوْجَّهًا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ : « وَعَبَتْنِي بِكِتَابِ الزَّرْعِ وَالنَّخْلِ وَالزَّيْتُونِ  
وَالْأَعْنَابِ » .

(٣) التَّكْهِيلَةُ مِنْ م .

ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً ، وإذ لم يكن عدله وقع مُشبهها  
كان أهون في موضع الضرر ، وأسهل في مخرج السماع .

فأى شيء بقيت للعدو المكاشف والمنافق<sup>(١)</sup> الملائف ، وللمعتمد المصّر<sup>(٢)</sup>  
وللقادر المدلّ .

ومن عاقب على الصّغير بعقوبة الكبير ، وعلى الهفوة بعقوبة الإصرار ،  
وعلى الخطأ بعقوبة العمد ، وعلى معصية المتستر<sup>(٣)</sup> بعقوبة معصية المعلن<sup>(٤)</sup> ،  
ومن لم يفرق بين الأعلى والأسفل ، وبين الأقاصى والأداني ، عاقب على الزّنى  
بعقوبة السرّ<sup>(٥)</sup> ، وعلى القتل بعقوبة القذف . ومن خرج إلى ذلك في باب  
العقاب خرج إلى مثله في باب الثّواب . ومن خرج من جميع الأوزان وخالف  
جميع التعديل ، كان بغاية العقاب أحقّ ، وبه أولى<sup>(٦)</sup> .

والدّليل على شدة غيظك وغلّيان صدرك قوّة حركتك وإبطاء فترتك ،  
وبُعد الغاية في احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضب ، وعلى كظم الذنب<sup>(٧)</sup>  
تمكّن الحقد ورسوخ الغيظ ، وبُعد الوثبة وشدة الصّولة .

وهذا البرهان صحيح ما صحّ النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .  
ولا أعلم ناراً أبلغ في إحراق أهلها من نار الغيظ ، ولا حركة أنقض

(١) م : « وللموافق » .

(٢) في الأصل : « المستتر » ، وأثبت ما في م . وفي ط نقلا عن ب : « السر » .

(٣) في الأصل : « المعاند » صوابه في م ، ب .

(٤) السرقة كسبب وكشف : السرقة . وفي م . « السرقة » .

(٥) في الأصل : « أحق به وأولى » ، وما أثبت من م أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٦) م : « عظم الذنب » .



لقوة الأبدان من طلب الطوائل<sup>(١)</sup> مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجمّام<sup>(٢)</sup> ، وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير .

و ٩٣

ولا أعلم تجارة أكثر خسراناً ولا أخف ميزاناً من عداوة العاقل [العالم]<sup>(٣)</sup> ، وإطلاق لسان الجليس المداخل ، والشعار دون الدثار<sup>(٤)</sup> ، والخاص دون العام .

والطالب - جعلت فداك - بعرض ظفّر ما لم يخرج المطلوب ، وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومن الحزم ألا تخرج إلى العدو إلا ومعك من القوى ما يغمر<sup>(٥)</sup> الفضلة التي ينتجها له الإخراج . ولا بدّ أيضاً من حزم يحذرك مصارع البغي ، ويخوفك ناصر المطلوب<sup>(٦)</sup> .

وبعد - أبقاك الله - فأنت على يقين من موضع ألم الغيظ من نفسك ، والغيظ عذاب . ولربّما زاد التشفي في الغيظ ولم ينقص منه . ولست على يقين من نفوذ سهمك في صيدك<sup>(٧)</sup> [كما أيقنت بموضع الغيظ من صدرك] .

(١) الطوائل : جمع طائلة ، وهي الوتر والدحل ، يقال : طلب بنى فلان بطائلة ، أى بوتر كان له فيهم .

(٢) الجمّام ، كسحاب : الراحة : م « الحمام » تصحيف .

(٣) التكملة من م .

(٤) الشعار : ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب . والدثار : ما كان من الثياب فوق الشعار . وفي المثل : « هم الشعار دون الدثار » ، يفهم بالمودة والقرب . وفي حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٥) في الأصل : « مالا يغمر » ، صوابه من م .

(٦) أى من تطلبه . وفي الأصل : « ويحرك ناصر المظلوم » ، صوابه في م .

(٧) في الأصل : « صدك » ، صوابه من ط رواية عن ب والتكملة بعده من ب .

والحازم لا يلتبس شفاء غيظه باجتلاب ضِعْفِهِ ، ولا يطفى نارَ غضبه تأخراً  
عقوبة من أغضبه ، ولا يسدّد سهمه إلا والغرضُ ممكن ، والغاية قريبة ،  
ولا يهرب إلا والمهرب معجزة .

إنَّ سلطان الغيظ غشوم ، وإنَّ حكم الغضب جائر ، وأضعف ما يكون  
العزم عن التصرّف أضعف ما يكون الحزم . والغضب في طباع شيطان ،  
والهوى يتصور في صورة امرأة ، فلا يبصر مساقط العيب ومواقع الشرف  
إلا كلُّ معتدلِ الطباع ، ومعتدلِ الأخلاق مستوٍ الأسباب .

والله لقد كنت أكره لك سرف الرضا مخافة جواذبه إلى سرف الهوى .  
فما ظنّك بسرف الغضب ، وبغلبة الغيظ ، ولا سيما ممن قد تعود إهمال النفس  
ولم يعود لها الصبر ، ولم يعرفها موضع الخطّ في تجرّع مرارة العفو ، وأن المراد  
من الأمور عواقبها لا عواجلها<sup>(١)</sup> .

ولقد كنت أشفق عليك من إفراط الشرور فما ظنّك بإفراط الغيظ .  
وقد قال بعض الناس : لا خير في طول الراحة إذا كان يُورث الغفلة ،  
ولا في الكفاية إذا كان يؤدّي إلى المعجزة ، ولا في كثرة الغنى إذا كان  
يخرج إلى البلدة<sup>(٢)</sup> .

جُعِلْتُ فداك . إنَّ داء الحزن وإن كان قاتلاً فإنه داءٌ مُماطل ، وسقمه  
سقم مُطاوّل ، ومعه من التمثّل بقدر قسطه من أناة المِرّة السوداء . وداء

(١) في الأصل : « عوالمها » ، صوابه في م .

(٢) في الأصل : « كثرة العي » ، صوابه في م . والبلدة ، بالفتح وبالضم أيضاً :  
البلادة ، ضد النفاذ والدكاء والمضاء في الأمور .

الغَيْظُ سَفِيهُ طَيَّاش ، وَعَجُولٌ فَحَّاش ، يُعَجِّلُ عَنِ التَّوْبَةِ ، وَيَقْطَعُ دُونَ  
الْوَصِيَّةِ ، وَمَعَهُ مِنَ الْخُرْقِ بِقَدَرِ قَسْطِهِ مِنَ التَّهَابِ الْمِرَّةِ الْحَمَاءِ . [ والعجول  
يُخْطِئُ وَإِنْ ظَفِرَ ، فَكَيْفَ بِهِ إِذَا أَخْفَقَ . عَلَى أَنَّ إِخْفَاقَهُ يَزِيدُ فِي حَقِيقَةِ  
خَطْئِهِ كَمَا أَنَّ ظَفْرَهُ لَا يَنْتَقِصُ مِنْ مَقْدَارِ زَلَلِهِ <sup>(١)</sup> ] . وَأَنْتَ رَوْحٌ كَمَا أَنْتَ وَحْشٌ  
مِنْ قَرْنِكَ إِلَى قَدَمِكَ . وَعَمَلُ الْآفَةِ فِي الدَّقَاقِ وَالْعَتَاقِ أَسْرَعُ ، وَحَدُّهَا عَنْ  
الْعِلَاقِ الْجَفَاةِ أَكْلٌ ؛ فَلِذَلِكَ اشْتَدَّ جَزَعِي لَكَ مِنْ سُلْطَانِ الْغَيْظِ وَغَلَبَتِهِ .

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ ابْتَلَعْتُ مَزَارَ بَابِكَ ، وَأَبْطَلْتُ بَمِرَ الْبَاطِلِ <sup>(٢)</sup> ، وَوَرَدْتُ <sup>(٣)</sup>  
الْفُظَائِعَ كُلَّهَا ، وَنَقَضْتُ الشُّرُوطَ بِأَسْرَافِهَا ، وَأَفْسَدْتُ نَتَاجِكَ ، وَقَتَلْتُ كُلَّ  
شِطْرٍ نَجَى لَكَ ، وَرَفَعْتُ مِنَ الدُّنْيَا فَرَاةَ الْخَلِيلِ ، وَجَعَلْتُ الْمَرْجَحَ كُلَّهَا حَمًى ،  
وَكُنْتُ صَدَاقَ الْمَرَادِينَ <sup>(٤)</sup> ، وَبِرِسَامِ الْأَوْلَادِ ، وَمَسَخْتُ جَمِيعَ الْجَوَارِي  
فِي صُورَةِ أَبِي رَمْلَةٍ <sup>(٥)</sup> وَرَدَدْتُ شَطَاطَ خَلْقِكَ إِلَى جُمُودَةِ أَبِي حَثَّةٍ <sup>(٦)</sup>  
وَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ بَيْعَ الرِّجَالِ فِي النِّخَاسِينَ ، وَفَتَحَ بَابَ الظُّلْمِ لِأَصْحَابِ  
الْمَظَالِمِ ، وَحَوَّلْتُ إِلَيْكَ عَقْلَ أَبِي دِينَارٍ ، وَطُبِعَتْ عَلَى بَيَانِ مَا نَوَيْتُ ، وَأَعْنَتُ  
عَلَى مَوْتِ الْمُعْتَصِمِ ، وَغَضِبْتُ لِمَصْرَعِ الْأَفْشِينَ <sup>(٧)</sup> ، وَاسْتَجَبْتُ لِلدِّيكِ الْأَبْيَضِ

(١) التكملة من ب .

(٢) كذا وردت العبارة .

(٣) في الأصل : « ورددت » .

(٤) كذا . وجعلت في ط : « جذم المردان » .

(٥) لم أجد له ذكرًا في كتب الجاحظ ، كما لم أجد ذلك لأبي حثة التالي .

(٦) الشطاط ، كسحاب وكتاب : الطول وحسن القوام . والجعودة : القصر .

(٧) الأفشين ، بفتح الهمزة وكسرهما ، كما في وفيات الأعيان ٢ : ٦٥ . واسمه =

الأفرق<sup>(١)</sup> وأحببت صالح بن حنين<sup>(٢)</sup> ، وأحوجتك إلى حاتم الرّيش<sup>(٣)</sup> ،  
وكان أبو الشّماخ صديقي ، والفارسيّ من شيعتي - لكان ما تركبني به سرفاً ،  
ولكنت في هذا العتاب<sup>(٤)</sup> متعدّياً .

جُعِلَتْ فُداك ، لا تتعرض لعداوة عُقلاء الرّواة ، ولضفيّنة حُفّاظ  
المثالب ، وللسان من قد عُرف بالصدّق والتّوخّي ، وبقلّه الخطل والتّكسّب<sup>(٥)</sup> ،  
ما وجدت عن ذلك مندوحة ، ووجدت المذهب عنه واسعاً . ولا تعاقب  
وإذا وإن اضطرّك الوادّ ، ولا تجعل طول الشّعبة سبباً للتّضجّر ، واصبر  
على خلقه فإنّ خلقه خيرٌ من جديد غيره . وصداقة المتطرّف غرور<sup>(٦)</sup> ،

= خنذر بن كلوس ، وكان مقدّم قواد المعتصم ، ثم غضب عليه المعتصم فصلبه هو  
وبابك ومازريار في سنة ٣٣٦ .

(١) الأفرق : المفروق العرف . وفي الأصل : « للدين » صوابه في ب كما في  
حواشي ط . وكلمة « الأبيض » ساقطة من ب كما أن كلمة « الأفرق » ساقطة من  
الأصل وثابتة في ت . وكان العامة في زمن الجاحظ يتبركون بالديك الأبيض الأفرق  
يزعمون أنه يطرد الشيطان من البيت . الحيوان ٢ : ٣٠٧ ، ٢٥٩ ولكنهم أيضاً  
كانوا يقضون على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة . الحيوان ٢ : ٣٠٧ .  
(٢) يبدو أنه كان أحد البغضاء الثقلاء ، ذكره أيضاً في البغضاء ٦ . قال الجاحظ :  
« ولو ولد نادرة حارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين  
وإلى ابن النّوء وإلى بعض البغضاء ، لعادت باردة ، ولصارت فآثرة » .

(٣) كان حاتم هذا من ندماء صالح بن هارون الرشيد ، قرينا لأبي الواسع ،  
وقنيّة ، وحسين بن الضحّاك . الأغاني ٦ : ١٠٤ . وسماه أبو الفرج في ٦ : ١٩٥  
« حاتم الرّيش الضراط » .

(٤) ط : « العقاب » خلافاً لما في الأصل .

(٥) التّكسّب ، أراد به العدول عن الصواب والحق . وفي الأصل : « التّكسب »

(٦) جعلت في ط : « غرر » بمعنى الخطر .

وملاحة الصديق أفن ، والعلم بأقدار<sup>(١)</sup> الذنوب غامض ، وحدود الذنوب في العقاب خفية . ولن يعرف العقاب من يحل قدر الذنب . والأجرام كثيرة الأشكال ، ومتفاوتة في الأقدار<sup>(٢)</sup> . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر في علته وسببه ، وإلى معدنه الذي منه نَجَم ، وعُشّه الذي منه دَرَج ، ومغْرِسه الذي منه نبت ، وإلى جهة صاحبه في التتابع والتترُّع<sup>(٣)</sup> ، وفي النزوع والثبات ، وإلى قِचितه عند التقريع ، وإلى حيائه عند التعريض ، وإلى فِطنته عند الرشق والتورية<sup>(٤)</sup> ؛ فإنَّ فَضْل و ٩٤ الفطنة ربّما دلّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . فكلُّ ذنبٍ كان سببه الدالة وضيق صدرٍ وغلظ طباعٍ وحدةٍ مرارٍ ، من جهة تأويل أو من جهة غلط في المقادير ، أو من طريق [ فرط<sup>(٥)</sup> ] الأنفة وغلبة طباع الحميّة من بعض الجفوة أو لبعض الأثرة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زين له من عمله ، وأنه مقصّر به مؤخّر عن مرتبته ، أو كان مبلّغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه .

(١) في الأصل : « باقرار » .

(٢) في الأصل : « الأقدام » .

(٣) التابع في الشيء : التهافت فيه والإسراع إليه . والتترع : التسرع إلى الشيء . وفي الأصل : « التابع والتبرع » والوجه ما أثبت .

(٤) المراد بالرشق الإصابة بالقليل من الكلام . والتورية : الكناية التي لا يفهمها إلا الفطن . ومنه التورية البلاغية التي يراد باللفظ فيها غير المتبادر من معناه . وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً ورى بغيره ، أى ستره وكى عنه وأوهم أنه يريد غيره . وفي الأصل : « التودية » تحريف .

(٥) التكملة من ب .

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب ، وفي هذه المجارى ،  
فليس يقف عليها كريم ، [ ولا يلتفت لها حليم <sup>(١)</sup> ] .

ولست أسميه بكثرة معروفة كريماً حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه  
غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك ، وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع  
للكظم ، والقدرة ، والفهم .

فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغضة فلو لم ترض لصاحبه  
بعقاب دون قعر جهنم لعدرك كثير من العقلاء ، ولصوب رأيك عالم  
من الأشراف .

ومتى كانت علته طبيعة البداء <sup>(٢)</sup> ، وخلقه الشرارة والتسرّع <sup>(٣)</sup> ، فاقتله  
قتل العقارب ، وادمغه دمع رءوس الحيات .

وإذا كان ممن لا يسىء فيك القول ، ولا يرصدك بالمكروه إلا لتعطيه  
على الخوف ، وتمنع عرضك من جهة التقية فامنعه جميل رفدك ، واحتل  
في منعه من قبل غيرك ؛ فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة ، وأعظمته  
من هذه الحكومة فقد شاركته في سب نفسك ، واستدعيت الألسنة  
البذية إلى عرضك ، وكنت عوناً لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره ، وأنت فيه قسيمه <sup>(٤)</sup> ، إلا أن عليك  
غُرمه ولك غُنمه .

---

(١) التكملة من ب .

(٢) في الأصل : « البداء » ، والوجه ما أثبت . وقد قرئت في ط :  
« الداء » خطأ .

(٣) الشرارة : مصدر شر يشر شرا وشرارة ، بضم شين المضارع وكسرها .

(٤) في الأصل : « قسمه » .

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحطَّ عن الحسود نصف عقابه ، وأن تقتصر على [ بعض <sup>(١)</sup> ] مقداره ، لأنَّ ألم حسده لك قد كفاك مؤونة شَطَر غيظك عليه .

وأما الوادُّ فلا تعرضْ له البتة ، [ ولا تلتفتْ لِفَتَّه <sup>(٢)</sup> ] ، ولو أتى على الحرث والنسل ، وحتى على الرُّوح والقلب . ولا تغتر بقوله إني وادُّ ، ولا تحكم له بدعواه بأنى جدَّ وامق . وانظر أنت في حديثه وإلى تخارج لفظه ، وإلى لحن قوله ، وإلى طريقته وطبيعته ، وإلى خلقه وخليقته ، وإلى تصرفه وتصميمه <sup>(٣)</sup> وإلى توقُّفه وتهوُّره . وتأملْ مقدارَ جزعه من قلة اِكْتِراثه ، وانظر إلى غضبه فيك ولك ، وإلى انصرافه عمن انصرفَ عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسلمه من الشر وتعرُّضه له ، وإلى مُدَاهنته وكشف قناعه . بل لا تَقْضِ <sup>(٤)</sup> له بِجَمَاعِ ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع إقبال من أمرك ، وإن طالت الأيام وكثرت الشهور ، حتى تنتظم الحالات ، وتستوى فيه الأزمان .

نعم ، ثمَّ لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورةً على محبَّتِكَ ، ومحنوَّةً على نصيحتِكَ ، بالعلل التي توجب الأفعال . والأسبابُ التي تسخر القلوب للمودَّات ، كالعلل الثابتة في الصنعة ، والأسباب الموجودة مع مولى

(١) ليست في الأصل .

(٢) التكملة من ب .

(٣) التصميم : الضى في الأمر بعد إرادته . وفي الأصل : « تصميمه » .

(٤) في الأصل : « لا يقضى » .

العَتَاة ؛ فَإِنَّ عَلَّيْهَا خِلَافُ عَلَّلِ مَوْلَى الْكَلَالَةِ<sup>(١)</sup> ، وَخِلَافُ عَلَّلِ الصَّدِيقِ  
الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَرَى أَنَّهُ مِثْلُكَ ، وَأَنَّهُ يَسْتَوْجِبُ مِنْكَ اسْتِجَابَكَ ، وَلَا سِيَّما إِذَا  
كَانَتِ الصَّنِيعَةُ أَنْتَ ابْتَدَأْتَهَا ، وَأَنْتَ أَبُو عُدْرَتِهَا .

فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَحْكَمْ لَهُ بِالْغَايَةِ مَعَ اجْتِمَاعِ هَذِهِ الْعِلَلِ فِيهِ ، وَمَعَ تَوَافُيْهَا إِلَيْهِ ،  
وَلَمْ تَقْضِ لَهُ بِأَقْصَى الْغَايَةِ مَعَ تَرَادُفِ هَذِهِ الْأَسْبَابِ وَتَكَامُلِ هَذِهِ الدَّلَائِلِ ،  
وَتَعَاوُنِ هَذِهِ الْبَرَهَانَاتِ ، فَكُلُّ خَبَرٍ بَيْنَهُ زُورٌ ، وَكُلُّ دَلَالَةٍ فَاسِدَةٌ . وَقَدْ  
قَالَ الْأَوَّلُ : « دَلَائِلُ الْأُمُورِ أَشَدُّ تَثْبِيْتًا مِنْ شَهَادَاتِ الرِّجَالِ » . إِلَّا أَنَّ يَكُونُ  
فِي الْخَبَرِ دَلِيلٌ ، وَمَعَ الشَّهَادَةِ بَرَهَانٌ ؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَكْذِبُ وَلَا يَنْصَاقُ  
وَلَا يَزِيدُ وَلَا يَبْدُلُ ، وَشَهَادَةُ الْإِنْسَانِ لَا تَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ مَعَهَا أَمَانٌ  
مِنْ فُسَادٍ مَا كَانَ الْإِمْكَانُ قَائِمًا .

وَبَعْدَ مَتَى صَارَ اخْتِيَارُ النَّخْلِ عَلَى الزَّرْعِ يُحَقِّدُ الْإِخْوَانَ ، وَمَتَى صَارَ  
تَفْضِيلُ الْحَبِّ وَتَقْرِيطُ الثَّمَرِ يورثُ الْهَجْرَانَ ، وَمَتَى تَمَيَّزُوا هَذَا التَّمْيِزَ<sup>(٢)</sup>  
وَتَهَالَكُوا هَذَا التَّهَالُكَ ؟ وَمَتَى صَارَ تَقْدِيمُ النَّخْلَةِ مَلَّةً ، وَتَفْضِيلُ السَّنْبِلَةِ  
نَحْلَةً<sup>(٣)</sup> ؟ وَمَتَى صَارَ الْحُكْمُ لِلنَّعْجَةِ نَسَبًا وَلِلْكَرْمَةِ صِهْرًا ، وَمَتَى<sup>(٤)</sup> تَكُونُ  
فِيهَا دِيَانَةٌ وَتَسْتَحْكَمُ فِيهَا بَصِيرَةٌ ، وَيَحْدُثُ عَنْهَا حَمِيَّةٌ .

(١) الْكَلَالَةُ مِنَ الْقَرَابَةِ : مَا خَلَا الْوَالِدَ وَالْوَلَدَ .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « التَّمْيِزُ » .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « مَنْحَةٌ » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَحَقٌّ » .



وقد كنّا نَعْجَب من حرب البسوس في ضَرَع ناب<sup>(١)</sup> ، ومن حرب بُعَاثٍ في خِخْرِفِ تَمَر<sup>(٢)</sup> ، ومن حرب غَطَفَانِ في سَبَقِ دَابَّة<sup>(٣)</sup> . فُجِئْنَا أَنْتَ ٩٥  
بنوع من العَجَبِ أَبْطَلَ كُلَّ عَجَبٍ ، وَأَنْسَنَا بِكُلِّ غَرِيبٍ ، وَحَسَّنَ عِنْدَنَا  
كُلَّ قَبِيحٍ ، وَقَرَّبَ عِنْدَنَا كُلَّ بَعِيدٍ .

فَإِنْ جَهِلْتُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - غَضَبَكَ فَتَنَلِ جَهْلَ مَالِغَلَّةٍ لَهُ ، وَإِنْ عَجَزْتُ  
عَنْ اِحْتِمَالِ عِقَابِكَ فَتَنَلِ ضَجَّ مَمَالٍ يَطِيقُ حَمْلَهُ . وَلَا عَارَ عَلَى جَازِعٍ إِلَّا فِيمَا يُمْكِنُ  
فِي مِثْلِهِ الصَّبْرُ ، وَلَا لَوْحٍ عَلَى جَاهِلٍ فِيمَا لَا يَنْجَحُ فِي مِثْلِهِ الْفَكْرُ .

وَلَيْسَ هَذَا أَوَّلَ شَرِّكَ نَصَبْتَهُ ، وَلَا أَوَّلَ كَيْدِ أَرَاغُتِهِ ، وَلَا هِيَ بَأُولِ  
زُبْيَةِ غَطِيَّتِهَا وَسَتَرَتِهَا ، وَحِيلَةٍ أَمْكَنَتْهَا وَرَبَّصَتْهَا .

وَقَدْ كَانَتْ التَّقِيَّةُ وَالْاِقْتِصَادُ أَسْلَمَ ، بَلْ كَانِ الْقَفْوُ أَرْحَمَ ،  
وَالْتِغَافُلُ أَكْرَمَ .

(١) كَانَتْ لِلْبُسُوسِ بِنْتُ مَقْدِ التَّيْمِيَّةِ ، خَالَةُ حَسَّاسِ بْنِ مَرَّةٍ ، نَاقَةٌ يُقَالُ لَهَا  
« سَرَاب » ، فَرَمَى كَلِيبُ ضَرَعَ تِلْكَ النَّاقَةِ بِسَهْمٍ وَقَدْ رَأَاهَا غَرِيبَةً فِي إِبِلِهِ ، فَاسْتَعَاثَ  
الْبُسُوسَ بِخَالَتِهَا حَسَّاسَ ، فَطَعَنَ حَسَّاسُ كَلِيبًا قَتَلَ ، فَوَقَعَ الشَّرُّ بَيْنَهُمَا لِذَلِكَ . الْعَقْدُ  
٥ : ٢١٣ وَمَا بَعْدَهَا .

(٢) الْخَرْفُ بِكَسْرِ الْمِيمِ : زَيْلٌ صَغِيرٌ يُحْتَرَفُ فِيهِ أَطَايِبُ الرُّطْبِ . وَبِفَتْحِهَا :  
الْحَائِطُ مِنَ النَّخْلِ . وَانْظُرْ لِحَرْبِ بُعَاثِ الْأَغَانِي ١٥ : ١٥٤ - ١٥٨ وَكَامِلُ  
ابْنِ الْأَثِيرِ ١ : ٤١٧ وَوَفَاءُ الْوَفَاءِ ١ : ٢١٥ حَيْثُ تَتَضَحَّى لَكَ إِشَارَةُ الْجَاهِظِ إِلَى  
الْخَرْفِ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكُسْرِهَا مَعًا .

(٣) السِّبْقُ ، بِالتَّحْرِيكِ : الَّذِي يُوَضَّعُ بَيْنَ أَهْلِ السِّبَاقِ ، فَمَنْ سَبَقَ أَخَذَهُ .  
يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى حَرْبِ دَاخِسٍ وَالْعَبْرَاءِ ، حِينَ صَدَّ أَتْبَاعُ حَمَلِ بْنِ بَدْرِ صَاحِبِ الْفَرَسِ  
الَّتِي تُسَمَّى الْعَبْرَاءِ ، فَرَسَ قَيْسِ بْنِ زَهِيرٍ وَكَانَ يُسَمَّى « دَاخِسًا » . فَثَارَتْ الْحَرْبُ  
بَيْنَ عَبْسٍ وَذِيانِ ابْنِي بَغِيضِ بْنِ رَيْثِ بْنِ غَطَفَانَ أَرْبَعِينَ سَنَةً . الْعَقْدُ ٥ : ١٥٠ =  
( ١٦ - رَسَائِلُ الْمَاحِظِ )

ولا خير في عقوبة تشمت العدو المتقادم<sup>(١)</sup> ، ويُنادى بها العدو الحادث .  
والأناة أبلغ في الحزم ، وأبعد من الذم ، وأحمد مَغَبَّةً وأبعد من خُرق العَجَلَة .  
وقد قال الأول : « عليك بالأناة ؛ فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعُهُ أقدر منك  
على ردِّ ما قد أوقعته » . فقد أخطأ من قال<sup>(٢)</sup> :

قد يُدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ  
بل لو قال : والمتأني يدرك حاجاته أحقَّ ، والمستعجل بفوت حاجاته  
أخلق ، لكان قد وُفِّي المعنى حقّه ، وأعطى اللفظ حظّه ، و [ إن<sup>(٣)</sup> ] كان  
القول الأوّل موزوناً والثاني منثوراً<sup>(٤)</sup> . ولولا أنه اشتقَّ المستعجل من  
العجلة لما قرّنه بالتأني . وينبغي أن يكون الذي غلّطه قولهم : « ربَّ  
عَجَلَة تَهَبَّ ريثاً » . فجعل الكلام الذي خرج جواباً عند ما يعرض من  
السبب ، كالكلام الذي خرج ارتجالاً ، وجعله صاحبه مثلاً عاماً .  
فإذا سمّيتَ العمل عَجَلَةً وريثاً فاقضِ على الريث بكثرة القوت ، وبقدر ذلك من  
العجز ، وعلى العجلة بقلّة النّجح ، وبقدر ذلك من الخرق .

والريثُ والأناة في بلوغ الأمل وإدراك النّعمة كاتّهاز الفرصة واهتبال

= والأغاني ٧ : ٣٤٣ وكامل ابن الأثير ١ : ٣٤٣ ، وجمهرة أنساب العرب  
٢٥٠ ، ٢٥١ .

(١) في الأصل : « القادم » . والمتقادم : القديم .

(٢) هو القطامي . ديوانه ص ٣ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ . وانظر مجالس  
تعلب ٤٣٧ والحاسن للبيهقي ٢ : ١٣٣ .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : « مبتورا » .

الغِرة . والأناة وإن طالت [ فليست من جنس الريث <sup>(١)</sup> ] ، واتبهاز الفرصة وإن كان في غاية السرعة فليس من جنس العجلة .

وربت كلمة لا توضع إلا على معناها الذي جعلت حظه ، وصارت هي حقه والدالة عليه دون غيره ، كالخزم والعلم ، والحلم والرفق ، والأناة والندارة ، والقصد والعدل والاهتبال ، وكاليأس والأمل <sup>(٢)</sup> ، وكالخرق والعجلة ، والمداهنة والتسرّع ، والغلو والتقصير .

وربت كلمة تدور مع خلقتها ، وتتقلب مع جاراتها <sup>(٣)</sup> ، وإزاء صاحبها <sup>(٤)</sup> ، وعلى قدر ما تقابل من الحالات ، وتلاقى من الأسباب ، كالحب والبغض ، والغضب والرضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجدة والفتور <sup>(٥)</sup> ؛ لأن هذا الباب الأخير يكون في الخير والشر ، ويكون محموداً ويكون مذموماً .

وصاحب العجلة - أعزك الله - صاحب تغير ومخاطرة ، إن ظفر لم يحمله عالم ، وإن لم يظفر قطعته الملاوم . والريث أخو المعجزة ، ومقرون بالحسرة ، وعلى مدرجة اللائمة . وصاحب الأناة إن ظفر نفع غيره بالغنم ، ونفع نفسه بشمرة العلم ، وأطاب ذكره دوام شكره <sup>(٦)</sup> ، وحفظ فيه ولده . وإن حرم

(١) هذه الكلمة مساوقة لأسلوب الجاحظ ، وهي من مقترحات ناشر ط .

(٢) في الأصل : « اليأس والأمن » . وفي م : « اليأس والأمن » .

(٣) في الأصل : « جاراتها » ، وأثبت ما في م .

(٤) في الأصل و م : « وإرادة صاحبها » . وما أثبت أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٥) في الأصل : « والفتوة » ، صوابه في م .

(٦) م : « وطاب ذكره ، ودوام شكره » .

فبسط عذره ، ومصوب رأيه مع انتفاعه بعلمه وما يجد من عز حزمه ونبل صوابه<sup>(١)</sup> ، ومع علمه بالذي له عند العقلاء ، وبعذره عند الأولياء والأعداء .  
وما عندي لك إلا ما قال الدهقان<sup>(٢)</sup> لأسد بن عبد الله<sup>(٣)</sup> وهو على خراسان ، حين مرّ به وهو يدّهب في حبسه<sup>(٤)</sup> :

إن كنت تعطى من ترحم فارحم من تظلم<sup>(٥)</sup> . إن السموات تنفرج  
للدعوة المظلوم ، فاحذر من ليس له ناصر إلا الله ، ولا جنة إلا الثقة بنزول  
الغير<sup>(٦)</sup> ، ولا سلاح إلا الابتهال إلى مولى لا يعجزه شيء .

يأسد ، إن البغي يصرع أهله ، وإن الظلم مرتعه وخيم ، فلا تغترّ بإبطاء  
العقاب<sup>(٧)</sup> من ناصر متى شاء أن يغيث أغاث . وقد أملى لقويم كي يزدادوا

(١) في الأصل : « وقبل صوابه » ، صوابه في م .

(٢) الدهقان ، بالكسر : زعيم فلاحى العجم ، فارسي معرب .

(٣) هو أسد بن عبد الله القسري ، أخو خالد بن عبد الله ، كان خالد على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجلال ، وأخوه أسد على خراسان . وكان بدء ولايتهما في سنة ١٠٦ وعزلا سنة ١٢٠ . تاريخ الطبرى .

(٤) الدهق : التعذيب بالدهق ، وهو بالتحريك : خشبتان يغمز بهما الساق ، وهو بالفارسية « أشكنجه » . وفي الأصل : « في حبه » تحريف . وفي العقد ٢ : ١٦١ : « ومر أسد بن عبد الله القسري ، وهو إلى خراسان ، بدار من دور الاستخراج ، ودهقان يعذب في حبسه ، وحول أسد مساكن يستجدونه ، فأمر لهم بدراهم تقسم فيهم ، فقال الدهقان ... » .

(٥) في العقد : « إن كنت تعطى من يرحم فارحم من يظلم » الفعلان « يرحم » ، و « يظلم » بالبناء للمفعول .

(٦) الغير : اسم بمعنى تغير الحال . وفي الأصل : « التغير » .

(٧) في العقد : « الغيثات » .

إِثْمًا<sup>(١)</sup> . وَجَمِيعُ أَهْلِ السَّعَادَةِ إِثْمًا سَالِمٌ مِنْ ذَنْبٍ ، وَإِذَا تَارَكَ لِإِصْرَارٍ<sup>(٢)</sup> .  
وَمِنْ رَغْبٍ عَنِ التَّمَادَى فَقَدْ نَالَ أَحَدُ الْغَنَمِينَ ، وَمَنْ خَرَجَ مِنَ السَّعَادَةِ فَلَا غَايَةَ  
لَهُ إِلَّا دَارُ النَّدْوَةِ<sup>(٣)</sup> . وَسِوَاهُ - جُعِلَتْ فِدَاكَ - ظَلَمْتَ بِالْبَطْشِ وَالْفَشْمِ ،  
أَوْ ظَلَمْتَ بِالْأَدْحَسِ وَالْدَّسِّ<sup>(٤)</sup> . فَشَاوِرْ لَبَّكَ ، وَنَاطِرْ حَزْمَكَ ، وَقِفْ قَبْلَ  
الْوَثْبَةِ ، وَاحْذَرْ زَلَّةَ الْعَالَمِ .

وَقَدْ قَالَ صَاحِبُكُمْ : مِنْ اسْتِشَارِ الْمَلَالَةِ وَقَلْدِ طَبِيعَتِهِ الْاسْتِطْرَافَ ، وَجَعَلَ  
الْخَطْرَةَ ذَنْبًا<sup>(٥)</sup> ، وَالذَّنْبَ ذَنْبًا ، وَمَقْدَارَ الطَّرْفَةِ إِصْرَارًا ، وَالصَّغِيرَ كَبِيرًا ،  
وَالْقَلِيلَ كَثِيرًا ، عَاقِبَ<sup>(٦)</sup> عَلَى الْمَتْرُوكِ الَّذِي لَا يُعْبَأُ بِهِ ، وَبَلَغَ بِالْبَطْشِ إِلَى حَيْثُ  
لَا بَقِيَّةَ مَعَهُ<sup>(٧)</sup> ، وَرَأَى أَنَّ الْقَطِيعَةَ الَّتِي لَا صِلَةَ مَعَهَا ، وَالتَّخْلِيَجَ الَّذِي لَا تَجْمُلُ  
مَعَهُ ، الْحَزْمُ الْحَمُودُ ؛ وَأَنَّ الْاعْتِزَامَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ هُوَ الرَّأْيُ الْأَصِيلُ .

وَقَالَ أَيْضًا : مَنْ كَانَتْ طَبِيعَتُهُ مَأْمُونَةً عَلَيْهِ عِنْدَ نَفْسِهِ ، وَكَانَ هَوَاهُ رَائِدَهُ  
الَّذِي لَا يَكْذِبُهُ ، وَالتَّأَثُّرُ عَلَيْهِ دُونَ عَقْلِهِ ، وَلَمْ يَتَوَكَّلْ لِمَا لَا يَهْوَاهُ عَلَى

---

(١) إِلَى هُنَا يَنْتَهِي نَصُّ الْعَقْدِ . وَفِيهِ : « وَقَدْ أَمَلَى لِقَوْمٍ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا .  
فَأَمْرٌ أَسَدٌ بِالْكَفِّ عَنْهُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْإِصْرَارُ » .

(٣) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَجَعِلَتْ فِي ط : « الشَّقْوَةُ » .

(٤) الدَّحْسُ : التَّدْخِيسُ لِلْأُمُورِ تَسْتَبْطِنُهَا وَتَطْلُبُهَا أَخْفَى مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ .

(٥) الْخَطْرَةُ : مَا يَقَعُ بِالْبَالِ وَالْوَهْمِ .

(٦) فِي الْأَصْلِ : « وَعَاقِبَ » ، وَالْوَاوُ مَقْحَمَةٌ .

(٧) الْبَقِيَّةُ : الْإِبْقَاءُ وَعَدَمُ الْمُبَالَغَةِ فِي الْإِفْسَادِ .

ما يهواه<sup>(١)</sup> ، ولم ينصر تالد الإخوان على الطارف ، ولم ينصف المملول المبتد من المستطرف المقرّب ، ولم يخف أن تجتذبه العادة ، وتحكم عليه الطبيعة ، فليرسم حُجَجَهما ، ويصور صورهما ، في كتاب مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يعرضهما على جهاذة المعاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار إلّا من لا يدرى أيّ النوعين ينبغي ، وعلى أيّهما يحامى ، وأيّهما دواؤه وأيّهما دأؤه . فإن لم يستعمل ذلك بما فضل له من سكر سوء العادة ، لم يزل متورطاً في الخطاء مغموراً بالذم<sup>(٢)</sup> .

سمعتك وأنت تريدني وكأنك تريد غيري ، وكأنك تشير على من غير أن تنصني . وتقول : إني لأعجب ممن ترك دفاتر علمه متفرقة مبثوثة ، وكراريس درسه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتجرّم<sup>(٣)</sup> ، وكيف لا يمنعها من التفرّق<sup>(٤)</sup> . وعلى أن الدفتر إذا انقطعت حزامته<sup>(٥)</sup> ، وانحلّ شداده ، وتخرّمت رُبَطُه ، ولم يكن دونه وقاية ولا جنة ، تفرّق ورقه ؛ وإذا تفرّق ورقه اشتدّ جمعه ، وعسر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربّما ضاع أكثره . والدفتان أجمع ، وضّمّ الجلود إليها أضون ، والحزم<sup>(٦)</sup> لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تنظم وللأشياء أن تؤلّف ؛ فإن التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسناً ، والاجتماع

(١) في الأصل : « ولم يتوكل لما يهواه » فقط ، وأثبت نص م .

(٢) م : « بالذنب » .

(٣) التجرم ، من الجرم وهو القطع . وفي م : « للتخرم » من الحرم .

(٤) م : « التخرق » .

(٥) الحزمة والحزام : اسم لما شد به .

(٦) الأصل : « والحرز » ، صوابه من م .

يحدث للمساوى<sup>(١)</sup> في الضعيف قوة . فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت بعضها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ؛ فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها .

وإذا كانت منظومة ، ومعروفة المواضع معلومة ، لم تحتج إلى تقليب ٩٦ ظ القماطر على كثرتها ، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت عليك مؤوتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك ، وادخرت تلك القوة لفوائدك .

وعلى أن ذلك أدل على حبك للعلم ، واصطناعك للكتب ، وعلى حسن السياسة ، والتقدم في إحكام الصناعة .

وقلت : لأمر ما جمعوا أسباع القرآن<sup>(٢)</sup> وسوره في مصحف ، ولم يدعوا ما فيه مفرقا في الصدور ، ولا مبددا في الدفاتر ، ومفرقا في القماطر . على ذلك أجمع المسلمون ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة المحموده ، فتوارثه خلف عن سلف ، وتابع عن سابق ، وصغير عن كبير ، وحديث عن قديم .

ولم أشك في أنها نصيحة حازم ، ومشورة وامق ، أو رأي حصر أو حكمة

(١) في الأصل : « للمساوى » ، وأثبت ما في م .

(٢) تكفل أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب قديما في أماليه ٦٣ — ٧٠ بيان نصف القرآن وأثلاثه وأرباعه وأخماسه وأسداسه وأسباعه وأثمانه وأتساعه وأعشاره . رواية عن حميد الأعرج وكذا فعل السجستاني بعده في المصاحف ١٢٥ — ١٣٠ . رواية عن حميد أيضا .

نَبَتْ ، أو صدرٌ جاش فلم يُملِك ، أو علمٌ فاض فلم يُردِّ ، استعمله من استعماله ، وتركه من تركه .

فلما أخذتُ بقولك ، وصرتُ إلى مشورتك وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتِكَ من العلم وحَظَّ عنايتِكَ من النَّقْلِ<sup>(١)</sup> ، وجمعتُ البعض إلى البعض<sup>(٢)</sup> ، والشَّكل إلى الشَّكل ، وتقدَّمتُ في استجادة الجلود ، وفي تمييز الصَّنَاع ، وفي تحيُّر البياعات<sup>(٣)</sup> ، وغرِمتُ المال ، وشغلتُ البال ، وجعلتها مصحفًا مصحفًا ، وأجملتها صِنْفًا صِنْفًا ؛ ورأيتُ أني قد أحكمتُ شأني ، وجمعتُ إلى أقطاري ، رأيتُ أن أنظر فيها وأنا مستلقٍ ولا أنظر فيها وأنا منتصبٌ ، استظهارًا على تعبِ البدن ؛ إذ كانتِ الأسافل مُثْقَلَةً بالأعلى ، وإذ كان الانتصاب يُسرِّع في إدخال الوهن على الأصلاب ؛ ولأنَّ ذلك أبقى على نور البصر ، وأصلح لقوَّة الناظر ؛ إذ كُلُّ واحدٍ من هذه المصاحف قد أعجزَ يدي بِثَقَلِ جِرْمِهِ ، وضيقِ صدرِي بِجَفَاءِ حِجْمِهِ . وإذا ثَقُلَ أنْكَاءُ الصدر ، وأوهنَ العظم .

(١) في الأصل : « وحط عناية » .

(٢) هذا من شواهد استعمال « بعض » مقرونة بأل في قديم الآثار . وإن كان الأصمعي قد أنكره أشد الإنكار حين سئل عن قول ابن القفَّع : « العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » . وأنكره أبو حاتم أيضاً وقال : « ولا تقول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعمله الناس حتى سيئويه والأخفش في كتبهما لقلة علمهما بهذا النحو ، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب » . وقال الأزهرى : « النحويون أجازوا الألف واللام في بعض وكل وإن أباة الأصمعي » . اللسان ( بعض ) .

(٣) في الأصل : « الساعات » ، وليس لها وجه ، والوجه ما أثبت . والبياعات : الأشياء التي يتبايع بها في التجارة . وانظر الحيوان ٤ : ٣٦٩ . وفي اللسان : « والبياعة : السلعة » .



وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالسٌ سَدِرْتُ عيني<sup>(١)</sup> ، وتقوَّسَ ظهري ،  
واجتمع الدمُ في وجهي ، وأكرهْتُ بَصْرِي على غير جِهته ، وأجريت شُعاع  
ناظري في غير مجراه .

٩٧ و

وقد علمتَ - أبقاك الله - مع خبرتك بمقايح الأمور ، ومواقع المنافع  
والمضارِّ ، ثم بمصالح العباد والبلاد ، أنَّ من كان على مَقْطَعِ جبل ، أو على  
شُرُفاتِ قصر ، فأراد رؤية السماء على بُعدها ، وجد ذلك على العين سهلاً  
خفيفاً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قُربها ، وجد ذلك على العين عِثّاً  
ثقيلاً . فإن بدالى أن يُقابل عيني به العبدُ ، أو تُواجهني به الأمة ، كلَّفتُ  
أُحرق النَّاسَ كُفّاً ، وأقلَّهم وَفَقاً<sup>(٢)</sup> ، وأكثَرهم التفاتاً ، وأحضرهم نعاساً ،  
وأقلَّهم على حالٍ واحدةٍ ثباتاً ، وأجهلهم بمقدار الموافقة ، ولمقادير المقابلة ،  
وبحطِّ اليد ورفعها ، وإمالتها ونصبها . ثم رأيتُ في تضجُّرهم وتكرُّههم  
وفِرارهم منه ، ماصيِّرَ تجشُّمٍ لثقل وزنه ، ومُقاساتٍ لجفاء حَجْمه ، أهونَ على  
يدي ، وأخفَّ على قلبي . فإن تعاطيته عند ذلك بنفسى فشقاء حاضر ،  
وإن ألزمتُه غيرى فغيظٌ قاتل . وحتى صارت الحال فيها داعيةً إلى تركِ دَرَسِها  
والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة ، والمنافع الجامعة ، ومن  
شَحْدِ الطبيعة ، وتمكين حُسن العادة .

ولو لم يكن في ذلك إلا الشُّغْلُ عن خَوْضِ الخائضين ، والبُعدُ عن لُهو  
اللاهين ، ومن الغيبة للناس والتمنى لما في أيديهم ، لقد كان نفعُ ذلك كثيراً ،  
وموقعه من الدين والفرض عظيماً .

---

(١) سدر بصره سدرآ : تحير فلم يكدر يبصر . (٢) الوفاق ، بالفتح : الموافقة .

ومتى ثَقُلَ الدرس تشاقلت النفس ، وتقاعست الطبيعة . ومتى دام الاستئفال أحدثَ الهجران . وإذا تطاولَ الكدّ رَسَخَ الزُّهْد . وفي ترك النَّظَر عَمَى البَصَر ، وفي إهمال الطبيعة كلال حدّ الطبيعة . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما أنّه على قدر غريزة العقل تصحُّ الحوائج<sup>(١)</sup> وتَسَقِّمُ ، وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرّك الجارحة ويتصرّف اللسان ، ومع قلة الحركة وبُعد العهد بالتصرّف يَحْدُثُ العي ويظهر العجز ويُعطى الخاطر . ومع ذهاب البيان<sup>(٢)</sup> يفسد البرهان ، وفي فساد البرهان هلاكُ الدُّنيا وفساد الدِّين .

٩٧ ظ

فقد بلغت ما أردتَ ، ونِلتَ ما حاولت . فحسبك الآن من شجّ من بأسوك ، ومن قُتِل من يُقَتِّل فيك .

جُعِلتَ فداك . إنّه ليس يومى منك بواجد ، وأنا على عقابك أوجد . وليس يُنَجِّينى منك مَعْقِلٌ وَعِلٌ ، ولا مَفَاذَةٌ سُبْعٌ ، ولا قَعْرٌ بِحَرٍ ، ولا رَأْسٌ طُودٌ ، ولا دَغَلٌ ولا دَحْلٌ<sup>(٣)</sup> ، ولا نَفَقٌ ولا مَفَارَةٌ ولا مَطْمُورَةٌ . وليس ينجيني منك إلّا مَفَاذَةُ المَهْلَبِ<sup>(٤)</sup> . فإن أعرتنى قلبه وعلمتنى حيلته ، وأمكنتنى من سِكِّينِهِ . وإلّا فأنا أوّل من ابتلعتَه تلك الحَيَّة . ولا والله إنْ بى

(١) فى الأصل : « الجوانح » . والجوانح : الضلوع ، أو القصار منها . والوجه ما أثبت . وانظر ما قبله وما بعده .

(٢) بهذا صحتها ناشر ط . وفى الأصل : « البرهان » .

(٣) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير الملتف . والدحل ، بالفتح : هوة تكون فى الأرض وفى أسافل الأودية يكون فى رأسها ضيق ثم يتسع أسفلها . وفى الأصل : « دخل » تصحيف .

(٤) كذا فى الأصل .

قوةً على الثعبان<sup>(١)</sup>، فكيف التَّين . أعفني من حية المهلب ثم اقتلني أيّ قتلةٍ شئت .

إن احترستُ منك ألفتِ لنفسى كدًّا شديدًا ، وغمًّا طويلًا ، وطال اغترابي وافتراقُ الألفي ، وتعرّضت للعدوّ ، وتحرّشت بالسباع . فإن استرسلتُ إليك لم ترأن تقتلني إلّا شرًّا قتلةٍ وآلها ، ولم تعذبني إلّا بأشدّ النّقم وأطولها . ولو أردت ذبحي لاخترت الكليل على المُرْهَف ، والتّطويل على التّذيف<sup>(٢)</sup> ، حتى كأنّي علّمت عليك : « شاه مات<sup>(٣)</sup> » ، أو أكلت سبعةً وأطعمتُك واحدة .

ولقد تقدّمت في المكر واستظهرت علىّ في الكيد ، حتى تولّيت ذلك في صفار كتبي وفيما لا تحفل به من دوام أمرى ، وعلمت أن الدّرس لليل وأن الا . . . . .<sup>(٤)</sup> للنهار ، وأنّ الكتاب لا يقرأ إلّا ليلاً والنّيرانُ زاهرة ، والمصاييح مُقرّبة . وعلمت أنّ كلّ من ضُف بصره وكلّ نظره ، فإنّه أبداً أقربُ مصباحاً وأعظم ناراً . وأنّ<sup>(٥)</sup> الحرور المحترق ، والمعور الملهب ، والبأس التّهافت ، إذا كان صاحب كتب ودرس ، أنّه لا يجد

---

(١) أى ما بى قوة عليه .

(٢) التذيف بالذال المعجمة : الإسراع في القتل .

(٣) أى لحقك من الغيظ ما يلحق اللاعب بالشرنج من قول صاحبه له : « شاه مات » .

(٤) يياض في الأصل . وإزاءه في هامش النسخة « حراوبه » .

(٥) في الأصل : « فإن » .

بدأ من الصبر على ما يُحرقه ويُعميه ، أو الترك للقراءة فيها والتعرض لها .  
نَجَّرتني بين العمى والجهل . وما فيهما حظٌ لختار .

وقلت : إذا سَخُنَ <sup>(٢)</sup> بدنه سُجِنَ بوله ، وإذا سُجِنَ بوله جَرَحَ مثانته  
وأحرق كلَّيته ، وطَبَخَ فضول غِذائه ، وجَفَّفَ ما فضل عن استمرائه فأحاله  
حصَى قاتلاً وصخرأ جامداً ، وهو دقيق القضيْب ضيق الإحليل ، فإذا  
حصاه يورثه الأسر <sup>(٣)</sup> ، وفي ذلك الأسر تلفُ النفس أو غاية التعذيب .

وقلت : فإن ابتليتُ بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهبَ  
عنا فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره .

٩٨ و

جُعِلْتُ فِداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ؟ ! وما هذا التثبُّع  
لغوامض المسألة ، والتعرض لدقائق المكروه ؟ ! وما هذا التغافل في كل  
شيءٍ يُحمَلُ ذكرى ؟ ! وما هذا الترقُّ إلى كلِّ ما يحطُّ من قدرى ؟ !  
وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصَّيْنِيّ ، ومن الكاغد  
الخُرَّاساني ؟ !

قل لي : لِمَ زَيَّنْتَ النَّسَخَ في الجلود ، ولمَ حَثَّنِي على الأَدَم ، وأنت  
تعلم أنَّ الجلودَ جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلت ، وإن كان  
يومٌ لثَقِيَ استرخت . ولو لم يكن فيها إلَّا أنَّها تبغض إلى أربابها نزول الفيث ،  
وتكره إلى مالكيها الحيا ، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها .

(١) في الأصل : « سجن » .

(٢) الأسر ، بالضم : احتباس البول . في الأصل : « فأرى حصاه » .

قد علمت أنّ الوراق لا يخطُّ في تلك الأيام سطرا ، ولا يقطع فيها جلدا . وإن نَدِيت - فضلا على أن تُمطر ، وفضلاً على أن تَفرق - استرسلت فامتدّت . ومتى جفت لم تعد إلى حالها إلاّ مع تقبُّض شديد ، وتشنُّج قبيح . وهي أثنى ريحاً وأكثر ثمناً ، وأحمل للغش : يُغشُّ الكوفى بالواسطى ، والواسطى بالبصرى ، وتعتق لكى يذهب ريحها وينجّاب شعرها <sup>(١)</sup> . وهي أكثر عُقداً وعُجراً ، وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصُّفرة إليها أسرع ، وسُرعة انسحاق الخطِّ فيها أعم . ولو أرادَ صاحبُ علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حملُ بعير . ولو أرادَ مثل ذلك من القُطنى <sup>(٢)</sup> لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لى : عليك بها فإنها أحمل للحكِّ والتغيير ، وأبقى <sup>(٣)</sup> على تعاور العارية وعلى تقلاب الأيدى ، ولرَدِّ يدِها ثمن ، ولطرسها مرجوع ، والمعاد منها ينوب عن الجُدُد . وليس لدفاتر القطنى أثمانٌ في الشوق وإن كان فيها كلُّ حديث طريف ، ولَطَفٍ مليح ، وعلم نفيس . ولو عرضتَ عليهم عدّها في عدد الورق جلوداً ثم كان فيها كلُّ شعر بارد وكلُّ حديث غث ، لكانت أئمن ، وكانوا عليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين ، وفي الصِّكّاك والعهود ، وفي الشُّروط وصورَ العقارات . وفيها تكونَ نماذجات النقوش ،

(١) في الأصل : « شعره » .

(٢) أى المصنوع من القطن .

(٣) في الأصل : « وأبقى » .

ومنها تكون خرائط البرد<sup>(١)</sup> . وهنَّ أصلح للجرب ولعفاص الجرّة وسداد القارورة . وزعمت أن الأرضة إلى الكاغد أسرع ، وأنكرت أن تكون الفأرة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكنت سببَ المضرة في اتخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكنت سببَ البلية في تحويل الدفاتر الخفاف في المحمل ، إلى المصاحف التي تُنقل الأيدي وتحطّم الصدور ، وتقوّس الظهور ، وتعمى الأبصار .

وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن دون كل مجلد<sup>(٢)</sup> ، وألّا يرؤموا جمع شيء من أبواب التعلم بين الدفتين ، فيلحقوا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم .

دع عنك كل شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولدٌ يحبي ذكري ويحوى ميراثي ، ولا أخرج من الدنيا بحسرتي ، ولا يأكله مُراة يرصّدي ، وابن عمّ يحسّدي ، ولا يرتع فيه المعدّلون في زمان السوء<sup>(٣)</sup> ، ولا تُصطنع فيه الرجال ، ويُقضَى به الدّمام . فقد رأيت صنيعهم في مال المفقود والمناسخة<sup>(٤)</sup> والوارث الضعيف ، ومن مات بغير وصية .

(١) الخريطة : هنة مثل السكيس تكون من الحرق أو الأدم تشرح على مافها . والبرد : جمع برید .

(٢) الجاحظ استعمل كلمة « المصحف » للدلالة على المجلد في نهاية كل جزء من أجزاء الحيوان . انظر مقدمة الحيوان ص ٣٨ .

(٣) المعدلون : الذين يقيمون الأحكام .

(٤) التناسخ والناسخة في الميراث : موت ورثة بعد ورثة وأصل الميراث قائم لم يقسم .

من تدبيرهم نادراً [ بديعاً<sup>(١)</sup> ] ، وكان في مكايدهم شاذاً غريباً . وإنها لترتفع عن قصير في كيد الزبّاء ، وعن جذيمة في مشاورة قصير . وما إخالها إلا ستدقُّ على ابن العاص ، وتغمض على ابن هند<sup>(٢)</sup> ، ويكلُّ عنها أخو ثقيف<sup>(٣)</sup> ، ويستسلم لها ابن سُميَّة<sup>(٤)</sup> .

هذا والله التدبير لا تخاريق العرّاف ، وتزاويق الكاهن ، وتهاويل الخاوي<sup>(٥)</sup> ، ولا ما ينتحلها صاحب الرئي<sup>(٦)</sup> ؛ بل تصل فيها رقي الهند ، وتقرُّ بها سحرة بابل .

فلو كنت إذ أردت ما أردت ، وحاولت ما حاولت ، رفعت قبل كل شيء المؤانسة ، ثم أبيت المؤاكلة ، ثم قطعت البر<sup>(٧)</sup> ، ثم أذنت مع العامة ، ثم أعملت الحرمان ، ثم صرّحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت الحبل ، ثم عادت واقتصدت ، ثم من بعد ذلك كله أسرفت واعتديت ، لكنت

(١) التكملة من ب .

(٢) هو عمرو بن هند .

(٣) يعني الحجاج بن يوسف .

(٤) يعني زياد بن أبيه .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .

(٦) الرئي : جنى يتعرض للرجل يريه كهانة وطبا ، يقال مع فلان رئي وقد أراى الرجل ، إذا صار له رئي من الجن . في الأصل : « صاحب الرئي » وفي ب : « ينتجها صاحب الدين » ، والصواب ما أثبت . انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ . ٢٠٣ : ٦ .

(٧) في الأصل : « السر » .

واحداً ممن يصبر أو يجزع ، فلعلّي كنت أعيش بالرفق<sup>(١)</sup> ، وأتبلغ بحُشاشة النفس ، وأعلّل نفسي بالطمع الكاذب . ولكن فجاءت الحوادث وبَغَتَات البلاء لا يَقُوم لها الحجر القاسي ، ولا الجبل الراسي . فلم تدعْ غايةً في صرف ما بين طبقات التعذيب إلّا أتيت عليها ، ولا فضولَ ما بين قواصم الظهر إلّا بلغتْها . فقد مِتُّ الآن فَمَنْ تَعِيش ؟ [ بل قد قتلتنى فَمَنْ الآن تعاشر<sup>(٢)</sup> ! ] ، كما قال ديوست المغني لكسرى حين أمر بقتله لِقَتْلِهِ تلميذه بلهيد<sup>(٣)</sup> : قتلْتُ أنا بلهيد ، وتقتلني ، فمن يُطرُبُك ؟ قال : خلّوا سيده . فإنّ الذي بقي من عمره هو الذي أنطقه بهذه الحجّة .

ولكنّي أقول : قد قتلتنى فَمَنْ تَعِيش ؟ أَمَعَ الشُّطْرُنَجِيِّينَ ؟ ! فقد قال جالينوس : إِيَّاكَ والاستمتاع بشيء لا يعمُ نفعه<sup>(٤)</sup> .

إنَّ الكلامَ إنما صار أفضل من الصَّمْتِ ؛ لأنَّ نفع الصمت لا يكاد يعدو الصَّامَت ، ونفع الكلام يعمُّ القائل والسامع ، والغائب والشاهد ، والراهن والغابر .

وقالوا : ومما يدلُّ من فضل الكلام على الصمت ، أنّك بالكلام تخبر عن الصَّمْت وفضله ، ولا تخبر بالصَّمْت عن فضل الكلام . ولو كان

(١) الرفق ، بالتحريك : قلة المال ولعل صوابها « الرقيق » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) في الأصل « بلهيد » في هذا الموضع وتاليه .

(٤) الكلام بعده إلى قوله « من سلم » يبدو أنه دخيل من رسالة أخرى ، كما تنبه لذلك ناشرنا ط .



الصمتُ أفضلُ لكانت الرسالة صمتًا ، وكان عدمُ القرآن أفضلَ من القرآن .

وقد فرّق بينهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفَصَّلَ وميَّزَ وحَصَّلَ ، حيث قال : « رحم الله امرأً قال خيراً ففهم ، أو سكتَ ففهم » . فجعل حظَّ السكوت السلامة وحدها ، وجعل حظَّ القول الجمعَ بين الغنيمة والسلامة . وقد يسلم من لا يفهم ، ولا يفهم إلّا من سلم .

فأمّا الدوابُّ فمن يضع المركبَ الكريمَ إلى الصّاحب الكريم ؟ ومن يعدل إمتناع بهيمة بإمتناع أديب .

قالت ابنة الثّمان : لم نر فيما جرّبنا من جميع الأصناف أبلغَ في خيرٍ وشرٍّ ١٠٠ و من صاحب .

ولمّا عزمَ ابن زياد على الحفنة بعد أن كان تفحّشها قال له حارثةُ بن بدر : ما أجد أولى بتولّي ذلك من الطيب . قال عُبيد الله : كلاً ، فأين الصاحب . والله أن لو تُنتجتَ في كلّ عام ألف شَبْدِيز<sup>(١)</sup> ، وأُحبلت<sup>(٢)</sup> في كلّ ليلة أربعة آلاف ربرب ، وصار لك كلّ نهر المبارك<sup>(٣)</sup> بدلاً من بعض بابك<sup>(٤)</sup> .

(١) الشبديز : ضرب من الخيل قاتم اللون أصداً ، ولفظه فارسي . معجم استينجاس ٧٣١ . وفي الأصل : « سبدین » ، صوابه في ب .

(٢) في الأصل : « وقمرت » وأثبت ما في ب .

(٣) اسم نهر بالبصرة احتفروه خالد بن عبد الله القسري لهشام بن عبد الملك . وفي الأصل : « البرك » .

(٤) بابك ، بفتح الباء الثانية : نهر في بغداد منسوب إلى بابك بن بهرام بن بابك . معجم البلدان (نهر الطابق) .

وأكلت رأس الجنييد بن حاق الأشيم<sup>(١)</sup>، وأحببت ابن العز<sup>(٢)</sup> من إفراط الشبق، لما كان ينبغي لك أن تعاملنا بهذه المعاملة، ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القتلة، ولو اقتصرت من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل، ولو عفوت البتة لكان أمثل.

إن الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره، ومبتدئ العقاب بعرض لجأج. وليس يعاقب إلا غضبان.

والغضب يغلب العزم على قدر ما مكن، ويخير اللب بقدر ما سُلط. والغضب يصور لصاحبه مثل ما يصور السكر لأهله.

والغضبان يشعله الغضب، ويغلي به الغيظ، وتستفرغه الحركة، ويمتلئ بدنه رعدة، وتتزايد أخلاطه، وتنحل عُنقه، ولا يعتريه من الخواطر إلا ما يزيد في دأئه، ولا يسمع من جلسه إلا ما يكون مادةً لفساده. وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع، واحترق حتى لا يفهم.

ولولا أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله، ولا يقصر في عاداته، لما وسوس إلى الغضبان ولا زين له، ولما أغراه ولا فتح عليه؛ إذ كان قد كفاه، وبلغ أقصى مناه.

وليس يصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء إلا صرعه، ولا يئازعه قبل انتهائه وإدباره شيء إلا قهره. وإنما يئازعه قبل هيجه،

---

(١) كذا ورد هذا العلم.

(٢) ابن العز: رجل من إباد يزعمون أنه كان أعظم الناس عضواً وأشدهم نكاحاً. ثمار القلوب ١١١ - ١١٢ وأمثال الميداني ٢: ٢٧٣ في قولهم (أنكح من ابن العز) واللسان (لعز). وفي الأصل: «واحتلت بين العز»، صوابه في ب.

وَيُتَوَقَّعُ مِنْهُ قَبْلَ حَرَكَتِهِ ، وَيُتَقَدَّمُ فِي حَسْمِ أَسْبَابِهِ وَفِي قَطْعِ عِلَلِهِ . فَإِذَا  
تَمَكَّنَ وَاسْتَفْجَلَ ، وَأَذْكِي نَارِهِ وَاشْتَعَلَ ، ثُمَّ لَاقَى ذَلِكَ مِنْ صَاحِبِهِ قُدْرَةً ،  
وَمِنْ أَعْوَانِهِ سَمْعًا وَطَاعَةً ، فَلَوْ سَعَطَتْهُ بِالتَّوْرَةِ ، وَوَجَرَتْهُ بِالْإِنْجِيلِ ، وَلَدَدَّتْهُ  
بِالزَّبُورِ<sup>(١)</sup> ، وَأَفْرَغَتْ عَلَى رَأْسِهِ الْقُرْآنَ إِفْرَاغًا ، وَأَتَيْتَهُ بَادِمٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَنِيعًا  
لِمَا قَصَّرَ دُونَ أَقْصَى قُوَّتِهِ ، وَلْتَمَنَّى أَنْ يُعَارَى أَوْعَافُ قُدْرَتِهِ .

وقد جاء في الأثر : أن أقرب ما يكون العبدُ من غضب الله إذا غضب . . .  
قال قتادة : ليس يُسكن الغضب إلا ذكر غضب الرحمن عز وجل .  
وقال عمرو بن عبيد : ذكر غضب الرب يمنع من الغضب . إلا أن يريد  
الذكر باللسان<sup>(٢)</sup> .

ويسمى المتوجّد غضبان ، والدّكُور حقودا .

فلا تقف - حفظك الله - بعد مضيك في عقاير التماسا للعفو عني ،  
ولا تقصّر عن إفراطك من طريق الرحمة لي ؛ وسك فقف وقفة من يتهم  
الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، ويعلم أن للعقل خصوصًا ،  
وللكرم أعداء .

وإن من النّصف أن تنتصف لعقلك من خوسه . . . تنتصف لكرمك من  
عدوه ، وتمسك إمساك من لا يبرئ نفسه من الله ، ولا يبرئ الهوى  
من الخطأ .

(١) سعطه الدواء : أدخله في أنفه بالمسكة . الدواء : أدخله في فمه

بالميجر . ولده باللدود : صبه بالمسك في أحد شقي

(٢) أي إن ذكر غضب الرحمن باللسان لا يصح . بما مراده

بالقلب والفكر .

ولا تُنكر لنفسِكَ أن تزلَّ ، ولعلَّكَ أن يهفُو ؛ فقد زلَّ آدمُ عليه السلامُ وهفَا ، وعصى ربَّه وَغَوَى ، وغرَّه عدُوُّه وخدعه خصمه ، وعيب باختلال عزمه وسكون قلبه إلى خلاف ثقته<sup>(١)</sup> . هذا وقد خلقه الله بيده ، وأسكنه في دار أمنه ، وأسجد له ملائكته ، ورفع فوق العالمين درجته ، وعلمه جميع الأسماء بجميع المعاني . ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنى لغوٌ ، كالظَّرف الخالي . والأسماء<sup>(٢)</sup> في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح . اللفظ للمعنى بدنٌ ، والمعنى للفظ روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معاني لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لا حسَّ فيه ، وشيئاً لا منفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسماً إلا وهو مضمَّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا اسم له ، ولا يكون اسمٌ إلا وله معنى .

في قوله جلَّ ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾<sup>(٣)</sup> إخبارٌ أنه قد علمه المعاني كلها . ولسنا نغني معاني تراكيب الألوان والطُّعوم والأراييح ، وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهي ولا تنهاى . وليس لما فضل عن مقدار المصلحة ونهاية الرسم اسمٌ إلا أن تدخله في باب العلم فتقول : شيء ، ومعنى .

الأسماء التي تدور بين الناس إنما وُضعتْ علاماتٍ لخصائص الحالات ،

(١) في الأصل : « نعته » ، وأثبت ما في ب .

(٢) في الأصل : « والاسم » .

(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لا لتأنيج التركيبات . وكذلك خاصّ النخاصّ لا اسم له إلا أن تجعل الإشارة المقرونة باللفظ اسماً .

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري إنها لتُحيط بها وتشتمل .

فأما العلوم المبسطة فإنها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنتهى . ١٠١ و

فإذا زعمت أن الله تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها بمعانيها ، فإنما تعنى نهاية المصلحة لا غير ذلك . هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو سماوى وأنت أرضى ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوة والفرع أولى بالضعف .

فلست أسالك أن تمسك إلا ربما تسكن إليك نفسك ، ويرتد إليك ذهنك ، وحتى توازن بين شفاء الغيظ والانتفاع بثواب العفو ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحذوثة ، وترى تضرثم الغضب<sup>(١)</sup> وما يفضى لأهله من فضل القوة .

على أن العقل إذا تخلّص من سُكر الغضب أصابه ما يُصيب الخمور إذا خرج من سكر شرابه ، والمنهزم إذا عاد إلى أهله ، والمُبرسم إذا أفاق من برسامه<sup>(٢)</sup> .

وما أشك أن العقل حين يُطلق من إساره كالمقيد حين يفك من قيوده ؛ يمشی كالنزيه ، ويمجّل كالغراب . فإذا وجب عليك أن تحذر على عقلك مُحامرة داء الغضب بعد تخلّصه ، وأن تتعمّده بالعلاج بعد مباينته له وتخلّصه

(١) في الأصل : « الغرض » .

(٢) البرسام : ذات الجنب ، وهو التهاب في الغشاء المحيط بالرئة . المعجم الوسيط .

من يده ، فما ظنك به وهو أسيرٌ في مُلكه ، وصريع تحت كلِّكه ، وقد غطَّه في بحره ، وغمره بفضل قوّته .

وقد زعموا أنَّ الحسَنَ حضرَ أميراً قد أفرطَ في عقوبة بعض المذنبين ، فكلَّمه فلم يحفل بكلامه ، وخوّفه فلم يتعظ بزجره ، فقال : إنك إنما تضرب نفسك ، فإن شئت الآن فأقلِّ ، وإن شئت فأكثر .

ومعاذ الله أن أقول لك كما قال الحسنُ لذلك الظالم المعتدى ، والمصمِّم القاسي ، ولكني أقول : اعلم أنك تضرب من قد جعلك من قتله في حلٍّ . وإن كان القتل يحل بإحلال المقتول ، ويسقط عنه عقابُه بهبة المظلوم ؛ ولو أمكن في الدين تواهبُ قصاص الآخرة في الدنيا ؛ وإن كان ذلك مما تجود به النفس يوم الحاجة إلى الثواب وإلى رفع العقاب ، وكان الوفاء مضموناً - لكنتُ أوَّل من أسمحت بذلك <sup>(١)</sup> نفسه ، وانشرح به صدره .

جُعِلت فداك ، إنِّي قد أحصيتُ جميع أسباب التعادى ، وحصلت جميع عِلل التضاعن ، إلّا علةَ عداوة الشيطان للإنسان ؛ فإنِّي لا أعرف إلّا مجازها في الجملة ولا أحقَّ خاصتها على التحصيل . وعلى حال <sup>(٢)</sup> فقد عرفتُها من طريق الجملة وإن جهلتُها من طريق التفصيل . فأما هذا التجنّي فلم أعرفه في خاصٍّ ولا عامٍّ .

فمن أسباب العداوات تنافسُ الجيران والقرايات ، وتحاسدُ الأشكال في الصناعات . ومن أمتن أسبابهم إلى الشرِّ وأسرعها إلى المروءة والعقل ،

(١) في الأصل : « ذلك » . أسمحت : أطاعت وانقادت .

(٢) كذا في الأصل وب . وإخاها من لغة الجاحظ ، وليس ما يدعو إلى أن تجعل

« وعلى كل حال » .

وأفدحها في العرض وأحطبها على الدين<sup>(١)</sup> ، التشاحُّ على الموارث ، والتنازع في تخوم الأرضين . فإن اتَّفَقَ أن يكون بين المتشاكِلين في القرابة كان السببُ أقوى ، والداءُ أدوى . وعلى حساب ذلك إن جمعتَ هذه الخصومةَ مع الجوار والقرابة واستواء الحظِّ في الصناعة . ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى قضاته : أن ردُّوا القربات عن حرِّ القضاء<sup>(٢)</sup> فإن ذلك يورث التضاضن . ولم أعجب من دوام ظلمك ، وثباتك على غضبك ، وغِلَطَ قلبك ، ودُورُنَا بالعسكر متجاورة ، ومنازلنا بمدينة السَّلام متقابلة ، ونحن ننظر في عليم واحد ، ونرجع في النحلة إلى مذهب واحد ؛ ولكن اشتدَّ عجبِي منك اليوم وأنا بفرْغانة وأنت بالأندلس<sup>(٣)</sup> ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب نتاج ، وصناعتك جودة الخطِّ وصناعتِي جَوْدَةُ الحوِّ<sup>(٤)</sup> ، وأنت كاتبٌ وأنا أمِّي ، وأنت خراجيُّ وأنا عُشريُّ ، وأنت زرعِيُّ وأنا نخليُّ . فلو كنت إذ كنت من بكر كنتُ من تميم ، كان ذلك<sup>(٥)</sup> إلى العداوة سبباً ، وإلى المنافسة سُلماً .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويلٌ وأنا قصير ، وأنت أصلعٌ وأنا أنزع ، وأنت صاحب برازين وأنا صاحب حمير ، وأنت ركينٌ وأنا عَجُول ، وأنت تدبّر لنفسك وتُقيم أودَ غيرك ، وتتسع لجميع الرعيّة ، وتبلغ

(١) الخطب : الجمع للجد والردى ، والمراد الإفساد .

(٢) الحرا : الساحة والناحية . وفي الأصل : « حر القضاء » ، مع ضبط الحاء بالفتح .

(٣) فرغانة ، بالفتح : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر . متاخمة لتركستان .

(٤) كذا في ب وفي الأصل : « النجوم » .

(٥) في الأصل « كان لك » .

بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسى وعن تدبير أمتى وعبدى .  
 وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سوقة ، وأنت مصطنع وأنا  
 صنيع ، وأنت تفعل وأنا أصِف ، وأنت مقدّم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعت  
 الرجال وناهضت الأكفاء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت  
 قلتُ كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن ؛ وأمضيت  
 الأمور على حقائقها ، وسأمت إليها أقساطها على مقادير حقوقها ؛ فلم تندم بعد  
 قول ، ولم تأسف بعد سكوت . وأنا إن تكلمت<sup>(١)</sup> ندمتُ ، [ وإن جارت  
 أبدعت<sup>(٢)</sup> ] ورأيت كلّه دَبَرِي . وأنت تُعدُّ فى الشطرنج زبرب ، وأنا فى  
 الشَّطرنج لا أحد<sup>(٣)</sup> .

١٠٢ و

وما أعرف ها هنا اجتماعاً على مشكلة إلا فى الإيثار بخبز الخُشكار  
 على الحُوَّارَى<sup>(٤)</sup> ، والباقي على الجوزينج<sup>(٥)</sup> ، وأنا جميعاً ندعى الهندسة .

(١) م : « حلت » .

(٢) التكملة من م وفيها : « جازيت » ، وفى ب : « وإن حاربت هربت » .  
 أبدع ، بالبناء للجهول وللمعلوم أيضاً : كلت راحلته أو عطبت .

(٣) ب : « لاجد » .

(٤) فى الألفاظ الفارسية ٥٥ : « الخشكر : ماخشن من الطحن ، فارسيته خشكار ،  
 وهو القصرى » . وانظر استينجاس ٤٠٣ والبلاء ٨٤ . والقصرى ، كبشرى :  
 ما يبقّى فى المنخل بعد الانتخال ، أو القشرة العليا من الحبة . والحوارى بضم الحاء  
 وتشديد الواو وفتح الراء : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه .  
 (٥) الباقي : بتشديد اللام مقصورة ، ومثله الباقلاء بتخفيف اللام مع المد :  
 الحب المعروف بالفول والجرجر ، وهو الباقلاء النبطية ، أما الباقلاء المصرية  
 فهى الترمس . اللسان ، وتذكّرة داود . والجوزينج : ضرب من الحلوى يصنع  
 من الجوز . ويقال له جوزنيق أيضاً ، فارسيته « كوزينه » . الألفاظ الفارسية ٤٨ .



فقد بلغ الآن من جُرمي في مساواتك في خبز الخُشكار ، وإِشاري الباقي ،  
والمعرفة بتقدير المدُن وإِجراء القُنَى ، أن أنق من جميع الأرض ، وأن تحمل  
في دمي الجعائل <sup>(١)</sup> ؛ فَإِنِّي قد هجرت الخُبزَ البتّة إلى مواصلة الثمر ، وزلت  
الوبرَ بدلاً من المدر .

دعنا الآن فإنك فارغ . إن الله يعلم - وكفى به علماً ، وكفى به شهيداً ،  
وكفى به حفيظاً ووكيلاً ، وكفى بجرأة من يعلمه مالا يعلم جرأةً وتعرّضاً ،  
وكفى بحاله عند الله بُعداً ومقتاً - لقد أردتُ أن أفديك بنفسي في بعض كتبي ،  
وكنت عند نفسي في عِداد الموتى وفي حيزِ الهلكى ، فرأيت أن من الحياة  
لك ومن اللؤم في معاملتك ، أن أفديك بنفسى ميتة ، وأن أريك أنى قد  
جُدت لك بأنفس علقٍ والعلق معدوم . ليس أن من قد فداك فقد جعل  
فداك ، ولكنها نهاية من نهايات التعظيم ، ودليل من دلائل الاجتهاد .  
ومن أعلن الاجتهاد لك واستسرَّ خلاف ذلك فقد نافق وخان ، وغشَّ  
وآلام <sup>(٢)</sup> . وأخلق بمن أخل بهذه ألا يرعى حقاً ، ولا يرجع إلى صحّة  
ولا إلى حقيقة .

ثم أنت لا يشفيك منى السمِّ المجهز ، ولا السمُّ السارى ؛ فإنه أبعد غايةً  
في التطويل وأبلغ في التعذيب . لا ولا لُعب الأفاعى وداهية الدّواهى ، فإنه  
يُعجز الرُّقى ويُفوت دَرع الأطباء . لا ولا نارُ الدُّنيا ، بل لا يشفيك من نار  
الآخرة إلاّ الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلا أن أرى في سوائه <sup>(٣)</sup> وفي

(١) الجعائل : جمع جعالة ، وهى بثليث الجيم ما يجعل في مقابل العمل .

(٢) آلام : آتى بما يلام عليه .

(٣) مواء الشيء وسطه .

أُصْطَمَّة ناره<sup>(١)</sup> ، وفي معظم حريقه ، وفي موضع الصَّميم من لهيبه . بل لا تكتمني بذلك دون الدَّرَك الأسفل ، بل لا يُرضيك شيء سوى الهاوية ، بل لا ترضى إلاّ بعذاب آل فرعون ، أشدّ العذاب ، بل لا يرضيك إلاّ عذاب إبليس الذي زَيَّن الخَيْر للعباد ، وبَثَّه في البلاد ، والذي خطأ الربّ وعانده وردّ قوله ، وغيّر عليه تدبيره ، ولم يزد إلاّ شكاً ولجاجة ، وتمادياً<sup>(٢)</sup> وإصراراً . ثم لم يرض من الجدّ في مخالفة أمره ، وخلع العذار في شدة الخلاف عليه إلاّ بأن يحلف على شدة اجتهاده في ذلك بعزّته ، فجعل العزّة المانعة من إسقاطه سبيلاً إلى إسقاطه ، والقسم الحاجز دون إغضابه وسيلة إلى إغضابه ، حيث قال : ﴿ فبِعزّتِكَ لأغوينهم أجمعين ﴾<sup>(٣)</sup> .

فعليك عافاك الله يا إبليس إن كنت لله تفضب ، أو عليك بالأ كفاء إن كنت لنفسك تتشقى .  
لا ولكِنَّك استغمرتن واستضعفتني ، وجعلتني فرّوج الرّقاء<sup>(٤)</sup> ، وتريد أن تتعلّم في معاقبة الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب لجعفر بن معروف أضعف مني ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً مني .  
سبحان الله ، يَسلم عليك حيدر الأفشين<sup>(٥)</sup> ، ويهلك عليك عمرو الجاحظ ،

(١) الأصطمة والأسطمة : الوسط والمجتمع .

(٢) في الأصل : « تباينا » ، صوابه في ب .

(٣) الآية ٨٠ من سورة ص .

(٤) الفروج ، لعل المراد به الدجاجة ، وهي كبة الغزل .

(٥) يذكر ابن خلكان ٢ : ٦٥ أنه بفتح الحاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها . قال : « وإنما قيده لأنه ينصح على كثير من الناس بحيدر بالحاء المهجلة »  
واسم أبيه كاوس ، كما في الأغاني ٧ : ١٤٧ ، ١٢ : ٦٤ .

ويسعد<sup>(١)</sup> بك أبعدُ البعداء ويشقى بك أقرب القرباء . وتتغافل عن مثل  
الجبال التماساً للتسليم وحباً للسلامة ، وتغلغلُ إلى المحقرات طلباً للتعريض  
وحباً للشر .

ومتى قدرتَ على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى  
لم تتغافل عنه تكرماً أو تدعنه احتقاراً ، ومتى اكترت لكبير وضاق  
صدرُك عن شيء عظيم فهأنذا بين يديك ، فكُنْني بخلاً وخرذل ؛ فوالله  
إنك لتأكله غثاً غير مرىء ، وخيئاً غير شهي .

لا والله ، لكأنك وقمتَ على مطبورة ، وظفرت برأس خاقان . كنت  
أظنّ أن الرشاقة والحلم لا يجتمعان ، وأن ظُرف الإنسان وأصالة الرأي  
لا يفترقان<sup>(٢)</sup> ، وأن النزق والخفة مقرونان بحقة البدن ، وأن الرّ كانه والأناة  
مجموعان لصاحب السّمن ، حتى رأيتك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأي ،  
واستبدلت فيك ضدّ ذلك الظنّ . فتركتني حتى إذا نازعتُ الرجال ، وتعرّضت  
للشّجى ، وشغلتُ نفسي بثلب الحِصام<sup>(٣)</sup> ، وانقطعتُ إلى أصحاب القدود ،  
وجعلتُ عدوّائي<sup>(٤)</sup> في تقديم القِصاف<sup>(٥)</sup> ، وطال لِساني ، وأظهرت الاستبصار  
في فضلك ، وجعلت مزاج أخلاطك هو الحجة ، واعتدالك هو النهاية ، وطبيعتك

و ١٠٣

(١) في الأصل : « ويسود » .

(٢) في الأصل : « وإطالة الرأي لا يعترفان » .

(٣) لعل صوابها : « القصار » .

(٤) العدواء : الشغل . وفي الأصل : « عداوتي » .

(٥) جمع قضيف ، وهو المشقوق الجسم .

هى المسكة<sup>(١)</sup>؛ وزعمتُ أن منظرِكَ يغنى عن مخبرِكَ، وأن أولَّكَ يُجلى عن آخرِكَ - شددتَ على شدة المهر الأرِن، وتسرَّعتَ إلى تسرُّع الغرِّ النَّزِق، وألححت [على<sup>(٢)</sup>] إلحاح اللُّجوج الحنِق . كأنَّكَ لم تحفل بما يشيع لك من اسم المتسرِّع، وبما تضاف إليه من سُخف المتترِّع<sup>(٣)</sup>، بعد أن تكذَّب قولى وتفنَّد خبرى<sup>(٤)</sup>.

وقد تقدمتِ التجربة أن الحديد لا يكون حقوداً<sup>(٥)</sup>، وأن المصطنع لا يكون للصَّنِيعَة حاسداً، فقصدتَ على رأسٍ<sup>(٦)</sup> إلى القياس الممتحن فأفسدته، وإلى الطبايع المعتدلة فنقضتها، وإلى القضايا الصحيحة فرددتها.

وقالوا بأجمعهم: حالان لا تقبلان الحسد، ولا يخلوان من الرِّشْد: حال الصَّنِيعَة لمصطنعه<sup>(٧)</sup>، وحال المولى لمُعْتقه. فكيف إذا كان الصَّنِيعَة صديقاً، وكان للخاصة محتملاً.

وإنما صارت - أبقاك الله - أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها، واختلاف أخلاطها، وتباعد أماكنها، نفساً واحدة وجسداً واحداً،

(١) المسكة، بالضم: القوة، والعقل. وفي الأصل: «المسكة».

(٢) التكلفة من ب.

(٣) المتترع: الشرير المسارع إلى ما لا ينبغي له. وفي الأصل: «المتبرع».

(٤) التفنيد: التكذيب. وفي الأصل: «وتفسد».

(٥) الحديد: ذو الحدة، وهى الغضب والنشاط والسرعة فى الأمور ولكن

الحجاج بن يوسف كان يقول: «أنا حديد حقود». الحيوان ٣: ٤٧٠ / ٥٩٢: ٥ والبيان ٣: ٢٥٥.

(٦) فى الأصل «على رأسى».

(٧) يقال فلان صنِيعَة فلان، إذا اصطنعه وأدبه وخرجه ورباه.

لاستواء الخواطر ، ولا تفاقها على الإرادة . فأنت وصديقك الموافق ، وخليك ذو الشكل المطابق ، مستويان في المحاب ، متفقان في الهوى ، متشاكلان في الشهوة ؛ وتعاونكما كتعاون جوارح أحدهما ، وتسالمكما كتسالم المتفق من طبائكما . فإذا بان منك صديقك فقد بان منك شطرك ، وإذا اعتلّ خليلك فقد اعتلّ نصفك ، بل النفوس المضمّنة كالمعانى المضمّنة ، فذهاب بعضها هو ذهاب جميعها . فموتى هو موتُ صديقي ، وحياتى هى حياةُ صديقي . فلا تبعده من قلبك بعدَ بدنه من بدنك ؛ فقد يقرب البغيض وينأى الحبيب . ولعلّ بعضَ طبائعك المخالط لروحك ، أن يكون أعدى من كلّ عدو ، وأقطع من كلّ سيف ، وأخوف عليك من الأسد الضارى ، ومن السمّ السارى .

ثم اعلم أن الموثق بمودّته قليل ، وقد صار اليومَ المعتمدُ عليه فى صحّة العقدة ، وفى كرم الغيب والعشرة ، عنقاء مُغرب<sup>(١)</sup> . ولا أعلم الكبريت الأحمرَ إلّا أوجدَ منه . وإنى لأظنّ القناعةَ أكثرَ منه . وما أكثرَ من جعل انقطاع سببه وضعف طمعه لا نقطاع سببه قناعةً .

١٠٣ ظ

وقيل ليحيى بن خالد : أى شيء أقل ؟ قال : قناعة ذى الهمة البعيدة بالعيش الدون ، وصديق قليل الآفات كثير الإمتاع ، شكور النفس ، يصيب مواضع المدح<sup>(٢)</sup> .

(١) عنقاء مغرب ، بالوصف ، وبالإضافة أيضاً ، مثلٌ للندرة أو لما لا يكون ، قال فى القاموس : « طائر معروف الاسم لا الجسم ، أو طائر عظيم يبعد فى طيرانه ، أو من الألفاظ الدالة على غير معنى » .

(٢) جعلت فى ط « المرح » .

لا والله إنَّ تعرفُ<sup>(١)</sup> على ظهرها موضعاً للسرِّ ، ولا مكاناً للشكوى ،  
ولا روحاً تأنس بها ، ولا نفساً تسكن إليها . ولو أردت أن تعرفني من  
جميع العالمين رجلاً لما قدرت على أحدٍ يحتمل الغنى . ومحمّل الفقر قليل ،  
ومحمّل الغنى عديم .

إنَّ الخير — أبناك الله — في أيام كثرته كان قليلاً فما ظنُّك به في أيام  
قلته ، وإن الشرَّ في أيام قلته كان كثيراً فما ظنُّك به في أيام كثرته ، وأنت  
غريبٌ في المصطنعين . وأنا غريبٌ في الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ،  
ونسب للمشاكله وقربة الطبيعة الموافقة ، أقربُ من نسب الرحيم ؛ لأنَّ  
الأرحامَ مولعةٌ بالتحاسد ، لهجةً بالتقاطع ، وأن التحابَّ على طبع المشاكل .  
والتلاقى على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعد من التماسد ، وأبعد من التعادى .  
وسببُ التعادى عَرَضُ في طبائع الغرباء ، وجوهرٌ في طبائع الأقرباء .

واعلم أنَّك لا تزال في وحشة إلى وحشة ، وفي غربة إلى غربة ، وفي  
تفكر العيش وتسخط الحال ، حتى تجد من تشكو إليه بنَّك ، وتقضى إليه بذاتِ  
نفسك . ومتى رأيت عجباً لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك إخبارك  
إياه . فمن أغلبُ عليك ممن كانت هذه حاله منك ، وموقعه من نفسك .

ولو أنَّ شيبتي التي بها استعطفتك ، وكبرة سني التي بها استرحمتك ،  
اللتان لم يحدُّنا على إلّا وأنا في ذراك ، ولم يُحلَّ بي إلّا وأنا في ظلك ، لكان  
في شفاعاة الكبرة ، واسترحام الضعف والوهنة ، ما يردُّك عن أشدِّ الردع ،

(١) جعلت في ط : « لن تعرف » .

ويؤثر في طباعك أبين الأثر . فكيف وقد أكرمتني جديداً ، ثم تريد أن تهينني خَلَقًا ، وقَوَّيت عظمي أغلظَ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرقَّ ما كان . وهل هَرِمْتُ إلّا في طاعتك ، وهل أخَلَقَني إلّا معاناة خدمتك ! .

قال علي بن أبي طالب : رأى الشيخ الضعيف أحبُّ إلينا من جَدِّ الشابِّ القوي<sup>(١)</sup> .

وأنا أقول كما قال أخو ثقيف<sup>(٢)</sup> : مودة الأخ التالذ وإن أخلقَ خيرٌ من من مودة الطارف وإن ظهرت بشاشته ، وراعتك جدته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأى الشيخ أحبُّ إلينا من مشهد الغلام .  
وقال بعضهم : ليس بغائب من شهد رأيه<sup>(٣)</sup> ، وليس بفانٍ من بقي أثره .

وما كَمَلَ العقل ولا<sup>(٤)</sup> وقر التجربة شيء كـنقصان البدن ، وكأخذ الأيام من قوى الأعضاء .

وقال آخر : ما تبجح الرجال شيء كالوِكال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب الاستطراف . وخيرُ الناس من أتبعَ الغضبَ مواقعَ الذنوب ، وأتبعَ العقابَ مواقعَ الغضب ، ولم يُتبعِ الغضبَ مواقعَ الهوى .

(١) البيان ٢ : ١٤ و في أمثال الميداني ١ : ٢٦٧ : « رأى الشيخ خير من مشهد الغلام » ، وأشار الميداني إلى أن علياً قالها في بعض حروبه .

(٢) يعني الحجاج بن يوسف .

(٣) شهد : كان شاهداً ، أى حاضراً . وقوم شهود أى حضور .

(٤) في الأصل : « إلا » .

ولقد منحكت جلد شبابي كملا ، وغرب نشاطي مقتبلا ، وكان لك  
مهناه<sup>(١)</sup> ، وثمرة قواه<sup>(٢)</sup> ، واحتملت دونك غرامه وغربه<sup>(٣)</sup> ، وكان لك  
غنمه وعلى غرمه ، وأعطيتك عند إديار بدني قوة رأي ، وعند تكامل معرفتي  
نتيجة تجربتي ، واحتملت دونك وهن الكبر وإسقام الهرم .

وخير شركائك من أعطاك ما صفا ، وأخذ لنفسه ما كدر . وأفضل  
خلطائك من كفالك مؤونته ، وأحضرِكَ معونته ، وكان كلاله عليه ،  
ونشاطه لك . وأكرم دخلائك وأشكر مؤمليك من لا يظن أنك تسعى  
جزيل ما تحتمل في بذلك ومواساتك مؤونة ، ولا تتابع إحسانك إليه  
نعمة ، بل يرى أنّ نعمة الشاكر فوق نعمة الواهب ، ونعمة الوادّ المخلص  
فوق نعمة الجواد المغنى ؛ وأنه لا يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع  
جميع ماله إلى مؤمليه والمتحرّمين به ، حُسن نية الشاكر الوامق ، وحقّ  
تمنى الوادّ العارف .

ولو اقتضيت جميع حقوقك على ، وأنكرت جميع حقوق عليك ،  
أو جعلت حقّي عليك حقّا لك ، ثمّ زعمت أنّ حقّك لا يؤدى إلى شكره ،  
وأنّ حقّي لا يلزم حكمه ، وأنّ إحسانى إساءة ، وأنّ الصغير من ذنوبى كبير ،  
وأنّ اللّهم منى إصرار ، وأنّ خطائى عمد ، وأنّ عمدى كلّ كفر ، وأنّ

١٠٤ ظ

(١) أى مهناه . ولعلها : « مجناه » .

(٢) فى الأصل : « قوله » صوابه فى م .

(٣) فى الأصل وم : « غرامه » والوجه ما أثبت . وفى الأصل : « وعدمه »

صوابه فى م . والعرام : بضم العين : الشدة والغرب : الحدة .



كفرى يوجب القمع<sup>(١)</sup> ويمنع من التزوع لِمَا كان عندك . وما اتسع  
قولى لأكثر من هذا العقاب ، ولا أشد من هذا الغضب . وما ينبغي أن  
يكون هذا المقدار من النِّقم إلَّا لبارى النَّسم في دار البقاء ، لا في دار الفناء .  
[ و ] الذى يجوز بين العباد إنَّما هو تمزير أو حدٌّ ، أو قود أو قصاص ،  
أو حبس أو تقريب ، أو إغرام<sup>(٢)</sup> أو إسقاط عدالة ، أو إلزام اسم العداوة ،  
أو عقاب يجمع الألم والتقويم والتنكيل ، فيكون مَضَضُ الألم جزاءً له<sup>(٣)</sup>  
ومعدلاً أسبابه .

وربَّما قصر الإيقاع على الشُّخط وجاوز حدَّ الغضب . وربَّما كان  
مقصوراً على مقدارها ، ومحبوساً على نهاية حالها .

وليس كلُّ عقابٍ نتيجة سخط ، وقد لا يسمَّى ذلك الموقِع والمعاقب  
واحدًا كما يسمَّى سخطاً ، ولا يسمَّى عاتباً كما يسمَّى غضبان ، فيخرج كما ترى  
من أن يسمَّى سخطاً أو موجدةً وغضباً ، كما خرج عقابُ آدم عليه السلام  
من هاتين الصِّفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار  
الخلد والكرامة إلى دار الابتلاء والحنة ؛ ومع ما في ذلك من إعراء الجلد ،  
والتَّسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم ، والاعتثار بيمين الخصم .

والعجبُ أنك تضجر من طول مسألتنا لعفوك مع حاجتنا إلى عاجل  
عفوك ، ولا تضجرُ بطول تشاغلِكَ بظلم صديقك مع استغنائك عن ظلم  
صديقك . فلو كنت إنَّما تفعل ذلك لأنَّكَ تُلدُّ ضَرْبَ السَّيَّاط ورضَّ العظام ،

(١) في الأصل : « الطمع » .

(٢) الإغرام : التَّغريم ، وهو العقوبة المالية .

(٣) في الأصل : « أجراله » .

فَجَنَّبَ « دندن » أحمل ، والسَّوْطُ في ظهر قاسمٍ أحسن ، وأبدانها تحت  
السيّاط أثبت ، وإنَّ أرواحها أبقى ، وهى بأرواح الكلاب أشبه ، وإلى  
طبائع الضُّباب أقرب ، وأرحامهم بالحُمير أَمْسُ ، وَمَنْ يُشِيرُ فِيهِمْ بِذَلِكَ  
أَكْثَرُ ، والأجر في ضَرْبِهِمْ أعظم . فاستدِمْ اللِّذَّةَ بطريق اللِّذَّةِ ، وضع  
الأُمُورَ في مواضعها بطلَّ سرورك بها .

١٠٥ و إنَّ عتاقَ الخيل وأحرارَ الطَّير أدقُّ حِسًّا ، وأشدُّ اكترائًا .  
والكوادِنُ الفِلاظُ والحامِرُ الثَّقَالُ<sup>(١)</sup> ، أَكَلُّ حِسًّا وأقلُّ اكترائًا .  
وليس الصَّبرُ بالصَّمتِ والسَّكُوتِ ، ولا بقلَّةِ الصَّياحِ والضُّمُوزِ<sup>(٢)</sup> . وقد يصيح  
تحت السَّوْطِ مَنْ لا يقرُّ على صاحبه ، ولا يدكُّ على عورة نفسه . والكلبُ  
المضروبُ يجمع الصَّياحَ والهَرَبَ ، والفرسُ العتيقُ يعدو ولا يصيح ، والخافرُ  
كلُّهُ كظومٌ ضامِرٌ<sup>(٣)</sup> ، والمُخَلَّبُ كلُّهُ ضَجُورٌ صَيَّاحٌ ، والضَّجَرُ في الخُفِّ عامٌّ ،  
والبَحْثَانِيُّ أضجَرُ . فَمِنْ الظَّلفِ عامٌّ ، وهو في الضَّانِّ أخفى ، وكلُّ مضروبٍ  
هاربٍ صَيَّاحٌ ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلبِ والبعير . والهَرَبُ من  
المَكْرُوهِ محمودٌ ، والمقامُ عليه مذمومٌ ؛ كالذى يعترى العيرُ السقيم<sup>(٤)</sup> وتجنده  
في الفرسِ الكريمِ ، من قلةِ الاكترائِ وشدته .

(١) الحامِر : جمع حَمَرٍ ، يقال فرس حَمَرٍ ، أى لثيم يشبه الحمار في  
جريه من بطئه . ويقال للفرسِ الهجينِ حَمَرٌ أيضاً ، فارسيته « بالانى » . والجمع  
الحامِرُ والحامير .

(٢) الضُّمُوزُ ، بالزاي : السَّكُوتُ . وفي الأصل : « الضُّمُور » ، تصحيف .

(٣) في الأصل : « ضامن » . وانظر الحاشية السابقة .

(٤) في الأصل : « عين السقم » وانظر ٢٧٨ س ٢ .

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلّ على الكرم .

وفي المثل : « ما رُوح فلانٍ إلّا رُوح كلب » . وتقول العرب : « الضَّبُّ أطول شيءٍ دَماءٍ <sup>(١)</sup> » . والكلب لثيم ، والضَّبُّ غير كريم .

والبازي أكرم من الصَّقر وأشدُّ وأكثر ثمنا ، وأجمل جمالاً ، وأعفى صيداً <sup>(٢)</sup> ، وأنبِل نبلا ؛ إن قبضَ عليه قتله ، وإن لم يُنَحَّ كُنْدُرتَه عن قربه أوهن نفسه <sup>(٣)</sup> . ثم بلغ من رقة طبع <sup>(٤)</sup> البازي وعِيقه أنه ينقطع برَدِّ البازيار له <sup>(٥)</sup> إلى مَسْقَطه من يده . والصَّقر يتعلّق بسِياقيه <sup>(٦)</sup> من رجل حمل بدرع <sup>(٧)</sup> فيضطرب منكساً إلى الصُّبح ، ثم تجده وكأنّه لم يزل على كُنْدُرتَه وعلى مسقطه الذي يؤتّى له .

(١) الدماء ، كسحاب : بقية الروح في المذبح . وانظر الحيوان ٢ . ١٧٥ و ٣ : ٥٠٨ و ٥ : ٢٥١ و ٦ : ٥٤ ، ٦٤ ، ١٣٧ و ٧ : ٢٥٤ .

(٢) من قولهم : عنا الشيء يعفو ، إذا كثر .

(٣) الكندرة . يضم الكاف والدال كما في اللسان ، ويفتحهما كما في القاموس ، هي مجثم البازي الذي يهبط له من خشب أو مدر . قال في اللسان : « وهو دخيل ليس بعربي » . وأوهق نفسه : جعلها في الوهق ، وهو جبل مغاري رمي ، فيه أنشوطه ، فتؤخذ به الدابة والإنسان . وفي الأصل : « أرهق » .

(٤) في الأصل : « طمع » .

(٥) في الأصل : « برده البازيار له » ، والبازيار ويقال له « البازدار » أيضاً لفظان فارسيان ، معناها واحد ، وهو القائم بأمر البازي ويعرب فيقال له « البزار » . انظر الحيوان ٤ : ٤٣٠ و ٦ : ٤٧٨ .

(٦) السباقان : قيدان في رجل الجارح من الطير ، من سير أو غيره . وفي ط : « بساقه » ، خلافاً لما في الأصل .

(٧) كذا في الأصل .

فليس بدنى من أبدان الاحتمال فأمتعت بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك ثبات القير الكليل الحسن ، ولا أجعل الصياح دليلاً على الإقرار ، فيكون ذلك أحداً ما تتمتع به ، وتذكر به حاجات نفسك .

وقد دلتك على ناس يجمعون لك الخصال التي فيها دوام لذتك ، وتمايم شهوتك ؛ فإن زعمت أن الذي يثبت روح دندن في بدنه ، وروح القاسم في جسمه ، سرورهما بما قد احتجنا من كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما في أبدانهما ، ومن شدة الاحتجان وقوة الاكتناز ، ففرق بينهما وبين تلك الأموال التي تمسك أرواحهما بالحيل اللطيفة ، والتدبير النافذ ، وبأن تمضي فيهما حكم الكتاب والشنة ؛ فإنه سيحل عقدة أرواحهما عقداً عقداً ، فيعظم أجرك ، ويطيب ذكرك ، وتطيع الخليفة ، وتتجيب به إلى الأمة ؛ فتكون قد أحسنت في صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

١٠٥ ظ

\* \* \*

تمت الرسالة بعون الله ومنه وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

٦

## رِسَالَةٌ

إِلَى أَبِي الْوَلِيدِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُوَادٍ

فِي

نَفْيِ التَّشْبِيهِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة السادسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، في نفي التشبيه »

وأبو الوليد هذا هو قاضى بغداد فى خلافة المتوكل ، ولاء القضاء بعد أن فليج أبوه أحمد بن أبى دواد ، ثم عزله المتوكل ومات فى حياة أبيه أحمد فى ذى الحجة سنة ٢٣٩ . وترجم له الخطيب فى تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ - ٣٠١ .

وليس لهذه الرسالة إلا نسخة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادنا فى إخراج هذه الرسالة .

وقد كتبها الجاحظ فى أيام الخليفة العتصم ، كما نص على ذلك فى أواخرها .





أطال الله بقاءك وحفظك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

قد عرفتَ - أكرمك الله - ما كان النَّاسُ فيه من القول بالتَّشبيه والتَّعاون عليه والمعادة فيه ، وما كان في ذلك من الإثم الكبير والفريّة الفاحشة ، وما كان لأهله من الجماعات الكثيرة والقوّة الظاهرة ، والسُّلطان المكين ، مع تقليد العوامِّ وميل السّفلة والطّعام .

وليست للخاصّة قوّة بالعامّة ، ولا للعلية قوّة على الأراذل ؛ فقد قالت الأوائل فيهم ، وفي الاستعانة بالله منهم :

قال على بن أبي طالب رضى الله عنه : نعوذ بالله من قويم إذا اجتمعوا لم يُمْلِكُوا ، وإذا تفرّقوا لم يُعْرِفُوا .

وقال واصل بن عطاء : « ما اجتمعوا إلّا ضَرُّوا ، ولا تفرّقوا إلّا نفعوا » فقل له : قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطّيان إلى تطيينه ، والحائلك إلى حياكته ، والملاح إلى ملاحته ، والصّانغ إلى صياغته ، وكلُّ إنسانٍ إلى صناعته . وكلُّ ذلك مرفقٌ للمسلمين ، ومعوّنة للمحتاجين .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إذا نظرَ إلى الطّعام والحشو قال : « قَبِحَ اللهُ هذه الوجوه ، لا تُعرَفُ إلّا عند الشرِّ » .

وقال الخُرَيْمِيُّ<sup>(١)</sup> عِنْدَ ذِكْرِهِ إِيَّاهُمْ ، فِي شَعْرِهِ ، بِالتَّعَاوَى مَعَ الْخُلُوعِ<sup>(٢)</sup> :  
 مِنَ الْبَوَارِي تِرَاسُهَا وَمِنْ آلِ خُوصٍ إِذَا اسْتَلَامَتْ مَغَافِرُهَا<sup>(٣)</sup>  
 لَا الرِّزْقَ تَبْغِي وَلَا الْعِطَاءَ وَلَا يَحْشُرُهَا بِالْفِنَاءِ حَاشِرُهَا<sup>(٤)</sup>  
 وَقَالَ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ : قَارِبُوا هَذِهِ السَّفَلَةَ وَبَاعِدُوهَا ، وَكُونُوا مَعَهَا  
 وَفَارِقُوهَا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْغَلْبَةَ لِمَنْ كَانَتْ مَعَهُ ، وَأَنَّ الْمَقْهُورَ مَنْ صَارَتْ عَلَيْهِ .  
 وَقَدْ وَصَفَهُمْ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ قَقَالًا : يَجْتَمِعُونَ مِنْ حَيْثُ يَفْتَرِقُونَ ، وَيَفْتَرِقُونَ  
 مِنْ حَيْثُ يَجْتَمِعُونَ ، لَا يُفْلَ غَرِبَهُمْ إِذَا صَالُوا ، وَلَا تَنْجِعُ فِيهِمُ الْحِيلَةُ  
 إِذَا هَاجُوا .

وَالْعَوَائِمُ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - إِذَا كَانَتْ نَشْرًا<sup>(٥)</sup> فَأَمْرُهَا أَيْسَرُ ، وَمُدَّةُ هَيْجِهَا  
 أَقْصَرُ . فَإِذَا كَانَ لَهَا رَئِيسٌ حَازِقٌ وَمُطَاعٌ مَدْبَرٌ ، وَإِمَامٌ مَقْلَدٌ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ

(١) هُوَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّانَ بْنِ قُوْهِى . قَالَ الْخَطِيبُ : « وَأَصْلُهُ مِنْ خُرَاسَانَ  
 مِنْ بِلَادِ السَّغْدِ ، وَكَانَ مُتَصِلًا بِخُرَيْمِ بْنِ نَاعِمِ الْمُرِّي وَآلِهِ ، فَانْسَبَ إِلَيْهِ . وَقِيلَ : كَانَ  
 اتِّصَالُهُ بَعَثَانَ بْنِ خُرَيْمٍ . وَأَبُوهُ خُرَيْمُ الْمُوصُوفِ بِالنَّاعِمِ » . تَارِيخُ بَغْدَادَ ٣٣٦٩ .

(٢) تَعَاوَا مَعَهُ : اجْتَمَعُوا . وَالْخُلُوعُ هُوَ الْخَلِيفَةُ الْأَمِينُ أَخُو الْأُمُونِ . وَقَصِيدَةُ  
 خُرَيْمٍ رَوَاهَا الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ ١٠ : ١٧٦ - ١٨١ فِي حَوَادِثِ سَنَةِ ١٩٧ وَبَعْضُ  
 أَيْيَاتِهَا فِي الْحَيَوَانَ ١ : ٢٢٥ .

(٣) الْبَوَارِي : الْحَصِيرُ الْمُنْسُوجُ ، وَاحِدُهُ بَوْرِي وَبُورِيَّةٌ ، وَبَارِي وَبَارِيَّةٌ .  
 وَالتَّرَاسُ : جَمْعُ تَرَسٍ . اسْتَلَامَتْ : لَبَسَتْ اللَّأْمَةَ ، وَهِيَ الدَّرْعُ . وَالْمَغَافِرُ :  
 جَمْعُ مَغْفَرٍ ، وَهُوَ زَرْدٌ يَلْبَسُ تَحْتَ الْقُلَنْسُوءَةِ . وَالْبَيْتُ وَتَالِيهِ وَبَيْنَهُمَا ثَالِثٌ فِي الطَّبْرِيِّ  
 ١٠ : ١٧٨ .

(٤) فِي الطَّبْرِيِّ : « وَلَا يَحْشُرُهَا لِلْقَاءِ حَاشِرُهَا » .

(٥) النَّشْرُ بِالتَّحْرِيكِ : الْقَوْمُ الْمُنْفَرِقُونَ لَا يَجْمَعُهُمْ رَئِيسٌ .

ينقطع الطَّمع ، ويموت الحقُّ ويُقتل المَحِقُّ . فلولا أنَّ لهم متكلمين ، وقصَّاصًا ١٠٧ و متفكِّهين ، وقومًا قد باينوهم في المعرفة بعض المباينة ، لم يلحقوا بالخاصَّة ، ولا بأهل المعرفة التَّامَّة . ولكننا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نُشفق منهم نطمع فيهم .

ثم قد علمت ما كنا فيه من إسقاط شهادات الموحِّدين وإخافة علماء المتكلمين . ولولا الكلامُ لم يَقُمَ لله دين ، ولم نَبِنْ من الملحدين ، ولم يكن بين الباطل والحقِّ فرق ، ولا بين النبي والمتنبِّي فصل ، ولا بانت الحُجَّة من الحيلة ، والدليل من الشُّبهة .

ثم لصناعة الكلام مع ذلك فضيلةٌ على كلِّ صناعة ، ومزيةٌ على كلِّ أدب . ولذلك جعلوا الكلام عيارًا على كلِّ نظر ، وزمائمًا على كلِّ قياس . وإنَّما جعلوا له الأمور وخُصَّوه <sup>(١)</sup> بالفضيلة لحاجة كلِّ عالم إليه ، و [ عدم <sup>(٢)</sup> ] استغنائاه عنه .

فلم يزل - أكرمك الله - كذلك حتَّى وضع الله من عزِّهم ، ونقص من قوتهم . وليس لأمر الله مرَدُّ ، ولا لقضائه مدفع . وحتَّى تحوَّل إلينا رجالٌ من قاداتهم ومن أعلامهم ، والمُطاعين فيهم ، وارتاب قومٌ وناقق آخرون . وحتَّى تحوَّلت الحُمنةُ عليهم ، والتَّقيَّةُ فيهم . وذلك كلُّه على يد شيخك وشيخنا بعدك - أعزَّه الله - بما بذل من جُهدِه ، وعرض من نفسه ، وتفرَّد بمكروهه ، وغرَّغَ مُرَّارَه ، صابرًا على جسيمه ؛ يرى الكثير في ذلك قليلًا ، والإغراق

(١) في الأصل : « وخصوا » .

(٢) تكملة يفتقر إليها الكلام .

تقصيرا ، وبذل النفس يسيرا . على حين خار<sup>(١)</sup> كل بطل ، وحاد كل مُقدم ، وعَرَد كل رئيس ، وأضاف كل مستبصر<sup>(٢)</sup> ، وطاح كل نفاج ، واستخفى كل مُراء . وحتى صاروا هم الذين يُشيرون عليه بالملايمة ، ومحسنون عنده المقاربة ، ويخوفونه العاقبة ، ويزعمون أن لكل زمان تدييرا ومصلحة ، وأن إبعادهم أقر<sup>(٣)</sup> لطبائعهم ، وإن إطلاقهم أنجع فيما يراد منهم . وحتى سموا المداهنة مداراة ، وإعطاء الرضا تقيّة ، والشدة عند الفرصة خرقا ، والانحياز مع صواب الإقدام رفقا ، وموالاة المخالف مخالفة ، والمصافاة معاشرة ، والمهانة حلما ، والضعف في الدين احتمالا . كما سمي قوم الفرار انحيازا ، والبخل اقتصادا ، والجائر مستقصيا ، والبلاء عارضا ، والخطل بلاغة . فكذلك كانوا وكان .

وعلى هذا افترق أمرهم ؛ وذلك مشهور عنهم .

ثم يؤول أحدهم على من شتمه ، ويسالم من شتم ربه ، ويعضب على من شبّه أباه بعبده ، ولا يعضب على من شبّه الله بخلقه ، ويزعم أن [ في<sup>(٤)</sup> ]  
أحاديث المشبهة تأويلاً ومجازاً ومخارج<sup>(٥)</sup> ، وأنها حقٌ وصديق . فإذا  
قيس . . . . .<sup>(٦)</sup> طلب لهذا المجاز ظلم ، وقال ما يليق بلفظ الحديث ،

(١) خار : ضعف . وفي الأصل : « خان » .

(٢) أضاف : : أشفق وحذر . وفي الأصل : « أصاب » .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) ليست في الأصل .

(٥) في الأصل : « ومخارجا » .

(٦) يياض في الأصل بمقدار كلمتين .

فيكون بشهادته<sup>(١)</sup> لصحة أحاديثهم مُقَرَّرًا ، فيصير فيما يدَّعى من خلاف تأويلهم مدَّعيًا . ولو كانت هذه الأحاديث كلها حقًا كان قولُ النبي صلى الله عليه وسلم : « سيفشو الكذبُ بعدى ، فما جاءكم من الحديث فاعرضوه على كتاب الله » باطلاً .

وهذا المذهب لمن ينتحل طريقتنا ، ويدفعه سبيلنا ، جورٌ شديد ، ومذاهبُ قبيحة ، وتقرب<sup>(٢)</sup> فاحش .

وليس ينبغي لديان أن يوادَّ من حادَّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

فمتى إذن تزولُ التَّقيَّةُ ، ويجبُ إظهار الحقِّ والنُّصرة للدين ، والمباينة للمُخالفين ؟ ! أحين يموت الخصم ويبيدُ أثره ويهلك عَقبه ويقلُّ ناصره ، ويزول جميع الخوف ويكون على يقين من السَّلامة . وكيف يكون القائم حينئذ بالحق مطيعاً ، والله معظماً ؟ !

فقد سقطت المحنة وزالت البلوى والمشقة . وهل المعصية إلا ما مازجه الهوى والشهوة ، وهل الطاعة إلا ما شابهُ المكروه والكلفة<sup>(٣)</sup> ، وكيف يُكَلِّف مالا مؤونة فيه ، وكيف يُحمَد مالا مرزئة عليه . وكيف يكون شجاعاً من أقدم في الأمن ، وتكتم في الخوف . أو ليست النارُ مخفوفةً بالشهوات ، أو ليست الجنةُ مخفوفةً بالمكاره . وكيف صاروا في باطلهم أيامَ قُدرتهم أقوى منا في حقنا أيام قُدرتنا .

(١) في الأصل : « سهدته » .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) شابهُ ، من الشوب بمعنى الخلط والمزج .

وقد علمت - أرشد الله أمرك - أن التشبيه وإن كان أهله مقموعين ومُهَانِينَ ومُتَحَنِّينَ ، فإنَّ عدد الجاحم على حاله ، وضمير أكثرهم على ما كان عليه ، والذين ماتوا قليلٌ من كثير . ونحن لا ننتفع بالمنافق ، ولا نستعين بالمرتاب ، ولا نثق بالجاحح ، وإن كانت المبادأة قد نقصت فإنَّ القلوب أفسدُ ما كانت .

وقد كانوا يتكلمون على السلطان والقدرة ، وعلى العدد والثروة ، وعلى طاعة الرعاع والسفلة ؛ فقد صاروا اليوم إلى المنازعة <sup>(١)</sup> أميل ، وبها أكلف ؛ لأنهم حينما يتسوا <sup>(٢)</sup> من القهر بالحشوة والسفلة ، وبالبيعة ، وبالولاية الفسقة ، وقلوبهم ممتلئة ونفوسهم هائجة . ولا بد لمن كانت هذه صفته ، وهذا نعتة ، من أن يستعمل الحيلة والحجة ، إذ أعجزه البطش والصولة . وكلُّ من كان غيظه بفضل عن حلمه ، وحاجته تفضل عن قناعته ، فواجب أن ينكشف قناعه ، ويظهر سره ، ويبدو مكنونه .

١٠٨ و

وقد أطمعني فيهم مناظرتهم لنا ، ومقايستهم لأصحابنا . وقد صاروا بعد السبِّ يحفون <sup>(٣)</sup> ، وبعد تحريم الكلام يحالسون ، وبعد التصام يستمعون ، وبعد التجليح يدارون <sup>(٤)</sup> ؛ والعامّة لا تظن لتأويل كفتها ، ولا تعرف مقاربتها . فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من ميلها ، وأصغت لما ترى من استماعها .

(١) في الأصل : « على المنازعة » .

(٢) في الأصل : « يتسوا » .

(٣) حفه يحفه : مدحه . وفي المثل : « من حفنا أورفنا فليقتصد » يقول : من مدحنا فلا يغفلون في ذلك ولكن ليتكلم بالحق منه .

(٤) التجليح : المكاشفة في الكلام .

وقد كتبتُ - مدَّ الله في عُمرِك - في الردِّ على المشبهة كتاباً لا يرتفع عنه الخاذق المستغنى ، ولا يرتفع عن الریض المبتدئ . وأكثَر ما يعتمد عليه العامة ودعاهم أهل التشبيه من هذه الأمور ويشتمل عليه الفضل من حُشوة الناس<sup>(١)</sup> ، ويحتدع به المُحدثون من الجمهور الأعظم ، تحريف آي كثيرة إلى غير تأويلها ، وروايات كثيرة إلى غير معانيها . وقد بينتُ ذلك بالوجه القريب ، والدلالات المختصرة ، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، واستشهدتُ الكلامَ المعروف ، والقياسَ على الموجود .

وهو مع ذلك كله كتابٌ قصْدٌ ، ومقدار عدلٌ ، لم يفضل عن الحاجة ، ولم يقصّر عن مقدار البُغية . على أنَّ الكلام لا ينبغي أن يكثر وإن كان حسناً كله ، إذا كان السامع لا ينشط له ، وجاز قدر احتمالهِ ؛ لأنَّ غاية المتكلم انتفاعُ السامع . وقد قال الأولون : « قليلُ الموعظة مع نشاط الموعوظ ، خيرٌ من كثيرٍ وافق من الأسماع<sup>(٢)</sup> نبوةً ، ومن القلوب ملالةً » . ١٠٨ ظ

قال بكر بن عبد الله المزني<sup>(٣)</sup> : ليس الواعظ من جهل أقدار السامعين ، وإنابة المرتدين ، وملالة المستطرفين .

وقال علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه : « إنَّ هذه القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان ، فابتغوا لها طُرْفَ الحكمة » .

(١) الفضل : الزيادة . والحشوة ، بالضم : رذال الناس .

(٢) في الأصل : « الاستماع » .

(٣) هو أبو عبد الله ، نسبته إلى مزيته ، ثقة جليل توفي سنة ١٠٦ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ .

وقد كان يقال : إنَّ للقلوب شهوةً وإقبالا ، وفترة وإدباراً ؛ فأتوها من حيث شهوتها وإقبالها .

وكان يقال : إذا أُكِّره القلبُ عَمِيَ .

وقال واصل بن عطاء : طول التحديق يُكَلِّلُ الناظر ، وناظر القلب أضعف منه .

وزعم عمران بن حدير<sup>(١)</sup> قال : قال قسامة بن زهير<sup>(٢)</sup> : روَّحوا هذه القلوبَ تَعِ الذِّكْرَ<sup>(٣)</sup> .

وقال عبد الملك بن قُريب : قال أبو الدرداء : إني لأستجِمُّ نفسي بيمض الباطل كراهةً أنْ أحملَ عليها من الحقِّ فأكلَّها<sup>(٤)</sup> .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنهما ، وهو بالقادسية : أنْ جنَّبهم حديث الجاهلية ؛ فإنه يذكِّرُ الأحقاد . وعِظْهم بأبَّام الله ما نشِطُوا لاستماعها .

وقالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة<sup>(٥)</sup> .

ولذلك أمروا بالجَمَامِ<sup>(٦)</sup> وزيارة النِّبِّ .

(١) من رواية قسامة . تهذيب التهذيب ٨ : ١٢٥ ، ٣٧٨ . في الأصل : « عمر بن أبي حدنه » .

(٢) قسامة بن زهير المازني ، له إدراك ، وكان ممن افتتح الأبله مع عتبة ابن غزوان ، وكان رأساً في تلك الحروب . مات بعد الثمانين . الإصابة ٧٢٨٠ . وتهذيب التهذيب

(٣) في الأصل : « يعنى من الذكر » ، صوابه من البيان ١ : ٣٢٧ .

(٤) في الحيوان ٣ : ٧ : « من الحق ما يعلمها » .

(٥) يتخولنا : يتعهدنا ، وذلك مخافة السامة علينا .

(٦) الجم ، كسحاب : الراحة .



ورروا أن شرَّ السَّيْرِ الحَقِيقَةُ<sup>(١)</sup> .

ولأنَّ يَنْقُصَ الكتابُ عن مقدار الحاجة أحبُّ إلَيَّ من أن يَفْضُلَ عن مقدار القوَّة ؛ لأنَّ المِلالة تَبْغُضُ [ في ] الجميع ، وتزهد في الكل .

فأنا أسألك - أكرمك الله - أن ترى هذا الكتابَ وتقرأ ماخفَّ عليك منه . فإن يصلح الكلامُ [ و ] كان كما وصفتُ وكما صَحَّيْتُ ، حَثَّيْتُ على قراءته وعلى اتِّخَاذه ، وعلى تَحْلِيده وعلى تدوينه ، وأمرت مَنْ يحتاج إلى المادَّة ، وإلى حُسن المعونة من الواقفين والإخوان الصَّالحين ، أن ينظروا فيه ، وأن يَبْشُرُوهُ وَيُشِيعُوهُ .

وقد كنتُ أنا على ذلك قادراً ، وبه مستوصياً ؛ ولكنَّ الرجلَ الرفيع إذا رَفَعَ الشَّيْءَ ارتفع ، كما أنَّه إذا وَضَعَ الشَّيْءَ اتَّضَعَ .

وإن كنتَ فيه غَلَطاً<sup>(٢)</sup> أو لعلَّته مستكثراً ، كان لك بِحُسن نيتك وصلاح مذهبك ، والذي رجوتُ عنده من المنفعة وصلاح قلوب العامَّة ، الأجرُ الكبير ، والثوابُ العظيم ، مع ما تَقْضِي بِذلك من ذِمِّم المتحرِّم بك ، والمتحلِّي من بيتك ؛ ومع اليد البيضاء والصَّنِيع المشكور .

و ١٠٩

وحرامٌ على كلِّ متكلِّمٍ عالم ، وفقهه مطاع ، وخطيب مفوَّه إن كان<sup>(٣)</sup>

(١) الحَقِيقَةُ : شدة السير . وهو في حديث عبد الله بن مطرف بن الشخير حين تعبد فلم يقتصد ، فقال له أبوه : « يا عبد الله ، العلم أفضل العمل ، والحسنة بين السيئتين ، وخير الأمور أوسطها ، وشر السير الحَقِيقَةُ » . أمثال الميداني ١ : ٣٢٧ واللسان ( حقق ) والبيان ٣ : ٢٥٤ .

(٢) الغلق : الضجر . وفي الأصل : « غلطا » .

(٣) في الأصل : « كلف » .

عنده من الأمر شيء ، إلا أن يأتيكم به ، ويذكركم بما عنده ، قل ذلك أو أكثر ،  
وصادف منكم شغلاً أو فراغاً ، لأن ذلك من عندكم أنفق ، والناس إليه أسرع ،  
والقلوب إليه أسكن ، وهو في العيون أعظم ، لِمَا جعل الله عندكم من حُسن  
الاختيار ، والعلم بمنافع العباد ، ومصالح البلاد ؛ إذ كنتم المَفْزَع والمقنع ،  
والأئمة والمنزع . ولولا ما قلّدتهم من أمر الجماعة ، والقيام بشأن الخاصة والعامة ،  
وأنّ الشغل برعاية حقّها والدِّفاع عنها ، لم يُبق في قواكم فضلاً للدُّعاء  
والمنازعة ، ولو ضَع الكتب بالجواب والمسألة - لبدأ بكم الفَرَض ، ولكنكم  
أحقّ بهذا الأمر .

على أننا لم نَنطِقْ إلاّ بالسنتكم ، ولم نَحْتَدِ إلاّ على مثالكُم ، ولم نَقَوْ  
إلاّ بما أعرتمونا من فَضْل قَوَّتكم . وعلى الرُّوَاة من الأدباء ، وعلى أهل  
اللِّسَن من الخطباء ، معاونتكم ومكانتكم ، والجلوس بين أيديكم والاستماع  
منكم ، وعلى أن يطيعوا أمركم ، وأن ينفذوا لطاعتكم ، وأن يخلصوا في الدُّعاء ،  
وأن يَمَحْضُوا النصيحة ، وأن يَضْمُرُوا غايةَ المحبّة ، وأن يعملوا في كَفٍّ<sup>(١)</sup>  
الغِلِّ والحسد ، وأن لا يَرْضُوا من أنفسهم بالتَّفَاق ، وأن يعلموا أنّ الحسد  
لا يقع إلاّ بين الأشكال ، وأنّ التنافس لا يكون إلاّ مع تقارب الحال .

وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلكوا .

وكان يقال : ثلاثةٌ توجب الضَّغْن وتُكثِّر من الغِلِّ : المجاورة في المنزل ،  
والاستواء في النَّسَب ، والمشاكلة في الصَّنَاعَة .

ولذلك قال شبيب بن شيبَة لرجلٍ ادَّعى محبّته ونصيحتَه : « وكيف

(١) في الأصل : « كفى » .

لا يكون كما وصفتَ وكما ذكرتَ ، ولستَ بخطيبٍ ، ولا جارٍ قريبٍ ،  
ولا ابنِ عمٍّ نسيبٍ » .

وقال بعض الحكماء : لو لم تعرفوا من لُؤم الحسد إلا أنه موكل  
بالأدنى فالأدنى . وليس يقع ذلك بين المتباينين ، ولا يجوز في المتقاربين .

ولا يكون الطُّلبُ إلا بالطَّعم ، ولا يكون الطَّعم إلا بالسَّببُ . فإذا  
انقطع السَّببُ انقطع الطَّعم ، وفي عدم الطَّعم [ عدمُ ] الطلب . وكيف  
يتكَلَّف الطَّيْرَانِ مَنْ لَا جَنَاحَ لَهُ ، وكيف يَرْجُو صَلاَحَ أَمْرِ الْعَائَةِ وَتَرْتِيبَ  
الْخَاصَّةِ مِنْ عَجَزَ عَنْ تَدْيِيرِ بَيْتِهِ ، وَقَصَّرَ عَنْ تَدْيِيرِ عَبْدِهِ ؟ !  
وإنصاف اللسان قليل ، وإنصاف القلب أقلُّ منه .

ونحن نرغب إلى الله في صلاحهم ؛ فإنَّ في صلاحهم صلاحَ قلوبنا لهم .  
وقد جعل الله الشكرَ موصولاً بالمزيد ، ومن الشُّكر على نعمة الله علينا  
بكم أن نعظم ما عظم الله من أمركم . ومن صغر ما عظم الله فقد عظم ما صغر  
الله . ولا يفعل ذلك إلا الصَّغِير القَدْر ، والْخَامِل الذِّكْر ، والْجَاهِل بالأمر .

وكيف لا تكونون<sup>(١)</sup> على ما خَبِرْتُ وكما وصفتُ ، وقد أغنيتم من  
العيلة ، وأنستم من الوحشة ، وجمعتُم الشُّمل ، وأعدتم الألفة ، ورددتم  
الظُّلَّامة ، وأحييتم الشُّنَّة ، وأبرزتم التوحيدَ بعد اكتتامة ، وأظهرتموه بعد  
استخفائه ، واحتملتم عداوةَ الجميع ، ووترتم المطاعين في تقويننا .

ونحن لا نطالب ما كنتم قياماً ، ولا نذكر ما كنتم شهوداً . ونحنُ  
مع قلةِ علمنا لا نجد أبداً عملنا إلا مقصراً عن علمنا . وأتم مع اتساع قلوبكم ،

(١) في الأصل : « يكونون » .

أعمالكم وفق علومكم ؛ لأنَّ كلَّ مَنْ بذلَ كلَّ مجهوده ، وخاطر بجميع نعمته ، وكانت الواحدة من نِعَمه كالجميع من نِعَم غيره ، مع خِذلان الموافق ونُكوص المؤازر ، ثمَّ لم تزدْه الشدائد إلاَّ شِدَّةً ، والوحدة [ إلاَّ ] أنْسَةً - حقيقٌ بالتَّفضيل والتَّعظيم ، والإنابة له بالتقديم .

ولعلَّ قائلًا أن يقول : أدخله في جملة صفات أبيه ، وجِلَّة مشيخته وأقربيه ، حيث خَصَّهم بالتَّقديم ، وأبانهم بالتَّعظيم . بل كيف يقدِّم من صَغُرَتْ سُنُّه وقلَّتْ تجربته على من تقاربت سُنُّه وكثُرَتْ تجربته . وكيف تمكن الطاعة الكثيرة في الأيام القصيرة والشهور اليسيرة ؟ وهل يقول ذلك صاحبُ تحصيلٍ ومقايسة ، والبعيد من الملق والمخادعة .

وما قلتُ ذلك - حفظك الله - ولا انتحلته ، إلاَّ وبرهاني حاضر ، وشاهدي شاهد . وذلك أنَّ للشَّبَابَ <sup>(١)</sup> سَكْرَةً وطِاحًا ، وقِرَاعًا وَصَوْلَةً . والهِرَمُ داخلٌ على جميع الأعضاء ، وآخِذٌ بقسطه من جميع الأجزاء . ألا ترى كيف يكلُّ ناظره وسامعه ، وذائقه وشامه ، وهاشمه وعامله ؛ وكيف تُنْقَصُ على مرور الأيام قوَّته ، وكذلك قلبه وكلُّ ما بطن من أمره ، على قدر ما نقص من قوَى جسمه وتُنْقَصُ من قوَى شهوته . [ و ] يخفُّ عليه مخالفةُ هواه ، ومحاربة نوازِعه <sup>(٢)</sup> . ومن حَمَل <sup>(٣)</sup> على نفسه في كمال شبابه وأيام سكرته ، وفي سلطان حدِّته وكمال قوَّته ، فظَلَفَهَا مرَّةً <sup>(٤)</sup> وكبَّحَهَا

١١٠ و

(١) في الأصل : « للشارب » .

(٢) في الأصل : « مواده » .

(٣) في الأصل : « لمن جعل » .

(٤) ظلف نفسه : منعها هواها

أخرى ، وعاین تلك التسکاليف ، وغلبَ تلك الرّيحُ كان أبرزَ طاعةً ؛ إذ كان أحملَ للمشقة .

وعلى قدر المشقة تكون المثوبة ، وتعظمُ عند الله المنزلة ، وتقعُ له في قلوب الناس المحبة . ولذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد ابن أبى وقاص ، حين وجهه إلى العراق : « ياسعد بنى وهيب<sup>(١)</sup> ، إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه إلى خلقه . فاعتبر منزلتك من الله بمنزلك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثلُ ما لله عندك<sup>(٢)</sup> . ونحن نعتبر حالك عند الله بالذى نجد لك في قلوب عباده . وقد ملَّك الله بعضَ الناس أبدانَ بعض ، ولم يملك القلوبَ أحداً غيره . »

وأما قولهم : إن الفرارة مقرونة بالحدائث ، والحسكة موصولة بطول التجربة ، فإنَّ الدَّهن الحديد والطَّبع الصحيح ، والإرادة الوافرة ، ينال في الأيام اليسيرة ، ويُدرك في الدَّهور القصيرة ، ما لا تدركه العقول المخدوجة<sup>(٣)</sup> ، ولا الطباع المدخولة ، والإرادة الناقصة ، في الأيام الكثيرة ، والدَّهور الطويلة .

(١) هم بنو وهيب بن عبد مناف بن زهرة . وهو سعد بن أبى وقاص بن وهيب . واسم أبى وقاص مالك . جمهرة أنساب العرب ١٢٩ والإصابة ٢١٨٩ وفى البيان ١ : ٢٦١ : « ياسعد ، سعد بنى أهيب » . وأهيب ووهيب لغتان .

(٢) إلى ينتهى الخبر فى البيان والتبيين .

(٣) المخدوجة : الناقصة ، من قولهم : خدجت الناقة : ألقت ولدها قبل أوانه لغير تمام . ويقال خدجت المرأة ولدها وأخدجته بمعنى واحد .

وربما صادف القائل مع ذكائه وكثرة قراءته<sup>(١)</sup> وجودة اعتباره ، زماناً أكثر عجباً ، وأكثر معتبراً ، وإن كانت شهرته أقل ، وأيامه أقصر ، فينال مع قلة الأيام مالا ينال سواه مع كثرتها ، ولا سيما إذا أُعِين بِحِفْظٍ ، وأحسَّ من نفسه بفضل بيان . ١١٠ ظ

وليس من نظر في العلم على الرغبة والشهوة له كمن نظر فيه على المكسبة به والمهرب إليه ؛ لأنَّ النفس لا تُسَمِّحُ بكلِّ قواها إلاَّ مع النشاط والشهوة ، وهي في ذلك لنفسها مستكرهة ولها مكابدة . والسامة إلى من كانت هذه صفته أقرب ، وله أزم . ولولا ذلك لما ولى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ الْيَمَنَ ، وجعل<sup>(٢)</sup> إليه قَبْضَ الصَّدَقَاتِ ، ومحاسبة الْعُمَالِ ، وقلده الأحكامَ وتعليم<sup>(٣)</sup> الناس الإسلام ، وهو ابن ثمانى عشرة سنة . ولا يدفع ذلك صاحبُ خبرٍ ولا حاملُ أثر .

وعلى مثل ذلك عَقَدَ لَأَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ الْإِمْرَةَ ، وأبَانَهُ بِالتَّقْدِمَةِ عَلَى جِلَّةِ الْأَنْصَارِ وَكِبَارِ الْمُهَاجِرِينَ ، وخيار السلف المتقدمين .

وعلى مثل ذلك ولى عَتَّابَ بْنَ أُسَيْدٍ<sup>(٤)</sup> مَكَّةَ ، وبها عظماء قريش وكبراء العرب وذوو الأخطار من كل قبيلة ، وذوو الأسنان من كل جيل .

(١) في الأصل : « فوابله » بالإهمال .

(٢) في الأصل : « وحمل » .

(٣) في الأصل : « ويعلم » .

(٤) بفتح الهمزة ، كما في الإصابة ٥٣٨٣ وقد أسلم عتاب يوم الفتح ، واستعمله رسول الله على مكة لما سار إلى حنين .

ومكة فتح الفتوح ، وأمّ القرى ، وخاتمة الهجرة وقبلة العرب ، وموضع الحرم والموسم الأعظم والحج الأكبر ، والأصل والمفخر .

وقد رأيتم مابلع بن خالد بن يزيد في السُودد والحبة ، وقود الجيوش والهيئة ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد ذكر ذلك الكيث بن زيد فقال :  
 قاد الجيوش لخمس عشرة حجةً ولدائه عن ذاك في أشغال<sup>(١)</sup>  
 قعدت بهم همتهم وسما به هم الملوك وسورة الأبطال<sup>(٢)</sup>  
 فأما ابن بيض<sup>(٣)</sup> فقال :

بلفت لعشر مَضّت من سنه لك مايلغ السيد الأشيبُ  
 فهُمك فيها جسامُ الأمور وهم لداتك أن يلعبوا

(١) البيت في فتوح البلدان ٦١٩ برواية « ساس الرجال لسبع عشرة » .  
 وفي الأصل هنا : « بخمس عشرة » ، تحريف .

(٢) في الأصل : « قعدت بهم همتهم » . وعند البلاذري أن الشعر مقول في عهد بن القاسم .

(٣) ابن بيض ، بكسر الباء ، وهو حمزة بن بيض الحنفي شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، كوفي خليف ماجن كان منقطعا إلى المهلب بن أبي صفرة وولده ، ثم إلى أبان بن الوليد ، وبلال بن أبي بردة ، واكتسب بشعره مالا بلغ ألف ألف درهم . ولم يدرك الدولة العباسية . الأغاني ١٥ : ١٤ - ٢٥ والمؤتلف ١٠٠ وحواشي الحيوان ٥ : ٤٥٤ - ٤٥٥ . وفي عيون الأخبار ١ : ٢٢٩ أن حمزة ابن بيض قال البيتين لخالد بن يزيد بن المهلب .

وعلى مثل ذلك قال الفرزدقُ في يزيد بن المهلب :

ما زال مُذْ عَقَدَتْ يده إزارَه ودنا وكان لخمسة الأشبار<sup>(١)</sup>

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبصارِ

و ١١١

وعلى هذا المجرى مدح الشاعر من مدح فقال :

مازلت في عقل الكبير وأنت في سنّ الصغيرِ

وقد رأيتم ما بلغ محمد بن القاسم<sup>(٢)</sup> من الفتوح العظام والأيام الجسام ،  
والقهر للأعداء ، وبلوغ الحجة في الأولياء ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد  
ذكر ذلك زياد الأعجم فقال :

ما إن سمعتُ ولا رأيتُ عجيبَةً كمحمد بن القاسم بن محمد<sup>(٣)</sup>

قاد الجيوش لخمس عشرة حجةً يا قُربَ ذلك سُودداً من مَولِدِ<sup>(٤)</sup>

(١) ديوان الفرزدق ٣٧٨ والخزانة ١ : ١٠٣ . والرواية في الديوان : « فدنا فأدرك خمسة الأشبار » . وفي الخزانة : « وسما فأدرك خمسة الأشبار » .

(٢) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل ، أحد ولاة الحجاج ، غزا السند وفتحها في أواخر أيام الحجاج : فتوح البلدان للبلاذري ٦١٢ - ٦١٩ .

(٣) في فتوح البلدان ٦١٩ وعيون الأخبار ١ : ٢٢٩ :

إن المروءة والسباحة والندی لمحمد بن القاسم بن محمد

(٤) في الأصل : « بخمس عشرة » والوجه ما أثبت لكن في فتوح البلدان « ماس الجيوش لسبع عشرة حجة » ، وفي عيون الأخبار : « قاد الجيوش لسبع عشرة » .



وقال الآخر<sup>(١)</sup> :

إذا المرء أعمته المروءة ناشئاً فطلبها كهلاً عليه عسير<sup>(٢)</sup>

وقال آخر<sup>(٣)</sup> :

إذا ما ترعرع فينا الفلام فليس يقال له من هـو<sup>(٤)</sup>

إذا لم يسد قبل شد الإزار فذلك فينا الذي لا هو

ولى صاحب من بنى الشيصبان فطوراً أقول وطورا هو<sup>(٥)</sup>

وزعموا أن عمرو بن سعيد<sup>(٦)</sup> قال له معاوية - وذلك قبل أن يبلغ

ويحتلم - إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبي أوصى إلى ولم يوص بي .

قال : فيم أوصاك ؟ قال : أوصاني ألا يفقد إخوانه منه إلا وجهه<sup>(٧)</sup> .

(١) هو المعلوط بن بدل القريني ، كما في التنبية على الحماسة لابن جني ،  
وعيون الأخبار ٣ : ١٨٩ . وفي الحماسة بشرح المازني ١١٤٨ : « وقال رجل  
من بني قريع » .

(٢) في الأصل : « كهل » ، صوابه في المراجع المتقدمة . وأما « عسير »  
فالرواية فيها : « شديد » ؛ فإن البيت من مقطوعة دالية في الحماسة .

(٣) هو حسان بن ثابت ، كما في ديوانه ٢٢٢ ؛ واللسان : ( شصب ) وثمار  
القلوب ٥٥ . ولأبيات قصة في الديوان واللسان . ورويت في الحيوان ٦ : ٢٣١  
بدون نسبة .

(٤) في الديوان واللسان : « فما إن يقال له » .

(٥) الشيصبان ، بفتح الشين والصاد : أبو حى من الجن ، زعموا .

(٦) هو أبو أمية عمرو بن سعيد بن العاصي بن سعيد بن العاصي بن أمية ،  
المعروف بالأشدق جمهرة أنساب العرب ٨١ وتهذيب التهذيب وتاريخ الطبري ٧ :  
١٧٨ — ١٨١ وحواشي البيان ٣ : ٣١٤ .

(٧) في البيان ٣ : ٣١٦ : « إلا شخصه » . والخبر في عيون الأخبار ١ : ٢٣٥  
وأمالى المرتضى ١ : ٢٧٧ .

ولو لم يعرف ذلك إلاّ بعبد الله بن العباس وَحَدَّه كان ذلك كافياً ،  
وبرهاناً شافياً ، فإنَّ الأعجوبة فيه أُرْبَتْ على كلِّ عجب ، وقطعتْ كلَّ  
سبب . وقد رأيتُ حاجةَ عُمر إليه ، واستشارته إِيَّاه ، وتقويمه لعثمان رضى الله  
عنهما وتغييره عليه . ولو لم يكن للفضيلة من بين أقرانه مستحقاً ، وبها  
مَحْصُوصاً ، ما خَصَّه الرسول صلى الله عليه وسلم بالدَّعوة المستجابة ، ولما  
خَصَّه بعِلْم الكتابِ والشَّنةِ وهما أرفعُ العِلْم ، وأشرفُ الفكر . ويدلُّك على تقديمه  
للغاية ، وإيثاره للتعليم والاستبانة ، قوله حين قيل له فى حدائته وقبل البلوغ  
فى سنِّه : ما الذى آتاك هذا العلمَ وهذا البيانَ والفهم ؟ قال : « قلبٌ عقولٌ ،  
ولسانٌ سَوولٌ » .

١١١ ظ

وقد عرقتم تحاكم العرب فى الجاهليَّة فى الثُّفورة<sup>(١)</sup> ، وفى غير ذلك من  
الخايرة والمشاورة ، إلى أبى جهل بن هشام فى أيام حدائته وفتائه ؛ ولذلك  
أدخلوه دارَ الندوة ، ودُفِعَ [ مع<sup>(٢)</sup> ] ذوى الأسنان والحنكة من بين  
جميع الشُّبان ، ومن بين جميع الفتيان .

ولذلك قال قُطبة بن سَيَّار<sup>(٣)</sup> حكيمُ فزارة حين تنافروا إليه عامر  
ابن الطُّفيل وعلقمة بن عُلاثة : عليكم بالحديد الذَّهن ، الحديث السنَّ .  
يعنى أبا جهل .

(١) الثُّفورة : الحكومة . قال ابن هرمة ( اللسان نقر ) :

يرقن فوق رواق أبيض ماجد يدعى ليوم نفورة ومعاقل

(٢) ليست فى الأصل . وفى عيون الأخبار ١ : ٢٣٠ : « فأدخلته مع الكهول

دار الندوة » .

(٣) هو قُطبة بن سيار بن عمرو ، من بنى مازن بن فزارة . الاشتقاق ٢٨٣ .

وفى الأصل : « سنان » ، تحريف .

فهذا كله دليلٌ واضح ، وبرهانٌ بين .

ولعلَّ قائلًا أن يقول : إنّما الفضل في خشونة الملبس ؛ وليس ذلك لمن مدحت ، ولا هذه صفةٌ من وصفت .

وهذا بابٌ - أبقاك الله - قد يغلط فيه العاقل ما لم يكن بارعاً ، والفطن ما لم يكن ثاقباً ، والأريب ما لم يكن كاملاً . ولو كان الفضل والرئاسة والقدر والتباهة على قدر قَشْفِ الجلدة وبذاذة الهيئة ، وكثرة الصّوم ، وإيثار الوحشة والسيّاحة - لكان عثمانُ بن مظعونٍ متقدِّماً لأبي بكر الصديق رضوان الله عليه ، ولكان بلالُ بن رباحٍ غامراً لعثمان بن عفان رضى الله عنهما .

وقد قال ابن شهاب الزهري : ليس الناسك<sup>(١)</sup> إلا من غلب الحرام صبرُهُ ، والحلال شكرُهُ .

فهذا ما حضرنا من القول ، وأمكنا من الاحتجاج . وما أشكُّ أن مَنْ خَبَرَ أمرَكَ أكثرَ من اختباري كان عنده أكثر من علمي . وعلى أنْ منظرَكَ - أسمعكَ الله - يُغنى عن الخبر ، والفِراسة فيك تكفي مؤونة التجربة ١١٢ و لك . وقد تَقَيَّلَتْ بحمد الله أخلاقَ شيخك<sup>(٢)</sup> ، واحتذيت على مثاله كما احتذى على مثال مَنْ كان قبله . ولولم يتعقَّبوا أمرَكَ ، ويتصفَّحوا سيرتك في نفسك ثم في خاصَّتِكَ وعامَّتِكَ ، لكان في صدق الفِراسة وظهور المحبَّة ما تقضى به النفوس ، ويستدلُّ به الجرب . وظنُّ العاقل كيقين غيره .

(١) في الأصل : « ليس الناس » . وفي البيان ٣ : ١٨٧ : « وقيل له أيضاً : ما الزهد في الدنيا ؟ قال : ألا يغلب الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك » .  
(٢) تقيله : تشبه به .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إِنَّكَ لَنْ تَنْتَفِعَ بِعَقْلِهِ حَتَّى تَنْتَفِعَ بِظَنِّهِ .  
وقال أوس بن حجر :

الْأَلْمَى الَّذِى يَظُنُّ لَكَ الظَّنَّ نَّ كَأَنَّ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا<sup>(١)</sup>  
وقال وهو يمدح ابن كلدة بِصِدْقِ الْحَسِّ ، وَصَوَابِ الْحَدْسِ ، وَجَوْدَةِ  
الظَّنِّ :

أَرِيبُ أَدِيبٍ أَخُو مَأْزِقٍ نِقَابًا يَخْبِرُ بِالْمَنَاقِبِ<sup>(٢)</sup>  
وقال آخر<sup>(٣)</sup> يمدح بمثل ذلك عبد الملك بن مروان :

رَأَيْتُ أَبَا الْوَلِيدِ غَدَاةَ جَمْعٍ هـ شَيْبٌ وَمَا فَقَدَ الشَّيْبَابَا<sup>(٤)</sup>  
وَلَكِنْ تَحْتَ ذَاكَ الشَّيْبِ حَزْمٌ إِذَا مَا ظَنَّ أَمْرُضَ أَوْ أَصَابَا<sup>(٥)</sup>  
وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾<sup>(٦)</sup> .  
وقال : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾<sup>(٧)</sup> . وفى ذكره البعض دليل على أَنَّ سائر  
ذلك صواب وطاعة .

(١) ديوان أوس بن حجر ٥٣ والكامل ٧٣١ والحيوان ٣ : ٩٥ والبيان ٤ :  
٦٨ يرثى به فضالة بن كلدة ويروى : « يظن بك الظن » .  
(٢) ديوان أوس ١٢ والحيوان ٣ : ٦٠ . والنقاب الرجل العالم بالأشياء البعث  
عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وقد وردت « نقابا » فى الأصل منصوبة ، ويروى :  
« نقاب » .

(٣) هو كثير كما فى الحيوان ٣ : ٦٠ والبيان ٤ : ٦٧ .  
(٤) جمع ، بالفتح ، هو المزدلفة  
(٥) أمرض : قارب الصواب فى رأى وإن لم يصب كل الصواب وفى الأصل :  
« أعرض » ، صوابه من الحيوان والبيان واللسان ( مرض ) .  
(٦) الآية ٢٠ من سورة سبأ .  
(٧) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

وكان من أسباب دفعي إليك هذا الكتاب - أبقاك الله - دون  
أبي عبد الله<sup>(١)</sup> أكرمه الله ، أنكما قد تجريان في بعض الأمور مجرى وحداً ،  
ولأنك وإن كنت كثير الشغل فهو أقل فراغاً منك على كثرة شغلك ، وفرط  
عنايتك بما استكفأك واسترعاك . وإن جعلت لي قسماً من وقت فراغك ،  
ونصيبتاً من ساعة نشاطك . رجوت أن يصير إلى ما أملناه عندك من الإينام  
عليّ . والاسترهان لشكري ؛ فإنّ العرب لم نعظم شيئاً قطّ كتعظيمها موقع  
الإينام والشكر والأحدوثة الحسنة ، والذكر والتميز ، والاستمداد للنعم ،  
والكفر حائل بين العود والبدء .

١١٢ ظ

قال عنتره :

نبئت بشراً غير شاكر نعمتي والكفر محبةٌ لنفس المنعم<sup>(٢)</sup>  
وقال السندي :

فلم أجز بالحسنى وعادت مشاربي بلاقع بقروها الحمام المقرقر  
تبدلت بالإحسان سوءاً وربما تنكر للمعروف من كان يكفر

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دواد القاصي ، والد من كتب إليه الجاحظ :  
هذه الرسالة وأبو دواد اسمه كنيته . وقيل اسمه « دعى » وقيل « طلعة »  
ولى أحمد القضاء للمعتصم ثم للواثق ، وكان موصوفاً بالجلود والسخاء وحسن الخلق  
ووفور الأدب ، وهو صاحب محنة القول بخلق القرآن في أيام المعتصم والواثق .  
ولد سنة ١٦٠ بالبصرة وتوفي سنة ٣٤٠ في بغداد . تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ - ١٥٦  
ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ - ٢٦ .

(٢) البيت من معلقة عنتره . والرواية : « نبئت عمرا » . انظر شرح  
القوائد السبع الطوال لابن الأنباري ٣٥٥ .

ويدل على حبهم للثناء وجميل الذِّكر قولُ الأسدَيَّ :

فإنِّي أحبُّ الخلدَ لو أستطيعه      وكانخلد عندي أن أموت ولم أَلَمْ<sup>(١)</sup>

وقال :

فأثْنُوا علينا لا أبا لأبيكم      بمسعاتنا إنَّ الثناء هو الخلدُ<sup>(٢)</sup>

وقال الغنوي :

فإذا بلغتْ أهلكم فتحدَّثوا      إنَّ الحديثَ مهالكٌ وخلودُ<sup>(٣)</sup>

فجعلوا الذِّكرَ بالجميل مثلَ الخلود في النعيم .

وعلى هذا المعنى قال في درك الثَّار :

فقتلاً بنقتيل وعقراً كمقرم      جزاءُ العطاس لا يموتُ من انثارُ<sup>(٤)</sup>

وقال حكيم الفرس حين بلغه موتُ الإسكندر ، وهو قاتل دارا بن دارا :

ما ظننت أن قاتل دارا يموت !

وهذا القول هو أمدح منه لقاتله . ولم أسمع للعجم كلمةً قطُّ أمدحَ منها .

فأمَّا العرب فقد أصبتُ لهم من هذا الضَّرب كلاماً كثيراً .

(١) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ .

(٢) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ . والرواية فيهما « بإحساننا » .

(٣) في بعض نسخ الحيوان : « بلغتْ أرضكم » و « متالف وخلود » . انظر

الحيوان ٤ : ٤٧٥ .

(٤) هو مهلهل ، كما في البيان ٣ : ٣٢٠ . وهو بدون نسبة في الحيوان

٣ : ٤٧٥ . تحريف . وفي الأصل : « وعقروا كعقوكم » تحريف . والعقر : القتل

والإهلاك . جزاء العطاس ، هو تسميت العطاس والدعاء له بالخير ؛ أي نعيجل بذلك

كقدر ما بين العطاس والتسميت . وانظر اللسان ( عقب ١١٠ جزى ١٥٩ ) .

لا يموت من انثار ، أي لا يموت ذكره . انثار : أدرك ثأره .

ومما يدلُّ على قدر عِظَم الشُّكر عند الشاكر والمشكور له من العرب ،  
قولُ أوس بن حجرٍ في حَلِمة<sup>(١)</sup> :

سنجزيكِ أو يَجْزِيكِ عَنَّا [مُنَوَّبٌ]

وحسبكِ أن يُبْذَنِي عَلَيْكِ وَتُحْمَدِي<sup>(٢)</sup>

وقال بعض الشعراء<sup>(٣)</sup> :

فلم أَجزِه إلاَّ التَّشكَّرَ جَاهِدًا وحسبكِ مَنِّي أن أقولَ فَأَحْمَدًا<sup>(٤)</sup> ١١٤ و

وكانوا يرون للذَّنْب مالا يراه غيرهم . وقال امرؤ القيس بن حُجْر :

\* وَجُرِحَ اللِّسَانُ كَجُرْحِ اليَدِ<sup>(٥)</sup> \*

(١) هي حليلة بنت فضالة بن كلدة . وكانت قد أسدت إليه صنيعا حين جالت به ناقته فصرعته ، في قصة رواها أبو الفرج في الأغاني ١٠ : ٧ .

(٢) المَثُوب : المجازى ، يقال أثابه وأثوبه وثَوَّبَه ، وفي الكتاب العزيز : « هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون » . وموضع الكلمة يياض في الأصل ، وإثباتها من ديوان أوس ٢٧ والحيوان ٣ : ٧١ والبيان ٣ : ٣٢٠ . ويروى : « عني مثوب » ويروى : « وقصرك » بدل « وحسبك » ؛ وهما بمعنى .

(٣) هو أبو يعقوب الأعور ، كما في الحيوان ٣ : ٧٢ .

(٤) في الحيوان :

فلم أَجزِه إلاَّ المودة جَاهِدًا وحسبكِ مَنِّي أن أود وأجهدا  
وفي بعض نسخ الحيوان : « أن أود وأحمدا » .

(٥) صدره في ديوان امرئ القيس ١٨٥ والبيان ١ : ١٥٦ :

\* ولو عن ثنا غيره جأني \*

( ٢٠ - رسائل الجاحظ )

وقال جرير :

\* وَلَسَيْفُ أَشْوَى وَقْعَةً مِنْ لِسَانِيَا <sup>(١)</sup> \*

في أشعار كثيرة .

ولست أمتُ إليك — أكرمك الله — بعدَ التوحيد ونفى التشبيه ،  
ونُصرتي للدين ، بأمرٍ أنا به أوثقُ من رغبتك في شكر الكرام والأحدوثِ  
الحسنة . قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ <sup>(٢)</sup> ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّهُ  
لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ <sup>(٣)</sup> ﴾ . فلو كان حبُّ الذِكر خطيئةً لما رَغِبَهم فيه ،  
ولا عُذَّ في نِعَمه .

ولعل قائلًا أن يقول : وكيف لم تذكر أمير المؤمنين ، والمعتصم  
ربَّ العالمين ، الذي حَقَّقَ الله به الدين وسدَّد به الشُّعُور ، وردَّ به المظالم ،  
وحَسَمَ به عِرْقَ البغى ونواجمَ الفتنَةِ ؛ الذي لم يَزَلِ اللهُ يزيده في كلِّ طَرْفَةِ  
مَحَبَّةٍ ، ومع كلِّ مَحَبَّةٍ هَيِّبَةٍ ، ومع كلِّ نِعْمَةٍ شُكْرًا ، ومع كلِّ شُكْرٍ فضلًا .  
وهو المبتدئ بهذا الأمر والقائم به ، والقطب الذي عليه تدوُّر الرَّحَى ، وعلى  
مثاله احتدَّى من احتدَّى ، وبلسانه نطق ، وعن رأيه صدر . وبُيُمن نقيبته  
ظهر ، وبفضل قُوَّته نهَض . وهو أوَّل هذا الأمرِ ووسطه ، به يتمُّ  
إن شاء الله تعالى .

(١) صدره في ديوان جرير ٦٠٦ والبيان ١ : ١٦٧ :

\* وليس لسيفي في العظام بقية \*

أى هو يكسر العظم ويتجاوزه لا يغيب فيه أشوى ، من الشوى ، وهو  
إخطاء المقتل . يعنى أن لسانه أشد فتكا من سيفه ، على ما فى سيفه من قوة وفتك .

(٢) الآية ٤ من سورة الانشراح .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الزخرف .



قلنا : إنَّ عقلَ الرَّسول يدلُّ على مُرسِلِه ، واعتدال القناة يدلُّ على حِذْقِ المثقَّف ، ومديحك الوزير راجعٌ إلى مَنْ اختاره ، وإنَّ تصويبَ ظنِّ المتفرِّس فيه ومديحنا له غيرُ راجعٍ إلى وزيره والمحتذى على مثاله ، بل قد علم النَّاسُ أنَّ الحِظَّ الأكبرَ للأمرِ دونَ المطيع ، وللمعلم دونَ القائل ، ولأنَّ السَّببَ في عداله . . . . (١) وعند النَّظر والتحصيل ، أفضلُ من السَّببِ ، والمتبوعَ خير من التابع . ألا تَرى أنَّ مَنْ مدح الأنصارَ فهو للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرين أمدحُ ، وإن لم يُظهر ذِكرَهم في الوصف .

قال جرير :

١١٤ ظ

\* تَلَكُم قُرَيْشِي وَالْأَنْصَارُ أَنْصَارِي (٢) \*

وقال رؤبة :

\* وَمَنْ عَلَى الْمَنبرِ لِي وَالْمَنْبَرُ \*

وربما كانت الكناية أبلغَ في التعظيم ، وأدعى إلى التقديم ، من الإفصاح والشرح . وربما أتى من السكوت بما يَعجزُ القولُ عنه وقد بلغ أقصى حاجته وغاية أمنيته بالإيحاء والإشارة ، حتَّى يكون تكلفُ القولِ فضلاً ، والكلامُ خطلاً .

وما عسى أن أقولَ فيمن قد قوَّى عقله بطبيعته ، وانتصف عزُّه من شهوته ، وكان عمله وَفْقَ علمه ، وعمله غامراً الخصمه .

(١) بياض في الأصل بمقدار كلمتين .

(٢) صدره في ديوان جرير ٣١١ :

\* إن الذين اجتنوا مجدا ومكرمة \*

وفي الأصل : « نبهم قرشي والأنصار الصابرين » .

وقد يجري الملكُ على عِرْقٍ صالحٍ ومنشأ سَوءٍ ، فيقدح ذلك في عِرْقِهِ وإن لم يستأصله ، وقد يكون له عِرْقٌ صالحٌ ومنشأ صِدْقٍ ، وتكون أداتُهُ تَامَةً ويكون مؤثراً لهواه ، فيكون في الاسم وفي ظاهر الحكم كمن فسد عِرْقُهُ وخَبِثَ منشؤه .

وقد جمع الله لأُمير المؤمنين<sup>(١)</sup> مع كرم العُروق وصلاح المنشأ ، البُعدَ من إثارة الهوى . وهل رأيت أفعالاً أشبه بأخلاقٍ ، ولا أخلاقاً أشبه بأعراقٍ ، من أفعاله بأخلاقه ، وأخلاقه بأعراقه .

فَسأل الله الذي أسندنا بخلافته ، أن يَمُنَّ علينا بطُول بقاءه ، وأن يَخَصَّنَا بحسن نظره كما خَصَّنَا بمعرفة حَقِّهِ ، والاحتجاج لِمُلْكِهِ ، والذَّبُّ عن سُلْطَانِهِ .

ولربما كان اللسانُ أُنْفَذَ من السَّنانِ ، وأُقْطِعَ من السَّيفِ الإيمانُ .  
أطال الله بقاءك وحَفِظَكَ ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك .

\* \* \*

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه وتأييده . والحمد لله أولاً وآخراً  
وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه ، وسلامه .

---

(١) يعنى الخليفة المعتصم .

٧  
رِسَالَة

إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دُواد  
يخبره فيها بكتاب

الفُرُوسِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة السابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ، من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتبها إليه يخبره فيها بكتاب الفتيا » .

أما أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإيادي فقد سبقت ترجمته في أثناء الرسالة السابقة فأغنى ذلك عن إعادتها .

وقد أجرى الجاحظ ذكر كتاب الفتيا في الحيوان ١ : ٩ قال : « وعبت كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام » .

وما هذه الرسالة إلا تقديم وعبارة إهداء لكتاب الفتيا ، وليست هي كتاب الفتيا بعينه .

ولم أجد لهذه الرسالة أصلا في غير مجموعة مكتبة داماد ، وعليها اعتمادى في إخراج هذه الرسالة .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أطال الله بقاءك وأعزّك ، وأصلح على يديك .

١١٥ ظ

كان يقال : السلطان سُوق ، وإنما يُجَلَّب إلى كُلِّ سوق ما يَنفَقُ فيها .  
وأنت أيُّها العالم معلّم الخير وطالبه ، والدّاعى إليه ، وحامل الناس عليه -  
مِنْ موضع السلطان بأرفع المكان ؛ لأنّ مَنْ جعل الله إليه مظالم العباد ،  
ومصالح البلاد ، وجعله متصفّحاً على القضاة <sup>(١)</sup> ، وعتاداً على الولاة ، ثمّ جعله  
الله منزِعَ العلماء ، ومنزِعَ الضّعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضعه بأرفع  
المنازل ، وأسنى المراتب .

وقد قال أهل العلم ، وأهل التّجربة والفهم : « كما يَزَعُ الله بالسلطان  
أكثرُ ممّا يَزَعُ بالقرآن <sup>(٢)</sup> » .

وقد كان يقال : شيثان متباينان ، إن صلّح أحدهما صلّح الآخر : السلطان  
والرعيّة .

فقد صلّح السلطان ، وعلى الله تمام النّعمة في صلاح الرعية ، حتى يحقّق  
الأثر ، وتصدّق الشّهادة في الخبر .

---

(١) إشارة إلى أنه كان قاضى القضاة .

(٢) في اللسان ( وزع ) : « وفي الحديث : من يزع السلطان أكثر ممن  
يزع القرآن » . قال : معناه أن من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان  
ممن تكفه مخافة القرآن والله تعالى . فمن يكفه السلطان عن المعاصي أكثر ممن  
يكفه القرآن بالأمر والنهي والإنذار .

فنسال الذى منحك حُسن الرِّعاية أن يمنحنا حُسن الطَّاعة .

وقد نظرتُ فى التَّجارة التى اخترتها ، والسُّوق التى أفتتها ، فلم أَر فيها شيئاً يَنْفَقُ إلَّا العلمُ والبيانُ عنه ، وإلَّا العملُ الصالحُ والدُّعاءُ إليه ، وإلَّا التَّعاونُ على مصلحة العباد ، ونفى الفساد عن البلاد .

وأنا - مدَّ الله فى عمرك - رجُلٌ من أهل النَّظَر ، ومن جُمُال الأثر ، ولا أكْمُلُ لِكُلِّ ذلك ولا أنى ؛ إلَّا أنى فى سبيل أهله وعلى منهاج أصحابه . والمرء مع مَنْ أَحَبَّ ، وله ما اكتسب .

وعندى - أبقاك الله - كتابٌ جامعٌ لاختلاف النَّاس فى أصول الفُتيا ، التى عليها اختلفت الفُروع وتضادَّت الأحكام ، وقد جمعتُ فيه جميع الدَّعاوى مع جميع العلل . وليس يكون الكتابُ تامًّا ، ولحاجة النَّاس إليه جامعًا ، حتَّى تَحْتَجَّ لِكُلِّ قولٍ بما لا يَصُابُ عند صاحبه ، ولا يبلُغُه أهله ؛ وحتَّى لا ترضى بكشف قناع الباطل دون تجريدِهِ ، ولا بتَوْهينِهِ دون إبطالِهِ . وقد قال رسولُ ربِّ العالمين وخاتمُ النَّبِيِّينَ ، مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم : « تَهَادَوْا تَحَابُّوا » .

فحثَّ على الهدية وإن كان كراءًا وشيئًا يسيرًا . وإذا دعا إلى اليسير الحقير فهو إلى الثَّمين الخطير أدعى ، وبه أَرْضَى .

و ١١٦

ولا أعلم شيئًا أدعى إلى التَّحابِّ ، وأوجبَ فى التَّهادى ، وأعلى منزلةً وأشرفَ مرتبةً ، مِن العلم الذى جعلَ الله العملَ له تبعًا ، والجَنَّةَ له ثوابًا .

ولا عُذْرَ لِمَن كتب كتابًا وقد غاب عنه خَصْمُهُ ، وقد تكفَّلَ بالإخبار عنه ، فى ترك الحِليطة له ، والقيام بِكُلِّ ما احتمله قوله . كما أنَّه لا عُذْرَ له فى التقصير عن فسادِ كُلِّ قولٍ خالف عليه ، وضادَّ مذهبه ، عند من قرأ كتابه



وتفهم أذخاله<sup>(١)</sup> ، لأنَّ أقلَّ ما يُزيل<sup>(٢)</sup> عذره وينزع عِلته ، أنَّ قولَ خصمه قد استهدف نلخصه ، وأصحَرَ للسانه<sup>(٣)</sup> ومكَّنه من نفسه ، وسلَّطه على إظهار عورته . فإذا استراح واضعُ الكتاب من شغَب خصمه ومداراة جليسه ، فلم يبقَ إلَّا أن يَقبوَى على كسر الباطل أو يعجزَ عنه<sup>(٤)</sup> .

ومن شُكر المعرفة بمعاوَى الناس ومَراشدهم ، ومضارَّهم ومنافعهم ، أنَّ تحمّل ثقل مؤوَّتهم في تعريفهم<sup>(٥)</sup> ، وأن تتوخى إرشادهم ، وإن جهلوا فضلَ ما يُسدى إليهم .

ولم يُصنِّ العلمُ بمثل بذله ، ولم يُستَبَقْ بمثل نشره . على أنَّ قراءة الكتبِ أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم ، إذْ كان مع التلاقي يكثر التَّظالمُ ، وتُفرطُ النَّصرة ، وتشتدُّ الحِمِيَّة . وعند المواجهة يُفرطُ حبُّ الغلبة ، وشهوةُ المِباهاةِ والرَّئاسة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخضوع . وعن<sup>(٦)</sup> جميع ذلك تحدث الضَّغائن ، ويَظهر التَّباين . وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفة وهذه الحليَّة ، امتنعت من المعرفة<sup>(٧)</sup> ، وعميت عن الدَّلالة .

(١) الأذخال : جمع دخل بالتحريك ، وهو العيب والفساد .

(٢) في الأصل : « يزيد » .

(٣) أصحَر : ظهر وبرز .

(٤) الكلام بعده إلى « وقامت سوق العلم والبيان » في ص ٢١٧ تجده مع

خلاف يسير في الحيوان ١ : ٨٤ - ٨٧

(٥) في الحيوان : « في تقويمهم » .

(٦) في الأصل « وعند » ، ووجهه من الحيوان .

(٧) في الأصل : « الفرقة » ، وفي الحيوان : « التعرف » .

ولست في الكتب علة تمنع من درك البغية ، وإصابة الحجة ؛ لأن المتوحد بقراءتها ، والمتفرّد بفهم معانيها ، لا يباهى نفسه ، ولا يفال عَقْلُه .  
والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويرجّح على واضعه بأمر :

منها أنه يوجد<sup>(١)</sup> مع كل زمان على تفاوت الأعصار ، وبعد ما بين الأمصار . وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب ، والنازع بالمسألة والجواب .  
وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ، ويفنى المعقب<sup>(٢)</sup> ويبقى أثره . ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمها ، ودوت من أنواع سيرها ؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها المستغلق علينا ، فجمّعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم - لقد خَسَّ حظنا في الحكمة ، وانقطع سببنا من المعرفة ، وقصرت الهمة ، وضعفت النية ، فاعتقم الرأى وماتت الخواطر ، ونابا العقل<sup>(٣)</sup> .

١١٦ ظ

وأكثر من كتبهم نفعاً ، وأحسن ما تكلموا به موقفاً ، كتب الله التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كل عبرة ، وتعريف كل سيئة وحسنة .  
فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا . على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا .

فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده ، والناشر<sup>(٤)</sup> للحق من القيام بما يلزمه .

(١) في الأصل : « يوجد » .

(٢) في الأصل : « المعقب » ، وفي الحيوان « العقل » .

(٣) في الحيوان : « وتبلى العقل » .

(٤) في الحيوان : « والناصر » .

فقد أمكن القولُ وصلح الدهر ، وخوى نجم التَّقيَّة<sup>(١)</sup> ، وهبَّت ريح العلماء ،  
وكسدَ الجهل والعَي<sup>(٢)</sup> . وقلمت سوق العلم والبيان<sup>(٣)</sup> .

وهذا الكتاب - أرشدك الله - وإن حَسُنَ في عيني ، وحَلَا في صدري ،  
فلستُ آمَنُ أن يعترِبني فيه من الغلطِ ما يعترى الأبَ في ابنه ، والشَّاعِرَ  
في قريضه .

والذي دعاني إلى وَضْعِهِ مع إشفاقٍ منه ، وهيبتي لتصفحك له ، أُنِّي حين  
علمتُ أنَّ الغالبَ على إرادتك ، والمستولى على مذهبك ، تقريب العالم وإقصاء  
الجاهل ، وأَنَّكَ متى قرأتَ كتاباً أو سمعتَ كلاماً ، كنتَ من وراء ما فيه  
من نقصٍ أو فضل ، باتِّساع الفهم ، وحمَّة العلم ؛ وأَنَّكَ متى رأيتَ زللاً غفرتَه  
وقومتَ صاحبه ، ولم تُقرِّعْه به ، ولم تَحْرِمْه له . ومتى رأيتَ صواباً أعلنْتَه  
ورعيتَه ، فدعوتَ إليه وأثبتتَ عليه . ولأُنِّي حين أمنتُ عقابَ الإساءة ،  
[ و ] وثقت بثواب الإحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه ، ولم أستكرِه نفسى  
عليه ، وصار ذلك موجباً لنظمه وموحياً للتقرُّب به . والسَّببُ أحقُّ بالتَّفضيل  
من المسبَّب ؛ لأنَّ الفعلَ محمولٌ على سببه ، ومضافٌ إليه ، وعِيالٌ عليه ،  
ومضمَّنٌ به .

وإحسانى - مدَّ الله في عمرك - في كتابي هذا إن كنتَ محسنًا ، صغيرٌ

(١) خوى : اختفى وذهب .

(٢) في الأصل : « والعمل » ، صوابه من الحيوان .

(٣) في الحيوان : « سوق البيان والعلم » . وإلى هنا ينتهى النص المقارب  
لنص الحيوان ، الذى أشرت إليه فى ص ٢١٥ .

فى جنب إحسانك ، إذ كنت المثير له من مراقبه ، والباعث له من مراقده .  
فلذلك صار أوفر النصيب لك ، وأمتن السبين مضافاً إليك . وإن كنت  
قد قصرت عن الغاية ، فأنا المضيع دونك . وإن كنت قد بلغت فضلها أظهر  
وحظك أوفر . لأننى لم أنشط له إلا بك ، ولا اعتمدت فيه إلا عليك .

ولولا سوقك التى لا ينفق فيها إلا إقامة السنّة ، وإماتة البدعة ، ودفع  
الظلامة ، والنظر فى صلاح الأمّة — لكانت هذه السلعة بائرة ، وهذا الجلب  
مدفوعاً ، وهذا العلق خسياس .

فالحمد لله الذى عمّر الدنيا بك ، وأخذ لمظلومها على يدك ، وأبّد هذا  
الملك بيمنك ، وصدّق فراسة الإمام فيك .

وأية منزلة أرفع وأية حالة أحمّد ، ممن ليس على ظهرها عالم إلا وهو  
يحنّ إليه ، أو قد رحل إليه ، أو قد صار إلى كنفه وتحت جناحه . وليس على  
ظهرها ظالم إلا وهو يتقيّه ، ولا مظلوم إلا وهو يستعديه .

ومن يقف على قدر ثواب من هذا قدره ، وهذه حاله ؟ !

وعندى — مدّ الله فى عمرك — كتب سوى هذا الكتاب ، وليس  
يمنعنى من أن أهديها إليك ممّا إلّا ما أعرفه من كثرة شغلك ، وكثرة ما يلزمك  
من التدبير فى ليالك ونهارك . والعلم وإن كان حياة العقل ، كما أنّ العقل حياة  
الروح ، والروح حياة البدن ، فإنّ حكمه حكم الماء وجميع الغذاء ، الذى إذا  
فضل عن مقدار الحاجة عاد ذلك ضرراً . وإنّما يسوغ الشرب ويستمرّ  
الطعام الأوّل فالأوّل . فكذلك العلم يجرى مجراه ، ويذهب مذهبه .

ومن شأن النفوس الملالة لِمَا طال عليها ، وكثُر عندها . فليس لنا  
أن نكون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشر ؛

فإن أقوامهم ضعيفٌ ، وأنشطهم سؤوم ؛ وإن كانت حالاتهم متفاوتةً فإنَّ الضَّعْفَ لهم شامل ، وعليهم غالب .

فإذا قُرئَ عليك — أيَّدك الله — هذا الكتابُ التمسنا أوقاتَ الجِمام<sup>(١)</sup> وساعاتِ الفراغ ، بقدر ما يُمكن من ذلك وبتهيأ . والله الموفقُ لذلك ، والمهيئُ له . ثمَّ أتبعنا كلَّ كتاب بما يليه إن شاء الله .

ولست بحمد الله من باب الطَّفرة والمداخلة<sup>(٢)</sup> ، ولا من باب الجوهر والعرَض ، بل كلُّها في الكتاب والسُنَّة ، وبجميع الأُمَّة إليها أعظمُ الحاجة . ثم نسألُ الذي عرَّفنا فضلك ، أن يصلَّ حبَلنا بحبلك ، وأن يجعلنا من صالحى أعوانك ، المستمعين منك ، والناظرين معك ؛ وأن يُحسِّنَ في عينك ويُزيِّنَ في سمعك ، ما تقرَّبنا به إليك ، والتمسنا الدنوّ منك ، إنه قريب مجيب ، فعالٌ لما يريد .

أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك في الدنيا والآخرة .

\* \* \*

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنَّه وتوفيقه . والله الموفق للصواب .  
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه الطيبين الطاهرين وسلامه .

(١) الجِمام ، كسحاب : الراحة .

(٢) انظر للطفرة والمداخلة حواشى الحيوان ٤ : ٢٠٨ .



٨

رِسَالَة

إِلَى أَبِي الْفَرَجِ بْنِ نِجَاحِ الْكَاتِبِ





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثامنة من رسائل الجاحظ ، انقردت بها نسخة مكتبة داماد .  
وعنوانها :

« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتب بها إلى أبي الفرج بن  
نجاح الكاتب » .

وهي غير الرسالة التي كتب بها إليه في « المودة والخلطة » ، فهذه لم ترد في مجموعة  
داماد ، وإنما وردت في الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان ، وكذا في مختارات  
فصول الجاحظ نسخة المتحف البريطاني ، وقد نشرها السندوبي كذلك في رسائل  
الجاحظ .

وسأقوم بتحقيقها ونشرها إن شاء الله بعد الفراغ من هذه المجموعة : مجموعة داماد .  
وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سلمة ، كما في جمع الجواهر للحصري ١٢١ .  
وأبوه نجاح بن سلمة كان على ديوان التوقيع في خلافة المتوكل وقتله سنة ٢٤٥  
ووجه إلى ابنه أبي الفرج وأبي محمد ، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو محمد ، كما ذكر  
الطبري في حوادث تلك السنة .

والملاحظ في هذه الرسالة أن الجاحظ قد عني فيها بجمع أسماء من كنيته  
« أبو عثمان » التي هي كنيته أيضاً ، كما أنها قد سجلت للجاحظ قصيدة من شعره .



جُعِلَتْ فِدَاكَ ، وأطال الله بقاءك ، وأعزَّكَ وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك وأيدك .

قد نسخت لك - أعزَّكَ الله - في صدر هذا الكتاب قصيدةً قيلت في أبي الفرج أدام الله عزَّه ، ذكروا أن قائلها رجلٌ يكنى أبا عثمان ، ولا أدري أهو أبو عثمان هشام بن المغيرة<sup>(١)</sup> ، أم أبو عثمان عَفَّان بن أبي العاص<sup>(٢)</sup> .

ولا أدري أهو أبو عثمان عنبسة بن أبي سفيان ، أم أبو عثمان سعيد ابن عثمان<sup>(٣)</sup> ، ولا أدري أهو أبو عثمان التَّهْدِي عبد الرحمن بن مِثْل<sup>(٤)</sup> ، أم أبو عثمان ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن<sup>(٥)</sup> .

(١) جمهرة أنساب العرب ١٤٥ . وهو والد أبي جهل .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٨٣ وهو والد عثمان .

(٣) جمهرة أنساب العرب ١١١ وهو سعيد بن عثمان بن عفان .

(٤) في الأصل : « مليل » ، صوابه من الجمهرة ٤٤٧ وتهذيب التهذيب ٦ : ٢٧٧ وتقريب التهذيب . وهو عبد الرحمن بن مل - بثلاث الميم - بن عمرو بن عدى بن وهب بن ربيعة بن سعد بن جذيمة بن كهب بن رفاعه بن مالك ابن نهد .

(٥) هو ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن فروخ التيمي ، أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين ، وكان صاحب الفتوى بالمدينة . توفي سنة ١٣٦ . تهذيب التهذيب والمعارف ٢١٧ وصفة الصفوة ٢ : ٨٣ - ٨٦ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أسيد<sup>(١)</sup> ، أم أبو عثمان إسحاق بن الأشعث بن قيس .

ولا أدرى أهو أبو عثمان المنذر بن الزبير بن العوام<sup>(٢)</sup> ، أم أبو عثمان عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك<sup>(٣)</sup> .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد<sup>(٤)</sup> ، أم أبو عثمان أبو العاص بن [ بشر بن<sup>(٥)</sup> ] عبد دُهمان ، وهو اسمه .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سُمرة بن حبيب ابن عبد شمس<sup>(٦)</sup> ، أم أبو عثمان عبد الله بن عامر بن كُرَيْز<sup>(٧)</sup> .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن أسعد بن إمام المسجد الجامع الأعظم ، أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب<sup>(٨)</sup> .

(١) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٢٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٩٠ - ٩١ .

(٤) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٥) التكملة من جمهرة أنساب العرب ٢٦٦ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ٧٤ . وفي الأصل : « بن جندب بن عبد شمس » ، صوابه من الجمهرة والإصابة ٣٤٦٩ .

(٧) الجمهرة ٧٤ ، ٧٥ ، ٣١١ .

(٨) عمرو بن عبيد بن باب : شيخ من شيوخ المعتزلة ، وأحد الزهاد المشهورين . توفي بجران سنة ١٤٤ وورثاه المنصور . قالوا : ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه . تاريخ بغداد ٦٦٥٢ والمعارف ٢١٢ .

ولا أدري أهو أبو عثمان فيروز حُصَيْنِ العنبري<sup>(١)</sup> ، أم أبو عثمان  
ابن عمر بن أبي عثمان الشَّمْرِي<sup>(٢)</sup> .

ولا أدري أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان الهَجِيمِي<sup>(٣)</sup> ،  
أم أبو عثمان أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفي<sup>(٤)</sup> .

(١) في الأصل : « فيروز بن حصن » ، صوابه ما أثبت من البيان ٢ : ٤٣  
وجمهرة أنساب العرب ٢٠٩ . وهو مولى حصين بن مالك بن الحشخاش العنبري  
قال ابن قتيبة في المعارف ١٤٧ : « ومن موالى آل الحشخاش فيروز ، أعظم مولى  
بالعراق قدراً . وقد ولي الولايات وخرج مع ابن الأشعث ، فقال الحجاج : من  
جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ! فقال فيروز : من جاءني برأس الحجاج  
فله مائة ألف درهم ! فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان فأخذه يزيد بن المهلب  
فبعث به إلى الحجاج » . وقد نكل به الحجاج تنكيلاً وقتله .

(٢) في الأصل : « السمرى » ، صوابه من البيان ١ : ١٦ حيث ذكر أبوه  
« أبو حفص عمر بن أبي عثمان الشمرى » .

(٣) هو خالد بن الحارث بن عبيد بن سليمان الهجيمي البصري ، كان من  
عقلاء الناس ودهاتهم ، وكان يقال له « خالد الصدق » . ولد سنة ١٢٠ وتوفي  
سنة ١٨٦ . ذكره في البيان ٢ : ٢٢١ .

(٤) هو صاحب الرسالة التي رواها الجاحظ في البخلاء ١٤١ - ١٥٣ وعقب  
عليها بذكر رد ابن التوام عليها . وانظر أخبار أبي نواس لابن منظور ١٨٤  
حيث ذكر أباه وإخوته ، ومنهم عبد المجيد الثقفي صاحب ابن مناذر الذي  
رثاه بقوله :

إن عبد المجيد يوم تولى هد ركننا ما كان بالهدود

ولا أدري أهو أبو عثمان سَعِيد بن وهب الشاعر<sup>(١)</sup> ، أم أبو عثمان عمرو الأعور الخاركي<sup>(٢)</sup> .

ولا أدري أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثقفي<sup>(٣)</sup> ، أم أبو عثمان عمرو بن بكر المازني .

ولا أدري أهو أبو عثمان الأعور النحوي<sup>(٤)</sup> ، أم أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ .

والذي لا أشك فيه أنه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن حَزْرَة ، ولا أبو عثمان عمرو الخنخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد التتطّيب ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البزاز .

وقد بلغني عن أبي عثمان هذا المجهول موضعه ، المغمور نسبه ، أنه قال :  
ما راكبُ الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، والمصبور على السيف الحسام<sup>(٥)</sup> ،

(١) ذكره الجاحظ في البيان ٣ : ١٦٢ - ١٦٣ وترجم له ابن العز في طبقات الشعراء ٢٤٧ - ٢٦١ ، وكان شاعراً ماجناً ، وله خبر مع هارون الرشيد . وانظر الأغاني ٢١ : ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٢) ترجم له المزياني في معجمه ٢١٩ وقال : « أزدي بصرى أصله من خارك : قرية بفارس على البحر ، ماجن خبيث ، كان على عهد الخنخل الوراق » . وخارك ، بفتح الراء كما في معجم البلدان ، قال ياقوت : « منهم الخاركي الشاعر ، في أيام المأمون أو ما يقاربها .

(٣) ذكره أبو الفرج في الأغاني ١٧ : ١٢١ في رواية للعتبي عنه . والعتبي ، هو محمد بن عبد الله العتبي الأخباري التوفي سنة ٢٢٨ .

(٤) ذكره الجاحظ في البخل ١٨٠ .

(٥) صبر على القتل صبراً : حبس حتى يقتل .

بأحقَّ بجهد البلاء وشماتة الأعداء ، ممن تعرَّضَ للمتصفِّحين<sup>(١)</sup> ، وتحكَّك  
بالمعيَّابين ، وحكَّم في عرض الحسدة المفتابين .

فإن سَلِمَ فبحُسْنِ النِّيَّةِ ، ولأنه مدح كريمًا ، ووصفَ حليماً . والكريم  
صَفُوح ، والحليم متفافل . وإن ابتليَ فبذنبٍ ، وما عفا الله عنه أكبر .

وقال : اللهم اجعلْ هذا القولَ حسنًا في عينه ، خفيًا على سمعه ، وألهمه  
حُسْنَ الظنِّ به ، وبَسْطَ العُذْرَ له ، إنَّكَ سميعُ الدعاء ، رحيمٌ بالضعفاء .  
والقصيدة هي قوله :

أقامَ نذارِ الخفضِ راضٍ بحظِّهِ  
وذو الحرصِ يسرى حينَ لا أحدٌ يسرى  
يظنُّ الرضا بالقسمِ شيئًا مهوَّنًا  
ودون الرضا كأسُ أمرٍ من الصبرِ  
جزعتُ فلم أعتبُ فلو كنتُ ذا حِجَا  
لقنعتُ نفسي بالقليلِ من الوفرِ  
أظنُّ غيَّ القومِ أرغدَ عيشَةً  
وأجدلَ في حالِ اليسارةِ والعسرِ  
تمرُّ به الأحداثُ ترعدُ مرَّةً  
وتبرقُ أخرى بالخطوبِ وما يدرى  
سواء على الأيامِ صاحبُ حُنْكَةٍ  
وآخرُ كابٍ لا يریش ولا يبرى

(١) المتصفح : التأمل التعرف .

فلو شاء ربِّي لم أكن ذا حفيظةٍ  
 طَلوبًا لِفَـاياتِ المكارمِ والفخرِ  
 خَضَعْتُ لِبَعْضِ القُـومِ أَرْجُو نِوَالَه  
 وَقَدْ كُنْتُ لَا أُعْطَى الدَّيَّةَ بِالْقَسْرِ  
 فَلَمَّا رَأَيْتُ المرءَ يـِيـذُلُ بِشِرِّه  
 وَيَجْعَلُ حُسْنَ البِشْرِ وَاقِيَّةَ التُّبْرِ<sup>(١)</sup>  
 رَبَعْتُ عَلَى ظَلَمَى وَرَاجَعْتُ مَنْزِلِي  
 فَصِرْتُ حَلِيفًا لِلدِّرَاسَةِ وَالفِكْرِ<sup>(٢)</sup>  
 وَشَاوَرْتُ إِخـِـوَانِي فَقَالَ حَكِيمُهُم  
 عَلَيْكَ الفَتَى المرُوءَى ذَا الخَلْقِ العَمْرِ  
 فَتَى لَمْ يَقِفْ فِي الدَّهْرِ مَوْقِفَ ظَنَّةٍ  
 فَيَحْتَاجَ فِيهِهِ لَلتَّنْظُلِ وَالْعُدْرِ  
 أَعْيَاذُكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ قَوْلٍ شَامِتٍ  
 أَبُو الفَرَجِ المَأْمُولُ يَزْهَدُ فِي عَمْرٍو  
 وَلَوْ كَانَ فِيهِ رَاغِبًا لِرَأْيَتِهِ  
 كَمَا كَانَ دَهْرًا فِي الرِّخَاءِ وَفِي اليُسْرِ  
 أَتَرْضَى - فَدَتِكَ اليَوْمَ نَفْسِي وَأَسْرَتِي -  
 بِتَأْخِيرِ أَرْزَاقِي وَأَنْتَ تَلِي أَمْرِي

١١٩ ظ

(١) أى يجعل بشره بدلا من بذله وعطائه .

(٢) ربع على ظلمه : توقف وانتظر . والظلم : بالفتح ، العرج أو شبيه به .



أَلَا يَأْتِي الْكِتَابَ وَالْعُسْكَرَ الَّذِي تَأَزَّرَ بِالْحَسَنِ وَأَيْدٍ بِالنَّصْرِ  
أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَيْنَ أَوْ نَفْسَ وَامِي وَذَوِ الْوُدِّ مَنْخُوبُ الْقَوَادِمِ الدُّعْرُ  
وَعَهْدِي بِهِ وَاللَّهُ يُرْشِدُ أَمْرَهُ وَيَحْفَظُهُ فِي الْقَاطِنِينَ وَفِي السَّفَرِ  
مُطِلاً عَلَى التَّدْبِيرِ مَا يَسْتَفْزُهُ مَكَائِدُ مُحْتَمَالٍ عَقَارُهُ تَسْرِي  
بِرَأْيٍ يُزِيلُ الطَّوَدَ مِنْ مُسْتَقَرِّهِ وَأَوْضَحَ عِنْدَ الْخَصْمِ مِنْ وَضَحِ الْفَجْرِ  
وَعَزِيمَ كَعْرَبِ الْمَشْرِقِ مَصْمُومٍ وَقَلْبَ رَبِيبِ الْجَاشِ مِنْثَلَجِ الصَّدْرِ  
فِيمَا ابْنُ نَجَاحٍ أَنْجَحَ اللَّهُ سَعِيكَمُ وَأَيْدِيَكُمْ بِالنَّصْرِ وَالْعَدَدِ الدُّعْرُ<sup>(١)</sup>  
قَعَدْتُ فَلَمْ أَطْلُبْ وَجُلْتُ فَلَمْ أَصِبْ خَلِيلًا يُوَاسِينِي وَيَرْغَبُ فِي شَكْرِي  
وَأِنْ أَخَفَقْتُ كَفِّي وَقَدْ عُلِقْتُكُمْ فَقَدْ قَالَ رَأْيِي وَاسْتَنْمَتْ إِلَى شَعْرِي<sup>(٢)</sup>  
أَعْيذك بِالرَّحْمَنِ أَنْ تُشِمَّتِ الْعِدَى فَلَلْفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ شِمَاتَةِ ذِي الْغَمْرِ<sup>(٣)</sup>  
فَإِنْ تَرَعَ وَدَّى بِالْقَبُولِ فَأَهْلُهُ وَلَا يَعْرِفُ الْأَقْدَارَ غَيْرَ ذَوِي الْقَدْرِ  
وَحَسْبُكَ بِي إِنْ شُنَّتْ وَدًّا وَخُلَّةً وَحَسْبُكَ بِي يَوْمَ النَّزَاهَةِ وَالصَّبْرِ  
أَلَا رَبَّ شُكْرٍ دَاثِرَ الرَّسْمِ دَارِسٍ وَشُكْرَ كَنْقَشِ الْحَمِيرَةِ فِي الصَّخْرِ  
قَالَ أَبُو عَثْمَانَ الْمَجْهُولُ : إِذَا كَانَ الْمَدُوحُ ظَاهِرَ الْحَاسَنِ كَثِيرَ الْمُنَاقِبِ  
فَلَمْ يُجِدِ الشَّاعِرَ كَانَ أَلُومَ .

(١) الدُّعْرُ : الكثير .

(٢) استنم : إليه : أنس به واطمأن إليه . وفي الأصل : « واستلمت »  
وإزاءها في هامش الأصل الحرف « ظ » وتحت الحرف « ن » معناه الظاهر  
أنها « استنمت » .

(٣) الغمر بالكسر وبالتحريك أيضاً : الحقد والغل .

ونعوذ بالله أن يكون فيكم ما يستدعى الألفاظ الشريفة والمعاني النفيسة ،  
ويكون التقصير متى .

وكيفما تصرفت بي الحال فإني لم أخرج من جهد المجتهدين الراغبين  
المخلصين . فإن وقعت هذه القصيدة والتي قدّمتنا قبلها بالموافقة فالحمد لله . وإن  
خالفت فنستغفر الله . وإن شيعتم ضعفها بقوة كرمكم<sup>(١)</sup> ، وقوّمت أودها  
بفضل حلمكم ، كان في ذلك بلاغ لما أملنا . والله الموفق .

\* \* \*

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته  
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين  
وسلامه .

---

(١) شيعه تشيعاً : قواه .

٩

كِتَابُ

فَصْلُ مَا بَيْنَ الْعِدَاوَةِ وَالْحَسَدِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة التاسعة من رسائل الجاحظ ، ومُعنوانها :

« فصل ما بين العداوة والحسد » ، أى فرق ما بينهما .

وقد سجل الجاحظ في صدر هذه الرسالة أن هذه الرسالة مسبوقة بكتاب فضل الوعد ، وأن فضل الوعد مسبق بكتاب أخلاق الوزراء .

أما الأول منهما فقد أشار إليه الجاحظ في مقدمة الحيوان ١ : ٩ . وأما الثانى منهما فلم أجده ذكراً .

ويبدو أنه ألف هذه الرسالة لأبى الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتد ، كما تدل عليه أواخر هذه الرسالة في شعر الجاحظ وتعليقه على شعره ذلك .

وانظر لترجمة عبيد الله هذا تاريخ الطبرى ١١ : ٤٤ ومروج الذهب ٤ : ١١٩ والتنبية والإشراف للسعودى ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٩ — ١٦٢ والوزراء والكتاب للجهمياري ٢٥٤ والفخرى لابن طباطبا ٢١٦ ، ٢٢٨ .

وقد اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على نسخة الأصل في مجموعة مكتبة داماد ، وهى النسخة الوحيدة التى نشر عنها الأستاذان الدكتور طه الحاجرى ، والمستشرق باول كراوس نسختها التى أشرت إليها بالرمز « ط » .

ومما يجدر ذكره أن للجاحظ رسالة أخرى في موضوع مماثل لهذا ، هى « رسالة الحاسد والمحسود » . وليست في مجموعتنا هذه ، فموعدها في النشر والتحقيق بعد الفراغ من نشر هذه المجموعة بعون الله وتوفيقه إن شاء .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أَصْحَبَ اللَّهُ مَدَّتِكَ السَّعَادَةَ وَالسَّلَامَةَ ، وَقَرَنَهَا بِالْعَافِيَةِ وَالشُّرُورَ ،  
وَوَصَّلَهَا بِالنِّعْمَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ ، وَالْكَرَامَةَ الَّتِي لَا تَحُولُ .

هَذَا كِتَابٌ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ - نَبِيلٌ بَارِعٌ ، فَصِّلَ فِيهِ بَيْنَ الْحَسَدِ  
وَالْعَدَاوَةِ ، وَلَمْ يَسْبِقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ وَلَا إِلَى كِتَابِ فَضْلِ الْوَعْدِ الَّذِي تَقَدَّمَ هَذَا  
الْكِتَابُ ، وَلَا إِلَى كِتَابِ أَخْلَاقِ الْوُزَرَاءِ الَّذِي تَقَدَّمَ كِتَابُ فَضْلِ الْوَعْدِ .

وإِنَّمَا نُبِلْتُ هَذِهِ الْكُتُبَ وَحَسَنْتُ وَبَرَعْتُ ، وَبَدَّتْ غَيْرَهَا ؛ لِمَا كَلَّمْتُهَا  
شَرَفَ الْأَشْرَافِ ، بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ الْأَنِيْقَةِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْآثَارِ الْحَسَنَةِ الْأَطِيفَةِ ،  
وَالْأَحَادِيثِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْحَمُودَةِ ، وَالْمَكَارِمِ الْبَاقِيَةِ الْمَأْثُورَةِ ، مَعَ  
مَا تَضَمَّنَتْهُ (٢) مِنْ سِيرِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ وَوُزَرَائِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَمَا جَرَتْ  
عَلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ .

فَأَنَا أَسْأَلُكَ بِسَاطِعِ كَرَمِكَ وَنَاصِعِ فَضْلِكَ ، لَمَّا (٣) امْتَنَنْتَ عَلَيَّ بِصَرْفِ  
عَنَانِكَ إِلَى قِرَائَتِهَا . فَإِنْ لَمْ يُمْكِنَكَ تَبَجُّرُهَا وَالتَّقْصُّيُ لَجْمِيعِهَا ، لِلْأَشْغَالِ الَّتِي

---

(١) صدرت هذه الرسالة بعبارة ليست من أسلوب الجاحظ ، ونصها :  
« الحمد لله رب العالمين كما هو أهله ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به ،  
وعلى آل محمد كما منه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً »

(٢) في الأصل : « ما تضمنتها » .

(٣) لما ، هنا ، بمعنى إلا ، كما في التنزيل العزيز : « إن كل نفس لما عليها  
حافظ » .

تَعْرُوكَ ، فَبِحَسْبِكَ<sup>(١)</sup> أَنْ تَقِفَ عَلَى حُدُودِهَا ، وَتَتَعَرَّفَ مَعَانِيَ أَوْبَاجِهَا بِتَصَفُّحِ  
أَوَائِلِهَا ؛ فَإِنَّ مَعَكَ قَلْبًا بِهِ مِنَ الْيَقِظَةِ وَالذِّكَاءِ ، وَالتَّوَقُّدِ وَالْحَفِظِ ، مَا يَكْفِي  
مَعَهُ النَّظَرَ الْخَاطِفَ<sup>(٢)</sup> .

إِنَّهُ لَمْ يَخْلُ زَمَنٌ مِنَ الْأَزْمَانِ فِيمَا مَضَى مِنَ الْقُرُونِ الذَّاهِبَةِ إِلَّا وَفِيهِ عُلَمَاءُ  
مُحَقِّقُونَ ، قَدْ قَرَأُوا كُتُبَ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُمْ ، وَدَارَسُوا أَهْلَهَا ، وَدَارَسُوا [ الْمَوَافِقِينَ<sup>(٣)</sup> ]  
لَهُمْ ، وَعَانَوْا<sup>(٤)</sup> الْحَافِلِينَ عَلَيْهِمْ ، فَمَخَّضُوا الْحِكْمَةَ وَعَجَمُوا عِيدَانَهَا ، وَوَقَفُوا  
عَلَى حُدُودِ الْعُلُومِ ، لِحَفَظِ الْأُمِّهَاتِ وَالْأَصُولِ ، وَعَرَفُوا الشَّرَائِعَ وَالْفُرُوعَ ،  
فَفَرَّقُوا مَا بَيْنَ الْأَشْبَاهِ وَالنِّظَائِرِ ، وَصَاقِبُوا بَيْنَ الْأَشْكَالِ وَالْأَجْنَاسِ ،  
وَوَصَلُوا بَيْنَ الْمُتَجَاوِرِ وَالْمُتَوَازِي<sup>(٥)</sup> ، وَاسْتَنْبَطُوا الْغَامِضَ الْبَاطِنَ بِالظَّاهِرِ الْبَيِّنِ ،  
وَاسْتَظْهَرُوا عَلَى الْخَفِيِّ الْمَشْكَلَ بِالْمَكْشُوفِ الْمَعْرُوفِ ، وَعُرِفُوا بِالْفَهْمِ الثَّاقِبِ  
وَالْعِلْمِ النَّاصِعِ ، وَقَضَتْ لَهُمُ الْمِحْنَةُ بِالذِّكَاءِ وَالْفِطْنَةُ ، فَوَضَعُوا الْكُتُبَ فِي  
ضُرُوبِ الْعُلُومِ وَفَنُونِ الْأَدَابِ لِأَهْلِ زَمَانِهِمْ ، وَالْأَخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِمْ .  
يَزِدُّونَ بِذَلِكَ إِلَى الْمَتْنِ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِيهِمْ ، وَأَبَانِهِمْ  
مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَبَاهُونَ بِهِ الْأُمَمَ الْخَائِفَةَ لَهُمْ ، وَيَتَبَارُونَ بِذَلِكَ  
فِيمَا بَيْنَهُمْ . وَلَهُمْ حُسَادٌ مُعَارِضُونَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ فِي تِلْكَ الْعُلُومِ وَالْكَتُبِ ،

و ١٢١

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَبِنَفْسِكَ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « نَظَرَ الْخَاطِفِ » .

(٣) مَوْضِعُهَا بَيَاضٌ فِي الْأَصْلِ .

(٤) مِنَ الْمَعَانَةِ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَعَابُوا » .

(٥) فِي الْأَصْلِ : « بَيْنَ الْمُتَجَاوِزِ وَالْمُتَوَازِي » .



منتحلةٌ يدَّعون مثل دعاويهم ، قد وسموا أنفسهم بِسِمَاتِ الباطل <sup>(١)</sup> ،  
وتسمَّوا <sup>(٢)</sup> بأسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزُّور  
متزخرفين متشَبِّعين بما لا محصل له <sup>(٣)</sup> . يحتذون أمثلة الحَقِّين في زيِّهم  
وهديهم ، ويقتفون آثارهم في ألفاظهم وأحاديثهم ، وحركاتهم وإشاراتهم ،  
لينسبوا إليهم ويحلُّوا محلَّهم ، فاستألوا بهذه الحيلة قلوبَ ضعفاء العامة ،  
وجُهلاء الملوك ، واتَّخذهم <sup>(٤)</sup> المعادون للعلماء الحَقِّين عُدَّةً يستظهرون بهم  
عند العامة . وحملَ المدَّعيةَ للعلم المزوَّر الحسدُ على بهتِ العلماء الحَقِّين ،  
وعَضُّهم والطَّعنَ عليهم <sup>(٥)</sup> ، وجرَّأهم على ذلك ما رأوا من صَغوِ ضَعْفَةِ  
القلوب وإذلةِ الناس إليهم <sup>(٦)</sup> ، وميلِ جهلاء الملوك معهم عليهم ، وأمَّلوا  
أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوى لهم الرِّئاسة على طَعامِ الناس  
ورعاعهم ، ويستخولوا رُعَاتَهُمْ <sup>(٧)</sup> وقومَهُمْ ، فهمرُوا وهدرُوا <sup>(٨)</sup> وتوردوا

---

(١) أى بِسِمَاتِ غير حقيقة .

(٢) فى الأصل : « وسموا » .

(٣) تشيع : تزين بما ليس عنده . وفى الحديث : « المتشيع بما لا يملك كلابس ثوبى زور » .

(٤) فى الأصل : « وانجدهم » .

(٥) العَضُّ : أن يقول فيه ما لم يكن ؛ إفكاً وبهانا .

(٦) الصغو : الميل . وفى الأصل : « منه رأوا من صغو » .

(٧) فى الأصل : « رعاعهم » .

(٨) الهمر : الدممة بغضب . وجعلت فى ط : « فهمزوا » .

على أهل العلم بغباوتهم<sup>(١)</sup> ، وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم ، وهتكوا  
سترًا كان مُسدلاً عليهم بالصَّمت . فقد قيل : « الصمت زين العالم ، وستر  
الجاهل » ؛ طمعاً في الرياسة وحباً لها . وقد قيل :

حبُّ الرياسة داءٌ لا دواء له      وقلما تجدُ الراضين بالقسمِ  
ولم يخل زمنٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ولا يخلو . وهلاك من هلك  
من الأمم فيما سلف بحبِّ الرياسة . وكذلك من يهلك إلى انقضاء الدهر  
فبحبِّ الرياسة .

١٢١ ظ      وقد قيل : هلاك الناس منذ كانوا إلى أن تأتي الساعةُ بحبِّ الأمر  
والنهي ، وحبِّ السَّمع والطاعة .

فأشكل على العامة أمرُ العالم الحقيقي والمدَّعى المجارى المنتحل للزُّور  
والباطل ؛ ثم ترادفَ عليهم من هذه العلل التي يعمى لها السبيل الواضح  
والطريق المنشأ<sup>(٢)</sup> ، على الجاهل المستضعف ؛ وذى الغباء المسترهف<sup>(٣)</sup> .

ولست آمنُ - جعلني الله فداك - أن تكون هذه الكتب التي أُعنى  
بتأليفها ، وأتأنق في ترصيفها ، يتولَّى عرضها عليك من قد لبس لباسَ  
الزُّور في انتحال وضع مثلها ، ونسب نفسه إلى القوة على نظائرها ، والمعرفة  
بما يقاربها ، إن لم يكن أخاها فابنَ عمِّها ، وتشيع بما لم يُطعمه الله منها .

---

(١) من قولهم : توردت الخيل البلدة ، إذا دخلتها قليلاً قليلاً قطعة قطعة .  
وفي الأصل : « توددوا » .

(٢) في الأصل : « المتنا »

(٣) من الرهيف ، وهو الرقيق اللطيف . وفي الأصل : « وذى الغنا » ،  
ووجه ما أثبت .

ولعلَّ بعضَ من حَوَّله<sup>(١)</sup> ، أو بعض من يهزل به ، ويرتفع في عقله ويلهو بلبَّه ، ويضعه على طبطابة اللَّعب<sup>(٢)</sup> ، وفي أرجوحة العبث ، يوهمه<sup>(٣)</sup> . الحسد له على ما يدَّعى من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين في إيهاهم إياه ذلك ، فيزيده فعلهم ضراوةً بادِّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ . فإذا رجع إلى الحقائق علم أنَّ مثله كما قد قيل :

ومن يَسْكُنَ البَحْرَيْنِ يَعْظُمُ طِحَالُهُ

وَيُعْبِطُ بِمَا فِي الْبُطْنِ وَالْبُطْنُ جَائِعٌ<sup>(٤)</sup>

وقد قيل : « اللذَّيْبُ يُعْبِطُ وَهُوَ جَائِعٌ » . فيلتوى في قراءتها ، ويقبض لسانه عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها ، ويقصِّر في تفخيم حروفها ولا يملأ فمَّه منها .

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطَّعن عليها بقول أو إشارة ، فيوهم فسادَ معانيها ويؤمى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يُظهر المعادة لها ، والحسد لمؤلَّفها ، والحمل عليها بقول يكون دليلاً على ما يضر ، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعه فيه<sup>(٥)</sup> ، فيقع ذلك بخَلده . وقد قيل :

« مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُ » .

(١) في الأصل : « ما حوله » .

(٢) الطبطابة : خشبة عريضة يلعب بها بالكرة . وفي الأصل : « طبطاب » .

(٣) في الأصل : « فيوهمه » .

(٤) البيت في الحيوان ٤ : ١٣٩ والشعر والشعراء ٧٣١ وأمثال الميداني ١ : ٢٥٥ .

(٥) في الأصل : « وأجعه » .

وليس يقابله أحدٌ بَرَدٍ<sup>(١)</sup> ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً عندما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : « كلُّ مُجَرِّدٍ في الخلاء يُسَرُّ<sup>(٢)</sup> » وكلُّ مناظر متفرِّدٍ بالنظر مسرور ، وإنَّما يُعرَفُ جَرَى الخيل عند المسابقة ، وبراعة النظر عند الخاصمة .

وقال لي بشرُّ المريسى<sup>(٣)</sup> : عُرض كتابي على المأمون في تحليل النبذ ، وبحضرته محمد بن أبي العباس الطوسي ، فأنبرى للطعن عليه والمعارضة للحجج التي فيه ، وأسهبَ في ذلك وخطب ، وأكثر وأطنب ، فقلقَ المأمونُ واحتدم ، وهاج واضطرم ؛ لاستحقار الطوسي<sup>(٤)</sup> وخلاء المجلس له ، وكان

١٢٢ و

(١) في الأصل : « بود » .

(٢) في الأصل : « يسبق » ، صوابه من الحيوان ١ : ٨٨ و ٤ : ٢٠٧ والميداني ٢ : ٧٣ وأما القالي ٢ : ٨٩ . ويروى أيضاً « مسر » كما في البيان ١ : ٢٠٣ . وأصله أن الرجل يجرى فرسه في المكان لا مسابق له فيه ، فهو مسرور بما يرى من فرسه . يضرب للرجل تكون فيه الحلة يحمدها من نفسه ولا يشعر بما في الناس من الفضائل .

(٣) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسى ، نسبة إلى مريس أو مريسة . ومريس : قرية بمصر . اختلف في ضبطها بفتح الميم وكسر الراء مخففة أو مثقلة ، أما مريسة فقد ضبطها صاحب القاموس كسكينة بكسر الميم وبتشديد الراء . كان أحد دعاة الجهمية ، وأبوه كان يهودياً قصاراً صابغاً . وإليه تنسب فرقة المريسية . توفي سنة ٢١٨ . تاريخ بغداد ٣٥١٦ والسمعاني ٥٢٣ ولسان الميزان ٢ : ٢٩ - ٣١ .

(٤) الاستحقار : الاحتقار والاستصغار .

يَحِبُّ أَنْ يَرَّعَهُ وَازِعُ يَكْفُهُ بِحُجَّةٍ تُسَكِّتُهُ ، فلما لم ير أحداً بحضرته يذبُّ  
عن كتابي قال متمثلاً :

يَا لَكَ مِنْ قُـبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خِلَالَكَ الْجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي  
وَنَقْرِي مَا شِئْتُ أَنْ تَنْقَرِي<sup>(١)</sup>

فما كان إلّا ريثَ فراغِهِ من التمثيل بهذه الأبيات حتى استؤذن لي  
فدخلتُ عليه ، فقال : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، مَا تَقُولُ فِي النَّبِيذِ ؟ قُلْتَ : حِلٌّ طَلَقٌ  
بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . فقال : فَمَا تَقُولُ فِيمَا أَسْكُرُ كَثِيرُهُ ؟ قُلْتَ : لَعَنَ اللَّهُ قَلِيلَهُ  
إِذَا لَمْ يَسْكُرْ [ إِلَّا<sup>(٢)</sup> ] كَثِيرُهُ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ مُحَمَّدًا يَخَالِفُكَ . فَأَقْبَلْتُ عَلَى  
ابْنِ أَبِي الْعَبَّاسِ فَقُلْتُ لَهُ : مَا تَقُولُ فِيمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا خِلَافَ  
بَيْنِي وَبَيْنَكَ . كَلَامًا يُوْهِمُ بِهِ أَهْلَ الْجُلُوسِ ، حُبًّا لِلتَّسْلِيمِ مِنِّي وَالتَّخَلُّصِ مِنْ  
مُنَازِرَتِي ، لَا عَلَى حَقِيقَةِ التَّحْلِيلِ لَهُ . فَاسْتَفْنَمْتُ ذَلِكَ مِنْهُ وَقُلْتُ لَهُ : فَمَا لِي  
لَا أَرَى أَثَرَ قَوَاهِ فِي عَقْلِكَ ؟ فَضَحِكَ الْمَأْمُونُ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ ضَحْكَه أَطْنَبْتُ  
فِي مَعَانِي تَحْلِيلِ النَّبِيذِ ، وَابْنِ أَبِي الْعَبَّاسِ سَاكِتٌ لَا يَنْطِقُ ، وَكَانَ قَبْلَ دُخُولِي  
نَاطِقًا لَا يَسْكُتُ . فَلَمَّا رَأَى الْمَأْمُونُ سَكَوتَهُ عِنْدَ حُضُورِي مَعَ كَثَرَةِ كَلَامِهِ  
فِي ثَلَاثِ كِتَابِي وَعِيبِهِ - كَانَ - قَبْلَ دُخُولِي ، قَالَ مَتَمَثِّلًا :

مَا لَكَ لَا تَنْبَحُ يَا كَلْبَ الدَّوْمِ قَدْ كُنْتَ نَبَّاحًا فَمَا لَكَ الْيَوْمَ<sup>(٣)</sup>

(١) الرجز لطرفة ، قاله وهو صغير يصطاد القبر ، وهو ضرب من الطير .  
وقال ابن بري : هو لكليب بن ربيعة التغلبي وليس لطرفة . اللسان ( قبر ) .  
وذكر ابن قتيبة في الشعراء ١٤٠ أنه أول شعر قاله طرفة . وانظر الحيوان ٣ : ٦٦

(٢) ليست بالأصل .

(٣) أنشده في الحيوان ٢ : ٧٥ .

ثم نظرَ إلى فقال : إنَّ الكتبَ عقولُ قويمٍ وراءِها عندهم حججٌ لها ،  
فما ينبغي أن يُقضى على كتابٍ إلا إذا كان له دافع عنه ، وخَصْمٌ يُبين عَمَّا فيه ؛  
فإنَّ أبناءَ النعمِ وأولادَ الأسدِ محسودون .

ثم قال : يا أبا عبد الرحمن ، يإزاء كل حاسد راهن .

وقد قيل في مثلي من الأمثال : « الحسن<sup>(١)</sup> محسود » . وفي مثل

آخر : « لن تعدم الحسناء ذاماً<sup>(٢)</sup> » . وقال الأحنف بن قيس :

ولن تصادف مرعى مرمعاً أبداً إلا وجدت به آثار ما كولي<sup>(٣)</sup>

يقول : يعا<sup>(٤)</sup> في كل<sup>(٥)</sup> [ مرعى<sup>(٥)</sup> ] حسنٍ ويؤكل منه ، فيعييه ذلك .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما أحدث الله بعبدٍ نعمةً

إلا وجدت له عليها حاسداً . ولو أنَّ امرأً كان أفومَ من القدح لوجدتَ

له غامراً<sup>(٦)</sup> » .

(١) في الأصل : « الحسد » .

(٢) الدام ، بتخفيف الميم : العيب . ومثله الذيم . وضبطت في ط بتشديد

الميم سهواً .

(٣) وكذا في أصل عيون الأخبار ٤ : ٩ . لكن في أدب الدنيا والدين ١٣٥

« آثار متجعج » . والبيت فيه بدون نسبة .

(٤) في الأصل : « يقال يعاب » .

(٥) تكملة يقتضها القول .

(٦) القدح ، بالكسر : السهم .

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عنان حسده ؛ لأنه مغلوبٌ على نفسه .

وقال الخطّاب بن نمير السّعدى : الحاسد مجنون ؛ لأنه يحسّد الحسن والقيح .

وقال المهلب بن أبى صفرة : الحسد شهابٌ لا يبالي من أصاب ، وعلى من وقع .

والعداوة لها عقل تسوس به نفسها فينجم قرناً ، وتبدى صفحتها في أوقات الهتر . وإلا فإنها كامنةٌ تنتهز أزمته الفرص . والحسد مسلوب المعقول بإزاء الضمير في كل حين وزمانٍ ووقت .

ومن لؤم الحسد أنه موكّل بالأدنى فالأدنى ، والأخصّ فالأخصّ . والعداوة وإن كانت تقبّح الحسن فهي دون الحسد ؛ لأنّ العدو المبين قد يحول ولياً منافقاً ، كما يحول المولى المنافق عدوّاً مبيناً .

والحاسد لا يزول عن طريقته إلا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوة تحدث لعلّة<sup>(١)</sup> ، فإذا زالت العلّة زالت معها . والحسد تركيب لعله يحسد عليه<sup>(٢)</sup> فهو لا يزول إلا بزواله . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكننى أن أَرْضَى الناس كلّهم إلا حاسداً نعمة ، فإنه لا يرضيه منها إلا زوالها .

وأعداء النّعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها ترحزحوا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها المحامين عنها ، والدافعين عن حماها .

(١) فى الأصل : « العلة » .

(٢) كذا فى الأصل .

ومن هذا قال المغيرة بن شعبة : النعمة التي يُعاش فيها نعمةٌ محروسة ليس عليها ثائرٌ يفتالها ، ولا ذو حسدٍ يحتال في غيرها .

وقال قتيبة بن مسلم : خير الخير وأحصنه خيرٌ عيشٍ فيه . وكلُّ خيرٍ كان يَرْضَخُ<sup>(١)</sup> بذلاً كان من التالف ممنوعاً ، ومن الغير آمناً .

وحُسَادُ النعمة إن أُعطوا منها وتَبَحَّجُوا فيها ، ازدادوا عليها غِيظاً وبها إغراء .

والعداوة تُخْلِقُ وتُمَلِّ ، والحسدُ غَضٌّ جديدٌ ، حُرْمٌ أو أُعْطِيَ<sup>(٢)</sup> ، لا يبيد . فكل حاسدٍ عدوٌّ ، وليس كل عدوٍّ بحاسد . وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم — وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم — أنه نبيٌّ صادق ورسولٌ مُحَقِّقٌ ، يقرءون بَعْثَهُ في توراتهم ، ويتدارسونه في بيت مدراسهم<sup>(٣)</sup> — الحسدُ ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم نَتَجَ لهم الحسدُ عداوته .

ومن الدليل على أَنَّ الحسدَ آلمٌ وآذَى وأَوْجَعُ وأَوْضَعُ من العداوة ، أنه مُغَرِّى بفعل الله عزَّ وجلَّ ، والعداوة عارِيَّةٌ من ذلك لا تتصل إذا اتصلت إلا بأفعال العباد . ولا يُعَادَى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع أحداً عادى أحداً لأنه حسن الصورة جميلُ المحاسن ، فصيح

(١) رَضَخَ له من ماله رضا : أعطاه . والبذل : السخاء . وفي الأصل : يوضح بدلاً .

(٢) في الأصل : « إذا عطى » .

(٣) المدراس : الوضع الذي يدرس فيه . وفي الأصل : « مدرستهم » .



اللسان حسن البيان . وقد رأيت حاسداً هذه الطبقة وسمعت به ، وهم كثير تعرفهم بالخبر والمشاهدة .

فهذا دليل على أن الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب الشئوس<sup>(١)</sup> .

والحسد أخو الكذب ، يجران في مضمار واحد ؛ فهما أليفان لا يفترقان ، وضجيعان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أن أولياء الله قد عادوا أعداء الله إذ لم يستحلوا أن يكذبوا عليهم ؟ ! والحسد لا يبرأ من البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد ، وأساسه الذي به البناء يُعقد . وأنشد :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها كذباً وزوراً إنه لدميم<sup>(٢)</sup>  
والحسد نارٌ وقوده الروح ، لا تبوخ أبداً أو يفنى الوقود<sup>(٣)</sup> . والحسد لا يبلى إلا ببلى المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يُوقده الغضب ، ويطفئه الرضا ، فهو مؤمل الرجوع مرجو الإنابة<sup>(٤)</sup> . والحسد جوهر والعداوة اكتساب .

وقال بعضهم : الحسد أثى ، لأنه ذليل ؛ والعداوة ذكر فحل ،<sup>١٢٣</sup> ظ لأنها عزيزة .

(١) الشئوس ، بالضم : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلى . انظر حواشى البيان ٤ : ٦٣ . وفى البيان : « حسداً وبغياً » . والضرائر : جمع ضرة ، بالفتح وهى امرأة الزوج ، جمع نادر .

(٣) فى الأصل : « ويفنى الوقود » .

(٤) الإنابة : الرجوع ، وفى التنزيل العزيز : « منيبين إليه » .

والحسد وإن كان موكلاً بالأدنى فالأدنى فإنه لم يعر منه الأبعد فالأبعد .  
 فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق وينتحل العلم والأدب ، انتهى إليها  
 خبرٌ مشاركٌ له في الصناعة من أهل خراسان وجنبه بلخ<sup>(١)</sup> من أساق الرياسة  
 في بلده ، وجميل حاله ونبيل محله عند أهل مصره ، وطاعة العامة له ،  
 وترادف الناس عليه ، فطار قلبه فرقا ، وأخذته الأربابه<sup>(٢)</sup> ، وتنفس الصُّعداء  
 وانتفض انتفاض المُفلس المطور<sup>(٣)</sup> ، فقال لى رجلٌ من إخوانى كان  
 عن يمينى ، حين رأى ما رأى منه : بحقٍّ قال من قال : « لم ير ظالم أشبه  
 بمظلوم من حاسدٍ نعمة ؛ فإن نفسه متصل ، وكربة دائم ، وفكرته  
 لا تنام » .

وهو فى أهل العلم أكثر ، وعليهم أغلب ، وبهم أشدُّ لصوقاً منه  
 بغيرهم من الملوك والشُّوكة . وكان من ناله التقصير فى صناعة العلم عن غايته  
 القصوى<sup>(٤)</sup> قد استشعر حسد كلِّ ما يردُّ عليه من طريف أدبٍ ، أو أُنيقِ  
 كلام ، أو بديع معنى . بل قد وقع بخلكه لضعفه ، وقرّ فى رُوعه لخساسته<sup>(٥)</sup> ،  
 أنه لا ينال أحدٌ منهم رياسةً فى صناعة ، ولا يتهياً له سياسةُ أهلها ، إلا بالظعن

(١) فى الأصل : « وجه » ، بدون نقط . والجنبه : الناحية . وانظر الحيوان

٤ : ٤٩ .

(٢) الأربابه : جمع ربو ، وهو البهر والنهيج وتواتر النفس .

(٣) هذا عكس ما أنشده فى الحيوان ٣ : ٢٢٨ :

وكننت فيهم كمطور يبلدته فسر أن جمع الأوطان والطرأ

وفى الأصل : « العلس » تحريف .

(٤) فى الأصل : « عن غاية القصوى » .

(٥) الخساسة : الحسة والدناءة . وفى الأصل : « لخاسته » .

على نواصيهم<sup>(١)</sup> ، والعيب لجلَّتْهم ، والتحفيف لحقوقهم .

قال لى مسلم بن الوليد الأنصارى الشاعر ، الذى يُعرف بصريع الفوائى<sup>(٢)</sup> : خَيْلٌ إِلَى نَوَكَى الشُّعْرَاءِ أَنَّهُمْ لَا يُقْضَى لَهُمْ بِجُودَةِ الشَّعْرِ إِلَّا بِهِجَائِي وَالطَّنُّ فِي شَعْرِي ، وَلِسَانِي يُهْجِي بِهِ عَرْضِي ، لَا أَنْفَكُ مِنْهُمَا<sup>(٣)</sup> من غير جُرم ، إِلَّا مَا سَبَقَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ وَسَاوِسِ الظُّنُونِ وَالْخَوَاطِرِ الَّتِي أَوْهَمَتْهُمْ أَنَّهُ لَا يَسْجَلُ لَهُمْ بِجُودَةِ الشَّعْرِ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلُوا فِيَّ مَا خَيْلَ إِلَيْهِمْ .

وأخبرني أشياخنا من أهل خراسان أَنَّ أَبَا الصَّلْتِ الْهَرَوِيَّ كَانَ عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ ذِي الرِّيَاسَتَيْنِ بِمَرُو ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابًا أَلْفَهُ النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ ، فَطَقَّنَ أَبُو الصَّلْتِ فِيهِ ، وَكَانَ الْفَضْلُ عَارِفًا بِالنَّضْرِ الشُّمَيْلِيِّ ، وَاتَّقَا بَعْلَهُ ، ١٢٤ و مَثَلًا إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى أَبِي الصَّلْتِ وَقَالَ لَهُ : إِنْ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ قَالَ يَوْمًا : إِنْ كَتَبْتُ لَتُعَرِّضُ عَلَى مَنْ يَغْلُظُ قَهْمَهُ عَنْ مَعْرِفَتِهَا ، وَيَحْسُو ذَهْنَهُ عَنْهَا ، وَلَا يَبْلُغُ أَقْصَى عِلْمِهِ مَا فِيهَا<sup>(٤)</sup> — يُعَرِّضُ<sup>(٥)</sup> يَاسْمَاعِيلُ بْنُ صُبَيْحٍ<sup>(٦)</sup> — فَيَطْفَنُ فِيهَا وَلَا يَدْرِي مَا يَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْهَا . إِلَّا أَنْ نَارَ الْحَسَدِ تُلْبِيه قِيَهْدِي

(١) النواصي : جمع ناصية ، وهم الرؤساء والأشراف .

(٢) توفي مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨ ، كما في النجوم الزاهرة . ٢ : ١٨٦ . وكان قد اتصل بندي الرياستين الفضل بن سهل ، فولاه . بريد جرجان ، وبها مات . معجم المرزباني ٣٧٢ .

(٣) في الأصل : «منهما» .

(٤) في الأصل : «أمانها» .

(٥) في الأصل : «فعرض» .

(٦) كان إسماعيل بن صبيح كاتباً ليحيى بن خالد البرمكي . الجهمشياري ١٥٠ . وقلده إبراهيم الحرائي ديوان زمام الشام وما يليها . الجهمشياري ١٦٨ .

هَذَيَانَ المَرِيضَ ، وَيَهْمَزُ هَمْزَاتِ الْغَيْرَى <sup>(١)</sup> ، ثُمَّ لَا يَرْضَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ أَوَّلِ  
الطَّعْنِ وَيَمِيلَ عَنْهُ حَتَّى يَسْتَقْصِيَ عَلَى نَفْسِهِ إِظْهَارَ جَهْلِهِ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ،  
بِاسْتِيعَابِهِ الطَّعْنَ عَلَى مَا لَمْ يَبْلُغْ دَرَايَتَهُ ، وَلَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُهُ ، ثُمَّ يُنْسِيهِ جَهْلُهُ  
الطَّعْنَ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْهُ فِيهَا ، وَيَحْمِلُهُ نَوْكُهُ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَعَانِيهَا وَأَلْفَاقِهَا ،  
فِي كِتَابِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ وَأَعْوَانِهِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ فِي أَوَانِ طَعْنِهِ عَلَيْهَا ، وَحِينَ  
ثَلَبَهُ لَهَا .

وَقَدْ عَرَفْتُ حَقِيقَةَ مَا قَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِالتَّجَرُّبَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ . وَإِنِّي رَبَّمَا  
أَلَقْتُ الْكِتَابَ الْحَكَمَ الْمُتَقَنَّ فِي الدِّينِ وَالْفَقْهِ ، وَالرِّسَالِ وَالسَّيْرِ ،  
وَالْخَطْبِ وَالْخَرَاجِ وَالْأَحْكَامِ ، وَسَائِرِ فُنُونِ الْحِكْمَةِ ، وَأَنْسَبُهُ إِلَى نَفْسِي ،  
فَيَتَوَاطَأُ عَلَى الطَّعْنِ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، بِالْحَسَدِ الْمُرَكَّبِ فِيهِمْ ، وَهُمْ  
يَعْرِفُونَ بَرَاعَتَهُ وَنَصَاعَتَهُ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ إِذَا كَانَ الْكِتَابُ  
مُؤَلَّفًا لِمَلِكٍ مَعَ الْمَقْدَرَةِ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَالْحُطِّ وَالرَّفْعِ ، [ وَالتَّرْغِيبِ <sup>(٢)</sup> ]  
وَالتَّرْهِيْبِ ، فَإِنَّهُمْ يَهْتَاجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ اهْتِيَاجَ الْإِبْلِ الْمَغْتَلَمَةِ ، فَإِنْ أَمَكَّتْهُمْ  
حِيلَةٌ فِي إِسْقَاطِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عِنْدَ السَّيِّدِ الَّذِي أُلْفَ لَهُ فَهُوَ الَّذِي قَصَدُوهُ  
وَأَرَادُوهُ ، وَإِنْ كَانَ السَّيِّدُ الْمُؤَلَّفُ فِيهِ الْكِتَابُ نَحْرِيرًا نِقَابًا ، وَنَقْرِيسًا  
بَلِيغًا ، وَحَادِقًا فَطْنًا ، وَأَعْجَزَتْهُمْ الْحِيلَةُ ، سَرَقُوا مَعَانِيَ ذَلِكَ الْكِتَابِ وَأَلْقَوْا  
مِنْ أَعْرَاضِهِ وَحَوَاشِيهِ كِتَابًا ، وَأَهْدَوْهُ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ ، وَمَتُّوا إِلَيْهِ بِهِ <sup>(٣)</sup> ، وَهُمْ  
قَدْ ذَمُّوهُ وَثَلَبُوهُ لَمَّا رَأَوْهُ مَنْسُوبًا إِلَيْهِ ، وَمَوْسُومًا بِي .

(١) الهمز : العيب . والهماز : العياب . وفي الأصل : « همزان » ، تحريف .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) أى توسلوا به إليه . والمث : التوصل بحمرة أو قرابة .

وربما ألقتُ الكتابُ الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم  
غيري ، وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن المقفع والخليل ، وسلم صاحب  
بيت الحكمة<sup>(١)</sup> ، ويحيى بن خالد ، والعتابي ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي  
الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم الطاعنون على الكتاب الذي كان  
أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على ، ويكتبونه  
بخطوطهم ، ويصيرونه إماماً يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأدّبون  
به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عني  
لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فتثبت لهم به رياسة ، [ و ] ياتم بهم قوم فيه ؛  
لأنه لم يترجم باسمي ، ولم ينسب إلى تأليفي .

ولربما خرج الكتابُ من تحت يدي مُحصفاً كأنه متنٌ حجرٍ أُمس ،  
بمعانٍ لطيفةٍ محكمةٍ ، وألفاظٍ شريفةٍ فصيحةٍ ، فأخاف عليه طعنَ الحاسدين  
إن أنا نسبته إلى نفسي ، وأحسد عليه من أهم<sup>(٢)</sup> بنسبته إليه لجودة نظامه  
وحسن كلامه ، فأظهره مُبهماً غفلاً في أعراض أصول الكتب التي لا يعرف  
وُضاعها ، فينهالون عليه<sup>(٣)</sup> انهيار الرَّمْل ، ويستيقنون إلى قراءته سباق  
الخليل يوم الحلبة إلى غايتها .

وحسدُ الجاهلِ أهونُ شوكةً وأذلُّ محناً ، من حسدِ العارفِ الفطنِ ؛  
لأنَّ الحاسدَ الجاهلَ يبتدر إلى الطعن على الكتاب في أوّل وهلة يُقرأ عليه ، من

(١) ذكره ابن النديم في الفهرست ١٧٤ قرينا لسهل بن هارون صاحب  
خزانة الحكمة ، وسعيد بن هارون شريك سهل بن هارون في بيت الحكمة .

(٢) ط : « أهتم » ، خلافا لما في الأصل .

(٣) في الأصل : « عليها » .

قبل استتمام قراءته ورقة واحدة ؛ ثم لا يرضى بأيسر الطعن وأخفه حتى يبلغ منه إلى أشده وأغلظه ، من قبل أن يقف على فصوله وحدوده<sup>(١)</sup> . وليس ثلثه مفسراً مفصلاً ، ولكنه يُجمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوله إلى آخره ، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه ، ويحسب أنه كلما ازداد إغراقاً<sup>(٢)</sup> وطعنًا واطناباً في الخنل على واضع الكتاب<sup>(٣)</sup> ، كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو لا يعلم أن المستمع إليه إذا ظهر منه على هذه المنزلة استخف به ، وبكته بالجهل ، وعلم أنه قد حكم من غير استبراء ، وقضى بغير روية ، فسقط عنه وبطل .

والحاسد العارف الذي فيه تقيّة ومعه مُسكة ، وبه طعم أو حياة<sup>(٤)</sup> ، إذا أراد أن يفتال الكتاب ويحتال في إسقاطه ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بصره وراجع فكره ، وأظهر عند السيّد الذي هو بحضرتة وجلسائه ، من التثبّت والتأني حباله يقتنص بها قلوبهم ، وسبباً يسترعى به ألبابهم<sup>(٥)</sup> ، وسُلماً يرتقى به إلى مراده منهم ، وبساطاً يقرش عليه مصارع الخدع . فيوم به القصد إلى الحق والاجتناء له . فربما استرعى<sup>(٦)</sup> بهذه الخاتل والخدع قلب السيّد الحازم .

فن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلّفي الكتب إذا كان العارض

(١) في الأصل : « وحروفه » . وانظر ص ١١ .

(٢) في الأصل : « غرقاً » .

(٣) في الأصل : « وضع الكتاب » .

(٤) الطعم : العقل . وفي الأصل : « طعمة » .

(٥) في الأصل : « يستدعى » .

(٦) في الأصل : « استدعا » .

لها على السيّد الذي منه تُرَجَى أئمانها ، وعنده تنفق بضائع أهلها ، على هذه الصّفة التي وصفتها من الحسد والحذق بأسبابه ، والمعرفة بالوجوه التي تنلم الحسود وتهذه ، وتضع منه ومن كتبه . لاسيّاً إن كان مع استبطان الحسد واستعمال الدهاء والدّكاء جليساً لازماً ، وتابعاً لا يفارق ، ومحدثاً لا يريم ، وليست له رِعة<sup>(١)</sup> تحجره عن الباطل ، ولا معه حذرٌ يبعثه على الفكر في العواقب ؛ فإنّ هذا ربّما وافق فترة السيّد بطول تردد الكلام ، وكثرة تكراره عليه ، من تأكيد خطائه<sup>(٢)</sup> ، ونصرتة قوله ، وزياده عنه ، واحتجاجة فيه ، فيؤثّر في قلبه ، ويضعج رأيه<sup>(٣)</sup> . فليس للسيّد الذي يحبّ أن يصير إليه الأمور على حقائقها ، وتصور له الأشياء على هيئاتها ، حيلة في ذلك إلّا حسم مادّة هذا من أهل الحسد ، بالإعراض عنهم ، والاحتجاز دونهم .

وربّما بلغ من الحاسد جهد الحسد إذا لم يُعمل بشهوته ، ولم تنفذ سهام لطائفه ، أن يقرّ على نفسه بالخطأ ، ويعترف أنّ الطّعن الذي كان منه في الكتاب عن سهو وغفلة ، وأنّه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر مقسّم الذهن ، فلمّا فرغ له ذهنه وانفرد له همّه راجع ما كان<sup>(٤)</sup> بدر منه ، لتظنّ به الرّعة ، ويقال إنّ لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ إلّا من عقل وازع ، ودين خالص . وإلّا ذلك حيلة منه ودهاء

(١) الرّعة: التقى والتخرج ، يقال ورع يروع ويورع ورعة وورعا ، وورع يورع وروعا ووراعة . وفي الأصل : « زعة » تحريف .

(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . وجعلت في ط « خطابه » سهوا .

(٣) التضجيع : التوهين .

(٤) في الأصل : « وكان » .

قدّمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطّد لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب عن غير موافقة على مواضع ، ويجعل ما قد تقدّم له من الرجوع عن قوله عند ما تبين له <sup>(١)</sup> خلاف ما قال ، أو ثبوت أسباب عدالته ، وأحكم عرى نصّفته .

وكان يقال : من لطيف ما يستدعى به الصدق إظهار الشك في الخبر الذي [ لا <sup>(٢)</sup> ] يشك فيه .

وكان يقال : من غامض الرياء أن ترى بأنك لا ترائي . ومن أبلغ الطعن على ما تريد الطعن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تتمهل فترة <sup>(٣)</sup> ، ثم تعود لطعن هو أعظم منه وأطم من الأوّل ؛ ليوثق بك فيه ، ويقال : إن هذا لو كان عن حسدٍ مارجع عن الطعن الأوّل .

وقد قيل : ذو الغيبة المشهور بها المنسوب إليها يقل ضرره ، ويضعف كيده ، لما شاع له في الناس وانتشر منه ، فكان عندهم ظنيماً متهماً ، ومطبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذّذ به ، من غير قبول <sup>(٤)</sup> ولا اصطفاء له .

وإنما البلية في غيبة حذّاق المفتايين الذين يسمعون ، فيضحكون ولا يتكلّمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويسكتون القائل ويدعون الله

(١) في الأصل : « عند التبين له » .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) في الأصل : « مم تمهل فترد » .

(٤) في الأصل : « قول » .



بالصَّلاح للمَقُول فيه ، فهم قد أسكتوا القائل المقتاب ودَعَوْا المَقُول فيه ، وأؤكدوا قول القائل<sup>(١)</sup> ؛ لأنَّه لو حلَّ عندهم محلَّ البراءة مما قيل له لُجِبَ القائلُ ورُدَّع عن قوله .

ومُظْهِر التَّوَقُّيِّ قَلِيلُهُ عند العامَّة كثير . والمتورِّد المتَّحَمُّ لا تكاد العامَّة تقبل منه .

وقد قال بعض العلماء : إنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ<sup>(٢)</sup> بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كان من نبلاء المقتابين وحُذِّقَهُمْ حيثُ يقول :

مُسَا تَرَابَ الْأَرْضِ ، مِنْهُ خُلِقْتُمْ      وفيها المعادُ والمصير إلى الحشرِ  
ولا تعجبا أن تُؤْتِيَا وتعظَّمَا      فمأخِذُ الْإِنْسَانِ شَرًّا مِنَ الْكِبَرِ<sup>(٣)</sup>  
فلو شئت أدلى فيكما غير واحد      علانيةً أو قال ذلك في سرٍّ<sup>(٤)</sup>  
فإن أنا لم أمر ولم أنه عنكما      ضحكْتُ له حتَّى يُلَجَّ فيستشري  
ومن هذا سرق العتابيُّ<sup>(٥)</sup> المعنى حيث يقول :

إن كنت لا تحذر شتْمِي لما      تعرِّف من صفحي عن الجاهلِ

(١) يقال وكده توكيدا ، وأوكده ، وآ كده إيكادا .

(٢) في الأصل : « عبد الله » ، صوابه من البيان ١ : ٣٥٦ . وانظر الحيوان ١٤ : ١ .

(٣) في المحرر ٢٩٧ : « لانعجبا أن تؤتيا وتكلما » ، وفي البيان والحيوان : « ولا تأنفا أن ترجعا فتسلما » .

(٤) في الأصل : « أدنى فيكما » ، صوابه من المراجع السابقة .

(٥) هو كلثوم بن عمرو العتابي ، من شعراء الدولة العباسية ، كان منقطعا إلى البرامكة فوصفوه للرشد ووصلوه به ، فبلغ عنده كل مبلغ . الأغاني ١٢ : ٣ - ٩ وتاريخ بغداد ١٩٦١ ومعجم الأدباء ١٧ : ٣٦ . على أن الأبيات نسبت في الحزاة ٤ : ١٢ إلى كعب بن زهير .

فاخشَ سكوتي سامعاً ضاحكاً فيك لشنوع من القائل  
مقالة الشؤء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل  
ومن دعا الناس إلى ذمّه ذمّوه بالحق وبالباطل  
وسئل القاسم بن معن عن ابن أبي ليلى ، فقلّب كفيه<sup>(١)</sup> وقال :

من الناس من يخفى أبوه وجدّه وجدّ أبي ليلى لكالبدر ظاهر  
فلم تثبت عليه به حجة في ذمّه ولا مدح . وقد بلغ ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوعوه وطبّا ، فإن كان محضاً أو مشوباً  
أظهره الوطب وماخضوه<sup>(٢)</sup> .

فإن قدح - جعلني الله فداك - بالحسد قادح فيما أولفه من كتابي لك ،  
وسبق إلى وهك شكّ فيه ، أعلمتني النكتة التي قدح فيها ، ثم قابله  
بجوابي ، فإني أرجو ألاّ تحتاج إلى حاكم عند تجاني القولين بين يديك ،  
لعلّ الحق على الباطل ، ودموغه إياه .

١٢٦ ظ

والحسد أذلّ نفساً من أن يجاني أحداً ، والعداوة إنّما قدّمت عليه لأنها  
عزيزة منيعة .

ويقال : الحسد لا يبدو إلّا في العين وعلى اللسان القصور عند أهله  
المؤتلفين على . . .<sup>(٣)</sup> والعداوة تبدو وتنجم قرونها وينبسط لسانها عند  
الموافقين له والمخالفين عليه .

(١) في الأصل : « كفه »

(٢) يعني من يمحضون الوطب .

(٣) يياض في الأصل بمقدار كلمة .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبه فقال : ذاك امرؤ سيطّ بالحسد وجبيل عليه ، فليس له أخ في السرّ ولا عدوّ في العلانية<sup>(١)</sup> .

وسئل العتّابي عن أهل بغداد فقال : حُسادّ ، إخوانُ العلانية ، وأعداء السرّيرة ، يعطونك الكلّ<sup>(٢)</sup> ويمنعونك القلّ .

ومما يدلّك على أنّ الحسد أخسّ وأعينُ من العداوة ، أنّ المِللَ كلّها ذمّتُه وعابته . ولا نعلم أنّ شاذّا من الشواذّ ، وشارداً من الشرّاد ، فضلاً عن جيل من الأجيال ، أمر بالحسد ؛ كما قيل : « عادٍ من عاداك ، وقارعٌ بالعداوة أهلها » . ثم عظم شأنُ العداوة عندهم ، وجلّ قدرُها لديهم ، حتّى اختلفوا في وجوه العمل فيها ؛ فمنهم من أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشعبيّ لبشر بن مروان : لو وجّهتَ إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزُّبير - وكانَ شتمه - من يأتيك به سجباً وجراً ! فقال بشر : إنّي مستعملٌ في عدوّي قولَ القائل :

وعادٍ إذا عادتَ بالحزم والنهي تنلُ ظفراً ممن تُريد وتغلبُ  
فكان بهذا من يرى المعادة بالحزم ، ويفتالها بالعقل والتأنّي .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شرُّ العداوة ما ستر بالمدارة ، وأشقاها للأَنْفُس ما قُرِعَ بمثلها بادياً . وكان ينشد :

(١) انظر البيان ١ : ٤٧ ، ٣٤٠ والحيوان ٥ : ٥٩٢ وعيون الأخبار

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٤٨ ، ٢٩٨ .

لا أَتَقَى حَسَكَ الضَّغَائِنِ بِالرُّقَى      فَعَلَ الذَّلِيلُ وَلَوْ بَقِيَتْ وَحِيداً<sup>(١)</sup>  
 لَكِنْ أُعِدْتُ لَهَا ضَغَائِنَ مِثْلِهَا      حَتَّى أَدَاوَى بِالْحُقُودِ حُقُوداً  
 كَالْخُمْرِ خَيْرَ دَوَائِهَا مِنْهَا بِهَا      تَشْفَى السَّقِيمَ وَتُبْرِئُ الْمُنْجُوداً<sup>(٢)</sup>  
 فَاتَهَى قَوْلَهُ إِلَى ابْنِ شُبْرَمَةَ فَقَالَ : « اللَّهُ دَرْعُ عُرْوَةٍ ، هَذِهِ أَنْفُسُ  
 الْعَرَبِ ! » .

١٢٧ و

فهؤلاء رأوا كشف المعادة ولم يرؤا التأني .

ومنهم من رأى المعادة بعد الفرار منها والإعذار فيها ، فإن هي أبت  
 إلا المقارنة قارنوها بمثلها .

قال شبيب بن شيبه : إذا رأيت الشرَّ قد أقبل إليك فتطامن له حتى  
 يتخطأك ، ولا تهجنه ولا تبحث عنه ؛ فإن أبي إلا أن يبرك عليك فكن  
 من الأرض ناراً ساطعة تتلظى<sup>(٣)</sup> . وأنشد :

إِذَا عَادَاكَ مُحْتَبِكٌ لَيْبٌ      فَعَادِ النَّوْمَ واحترس البيانا  
 وَلَا تُثِرِ الرَّبُوضَ وَخَلَّ عَنْهَا      وَإِنْ ثَارَتْ فَكُنْ شَبَحًا مَوَاتَا

(١) الحسك : جمع حسكة ، وهي الشوكة .

(٢) المنجود : المكروب . ونحوه قول أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء      وداوني بالتي كانت هي الداء  
 وأصل المعنى للأعشى حيث يقول :

وكأس شربت على لذة      وأخرى تداويت منها بها

انظر سرقات أبي نواس لمهلل بن يعقوب ص ٧٠ .

(٣) في الأصل : « ساطعا ييلقي » .

تَجْزُكَ إِلَى سِوَاكَ وَنَحَّ عَنْهَا نَحِيرَ الشَّرِّ أَسْرَعَهُ فَوَاتِنَا<sup>(١)</sup>  
وإن مالت عليك وخفتَ منها فواجهها مجاهرةً صِلَاتِنَا<sup>(٢)</sup>  
ومنهم من أمر بقبول الإنصاف وترك الحاسبة . قال عبيد الله بن عبد الله  
ابن [ عتبة بن ] مسعود : إنَّ الملاماتِ والمذماتِ كلّها قبيحة ، وأقبح الملامة  
والمذمة ما كانتا في ترك نصفة أو شدة منافسة في تعداد الذنوب . وأنشد :

منافسة العدو أو الصديق تَجُرُّ إِلَى المذمة والملامة

إذا أعطاك نصفًا ذو وِدادٍ وبعضَ النِّصف فاتهنز السَّلامه<sup>(٣)</sup>

ومنهم من قال : لا ترض من عدوك إلّا بالظلم ، ولا تقبلُ إنصافه  
ونافسه في ذلك<sup>(٤)</sup> . قال العباس بن عبد المطلب :

أبا طالب لا تقبل النِّصف منهم ولو أنصفوا حتى تَعَوَّ وتظلما

ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدو إذا حمل عليه . قال : حدثني  
إبراهيم بن شعبة المخزومي قال : سمعت من حكى لي عن مُصعب بن الزبير  
قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمتُ عدوك فبادره برجلك ، فإن سلم من  
الدهر لم يسلم منك . وأنشد :

إذا برك الزَّمانُ على عدوّ بنكبته أعنتَ له الزَّمانا

(١) في الأصل : « ونح عنها » .

(٢) مصدر صالت ، والفعل ومصدره لم يرد في المعاجم المتداولة . ومادة (صلت)

تدل على الظهور والسرعة .

(٣) النصف ، بالكسر : الانصاف .

(٤) في الأصل : « من ذلك » .

قال العتّابي : قلت لطوق بن مالك<sup>(١)</sup> : إنّ من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السّلب ، فإذا حلت الأيام على عدوك ثِقْلاً وأمكنّتك منه فزده ثِقْلاً إلى ثقله . قال : فقال لي طوق : من لم ينتهز من عدوّه انتَهَرَ منه ، وحالت الأيام التي كانت بيضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درك ما ظننت بشائري حَرَّانَ ليس على التراب براقِدِ  
أحقدته ثم اضطجعت ولم ينم أسفاً عليك وكيف نومُ الحاقِدِ  
إن تُمكن الأيامُ منك ، وعلَّها ، يوماً تُوفِّك بالصَّواع الزائد<sup>(٢)</sup>  
ولئن سلت لأتركّك عارضا بعدى لكل مُسلمٍ ومعايد  
ومنهم من كان يرى جبر كسرِ العدوِّ وإقالة عثرته ، ونُصرتَه عند  
وثوب الدهر عليه .

قال : حدثني ابن عبد الحميد قال ابن شبرمة<sup>(٣)</sup> : كانت الحرب يوم

(١) في الأصل : « لمالك بن طوق » وفي هامشه : « لطوق بن مالك » ، وهو الصواب بدليل ما سيأتي بعده . وهو طوق بن مالك بن طوق بن مالك بن عتاب ، كما في جمهرة أنساب العرب ٣٠٤ . وله خبر آخر مع العتّابي في الأغاني ١٢ : ٦ . وأبوه مالك بن طوق ، كان والياً على الأهواز ، وكان شاعراً . الأغاني ١٧ : ١٥٧ . وهو صاحب رجة مالك بن طوق ، أنشأها في عصر الرشيد ، وهو القائل للرشيد حين أراد أن يفتك به :

أرى الموت بين السيف والنطع كما منا

يلاحظني من حيناً أنلفت

(٢) وعلها ، أى ولعلها . في الأصل : « توفك » ، تحريف . والصواع : مكيال ، وربما شرب به .

(٣) هو عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنذر الضبي ، أبو شبرمة الكوفي القاضي ، ولده أبو جعفر قضاء الكوفة . وكان ثقة في الحديث ، شاعراً حسن الخلق جواداً . ولد سنة ٧٣ وتوفي سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب .

صَفَيْنَ بَيْنَ الْعَرَبِ مَحْضَةً لَا شُوبَ فِيهَا ، فَكَانَتْ مُحَارِبَتَهُمْ كِدَامًا وَاعْتِنَاقًا ،  
وَكَانُوا إِذَا مَرُّوا بِرَجُلٍ جَرِيحٍ كَانُوا يَقُولُونَ : خَذْلَهُ قَوْمُهُ فَانْصَرَوْهُ ،  
وَأَلْقَاهُ دَهْرُهُ بِمَضِيعَةٍ فَرَدُّوهُ إِلَى أَهْلِهِ .

وقال ابن شبرمة : مازلنا نسمع أن المصيبات تنزع السجيات .

قال : وأنشدني بعض أهل العلم في هذا المعنى :

فَلَوْ بِي بَدَأْتُمْ قَبْلَ مَنْ قَدْ دَعَوْتُمْ لِفَرَجَتِهَا وَحْدَى وَلَوْ بَلَغَتْ جَهْدَى  
إِذَا الْمَرْءُ ذُو الْقُرْبَى وَذُو الْحَقْدِ أَجْحَفَتْ بِهِ سَنَةٌ سَلَّتْ مُصِيبَتُهُ حَقْدَى <sup>(١)</sup>  
وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْإِفْضَالَ عَلَى عَدُوِّهِ وَتَرَكَ مَجَازَاتِهِ . وَهَذَا كَثِيرٌ لَا يُحْتَاجُ  
فِيهِ إِلَى اسْتِقْصَاءِ شَوَاهِدِهِ .

١٢٨ و

قال غِيلَانُ بْنُ خَرْشَةَ الضَّبِّيِّ <sup>(٢)</sup> — وقال بعضهم : بل الأحنف  
ابن قيس <sup>(٣)</sup> — لَا تَزَالُ الْعَرَبُ بِخَيْرٍ مَا لَبِسَتْ الْعُمَامَ وَتَقَلَّدَتْ السُّيُوفَ  
وَرَكِبَتْ الْخَيْلَ ، وَلَمْ تَأْخُذْهَا حَمِيَّةُ الْأَوْغَادِ . قِيلَ : وَمَا حَمِيَّةُ الْأَوْغَادِ ؟ قَالَ :

(١) نسب هذا البيت في عيون الأخبار ٣ : ١٠٧ إلى أبي الأسود الدؤلي .  
وليس في ديوانه المنشور في نفائس المخطوطات . والسنة : الجذب والقحط .

(٢) غيلان بن خرشة ، كان سيد بني ضبة بالبصرة ، وكان من البلغاء . الاشتقاق  
١٩٤ وجمهرة ابن حزم ٢٠٤ . وكان غيلان أحد أصحاب أبي موسى الأشعري ،  
ثم انتفض عليه وكان سبياً في أن يعزل عثمان أبا موسى الأشعري ويولى مكانه عبد الله  
ابن عامر . الجهمياري ١٤٧ .

(٣) الذي في البيان ٢ : ٨٨ و ٣ : ٩٨ أن القول للأحنف . والنص فيه :  
« وقال غيلان بن خرشة للأحنف ، يا أبا بحر ، ما بقاء ما فيه العرب ؟ قال :  
إذا تقلدوا السيوف ، وشدوا العمام ... » . فالقول والجواب إنما هو للأحنف .

أَنْ يَرَوْا الْحِلْمَ ذُلًّا ، وَالتَّوَاهُبَ ضِيًّا<sup>(١)</sup> .

وقال الشَّعْبِيُّ لرجل قال له : أَلَا تَنْتَقِمُ مِنْ فُلَانٍ فَقَدْ عَادَاكَ وَنَصَبَ لَكَ ؟ فَقَالَ :

لَيْسَتْ الْأَحْلَامُ فِي حَالِ الرِّضَا إِنَّمَا الْأَحْلَامُ فِي حَالِ الْغَضَبِ  
وَأُنْشَدَنِي بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بَيَّتِينَ وَقَالَ : إِنَّ الزُّبَيْرِيَّ<sup>(٢)</sup> كَانَ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ  
بِهِمَا :

وإِنِّي لِأَعْدَائِي عَلَى الْمَقْتِ وَالْقَتْلِ بَنَى الْعَمَّ مِنْهُمْ كَاشِحٌ وَحَسُودٌ  
أَذُبُّ وَأَرْمِي بِالْحَصَى مِنْ وَرَائِهِمْ وَأَبْدَأُ بِالْحُسْنَى لَهُمْ وَأَعُودُ  
وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ إِذَا أُنْشِدَ :

إِنِّي وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِي كَاشِحًا لُمُورًا مِنْ دُونِهِ وَوَرَائِهِ<sup>(٣)</sup>  
وَمُعِيرُهُ نَصْرِي وَإِنْ كَانَ أَمْرًا مَتَرَحِّزًا فِي أَرْضِهِ وَسِمَائِهِ<sup>(٤)</sup>  
وَإِنْ أَكْتَسَى ثَوْبًا نَفِيسًا لَمْ أَقْلُ يَا لَيْتَ أَنَّ عَلِيَّ حَسَنَ رَدَائِهِ<sup>(٥)</sup>

(١) في حاشية هـ من نسخ البيان : « التواهب هو أن يترك من حقه لصاحبه عند الحاكم ، على وجه الروءة ومكارم الأخلاق . فإذا رأى أن ترك ذلك ذلة فتلك حمية الأوغاد » .

(٢) هو عبد الله بن مصعب ، كما في تاريخ الطبري ١٠ : ١١٢ . وكان عاملاً للرشيد على المدينة واليمن . وانظر البيان ١ : ٣٢ و ٣ : ١١٠ .

(٣) الشعر لهُذَيْلِ بْنِ مَشْجَعَةَ الْبُلَوَانِي ، كما في الحماسة ١٨٦٠ بشرح المرزوقي . والكاشح : المضرر العدواة . وفي الحماسة : « غائباً لمقاذف من خلفه » .

(٤) في الحماسة : « ومفيده نصري » .

(٥) في الأصل : « ثوباً نسيماً » ، تحريف . وفي الحماسة : « ثوباً جميلاً » .



وإذا تَحَرَّقَ في غناه وفَرَّتْه . وإذا تَصَعَّلَكَ كُنتَ مِنْ قِرْنائِهِ<sup>(١)</sup>

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفى عن نفسه الحسد واللؤم والانتقام عند الإمكان ، والمسألة عند الحاجة .

ومِنْهُمْ مَنْ أَمَرَ بِالسَّغْفِ فِي الْعَدَاوَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْخُرْقِ فِيهَا .

حدَّثَنِي نُوحُ بْنُ أَحْمَدَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : جَاءَ النَّابِغَةُ الْجَعْدِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : هَلْ مَعَكَ مِنَ الشَّعْرِ مَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أَنْشِدْنِي مِنْهُ . فَأَنْشَدَهُ :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَانَعُوْدُ خَيْلِنَا

إِذَا مَا التَّقِينَا أَنْ تَحْيِدَ وَتَنْفِرَا<sup>(٢)</sup>

وَتُنْكَرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا

مِنَ الطَّعْنِ حَتَّى تَحْسَبَ الْجَوْنَ أَشْقَرَا

١٢٨ ظ

وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا

صَحَّاحًا وَلَا مَسْتَنْكَرًا أَنْ تَعْقُرَا

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاوْنَا

وَإِنَّا لَنَبْنِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

(١) التخرق : التوسع في الإتفاق . ويقال وفره ماله : جعله وافرا لم ينقص منه .

(٢) الأبيات من قصيدة للنابغة الجعدي في جمهرة أشعار العرب ١٤٥ - ١٤٨ . وهي أولى المشوبات . ورويت أيضاً في الاستيعاب ص ١٥١٥ والخزانة ١ : ٥١٣ - ٥١٤ والآلئ ١٤٧ ، ٧٧٢٠ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى الجنة إن شاء الله » .

ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا  
ولا خير في حلم إذا لم تكن له بواذر تحمى صفوه أن يكذرا<sup>(١)</sup>  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فض الله فاك ! » . قال : فأتت عليه  
عشرون ومائة سنة ، كلما سقطت له سن أثغرت أخرى مكانها ؛ لدعوة  
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما روى في البادرة التي يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهلي<sup>(٢)</sup> :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ      وَقَلْنَا : الْقَوْمُ إِخْوَانُ  
عَسَى الْأَيَّامُ أَنْ يَرْجِعَ      نَحْنُ حَيًّا كَالَّذِي كَانُوا<sup>(٣)</sup>  
فَلَمَّا صَرَّحَ الشَّرُّ وَأَمْسَى      وَهُوَ عُريَانُ

(١) البادرة : الكلام الذي يسبق من الإنسان في الغضب ، كما في اللسان  
( بدر ) عند إنشاد هذا البيت .

(٢) هو الفند الزماني ، واسمه شهل بن شيان . شاعر جاهلي قديم ، كان أحد  
فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الخزائن ٢ :  
٥٨ - ٥٩ والأغاني ٢٠ : ١٤٣ - ١٤٤ والالآلى ٥٧٩ . والقصيدة هي ثانی  
مقطوعة في حماسة أبي تمام .

(٣) الحى : الواحد من أحياء العرب ، والبطن من بطونهم : وفي الحماسة :  
« قوما » .

مَشِينَا مِشِيَةَ اللَّيْثِ بَدَا وَاللَّيْثُ غَضْبَانٌ <sup>(١)</sup>  
 بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِينٌ وَتَضْجِيعٌ وَإِذْعَانٌ <sup>(٢)</sup>  
 وَطَعْنٌ كَفَمِ الزَّقِّ وَهِيَ وَالزَّقُّ مَلَانٌ <sup>(٣)</sup>  
 وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حَيْثُ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانٌ

حدثنا أبو مسهر عن أبيه عن خالد بن عمرو الكلبي قال :

كُنَّا مَعَ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ <sup>(٤)</sup> فِي غَزَاةٍ ، فَكَانَ مَنَا رَجُلٌ يَمْتَارُ لَنَا الْمِيرَةَ  
 وَيَقُومُ بِحَوَائِجِنَا ، فَإِذَا أَقْبَلَ قُلْنَا : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا . فَغَضِبَ لِدَعَائِنَا ، فَشَكُونَا  
 ذَلِكَ إِلَى أَبِي بَرْزَةَ ، فَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ : كُنَّا نَسْمَعُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَصْلَحْهُ الْخَيْرُ أَصْلَحَهُ  
 الشَّرُّ ، فَاقْلِبُوا لَهُ . فَكُنَّا نَقُولُ لَهُ إِذَا أَتَانَا بِالْحَوَائِجِ : جَزَاكَ اللَّهُ شَرًّا وَعَرًّا <sup>(٥)</sup> ،  
 فَيَضْحَكُ لَذَلِكَ .

وَأَنْشَدَنِي رَجُلٌ عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ :

١٢٩ و

أَرَى الْحَلَمَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ ذَلَّةً وَفِي بَعْضِهَا عِزًّا يُشْرَفُ فَاعِلُهُ  
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَدْفَعْ بِحِلْمِكَ جَاهِلًا سَفِيهًا وَلَمْ تَقْرِنْ بِهِ مِنْ يُجَاهِلُهُ  
 لِبَسْتَ لَهُ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ صَاغِرًا فَأَصْبَحَ قَدْ أَوْدَى بِحَقِّكَ بَاطِلُهُ

(١) فِي الْحَمَاسَةِ : « غَدَا » .

(٢) فِي الْحَمَاسَةِ : « وَتَضْجِيعٌ » ، وَهُوَ اخْتِلَاطُ الصَّوْتِ .

(٣) فِي الْحَمَاسَةِ : « غَدَا » بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ ، أَيْ مَالٍ

(٤) صَحَابِي جَلِيلٌ ، وَهُوَ نُضْلَةُ بْنُ عُبَيْدِ الْأَسْلَمِيِّ ، مَشْهُورٌ بِكُنْيَتِهِ ، نَزَلَ  
 الْبَصْرَةَ وَشَهِدَ مَعَ عَلِيٍّ قِتَالَ الْخَوَارِجِ بِالنَّهْرَوَانِ ، وَآتَى خُرَاسَانَ فَزَلَ مَرُّهُ ، وَمَاتَ  
 بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ ٦٠ . الْإِصَابَةُ ٨٧١٠ وَالْإِسْتِيعَابُ ٢٨٧٢ وَالْإِسْتِغْنَاءُ ١٠٩ .

(٥) الْعَرُّ : الشَّرُّ وَالشَّيْنُ ، وَأَصْلُ مَعْنَاهُ الْجَرَبُ .

فَأَبَقِ عَلَى جَهَّالِ قَوْمِكَ إِنَّهُ لَكُلِّ حَلِيمٍ مَوْطِنٌ هُوَ جَاهِلُهُ<sup>(١)</sup>  
 وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « استوصُوا بِالْغَوَاءِ خَيْرًا ،  
 فَإِنَّهُمْ يَطْفَنُونَ الْحَرِيقَ ، وَيَسُدُّونَ الْبَثْقَ<sup>(٢)</sup> » .

وقال أبو سلمي<sup>(٣)</sup> فى الجاهلية :

لَا بَدَّ لِلسُّودَدِ مِنْ رِمَاحٍ<sup>(٤)</sup> وَمِنْ عَدِيدٍ يُتَّقَى بِالرَّاحِ<sup>(٥)</sup>  
 \* وَمِنْ كَلَابٍ بَجَّةِ الثُّبَاحِ \*  
 وقال مسلم بن الوليد<sup>(٦)</sup> :

حَلَفْتُ لَنْ لَمْ تَلْقَنِ سَفَهَاؤَهَا خُرَاعَةُ وَالْحَيَّانِ عَوْفٌ وَأَسْلَمُ  
 لَأَرْتَجِعَنَّ الْوَدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا بِقَافِيَةٍ تَفْرِى الْعُرُوقَ فَتَحْسِمُ  
 مِنَ اللَّاءِ لَا يَرْجِعَنَّ إِلَّا شَوَارِدًا لَهَنَّ بِأَفْوَاهِ الرِّجَالِ تَهْمُهُمْ  
 أَصَابُوا حَلِيمًا فَاسْتَعْدُّوا بِجَاهِلٍ إِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَمْنَعَكَ فَالْجَهْلُ أَحْزَمُ  
 ولم نستقصِ الأبوابَ كُلَّهَا بِالْمَعَارِضَةِ<sup>(٧)</sup> فى هذا الكتاب ، ولو استقصينا

(١) أى لكل حلِيم مَوْطِنٌ يجب أن يحبل فيه وينزع عن حلمه .

(٢) البثوق : جمع بثق ، وهو منبعث الماء يخرج منه السيل .

(٣) الحيوان ١ : ٣٥١ / ٣ : ٧٩ . والرجز بدون نسبة فى البيان ٣ . ٣٣٥ .

(٤) فى الحيوان والبيان : « من أرماح » .

(٥) فى الأصل : « ومن عداء » ، صوابه فى الحيوان والبيان .

(٦) الأبيات لم ترد فى ديوان مسلم ولا ملحقاته . وفى الديوان ١٧٧ — ١٨٣ قصيدة على روى هذه الأبيات .

(٧) فى الأصل : « المعارضة » .

لطالت بنا الأيام وتراخت الليالي إلى بلوغ الغاية في تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عرض فيه ما دلّ على معناه الذي إليه قصد .

ولم نر الحسد أمر به أحد من العرب والعجم في حال من الأحوال ، ولا ندب إليه ونبه عليه . وقد نبّه على العداوة وفصل بين أحوالها بما قد بينناه ، فظهر فضلها على الحسد بذلك .

وكنت امرأ قليل الحساد حتى اعتصمت بعروتك ، واستمسكتُ بجملك واستدرت في ظلك<sup>(١)</sup> ، فتراكم على الحساد وازدحموا ، ورموني بسهامهم من كل أوب وأفق ، وتتابعوا على تتابع الدبر<sup>(٢)</sup> على مُشتار القسل . ولئن كثروا لقد كثُر بهبوب ريحك إخواني ، وبنضرة أيامك وزهرة دولتك خلاني . وأنا كما قلت :

فاكثر حُسادى وأكثر خلتي  
وكنْتُ وحُسادى قليلٌ وخلاني

فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب دخل على عشرة نفر من من الكتاب قد شملهم معروفك ، ورفع مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائذك ، فأفاضوا في حديث من أحاديث الحسد ، فشعب لهم ذلك الحديث شعباً

(١) استدرى بالشجرة : استظل بها و صار في دقها . واستدرى بفلان : التجأ إليه . وفي الأصل : « واستدرات » .

(٢) تتابع على الشيء : تهافت فيه وأسرع وتساقط . وفي الحديث : « ما يحملكم على أن تتابعوا في الكذب ، كما يتتابع الفراش في النار » . وفي الأصل : « تتابعوا على تتابع » ، صوابه بالياء والدبر : جماعة النحل .

افتنوا فيها - والحديث ذو شجون - فما برحوا حتى أتتني رقعة أناسية<sup>(١)</sup> من الحساد فيها سهام الوعيد ، ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف ، للظعن على ما ألفت<sup>(٢)</sup> من الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجرى على ، فدفعت رُقتهم إلى من قرُب إلى منهم ، فقرأها ثم قال : « فأنلهم الله ! أبظلم يرومون النّيل ويلتمسون الشركة في المعروف ! كنزع الرّوح بالكلايب أهون من بذل معروف بترهيب » . وأنشأ يقول :

أبقى الحوادث من خلي لك مثل جندلة المراجع<sup>(٣)</sup>  
قد رامني الأعداء قب لك فامتنعت من المظالم  
ودفعها إلى من قرُب منه فقرأها . وقال الثاني : « صكّة جُلمود ، لكل مُرعدٍ حسود ، يستطر العُرف بالتهديد . خلّ الوعيد ، يذهب في البيد » .  
وأنشأ يقول :

أبرق وأرعِـدْ يا يزيدُ فما وعيدك لي بضائر<sup>(٤)</sup>  
ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال : « سألوا ظلما ، وخوفوا هضمًا ، لقوا حربًا ولقيت سِلما » . وأنشأ يقول :

---

(١) أناسية : جمع إنسي أو أناس . وفي اللسان ( أنس ) : « وبين جواز أناسي بالتخفيف - يعنى تخفيف الياء - قول العرب : أناسية كثيرة . والواحد إنسي وأناس إن شئت » .

(٢) في الأصل : « ألفت » .

(٣) الشعر لمعاوية ، في أمالي القالي ٢ : ٣١١ . وفي الأصل : « أما الحوادث »  
و « المزاحم » ، صوابهما في الأمالي وشرح القصائد السبع لابن الأنباري ٣٢٩ .

(٤) البيت للكثير ، كما في اللسان ( برق ، رعد ) ومجالس العلماء ١٤١  
وشرح القصائد السبع ٥٢٣ .

زعم الفرزدق أن سيقتل مِربعاً أبشِرْ بطول سلامة يا مِربع<sup>(١)</sup>  
ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الذَّلِيل وبولهُ سَيَّان » .  
وأنشأ يقول :

ماضراً تغلبَ وائلٍ أهوتَها أم بُلَّتَ حيثُ تناطحَ البحرانِ<sup>(٢)</sup> ١٣٠ و  
ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيق الحمار ، ودمُ الأعيار جُبَّارُ  
جُبَّار<sup>(٣)</sup> » . وأنشأ يقول :

ما أبالي أنبَّ بالحزن تيسٌ أم لَحَّاني بظهيرِ غيبٍ لئيمٍ<sup>(٤)</sup>  
ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : « إذا عَلِقْتَكَ الأبحاد ، فليهنُ عليك  
الحَسَاد » . وأنشأ يقول :

إذا أهلُ الكرامة أكرموني فلا أخشى الهوانَ من اللثام  
ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : « كيف يخاف الصُّرْعَة ، من هو في ذى  
المنعة » . وأنشأ يقول :

(١) البيت لجرير في ديوانه ٣٤٨ وجمهرة أنساب العرب ٢٨٣ والشعراء ٤٦٦ .  
ومربع ، هو مربع بن وعوعة بن سعيد ، كما في جمهرة أنساب العرب . ومربع هذا هو  
راوية جرير ، وكان الفرزدق قد حلف ليقتلنه .

(٢) للفرزدق في ديوانه ٨٨٢ والبيان ٣ : ٢٤٨ والخزاعة ٢ : ٥٠١ ،  
وهو من قصيدة يذكر فيها تفضيل الأخطل إياه ، مادحا في ذلك بني تغلب ،  
ويهجو فيها جريرا . وتغلب هم قوم الأخطل . تناطح البحران : تقابلا . وانظر  
الحيوان ١ : ١٣ .

(٣) الأعيار : جمع غير بالفتح ، وهو الحمار الوحشى . والجبار : الهدر . وكذا  
وردت الكلمة مكررة .

(٤) لحسان بن ثابت في ديوانه ٣٧٨ والحيوان ١ : ١٣ .

( ٢٤ - رسائل الجاحظ )

كم تنبحون وما يغني نباحكم

ما يملك الكلب غير النبح من ضرر

ودفعها إلى العاشر<sup>(١)</sup> فقرأها وقال : « نوكي هلكي ، لم يعرفوا خبرك ، ولا دروا أمرك » . وأنشأ يقول :

فلو علم الكلاب بنو الكلاب بحالك عند سيدنا لذلوا

وعندي صديق لي من الشوق له أدب ، فقال لي بعقب فراغهم مسيراً : إن هؤلاء الكتاب قد أظهروا الاستخفاف بقول الحساد ، وضربوا الأمثال في هوانهم عليك ، وعرفوا أنك في منعة من عز أبي الحسن أطال الله بقاءه ، ومعقل لا يسامى ولا يُنال . وأنا أقول بالشفقة<sup>(٢)</sup> :

توق قومًا من الحساد قد قصدوا لحط قدرك في سرّ وفي علن

فقلت له : إنّي أقول بيتين هما جوابك وجواب الحساد :

إنّ ابن يحيى عبيد الله أمني

من الحوادث بعد الخوف من زمني<sup>(٣)</sup>

فلست أحذر حسّادي وإن كثروا

ما دمت مُمسك حبل من أبي الحسن

فلما رأى صديقي اقتفائي آثار الكتاب ، باستهانتى للحساد عند اعتلاقي

(١) كذا في الأصل بدون أن يذكر قبله ما قال الثامن والتاسع ، فقد يكون إغفالاً من الجاحظ لهما ، وقد يكون سقطاً من النسخة .

(٢) في الأصل : « بالشفقة » .

(٣) يعني عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير المتوكل ثم المعتمد . انظر مروج الذهب ٢ : ٣٧١ والتنبيه والإشراف ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٨ ، ١٦٢ والفخرى ٢١٦ ، ٢٢٨ .



جاءتلك أعزك الله ، أنشأ متمثلاً بقولِ نصر بن سيار<sup>(١)</sup> :

١٣٠ ظ

إني نشأت وحُسادى ذوو عددٍ      إذا المعارج لا تنقص لهم أحداً<sup>(٢)</sup>

إن يحسدوني على ما قد بنيت لهم      فمثل حُسن بلائى جرّلى الحسدا

وليس العجب أن يكثرُوا وأنا أنعق بحاسنك ، وأهتف بشركك ،

ولكن العجب كيف لا تنفقت أKBادهم كدا .

وكان بعضهم يقول : اللهم كثر حُسادَ ولدى ؛ فإنهم لا يكثرُونَ

إلا بكثرة النعمة .

فإن كان والدى سبق منه هذا الدُعاء ، فإن الإجابة كانت مخبوءة إلى

زمان عزك ؛ فقد رأينا تباشيرها ، وبدت لنا عند عنايتك غايتها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعلْ ولدى محسودين ، ولا تجعلهم

مرحومين ؛ فإن يومَ المحسود يومُ عزّة ، ويومَ الحاسد يومُ ذلّة .

(١) نصر بن سيار : أمير من الدهاة الشجعان ، كان أمير خراسان سنة ١٢٠

ولاه هشام بن عبد الملك ، ثم غزا ماوراء النهر ففتح حصونا وغنم كثيراً ، وعمل

أيضاً على خراسان لمروان بن محمد آخر الأمويين ، وقد انتبه إلى استفحال الدعوة

العباسية فكتب إلى بنى مروان بالشام فلم يأبهوا بالخطر ، وظل يكافح حتى عجز

وتغلب أبو مسلم على خراسان ، فخرج نصر من مرو إلى قومن ، واستمر في كفاحه

إلى أن لحقه المرض في مفازة بين الرى وهمدان ، ومات بساوة سنة ١٣١ . وفي

الأصل : « يقول بشعر »

(٢) فى الكتاب العزيز : « من الله ذى المعارج » قال قتادة : ذى المعارج :

ذى الفواضل والنعم ، وقيل معارج الملائكة ، وهى مصاعدها التى تصعد فيها

وتعرج فيها . وقال الفراء : ذى المعارج من نعت الله ، لأن الملائكة تعرج إلى الله

فوصف نفسه بذلك .

ويقال : إنه لما مات الحجاج سمعوا جارية<sup>(١)</sup> خلف جنازته وهي تقول :  
 اليوم يرحلنا من كان يحسدنا واليوم تنبع من كانوا لنا تبعاً  
 ويقال : إن زياد بن أبيه قال لحرقة ابنة النعمان<sup>(٢)</sup> : أخبريني بحالك .  
 قالت : إن شئت أجلت وإن شئت فسرت . فقال لها : أجلى . فقالت :  
 « بنتا محسد ، وأصبحنا نرحم<sup>(٣)</sup> » . فخطبها زياد وكانت في دير لها فكشفت  
 عن رأسها ، فإذا رأس مخلوق ، فقالت : رأس عروس كما ترى يا زياد ؟  
 وأعطاها دنانير فأخذتها وقالت : جزتك يد افتقرت بعد غنى ، ولا جزتك  
 يد استغنت بعد فقر !

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبي صلى الله  
 عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين<sup>(٤)</sup> : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به

(١) في البيان ٣ : ١٧٧ : « خرجت عجوز من داره وهي تقول » .  
 (٢) حرقة هذه بنت النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدى  
 ابن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عجم بن نمارة بن لحم . المؤلف ١٠٣ .  
 ولها مقطوعة في الحماسة ١٢٠٣ بشرح المرزوقي رويت أيضاً في المؤلف . وبعض  
 أخبارها في البيان ٢ : ٨٩ / ٣ : ١٤٥ ، ١٦١ . وحرقة بضم الحاء المهملة  
 وفتح الراء ، كما في اللسان والقاموس . قال في اللسان : « وحريق ابن النعمان  
 ابن المنذر . وحرقة بنته » ، ومثله في شرح الحماسة للتبريزي لكنه جعل أخاها  
 « حرق » كزفر . وفيهما يقول الشاعر :

نقسم بالله نسلك الحلقة ولا محريقاً وأخته الحرقة  
 (٣) أى كنا في نعمة محسودين بالأمس ، فأصبحنا اليوم ولا حاسد لنا ، بل نحن  
 في موضع الرثاء .

(٤) في الأصل : « اثنين » ، صوابه في صحيح البخارى . انظر فتح البارى ٣ :  
 ٢١٩ و ١٣ : ٢٥٣ وصحيح مسلم ١ : ٥٥٨ - ٥٥٩ والترغيب والترهيب ٣ : ١١  
 ومسند ابن حبان ١٢٥ ، ١٢٦ .

آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في وجوه البرّ آناء الليل وآناء النهار .

فهذا الحسدُ إنّما هو في طاعة الله عزّ وجلّ ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال بعض الأشراف :

١٣١ و

احسُدْ على نيل المكارم والعلی إذ لم تكن في حاله المحسودِ  
حَسَدُ الفتى بالمكرّمات لغيره كَرَمٌ ولكن ليس بالمعدودِ  
فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد ، وزادك الله شرفاً وفضلاً ، وعلماً  
ومعرفة ، ولا زلتَ بالمكان الذي يُهدى إليك [ فيه ] الكتبُ ، وتحف  
بنوادر العلوم وفرائد الآداب ، إنّه قريب مجيب .

\* \* \*

تم الكتاب والله المنّة ، وييده الحول والقوة

تنلوه رسالة من كلام أبي عثمان أيضاً في ذم القواد

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه .



١٠

رِسَالَة

فِي صِنَاعَاتِ الْقَوَادِمِ



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة العاشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها في نسخة الأصل :  
« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، في ذم القواد » .  
وفي مقدمة نسخة الأصل أيضاً أنها تسمى « صناعات القواد » وتسمى أيضاً  
« طبائع القواد » .

وجاء في جمع الجواهر للحصري ١١٦ : « وللجاحظ في هذا النوع رسالة  
كتب بها إلى المعتصم ، وقيل إلى المتوكل ، في الحظ على تعليم أولاده ضروب  
العلوم وأنواع الأدب » .

ثم روى الحصري طرفاً من هذه الرسالة كانت موضع مقارنة في النص .  
وجاء عنوانها في طراز المجالس ٦٧ « صناعات القواد » ثم ساق الرسالة بكلمها .  
وكان هذا النص موضع مقارنة أيضاً في نسخته المطبوعة والنسختين المودعتين  
بدار الكتب برقم ٦٦ ، ٦٧ أدب م .

وتماز هذه الرسالة بأنها قد سجلت كثيراً من الألفاظ الدخيلة والمولدة  
التي كان يستعملها الصناع والعمال وأصحاب المهن المختلفة .





## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أرشدك الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك ١٣٣ ظ  
جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عزّ الأدب كما تعرف زوائد الغنى .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : دخلت على أمير المؤمنين  
المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين ، في اللسان عشر خصال : أداة يظهر  
بها البيان ، وشاهد يُخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق  
يُرَدُّ به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تُعرف به الأشياء ،  
وواعظ يُعرف به القبيح ، ومُعزٍّ يُرَدُّ به الأحران (٢) ، وخاصة يُرهِى  
بالصنعة (٣) ، ومُلِّهُ يوثق الأسماع .

وقال الحسن البصري : إنّ الله تعالى رفع درجة اللسان ، فليس من  
الأعضاء شيء ينطق بذكره غيره .

وقال بعض العلماء : أفضل شيء للرجل عقل يُولد معه ، فإنّ فاته ذلك

---

(١) قبله في الأصل : « هذه رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، منسوبة  
في نسخة إلى ذم القواد ، وفي أخرى إلى كتاب صناعات القواد . وفي أخرى إلى  
كتاب طبائع القواد » .

(٢) في المطبوعة من الطراز : « ومفرد ترد به الأخران » ، تحريف .

(٣) في الأصل : « يذهب بالصنعة » ، وأثبت ما في النسخة المطبوعة من الطراز .

فَالْ يُعْظَمُ بِهِ ، فَإِنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَعَلِمَ يَعِيشُ بِهِ<sup>(١)</sup> ، فَإِنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فَمُوتُ  
يَحْتَثُّ أَصْلَهُ .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان إلا ضالة .  
أو بهيمة مرسلّة ، أو صورة ممثلة<sup>(٢)</sup> .

وذكر الصمت والنطق عند الأحنف فقال رجلٌ : الصمت أفضل  
وأحمد . فقال : صاحب الصمت لا يتعدّاه نفعه ، وصاحب المنطق ينتفع به  
غيره . والمنطق الصواب أفضل<sup>(٣)</sup> .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله امرأً أصلح  
من لسانه » .

قال : وسمع عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه رجلاً يتكلم فأبلغ في  
حاجته ، فقال عمر : هذا والله السحر الحلال .

وقال مسleme بن عبد الملك : إن الرجل ليسألنى الحاجة فتستجيبُ نفسى له  
بها ، فإذا لحن انصرفت نفسى عنها . ١٣٣ و

وتقدم رجلٌ إلى زياد فقال : أصلح الله الأمير ، إن أبينا هلك ، وإن  
أخونا غصبنا ميراثه . فقال زياد : الذى ضيعت من لسانك أكثر مما ضيعت  
من مالك<sup>(٤)</sup> .

(١) ما بعد « يولد معه » ساقط من الطراز .

(٢) البيان ١ : ١٧٠ .

(٣) فى الأصل والطراز : « والصواب » ، صوابه من مطبوعة الطراز .

(٤) الخبر فى البيان ٢ : ٢٢٢ وعيون الأخبار ٢ : ١٥٩ ونزهة الألباء ١٢ .

وقال بعض الحكماء لأولاده : يا بنيّ أصلحوا من ألسنتكم ، فإنّ الرجل لتنوبه النائبة فيستعير الدابة والثياب ، ولا يقدر أن يستعير اللسان .  
وقال شبيب بن شيبه ورأى رجلاً يتكلم فأساء القول ، فقال :  
يا ابن أخي ، الأدب الصالح خيرٌ من المال المضاعف .  
وقال الشاعر<sup>(١)</sup> :

وكأن ترى من صامتٍ لك مُعجِبٍ      زيادته أو نقصه في التكلم  
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده      فلم يبقَ إلّا صورةُ اللحم والدم  
نخذُ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كلِّ الأدب ؛ فإنّك إن  
أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه .  
وذلك أنّي لقيت حزاماً<sup>(٢)</sup> حين قدِمَ أمير المؤمنين من بلاد الروم ،  
فسألته عن الحرب كيف كانت هناك ؟ فقال :

لقيناهم في مقدار حُخْن الإصطبل ، فما كان بقدر ما يحسُّ<sup>(٣)</sup> الرجلُ دابّته  
حتّى تركناهم في أضيق من تمرغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابيب سرجين<sup>(٤)</sup> ،

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، كما في العلقات برواية الزوزني ، وليس في رواية ابن الأنباري أو التبريزي أو ديوانه بشرح ثعلب وبشرح الشنتمري .

(٢) في الأصل : « خزاما » ، وأثبت ما في الطراز وجمع الجواهر . وفي جمع الجواهر : « وذلك أن حزاما صاحب خيلك حين سأله عن الوقعة ببلاد الروم » .

(٣) حس الدابة يحسها حساً : نفص عنها التراب ، وذلك إذا فرجها بالحسّة . وفي مطبوعة الطراز فقط : « يحش » بالشين .

(٤) الأنابيب : الأكداس ، جمع أنبار ، وهذه جمع نبر بالكسر .

فلو طرحت رَوْثَةً مَاسَقَطَتْ إِلَّا عَلَى ذَنْبِ دَابَّةٍ .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

إِنْ يَهْدِمِ الصَّدُّ مِنْ جِسْمِي مَعَالِفَهُ

فَإِنْ قَلْبِي بَقِيَ الْوَجْدُ مَعْمُورٌ<sup>(١)</sup>

إِنِّي أَمْرُو فِي وَثَاقِ الْحُبِّ يَكْبَحُهُ

لِجَامٍ هَجَرٍ عَلَى الْأَسْقَامِ مَعْذُورٌ<sup>(٢)</sup>

عَلَّنَ بِجِلِّ نَيْلٍ مِنْ وَصَالِكَ أَوْ

حُسْنِ الرُّقَادِ فَإِنَّ النَّوْمَ مَأْسُورٌ<sup>(٣)</sup>

أَصَابَ حَبْلَ شِكَاكِ الْوَضَلِ حِينَ بَدَا

وَمَبِضْعِ الصَّدِّ فِي كَفِيهِ مَشْهُورٌ<sup>(٤)</sup>

لَبَسْتُ بَرْقَعَ هَجَرٍ بَعْدَ ذَلِكَ فِي

إِصْطَبِلٍ وَدَّ فَرَوْتَ الْحُبَّ مَنُورٌ<sup>(٥)</sup>

(١) القت : الفصصة ، وهي من علف الدواب .

(٢) عذر الدابة عذرا : شد عليها العذار ، وهو السير الذي يكون عليه اللجام .  
وفي جمع الجواهر : « ويح امرؤ في وثاق الحب » .

(٣) في جمع الجواهر : « أنل خليلك نيلا من وصالك » ، والمأسور : المشدود بالإسار ، وهو الجبل .

(٤) الشكالي ، ككتاب : ما تشد به قوائم الدابة . وفي جمع الجواهر : « أمنت قتل شكالي حين ودعني ومبضع الحب » .

(٥) في الطراز : « إصطبل حب » .

قال : وسألت بَخْتِشُوعَ [ الطيب<sup>(١)</sup> ] عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مقدار صَحْنِ البِيَارِستان ، فما كان بقدر ما يختلف الرجل ١٣٣ ظ  
مقعدين<sup>(٢)</sup> حتى تركناهم في أَصِيقَ من مُحَقَّنة ، فقتلناهم فلو طرحت مِبْضَعًا  
ما سقط إِلَّا على أَعْطَلِ رَجُلٍ<sup>(٣)</sup> .

وعمل أبياتًا في الفزل فكانت :

شَرِبَ الوصلُ دَسَجَ الهجر فاستَطَّ لَمَقَ بطنُ الوِصالِ بالإسهالِ<sup>(٤)</sup>  
ورماني حَيَّ بقولنَجِ بَيْنِ مُذهِلٍ عن مَلامة العُدالِ<sup>(٥)</sup>  
فقواد الحبيب ينحله الشَّـ لُ وقلبي معذبٌ بالَمَلالِ<sup>(٦)</sup>  
وفؤادى مُبرَسَمَ ذو سَقامِ يابنَ ماسُوءَ ضلَّ عني احتيالي<sup>(٧)</sup>  
لو يبقراط كان مابى وجالي نُوسَ باتا منه بأَكسَفِ بالِ

(١) التكملة من طراز المجالس وجمع الجواهر . وهو بختيشوع بن جبريل  
ابن بختيشوع ، وكان سريانيا نبيل القدر ، وكان يضاهاى المتوكل في اللباس والقرش ،  
وكان عظيم المنزلة عنده ، ثم إنه أفرط في إدلاله عليه فنكبه . وكان موته سنة ٢٥٦ .

طبقات الأطباء ١ : ١٣٨ - ١٤٤ والقفطى ٧٢ - ٧٣ .

(٢) اختلف الرجل : ذهب إلى المتوضأ إذا أخذه بطنه .

(٣) الأكل : عرق في اليد إذا قطع لم يرقأ الدم .

(٤) الدسج ويقال الدسجيج : آنية تحول باليد .

(٥) البيت ساقط من جمع الجواهر .

(٦) وهذا ساقط من الطراز .

(٧) كذا في الأصل وإحدى مخطوطى الطراز . يريد « ماسويه » . وفي سائر

نسخ الطراز : « باين السوء » . وفي جمع الجواهر : « يابن ماسويه » ولا يستقيم  
به الوزن . وابن ماسويه هو أبوزكريا يحيى أو يوحنا ، خدام المأمون والعتم

والوائق والمتوكل . الفهرست ٤١١ والقفطى ٢٤٨ - ٢٥٦ .

قال : وسألت جعفرًا الخياطَ عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مقدار سوق الخلقان ، فما كان بقدر ما يحيط الرجل دَرَزًا<sup>(١)</sup>  
حتى قتلناهم وتركناهم في أضيق من جربان<sup>(٢)</sup> ، فلو طرحت إبرة ما سقطت  
إلا على رأس رجل .

وعمل أبياتًا في الغزل فكانت :

فتقت بالهجر دُرُوزَ الهوى إذ وخزنتي إبرة الصّدِّ  
فالقلب من ضيق سراويله يعثر في بايكة الجهد<sup>(٣)</sup>  
جشمتني يا طيلسان النوى منك على شوزكتي وجدى<sup>(٤)</sup>  
أزرار عيني فيك موصولة بعروة الدمع على خدى  
يا كستبان القلب يا زيقه عذّبتني التذكّار بالوعد<sup>(٥)</sup>  
قد قص ما يعهد من وصله مقراض بين مرهف الحد<sup>(٦)</sup>

(١) الدرز : موضع الخياطة ، كما في شفاء الغليل ، ويقال للقمل والصئبان :  
بنات دروز ، ومنه أخذ الدرزي الخياط الذي صحفته عامة عصرنا بالترزي .

(٢) جربان القميص : جيبه ، يقال بضم الجيم والراء وبكسرهما ، وهو بالفارسية  
« كريان » .

(٣) في جمع الجواهر : « يعثر بي في تسكة الجهد » .

(٤) في جمع الجواهر : « على سوء شقا جدى » ، وفيه أيضاً « حسدتنى » بدل :  
« جشمتنى » .

(٥) في جمع الجواهر : « يادستبان القلب » ، كما أن سائر البيت فيه محرف .

(٦) في جمع الجواهر : « ما أعرف من وصلة » .

يَا حُجْزَةَ النَّفْسِ وَيَا ذَيْلَهَا مَالِي مِنْ وَصْلِكَ مِنْ بُدٍّ<sup>(١)</sup>  
 وَيَا جَرَبَانَ سُرُورِي وَيَا جَيْبَ حَيَاتِي حُلْتُ عَنْ عَهْدِي<sup>(٢)</sup>  
 قال : وسألت إسحاق بن إبراهيم عن مثل ذلك - وكان زراعاً<sup>(٣)</sup> -  
 فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ جَرَبِينَ مِنَ الْأَرْضِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَسْقَى الرَّجُلَ  
 مَسَارَةً<sup>(٤)</sup> حَتَّى قَتَلْنَاهُمْ ، فَتَرَكْنَاهُمْ فِي أَضْيَقٍ مِنْ بَابٍ ، وَكَأَنَّهُمْ أَنْيَابُ سُنْبُلٍ<sup>(٥)</sup> ،  
 فَلَوْ طُرِحَ قَدَّانُ<sup>(٦)</sup> مَاسْقَطٍ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ رَجُلٍ<sup>(٧)</sup> .

وعمل أبياتاً في الغزل فكأنت :

زَرَعْتُ هَوَاهُ فِي كِرَابٍ مِنَ الصَّفَا وَأَسْقَيْتُهُ مَاءَ الدَّوَامِ عَلَى الْعَهْدِ<sup>(٨)</sup>

(١) الحجة ، بالضم : معقد السراويل والإزار وفي الأصل والطرز المطبوع .  
 « يا حجة النفس » ، وفي المخطوط : « يا حيرة النفس يا ويلها » ، صوابه من جمع  
 الجواهر .

(٢) سبق تفسير الجربان في ص ٣٨٤ . وفي جمع الجواهر : « جيب غرامي » .

(٣) في جمع الجواهر : « زارعا » .

(٤) المسارة ، بفتح الميم : الدبرة ، وهي البقعة من الأرض تزرع . وفي طراز  
 المجالس : « من سانية » .

(٥) الأنابير ، سبق تفسيرها في ص ٣٨١

(٦) القدان : الذي يجمع أداة الثورين في القران للحرث ، والآلة التي  
 يحرق بها .

(٧) في طراز المجالس : « على ظهر ثور » ، تحريف . وفي جمع الجواهر :

« إلا على رأس رجل » وبعده في جمع الجواهر : « فصاروا مثل أكوام التبن » .

(٨) في جمع الجواهر : « في جريب مثلث » .

وَسَرَجَنَتْهُ بِالْوَصْلِ لَمْ آلُ جَاهِدًا لِيُحْرَزَهُ السَّرَجِينُ مِنْ آفَةِ الصَّدِّ (١)  
 فَلَمَّا تَعَالَى النَّبْتُ وَاخْضَرَ يَانَعًا جَرَى يَرْقَانُ الْبَيْنَ فِي سُنْبُلِ الْوَدِّ (٢)  
 قَالَ : وَسَأَلْتُ فَرَجًا الرُّخَجِيَّ (٣) عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ — وَكَانَ خَبَارًا —  
 فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ بَيْتِ التَّنُّورِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَخْبِزُ الرَّجُلُ خَمْسَةَ  
 أَرْغِفَةٍ حَتَّى تَرْكَنَاهُمْ فِي أَضِيقٍ مِنْ حَجَرٍ تَنْنُورُ ، فَلَوْ سَقَطَتْ جَمْرَةٌ مَا وَقَعَتْ  
 إِلَّا فِي جَفْنَةِ خَبَّازٍ (٤) .

وَعَمِلَ أَيْبَاتًا فِي الْغَزْلِ فَكَانَتْ :

قَدْ عَجَنَ الْمَجْرُ دَقِيقَ الْهَوَى فِي جَفْنَةٍ مِنْ خَشَبِ الصَّدِّ  
 وَاخْتَمَرَ الْبَيْنُ فَنَارُ الْهَوَى تَذَكَّى بِسَرْجِينٍ مِنَ الْبُعْدِ (٥)  
 وَأَقْبَلَ الْمَجْرُ بِمَحْرَاكِهِ يَفْحَصُ عَنْ أَرْغِفَةِ الْوَجْدِ (٦)

(١) السرجين : السباد تدمل به الأرض ، معرب .

(٢) اليرقان : دود يكون في الزرع ثم ينسلخ فيصير فراشاً . وفي جمع  
 الجواهر : « وأفرك حب الحب في سنبل الود » . وبعده بيتان ، وهما :

أَنَّهُ أَكْفَ الْمَجْرُ فِيهَا مَنَاجِلَ فَأَسْرَعَنَ فِيهِ حِينَ أُدْرِكَ بِالْحَصْدِ  
 فَيَاشُؤُمُ مَالِي إِذْ يَعْطَلُ لِلشَّقَا وَيَاوِيحُ ثَوْرِي صَارَ مَعْلَفُهُ كَبْدِي  
 (٣) نسبة إلى رخج ، كسكر ، وهي كورة ومدينة من نواحي كابل .

(٤) في جمع الجواهر : « فلو طرحت جردقاً لما وقع إلا في خوان الخبز على  
 كثرة القتلى » .

(٥) السرجين ، سبق تفسيره . وفي جمع الجواهر : « تزجي بشوك المجر  
 من بعدى » .

(٦) المحراك . أداة تحرك بها النار . وفي جمع الجواهر : « وأقبل الصد  
 بهجرانه » .



جَرَادِقُ الموعِدِ مَسْمُومَةٌ مَثْرُودَةٌ فِي قَصَّةِ الجَهْدِ<sup>(١)</sup>  
قال : وسألت عبد الله بن عبد الصمد بن أبي دَاوُدَ عن مثل ذلك  
— وكان مؤدِّبًا — فقال :

لقيناهم في مقدار صَحْنِ الكُتَّابِ<sup>(٢)</sup> ، فما كان بقدر ما يقرأ الصبيُّ  
إمامه<sup>(٣)</sup> حتى أُلْجَأْنَاهُمْ إِلَى أَضْيِقِ مِنْ رَقْمٍ<sup>(٤)</sup> فقتلناهم ، فلو سقطت دواةٌ  
ما وقعت إلَّا في حِجْرِ صَبِيٍّ .

وعمل أبياتًا في الغزل فكانت :

قد أَمَاتَ المَهِجْرَانُ صَبِيَّانَ قَلْبِي      فقَوَّادِي مَعَذَّبَ فِي خَبَالٍ<sup>(٥)</sup>  
كَبَّرَ البَيْنُ لَوْحَ كِبْدِي فَمَا أَط      مَعَ مَنْ هَوَيْتُهُ فِي وَصَالٍ<sup>(٦)</sup>  
رَفَعَ الرِّقْمَ مِنْ حَيَاتِي وَقَدْ أَط      لَمَقَ مَوْلَايَ حَبْلَهُ مِنْ حَبَالِي  
مَشَقَ الحُبِّ فِي فَوَّادِي لَوْحِي      نِ فَأَغْرَى جَوَانِحِي بِالسَّلَالِ<sup>(٧)</sup>

ظ ١٣٤

(١) الجرادق : جمع جردق ، وهو الرغيف ، فارسي معرب . وفي جمع  
الجواهر : « جرادقا للوعد مسمومة » .

(٢) الصحن : الساحة وسط الدار . والكتاب : موضع تعليم الصبيان ، وأصل  
الكتاب هؤلاء الذين يتعلمون الكتابة ، ثم أطلق الاسم مجازا على الموضع الذي  
يتعلمون فيه . وفي اللسان : « والكتاب موضع تعليم الكتاب » وفي جمع  
الجواهر : « في مقدار كتف » .

(٣) إمام الصبي : ما يتعلمه كل يوم ، يقدر له على مقدار يومه

(٤) في جمع الجواهر : « من قم الرقم » . والرقم ، بسكون القاف : الرمز  
الكتابي المستعمل للتعبير عن أحد الأعداد ؛ وفتح القاف خطأ شائع .

(٥) جمع الجواهر : « موله ذو خيال »

(٦) في جمع الجواهر : « لوح وصلى » .

(٧) اللشق : سرعة الكتابة ، ومد الحروف في الكتابة والسلا : السلا .

لاقَ قلبي بنائه فمداد الـ عَيْن من هجر مالِكِي في انهمال<sup>(١)</sup>  
 كرسفُ البين سوّد الوجه من وصـ على فقلبي بالبين في إشعال<sup>(٢)</sup>  
 قال : وسألت عليّ بن الجهم بن يزيد<sup>(٣)</sup> — وكان صاحبَ حمام —  
 عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مثل بيت الأنبار<sup>(٤)</sup> ، فما كان إلّا بقدر ما يغسل الرجل  
 رأسه حتى تركناهم في أضيق من باب الأتون ، فلو طرحت ليفة ما وقعت  
 إلّا على رأس رجل .

وعمل أحياناً في الغزل فكانت :

يا نورة المجر حَلَقَتِ الصِّفا لما بدت لي ليفة الصّد<sup>(٥)</sup>  
 يا مئزر الأسقام حتى متى تنقّع في حوض من الجهد  
 أوقد أتون الوصل لي مرّة منك بزنبيل من الود<sup>(٦)</sup>

(١) أصله من لاق الدواة : أصلح مدادها . وفي طراز المجالس : « لاق قلبي مداده » ، وفي جمع الجواهر : « لاق كبدي دواته » .

(٢) الكرسف : القطن ، وكانوا يجعلونه هو أو الصوف في الدواة .

(٣) في جمع الجواهر : « وسألت الجهم بن بدر » .

(٤) لعله يعنى البيت الذى تحفظ فيه الثياب . وفي اللسان : « والأنبار : بيت التاجر الذى ينضد فيه متاعه » . وبعده في جمع الجواهر : « فقائلناهم بمقدار ما تحلق النورة ، ثم ألجأناهم إلى أضيق من الأذن ، فهزمناهم بقدر ما يغسل الرجل وجهه ، فلو طرحت ليفة . . . » .

(٥) جمع الجواهر : « بما بدا من ليفة » .

(٦) الأتون : الموقد ، وهو بتشديد التاء ، وتخفيفها من لغة العامة . والزنبيل بكسر الزاى كقنديل ، وقد تفتح ، وهو القفة .

فَالْبَيْنُ مُذْ أُوقِدَ حَمَاهُ قَدْ هَاجَ قَلْبِي مَسْلُخُ الْوَجْدِ<sup>(١)</sup>  
 أَفْسَدَ خِطْمِي الصِّفَا وَالْهُوَى نُحَالَةَ النَّاقِصِ لِلْعَهْدِ<sup>(٢)</sup>  
 قَالَ : وَسَأَلْتُ الْحَسْنَ بْنَ أَبِي قَاشَةَ<sup>(٣)</sup> عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ — وَكَانَ  
 كَنَاسًا — فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ سَطْحِ الْإِيوَانِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَكْنُسُ الرَّجُلُ  
 زَبِيلًا<sup>(٤)</sup> حَتَّى تَرَكَنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ جُحْرِ الْمَخْرَجِ ، ثُمَّ قَتَلْنَاهُمْ بِقَدْرِ  
 مَا يَشَارِطُ الرَّجُلُ عَلَى كَنْسِ كَنْيْفٍ ، فَلَوْرَمِيتَ بَابِنَةَ وَرْدَانَةَ<sup>(٥)</sup> مَا سَقَطَتْ  
 إِلَّا عَلَى فَمٍ بِالْوَعَةِ<sup>(٦)</sup> .

وَعَمِلَ أَيْبَاتًا فَكَانَتْ :

أَصْبَحَ قَلْبِي بَرَبْخَاً لِلْهُوَى تَسْلَحُ فِيهِ فَقْحَةُ الْهَجْرِ<sup>(٧)</sup>  
 بَنَاتُ وَرْدَانَ الْهُوَى لِلْبَلَى أَصْبَرُ مِنْ ذَا الْوَجْدِ فِي صَدْرِي<sup>(٨)</sup>

(١) فِي جَمْعِ الْجَوَاهِرِ : « هِجَجَ قَلْبِي مَسْلُخَ الْوَجْدِ » .

(٢) جَمْعُ الْجَوَاهِرِ : « بِحَالِهِ النَّاقِصِ » .

(٣) جَمْعُ الْجَوَاهِرِ : « الْحَسَنُ بْنُ أَبِي قَاشٍ » .

(٤) الزَّبِيلُ : الزَّنْبِيلُ ، وَهُوَ الْقَفَّةُ . وَفِي جَمْعِ الْجَوَاهِرِ : « زَنْبِيلًا » .

(٥) بَنَاتُ وَرْدَانَ ، هِيَ الْمَعْرُوفَةُ فِي مِصْرَ بِالْحَنْفَسِ . مَعْجَمُ الْمَعْلُوفِ ٣٦ . وَانْظُرِ  
 الْحَيَوَانَ ٢ : ١٥٣ وَ ٣ : ١٣ ، ٣٧١ وَ ٤ : ٣٩ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ . وَابْنَةُ وَرْدَانَةَ ،  
 لَعَلَّهَا مِنْ لُغَةِ الْعَامَةِ فِي عَصْرِهِ .

(٦) فِي جَمْعِ الْجَوَاهِرِ : « إِلَّا عَلَى ظَهْرِ قَتِيلٍ » .

(٧) الْبَرْبَخُ : مَجْرَى الْبَوْلِ . يَسْلَحُ ، مِنْ السَّلَاحِ بِالضَّمِّ ، وَهُوَ النِّجْوُ . وَفِي جَمْعِ  
 الْجَوَاهِرِ : « لِلْهُوَى مَخْرَجًا » .

(٨) الْبَيْتُ سَاقِطٌ مِنْ جَمْعِ الْجَوَاهِرِ .

خَنَافُسُ الْهَجْرَانِ أَتُكَلِّنِي يَوْمَ تَوَلَّى مُعْرِضًا صَبْرِي<sup>(١)</sup>  
أَسْقَمُ دِيدَانُ الْهَوَى مُهْجَتِي إِذْ سَلَحَ الْبَيْنُ عَلَى عُمرِي  
قال : وسألت أحمدَ الشَّرابيَّ عن مثل ذلك فقال :

و ١٣٥

لقيناهم في مقدار حِجْنِ بَيْتِ الشَّرَابِ ، فما كان بقدر ما يَصْنُفِي الرَّجُلُ  
دَنَا<sup>(٢)</sup> حَتَّى تَرْكَنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ رِطْلِيَّةٍ<sup>(٣)</sup> فَقَتَلْنَاهُمْ ، فَلَوْ رَمَيْتُ تَفَاحَةً  
مَا وَقَعَتْ إِلَّا عَلَى أَنْفِ سَكْرَانٍ .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

شَرِبْتُ بِكَأْسٍ لِلْهَوَى نَبْذَةً مَعًا وَرَقَرْتُ خَمْرَ الْوَصْلِ فِي قَدَحِ الْهَجْرِ<sup>(٤)</sup>  
فَمَالَتِ دِنَانُ الْبَيْنِ يَدْفَعُهَا الصَّبَا فَكَسَّرْنَ قَرَابَاتِ حُزْنِي عَلَى صَدْرِي<sup>(٥)</sup>  
وَكَانَ مِزَاجُ السَّكَّاسِ غُلَّةَ لَوْعَةٍ وَدُورِقَ هَجْرَانٍ وَقَنِينَتِي غَدِيرٍ  
قال : وسألت عبد الله بن طاهر<sup>(٦)</sup> عن مثل ذلك — وكان طَبَاخًا —  
فقال :

لقيناهم في مقدار صَحْنِ الْمَطْبِخِ ، فما كان بقدر ما يَشْوِي الرَّجُلَ حَمَلًا حَتَّى

(١) جمع الجواهر : « نومي فولي معرُشاً » .

(٢) جمع الجواهر : « بمقدار ما ييزل الرجل دنا » .

(٣) الرطلية ، بفتح الراء وكسرهما : نسبة إلى الرطل ، والمراد وعاء أو كأس

يسع رطلا من الشراب . وانظر الحيوان ٣ : ٢٣٦ . وبعده في جمع الجواهر :

« ثم سألت دماؤهم كالدردى ، فلو طرحت كأساً لما وقع إلا في كف رجل » .

(٤) جمع الجواهر : « بكأس اللّهُو من راحة الهوى » .

(٥) القرباب : ضرب من الأواني ، كما هو ظاهر ؛ ولم أجده في المعاجم .

(٦) جمع الجواهر : « عبد الله الطاهري » .

تركناهم في أضيق من موقد نار ، فقتلناهم فلو سقطت مِغْرِفَةٌ ما وقعت إلا في قدر<sup>(١)</sup> .

وعمل أبياتاً في الغزل فكانت :

يا شبيهة الفالوذ في حُجرة الخدِّ ولوزينج النفوس الظَّاء  
أنت جوزينجُ القلوب وفي اللَّبِّ نِ كلينِ الخبيصة البيضاء<sup>(٢)</sup>  
عُدْتُ مُسْتَهْزَأً بِسِكْباجٍ وَدَّرَ بعد جُودَابَةٍ بِجَنْبِ شِوَاءِ<sup>(٣)</sup>  
يا نسيمَ القدور في يومِ عُرْسٍ وشيهاً بِشُهدَةٍ صفراءَ<sup>(٤)</sup>  
أنت أشهى إلى القلوب من الزُّبِّ دِ مع التَّرسيان بعد القَدَاءِ<sup>(٥)</sup>  
أطعمَ الحاسدون ألوانَ غَمٍّ في قِصاعِ الأحزانِ والأدواءِ<sup>(٦)</sup>

(١) جمع الجواهر : « لقيناكم في مقدار مطبخ أمير المؤمنين ، فما كان إلا بمقدار ما يشوى الرجل حملاً أو جدياً ، أو يفرغ من طبخ ثلاثة ألوان أو يعقد فالوذجة ، حتى تركناهم في أضيق من أنافي القدر ، فلو طرحت ملعقة لما وقعت إلا على بطن قتيل » .

(٢) في جمع الجواهر : « الصفراء » .

(٣) السكباج : لحم يعالج بالخل والتوابل ، ويضاف إليه أحياناً الزعفران والسذاب . محاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ وكتاب الطيخ للبغدادى ٩ . والجوذاب ، بالضم : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم . وانظر باقى صفته في كتاب الطيخ ٧٠ - ٧٢ .

(٤) جمع الجواهر : « ياقتار القدور » و « بشهادة يضاء » .

(٥) الترسيان : ضرب من أجود التمر . وفي اللسان : « وأهل العراق يضربون الزبد بالترسيان مثلاً لما يستطاب » .

(٦) في جمع الجواهر : « والضراء » .

قد غلا القلبُ مذناًتُ عنك دارى غليانَ القدور عند الصَّلاء<sup>(١)</sup>  
 هام قلبي لَمَّا كَسَرَنَ غَضَارَا تِ سرورى مغارفَ الشَّحناءِ<sup>(٢)</sup>  
 فتفضَّلْ على العميدِ بيومٍ جُدْ بوصلي يُكَبِّتْ به أعدائى<sup>(٣)</sup>  
 وتفضَّلْ على الكئيبِ بَبَزْما وَرْدِ وَصلي يَشْفِي من الأدواءِ<sup>(٤)</sup>  
 قال : وسألتُ — أطال الله بقاءك — محمد بن داود الطوسى عن مثل  
 ذلك — وكان فرأشاً — فقال :

١٣٤ ظ

لقيناهم فى مقدار صَحْنِ بساط<sup>(٥)</sup> ، فما كان إلا بقدر ما يفرش الرجل  
 بيتاً<sup>(٦)</sup> حتَّى تركناهم فى أَضيق من مِنَصَّة فقتلناهم ، فلو سقطتِ مَحْدَّة ما وقعتُ  
 إلَّا على رأس رجل .

ثم عمل أحياناً فى الغزل فكانت :

كسَحَ المجرُ ساحةَ الوصلِ لَمَّا غَبَرَ البينُ فى وجوه الصَّفَاءِ<sup>(٧)</sup>  
 وجَرى البينُ فى مرافقِ ريشٍ هى مذكورةٌ ليومِ اللقاءِ<sup>(٨)</sup>

(١) فى الأصل وطراز المجالس : « السلاء » ، صوابه فى جمع الجواهر .

(٢) الغضارات : الصحاف المتخذة من الغضار ، وهو الطين الحر .

(٣) العميد والمعمود : الذى عمده الحب ، أى أوجعه وأضناه .

(٤) البزماورد : ضرب من الحبز يحنى بشواء مدقوق مضاف إليه الحل والأفاويه .  
 وانظر بقية صفته فى كتاب الطبخ ٥٩ .

(٥) جمع الجواهر : « فى مثل زبيع الفسطاط » .

(٦) بعده فى جمع الجواهر : « أو بيتين » .

(٧) الكسح : الكنس . وفى الأصل والطراز : « كسر » تحريف وفى

جمع الجواهر : « كنس » ، وهى بمعنى كسح .

(٨) المرافق : جمع مرفقة ، وهى المائدة .

فرشَ الحجر في بيوتِ همومٍ      تحت رأسي وسادةَ البرحاء<sup>(١)</sup>  
 حينَ هيأت بيتَ خيشٍ من الوص      لي لأبوابه ستور البهاء<sup>(٢)</sup>  
 فرشَ البحرُ لي بيوتَ مُسوح      مُتَّكأها مطارح الحصباء<sup>(٣)</sup>  
 رِقَّ للصَّبِّ من براغيثٍ وجدٍ      تعترى جلده صباح مساء<sup>(٤)</sup>  
 قال : فضحك المعتصم حتى استلقى ، ثم دعا مؤدِّب ولده فأمره أن يأخذهم  
 بتعليم جميع العلوم .

تم كتاب الجاحظ والله المنة ، ويده الحول والقوة ، والله سبحانه الموفق للصواب .  
 والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .  
 بعده زيادات ليست للجاحظ<sup>(٥)</sup>

- (١) في الأصل ومخطوط الطراز : « لي بيوت » ، صوابه في مطبوع طراز  
 المجالس . والبرحاء : الشدة ، والمشقة . وفي جمع الجواهر :  
 فلقد بث في فراش همومي      تحت خدي وسائداً لضائتي
- (٢) الخيش : ثياب رقاق النسج غلاظ الخيوط تتخذ من مشافة الكتان .  
 (٣) النشكأ : ما يتوكأ عليه لـطعام أو شراب أو حديث . وفي الأصل وطراز  
 المجالس : « متكأتها من الحصباء » ، صوابه في جمع الجواهر . والمطارح : جمع  
 مطرح ، بالكسر ، وهو المفرش ، كما في المعجم الوسيط .
- (٤) في جمع الجواهر : « من بواعث وجد قد تخالسنه » . وبعد هذا البيت في  
 جمع الجواهر بدلا من الكلام التالي هنا : « يأمر المؤمنين ، إنما ينطق اللسان بما  
 يتصور الجنان ، ويظهر في الكلام ما يخضر على الأوهام ، فمن لم يعرف إلا شيئاً  
 واحداً لم يتكلم عليه ، ومن كثر علمه كثر خواطره ، واتسعت مذاهبه ، ورب  
 هزل أنفع من جد إذا أصيب به موضع الحاجة ، ووضع بحيث تقع هم النفوس  
 عليه . والسلام » . ثم قال الحصري معقباً على هذه الرسالة :
- « والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديراً على الشعر  
 سراً قاله » .
- (٥) وهي في مقدار ثلاث ورقات من الأصل ، على لسان أهل الصناعات .

## فهرس الكتب والرسائل

---

ص	
١	مناقب الترك
٨٧	المعاش والمعاد
١٣٥	كتمان السر وحفظ اللسان
١٧٣	نحر السودان على البيضان
٢٢٧	في الجد والهزل
٢٧٩	في نفى التشبيه
٣٠٩	كتاب الفتيا
٣٢١	إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب
٣٣٢	فصل ما بين العداوة والحسد
٣٧٥	في صناعات القواد

---





دار الجيد للطباعة  
جمهورية مصر العربية

٤٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة  
تليفون : ٩٠٥٢٩٦